البداية والنهاية

الإمام الحافظ

المفسر المحدث الفقيه المؤرخ عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الشافعي

الشهير بابن كثير

(701 - 774) هـ

طبعة مضبوطة، موزعة الفقرات، مخرجة الأحاديث والنصوص، مصنوعة وملحقة بأشياء لم تذكر في السابق مقابلة على عدة من النسخ المطبوعة، فهرسة الآيات والأحاديث والتراجم والموضوعات

اعتنى به

حسان عبد المنان

بيت الأفكار الدولية

وصدّقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره.

فلما قاموا من عنده اعترضهم أبوجهل في نفر من قريش فقالوا: خيبكم الله من ركب بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم فتأتونهم بخبر الرجل، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال لكم، ما نعلم ركباً أحمق منكم - أو كما قالوا - قالوا لهم: لا نجاهلكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا نألو أنفسنا خيراً.

فيقال: إن النفر من نصارى نجران - والله أعلم -: إن فيهم نزلت هؤلاء الآيات: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ. وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ. أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ. وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٢ - ٥٥].

٥٠- كتابُ النبيِّ ﷺ إلى النجاشيِّ

قال البيهقي في «الدلائل» [٣٠٨/٢]: باب ما جاء في كتاب النبي ﷺ إلى النجاشي.

ثم روى عن الحاكم عن الأصم عن أحمد بن عبد الجبار عن يونس عن ابن إسحاق. قال هذا كتاب من النبي ﷺ إلى النجاشي: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتابٌ من محمد رسول الله ﷺ إلى النجاشي الأصحَم عظيم الحبشة، سلامٌ على مَن اتّبع الهُدى، وآمَن بالله ورسوله وشهدَ أنْ لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريك له. لم يتّخذ صاحبةً ولا ولداً، وأن محمداً عبدُهُ ورسولُهُ؛ وادعوك بدعايةِ اللهِ فإنّي أنا رسولُهُ فاسْلِم تَسْلَمْ ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤] فإن أبيت فعليك إثم النصارى من قومك».

هكذا ذكره البيهقي بعد قصة هجرة الحبشة.

وفي ذكره ههنا نظر، فإن الظاهر أن هذا الكتاب إنما هو إلى النجاشي الذي كان بعد المسلم صاحب جعفر وأصحابه، وذلك حين كتب إلى ملوك الأرض يدعوهم إلى الله عزّ وجلّ قبيل الفتح كما كتب إلى هرقل عظيم الروم قيصر الشام، وإلى كسرى ملك الفرس، وإلى صاحب مصر، وإلى النجاشي.

قال الزهري: كانت كتب النبي ﷺ إليهم واحدة؛ يعني نسخة واحدة، وكلها فيها هذه الآية وهي من سورة «آل عمران»، وهي مدنية بلا خلاف فإنه من صدر السورة، وقد نزل ثلاث وثمانون آية من أولها في وفد نجران كما قررنا ذلك في التفسير ولله الحمد والمنة.

فهذا الكتاب إلى الثاني لا إلى الأول، وقوله فيه: «إلى النجاشي الأصحم» لعل الأصحم مقحم من الراوي بحسب ما فهم والله أعلم.

وأنسب من هذا ههنا ما ذكره البيهقي أيضاً [في الدلائل: ٣٠٩/٢، ٣١٠] عن الحاكم عن أبي الحسن محمّد بن عبد الله الفقيه - بمرو -: حدّثنا حماد بن أحمد حدّثنا محمّد بن حميد حدّثنا سلمة بن الفضل عن محمّد بن إسحاق. قال: بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي في شأن جعفر بن أبي طالب وأصحابه وكتب معه كتاباً: «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحم ملك الحبشة، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الملك القدوس المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى فخلقه من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه.

وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته وأن تتبعني فتؤمن بي وبالذي جاءني فإني رسول الله وقد بعثت إليك ابن عمي جعفر ومعه نفر من المسلمين، فإذا جاؤوك فأقرهم ودع التجبر فإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل، وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتي، والسلام على من اتبع الهدى».

فكتب النجاشي إلى رسول الله ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم، إلى محمد رسول الله من النجاشي الأصحم بن أبجر: سلام عليك يا نبي الله من الله ورحمة الله وبركاته لا إله إلا هو الذي هداني إلى الإسلام فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى، فورب السماء والأرض إن عيسى ما يزيد على ما ذكرت، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا وقد قرينا ابن عمك وأصحابه فأشهد أنك رسول الله صادقاً مصدقاً وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت على يديه لله رب العالمين، وقد بعثت إليك يا نبي الله بأريحا بن الأصحم بن أبجر فإني لا أملك إلا نفسي وإن شئت أن آتيك فعلت يا رسول الله، فإني أشهد أن ما تقول حق.

٥١- مقاطعةُ قبائل قريش للنبيِّ ﷺ ومناصريه

في ذكر مخالفة قبائل قريش بني هاشم وبني عبد المطلب في نصر رسول الله ﷺ وتخالفهم فيما بينهم عليهم، على أن لا يبايعوهم ولا يناكحوهم حتى يسلموا إليهم رسول الله ﷺ، وحصرهم إياهم في شعب أبي طالب مدة طويلة، وكتابتهم بذلك صحيفة ظالمة فاجرة، وما ظهر في ذلك كله من آيات النبوة ودلائل الصدق

قال موسى بن عقبة [من طريقه أخرجه البيهقي في دلائل النبوة: ٣١١/٢ - ٣١٤] عن الزهري: ثم إن المشركين اشتدوا على المسلمين كاشد ما كانوا حتى بلغ المسلمين الجهد، واشتد عليهم البلاء، واجتمعت قريش في مكرها أن يقتلوا رسول الله ﷺ علانية. فلما رأى أبو طالب عمل القوم جمع بني عبد المطلب وأمرهم أن يدخلوا رسول الله ﷺ شعبهم، وأمرهم أن يمنعوه ممن أرادوا قتله. فاجتمع على ذلك مسلمهم وكافرهم، فمنهم من فعله حمية، ومنهم من فعله إيماناً ويقيناً.

فلما عرفت قريش أن القوم قد منعوا رسول الله ﷺ، وأجمعوا على ذلك اجتمع المشركون من قريش فأجمعوا أمرهم أن لا يجالسوهم ولا يبايعوهم ولا يدخلوا بيوتهم حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل، وكتبوا في مكرهم صحيفة وعهوداً ومواثيق لا يقبلوا من بني هاشم أبداً صلحاً ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموه للقتل.

فلبث بنو هاشم في شعبهم ثلاث سنين، واشتد عليهم البلاء والجهد وقطعوا عنهم الأسواق فلا يتركوا لهم طعاماً يقدم مكة ولا بيعاً إلا بادروهم إليه فاشتروه يريدون بذلك أن يدركوا سفك دم رسول الله ﷺ، وكان أبو طالب إذا أخذ الناس مضاجعهم أمر رسول الله ﷺ فاضطجع على فراشه حتى يرى ذلك من أراد به مكراً واغتيالاً له، فإذا نوّم الناس أمر أحد بنيه أو إخوته أو بني عمّه فاضطجع على فراش رسول الله ﷺ وأمر رسول الله ﷺ أن يأتي بعض فرشهم فينام عليه.

فلما كان رأس ثلاث سنين تلاوم رجال من بني عبد مناف ومن قصي ورجال من سواهم من قريش قد ولدتهم نساء من بني هاشم، ورأوا أنهم

قد قطعوا الرحم واستخفوا بالحق، واجتمع أمرهم من ليلتهم على نقض ما تعاهدوا عليه من الغدر والبراءة منه، وبعث الله على صحيفتهم الأرضة فلحست كل ما كان فيها من عهد وميثاق. ويقال: كانت معلّقة في سقف البيت فلم تترك اسماً لله فيها إلا لحسته، وبقي ما كان فيها من شرك وظلم وقطيعة رحم، وأطلع الله عزّ وجلّ رسوله على الذي صنع بصحيفتهم فذكر ذلك رسول الله ﷺ لأبي طالب. فقال أبو طالب: لا والثواقب ما كذبني.

فانطلق يمشي بعصابته من بني عبد المطلب حتى أتى المسجد وهو حافل من قريش، فلما رأوهم عامدين لجماعتهم أنكروا ذلك وظنوا أنهم خرجوا من شدة البلاء فأتوهم ليعطوهم رسول الله ﷺ. فتكلم أبو طالب فقال: قد حدثت أمور بينكم لم نذكرها لكم، فأتوا بصحيفتكم التي تعاهدتم عليها فلعله أن يكون بيننا وبينكم صلح، وإنما قال ذلك خشية أن ينظروا في الصحيفة قبل أن يأتوا بها. فأتوا بصحيفتهم معجبين بها لا يشكون أن رسول الله ﷺ مدفوع إليهم فوضعوها بينهم. وقالوا: قد آن لكم أن تقبلوا وترجعوا إلى أمر يجمع قومكم فإنما قطع بيننا وبينكم رجل واحد جعلتموه خطراً لهلكة قومكم وعشيرتكم وفسادهم.

فقال أبو طالب: إنما أتيتكم لأعطيكم أمراً لكم فيه نَصَف، إن ابن أخي قد أخبرني - ولم يكذبني - أن الله برئ من هذه الصحيفة التي في أيديكم ومحا كل اسم هو له فيها وترك فيها غدركم وقطيعتكم إيانا وتظاهركم علينا بالظلم. فإن كان الحديث الذي قال ابن أخي كما قال فأفيقوا فوالله لا نسلّمه أبداً حتى يموت من عندنا آخرنا، وإن كان الذي قال باطلاً دفعناه إليكم فقتلتموه أو استحييتم. قالوا: قد رضينا بالذي تقول ففتحوا الصحيفة فوجدوا الصادق المصدوق ﷺ قد أخبر خبرها.

فلما رأتها قريش كالذي قال أبو طالب قالوا: والله إن كان هذا قط إلا سحر من صاحبكم فارتكسوا وعادوا بشر ما كانوا عليه من كفرهم، والشدة على رسول الله ﷺ وعلى رهطه والقيام بما تعاهدوا عليه.

فقال أولئك النفر من بني عبد المطلب: إن أولى بالكذب والسحر غيرنا فكيف ترون فإنا نعلم أن الذي اجتمعتم عليه من قطيعتنا أقرب إلى الجبت والسحر من أمرنا، ولولا أنكم اجتمعتم على السحر لم تفسد صحيفتكم وهي في أيديكم طمس الله ما كان فيها من اسمه وما كان فيها من بغي تركه أفنحن السحرة أم أنتم؟.

فقال عند ذلك النفر من بني عبد مناف وبني قصي ورجال من قريش ولدتهم نساء من بني هاشم منهم أبو البختري والمطعم بن عدي وزهير بن أبي أمية بن المغيرة وزمعة بن الأسود وهشام بن عمرو وكانت الصحيفة عنده وهو من بني عامر بن لؤي، في رجال من أشرافهم ووجوههم: نحن برآء مما في هذه الصحيفة.

فقال أبو جهل لعنه الله: هذا أمر قضى بليل وأنتما أبو طالب يقول الشعر في شأن صحيفتهم ويمدح النفر الذين تبرؤوا منها ونقضوا ما كان فيها من عهد ويمتدح النجاشي.

قال البيهقي [الدلائل: ٣١٤/٢]: وهكذا روى شيخنا أبو عبد الله الحافظ - يعني من طريق عن ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة بن الزبير - يعني كسياق موسى بن عقبة رحمه الله -.

وقد تقدم عن موسى بن عقبة [عند البيهقي في الدلائل: ٢٨٥/٢] أنه قال: إنما كانت هجرة الحبشة بعد دخولهم إلى الشعب عن أمر رسول الله ﷺ لهم في ذلك فالله أعلم.

قلت: والأشبه أن أبا طالب إنما قال قصيدته اللامية التي قدمنا ذكرها بعد دخولهم الشعب أيضاً فذكرها هنا أنسب والله أعلم.

ثم روى البيهقي [الدلائل: ٣١٤/٢، ٣١٥] من طريق يونس عن محمد بن إسحاق قال: لما مضى رسول الله ﷺ على الذي بعث به وقامت بنو هاشم وبنو المطلب دونه، وأبوا أن يسلموه وهم من خلافه على مثل ما قومهم عليه إلا أنهم أنفوا أن يستذلوا ويسلموا أخاهم لما قارفه من قومه. فلما فعلت ذلك بنو هاشم وبنو المطلب وعرفت قريش أن لا سبيل إلى محمّد، اجتمعوا على أن يكتبوا فيما بينهم على بني هاشم وبني عبد المطلب أن لا يناكحوهم ولا ينكحوا إليهم ولا يبايعوهم ولا يبتاعوا منهم وكتبوا صحيفة في ذلك وعلقوها بالكعبة، ثم عدوا على من أسلم فأوثقوهم وآذوهم واشتد عليهم البلاء وعظمت الفتنة وزلزلوا زلزالاً شديداً ثم ذكر القصة بطولها في دخولهم شعب أبي طالب وما بلغوا فيه من فتنة الجهد الشديد حتى كان يسمع أصوات صبيانهم يتضاغون من وراء الشعب من الجوع حتى كره عامة قريش ما أصابهم وأظهروا كراهيتهم لصحيفتهم الظالمة، وذكر أن الله برحمته أرسل على صحيفة قريش الأرضة فلم تدع فيها اسماً هو لله إلا أكلته وبقي فيها الظلم والقطيعة والبهتان فأخبر الله تعالى بذلك رسول الله ﷺ فأخبر بذلك عمّه أبا طالب، ثم ذكر بقية القصة كرواية موسى بن عقبة وأتم.

وقال ابن هشام [السيرة: ٣٥٠/١]: عن زياد عن محمد بن إسحاق: فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد نزلوا بلداً أصابوا منه أمنا وقراراً، وأن النجاشي قد منع من لجأ إليه منهم، وأن عمر قد أسلم فكان هو وحمزة مع رسول الله ﷺ وأصحابه، وجعل الإسلام يفشو في القبائل فاجتمعوا وأمروا على أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني عبد المطلب على أن لا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم فلما اجتمعوا لذلك كتبوا في صحيفة ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم، وكان كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي.

قال ابن هشام: ويقال: النضر بن الحارث، فدعا عليه رسول الله ﷺ فشل بعض أصابعه.

وقال الواقدي: كان الذي كتب الصحيفة طلحة بن أبي طلحة العبدوي.

قلت: والمشهور أنه منصور بن عكرمة كما ذكره ابن إسحاق، وهو الذي شلّت يده فما كان يتنفع بها وكانت قريش تقول بينها: انظروا إلى منصور بن عكرمة.

قال الواقدي: وكانت الصحيفة معلقة في جوف الكعبة [طبقات ابن سعد: ٢٠٩/١].

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٥١/١]: فلما فعلت ذلك قريش انحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب فدخلوا معه في شعبه واجتمعوا إليه، وخرج من بني هاشم أبو لهب عبد العزى بن عبد المطلب إلى قريش فظاهرهم.

وحدّثني حسين بن عبد الله: أن أبا لهب لقي هند بنت عتبة بن ربيعة حين فارق قومه وظاهر عليهم قريشاً. فقال: يا ابنة عتبة هل نصرت اللات والعزى وفارقت من فارقها وظاهر عليها؟ قالت: نعم! فجزاك الله خيراً يا أبا عتبة.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٥١/١]: وحدثت أنه كان يقول، في بعض ما يقول: يعدني محمّد أشياء لا أراها يزعم أنها كائنة بعد الموت، فماذا وضع في يدي بعد ذلك، ثم ينفخ في يديه فيقول: تبّاً لكما لا أرى فيكما شيئاً مما يقول محمّد. فأنزل الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٥٢/١، ٣٥٣]: فلما اجتمعت على ذلك قريش وصنعوا فيه الذي صنعوا قال أبو طالب:

ألا أبلغا عنّي على ذات بيتنا ... لؤياً وخصّا من لؤيّ بني كعبِ
ألم تعلموا أنّا وجدنا محمّداً ... نبيّاً كموسى خطّ في أوّل الكتبِ
وأنّ عليه في العباد محبّةً ... ولا خير ممّن خصّه الله بالحبِّ
وأنّ الذي الصقتمُ من كتابكم ... لكم كائن نحساً كراغية السُّقبِ
أفيقوا أفيقوا قبل أن يحفر الثّرى ... ويصبح من لم يجن ذنباً كذي الذّنبِ
ولا تتبعوا أمر الوشاة وتقطعوا ... أواصرنا بعد المودّة والقربِ
وتستجلبوا حرباً عواناً ورمّا ... أمرّ على من ذاقه حلب الحربِ
فلسنا وربّ البيت نسلم أحمداً ... لعزّاء من عضّ الزّمان ولا كربِ
ولمّا تبين منّا ومنكم سوالف ... وأيد أثرّت بالقاسيّة الشهبِ
بمعترك ضيق ترى كسر القنا ... به والنّسور الطّخم يعكفن كالشّربِ
كأنّ مجال الخيل في حجراته ... ومعمعة الابطال معركه الحربِ
أليس أبونا هاشم شدّ أزره ... وأوصى بنيه بالطّعان وبالضّربِ
ولسنا نملُّ الحرب حتّى تملّنا ... ولا نشتكي ما قد ينوب من النّكبِ
ولكنّنا أهل الحفائظ والنُّهى ... إذا طار أرواح الكماة من الرُّعبِ

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٥٣/١، ٣٥٤]: فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً حتى جهدوا ولم يصل إليهم شيء إلا سراً مستخفياً به من أراد صلتهم من قريش، وقد كان أبوجهل بن هشام - فيما يذكرون - لقي حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد معه غلام يحمل قمحاً يريد به عمته خديجة بنت خويلد وهي عند رسول الله ﷺ في الشعب فتعلّق به وقال: أتذهب بالطعام إلى بني هاشم؟ والله لا تذهب أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة، فجاءه أبو البختري بن هشام بن الحارث بن أسد. فقال: مالك وله؟ فقال: يحمل الطعام إلى بني هاشم فقال له أبو البختري: طعام كان لعمته عنده بعثت إليه أتمنعه أن يأتيها بطعامها؟ خل سبيل الرجل قال: فأبى أبو جهل لعنه الله حتى نال أحدهما من صاحبه فأخذ له أبو البختري لحي بعير فضربه فشجه ووطئه وطئاً شديداً، وحمزة بن عبد المطلب قريب يري ذلك وهم يكرهون أن يبلغ ذلك رسول الله ﷺ وأصحابه فيشمتوا بهم ورسول الله ﷺ على ذلك يدعو قومه ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً منادياً بأمر الله تعالى لا يتقي فيه أحداً من الناس.

فجعلت قريش - حين منعه الله منها وقام عمّه وقومه من بني هاشم وبني عبد المطلب دونه، وحالوا بينهم وبين ما أرادوا من البطش به - يَهْمِزونه ويستهزؤن به ويخاصمونه، وجعل القرآن ينزل في قريش بأحداثهم، وفيمن نصب لعداوته منهم، من سمّى لنا ومنهم من نزل فيه القرآن في عامة من ذكر الله من الكفار.

فذكر ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٥٦/١] أبا لهب ونزول السورة فيه، وأمية بن خلف ونزول قوله تعالى ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ السورة بكمالها فيه. والعاص بن وائل ونزول قوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً﴾ [مريم: ٧٧] فيه. وقد تقدم شيء من ذلك. وأبا جهل بن هشام وقوله للنبي ﷺ لتركن سب آلهتنا أو لنسبن إلهك ونزول قول الله فيه: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨] الآية. والنضر بن الحارث بن كلدة بن علقمة - ومنهم من يقول: علقمة بن كلدة: قاله السهيلي [الروض الأنف: ٣١٦/٣] - وجلوسه بعد النبي ﷺ في مجالسه حيث يتلو القرآن ويدعو إلى الله، فيتلو عليهم النضر شيئاً من أخبار رستم وأسفنديار وما جرى بينهما من الحروب في زمن الفرس، ثم يقول: والله ما محمد بأحسن حديثاً مني، وما حديثه إلا أساطير الأولين اكتتبها كما اكتتبها، فأنزل الله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الفرقان: ٥] وقوله: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الجاثية ٧].

٥٢- مناقشاتُ النبيّ ﷺ لكبراء قريش

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٥٨/١ - ٣٦٠]: وجلس رسول الله ﷺ - فيما بلغنا - يوماً مع الوليد بن المغيرة في المسجد فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم، وفي المجلس غير واحد من رجال قريش فتكلم رسول الله ﷺ فعرض له النضر، فكلمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه، ثم تلا عليه وعليهم: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ. لَوْ كَانَ هَؤُلاء آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ. لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لا يَسْمَعُونَ﴾[الأنبياء: ٩٨ - ١٠٠].

ثم قام رسول الله ﷺ وأقبل عبد الله بن الزبعرى السهمي حتى جلس. فقال الوليد بن المغيرة له: والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب آنفاً وما قعد، وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم. فقال عبد الله بن الزبعرى: أما والله لو وجدته لخصمته، فسلوا محمداً أكلُّ من نعبد من دون الله حصب جهنم مع من عبده؟ فنحن نعبد الملائكة واليهود تعبد عزيراً والنصارى تعبد عيسى.

فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول ابن الزبعرى ورأوا أنه قد احتج وخاصم فذكر ذلك لرسول الله ﷺ. فقال: «كلُّ من أحبّ أن يُعبدَ من دُونِ اللّهِ فهو معَ من عبدَهُ، إنّهم إنّما يعبُدُون الشّياطين ومن أمرَتْهم بعبادَتِه» فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ. لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١-١٠٢] أي: عيسى وعزير ومن عبد من الأحبار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله تعالى.

ونزل فيما يذكرون أنهم يعبدون الملائكة وأنها بنات الله ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦] والآيات بعدها.

ونزل في إعجاب المشركين بقول ابن الزبعرى ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ. وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٧- ٥٨].

وهذا الجدل الذي سلكوه باطل وهم يعلمون ذلك لأنهم قوم عرب ومن لغتهم أن «ما» لما لا يعقل، فقوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ إنما أريد بذلك ما كانوا يعبدونه من الأحجار التي كانت صور أصنام، ولا يتناول ذلك الملائكة الذين زعموا أنهم يعبدونهم في هذه الصور، ولا المسيح، ولا عزيراً، ولا أحداً من الصالحين لأن اللفظ لا يتناولهم لا لفظاً ولا معنى.

فهم يعلمون أن ما ضربوه بعيسى ابن مريم من المثل جدل باطل كما قال الله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ ثم قال ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي عيسى ﴿إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ أي: بنبوتنا ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي: دليلاً على تمام قدرتنا على ما نشاء حيث خلقناه من أنثى بلا ذكر، وقد خلقنا حواء من ذكر بلا أنثى، وخلقنا آدم لا من هذا ولا من هذا، وخلقنا سائر بني آدم من ذكر وأنثى كما قال في الآية الأخرى ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: أمارة ودليلاً على قدرتنا الباهرة ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ نرحم بها من نشاء.

وذكر ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٦٠/١، ٣٦١] الأخنس بن شريق ونزول قوله تعالى فيه: ﴿وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ﴾[القلم: ١٠] الآيات، وذكر الوليد بن المغيرة حيث قال: أينزل على محمّد وأترك وأنا كبير قريش وسيّدها، ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفي سيد ثقيف؟ فنحن عظماء القريتين. ونزل قوله تعالى فيه ﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَـذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] والتي بعدها.

وذكر [سيرة ابن هشام: ٣٦١/١، ٣٦٢] أُبي بن خلف حين قال لعقبة بن أبي معيط: ألم يبلغني أنك جالست محمّداً وسمعت منه، وجهي من وجهك حرام إلا أن تتفل في وجهه ففعل ذلك عدو الله عقبة لعنه الله، فأنزل الله ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً. يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٨] والتي بعدها.

قال [سيرة ابن هشام: ٣٦١/١، ٣٦٢]: ومشي أبي بن خلف بعظم بال قد أرم. فقال: يا محمد أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعدما أرم؟ ثم فته بيده ثم نفخه في الريح نحو رسول الله ﷺ. فقال: «نَعَم! أنَا أقول ذلك يبعثه الله وإياك بعد ما تكونان هكذا ثم يدخلك النار» وأنزل الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨ - ٧٩] إلى آخر السورة.

قال [سيرة ابن هشام: ٣٦٢/١]: واعترض رسول الله ﷺ - فيما بلغني وهو يطوف عند باب الكعبة - الأسود بن المطلب. والوليد بن المغيرة وأمية بن خلف، والعاص بن وائل. فقالوا: يا محمد هلم فلنعبد ما تعبد وتعبد ما نعبد فنشترك نحن وأنت في الأمر. فأنزل الله فيهم: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ. لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ إلى آخرها.

ولما سمع أبوجهل بشجرة الزقوم. قال: أتدرون ما الزقوم؟ هو تمر يضرب بالزبد ثم قال: هلموا فلنتزقم فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ. طَعَامُ الأَثِيمِ﴾[الدخان: ٤٣ - ٤٤].

قال [سيرة ابن هشام: ٣٦٣/١، ٣٦٤]: ووقف الوليد بن المغيرة فكلم رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ يكلمه وقد طمع في إسلامه فمر به ابن أم مكتوم - عاتكة بنت عبد الله بن عنكثة - الأعمى فكلم رسول الله ﷺ وجعل يستقرئه القرآن، فشق ذلك عليه حتى أضجره وذلك أنه شغله عما كان فيه من أمر الوليد وما طمع فيه من إسلامه، فلما أكثر عليه انصرف عنه عابساً، وتركه فأنزل الله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى. أن جَاءهُ الأَعْمَى﴾ إلى قوله ﴿مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾.

وقد قيل [الروض الأنف: ٣٢٨/٣]: إن الذي كان يحدث رسول الله ﷺ حين جاءه ابن أم مكتوم أمية بن خلف فالله أعلم.

٥٣- سجودُ المشركين لَمّا قرئت سورة النجم

ثم ذكر ابن إسحاق [السيرة: ١٥٧، ١٥٨. وسيرة ابن هشام: ٣٦٤/١ - ٣٦٩] من عاد من مهاجرة الحبشة إلى مكة وذلك حين بلغهم إسلام أهل مكة وكان النقل ليس بصحيح، ولكن كان له سبب، وهو ما ثبت في «الصحيح» [خ (١٠٧١)] وغيره [ت (٥٧٥)] أن رسول الله ﷺ جلس يوماً مع المشركين، وأنزل الله عليه ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى. مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ يقرؤها عليهم حتى ختمها وسجد. فسجد من هناك من المسلمين والمشركين والجن والإنس.

وكان لذلك سبب ذكره كثير من المفسرين [تفسير الطبري: ١٨٦/١٧ - ١٩٠] عند قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[سورة الحج: ٥٢].

وذكروا قصة الغرانيق وقد أحببنا الإضراب عن ذكرها صفحاً لئلا يسمعها من لا يضعها على مواضعها، إلا أن أصل القصة في «الصحيح».

قال البخاري [(٤٨٦٢)]: حدّثنا أبو معمر حدّثنا عبد الوارث حدّثنا أيوب عن عكرمة عن ابن عباس. قال: سجد النبي ﷺ بالنجم، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس.

انفرد به البخاري دون مسلم.

وقال البخاري [(١٠٦٧)]: حدّثنا محمد بن بشار حدّثنا غندر حدّثنا شعبة عن أبي إسحاق سمعت الأسود عن عبد الله. قال: قرأ النبي ﷺ والنجم بمكة، فسجد فيها وسجد من معه غير شيخ أخذ كفاً من حصاً - أو تراب - فرفعه إلى جبهته وقال: يكفيني هذا، فرأيته بعد قتل كافراً. ورواه مسلم [(٥٧٦)] وأبو داود [(١٤٠٦)] والنسائي [(٩٥٨)] من حديث شعبة.

وقال الإمام أحمد [٤٢٠/٣]: حدّثنا إبراهيم حدّثنا رباح عن معمر عن ابن طاووس عن عكرمة بن خالد عن جعفر بن المطلب بن أبي وداعة عن أبيه. قال: قرأ رسول الله ﷺ بمكة سورة «النجم»، فسجد وسجد من عنده، فرفعت رأسي وأبيت أن أسجد ولم يكن أسلم يومئذ المطلب. فكان بعد ذلك لا يسمع أحداً يقرؤها إلا سجد معه.

وقد رواه النسائي [(٩٥٧)] عن عبد الملك بن عبد الحميد عن أحمد بن حنبل به.

وقد يجمع بين هذا والذي قبله بأن هذا سجد ولكنه رفع رأسه استكباراً، وذلك الشيخ الذي استثناه ابن مسعود لم يسجد بالكلية والله أعلم.

والمقصود: أن الناقل لما رأى المشركين قد سجدوا متابعة لرسول الله ﷺ اعتقد أنهم قد أسلموا واصطلحوا معه ولم يبق نزاع بينهم، فطار الخبر بذلك وانتشر حتى بلغ مهاجرة الحبشة بها، فظنوا صحة ذلك فأقبل منهم طائفة طامعين بذلك، وثبتت جماعة وكلاهما محسن مصيب فيما فعل.

٥٤- مَنْ رَجَعَ من الحبشةِ لَمّا طارَ الخبرُ

فذكر ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٦٥/١ - ٣٦٦] أسماء من رجع منهم؛ عثمان بن عفان وامرأته رقية بنت رسول الله ﷺ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وامرأته سهله بنت سهيل، وعبد الله بن جحش بن رئاب،

وعتبة بن غزوان، والزبير بن العوام، ومصعب بن عمير، وسويبط بن سعد، وطُليب بن عمير، وعبد الرحمن بن عوف، والمقداد بن عمرو، وعبد الله بن مسعود، وأبو سلمة بن عبد الأسد، وامرأته أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة، وشماس بن عثمان، وسلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة - وقد حُبسا بمكة حتى مضت بدر وأُحد والخندق - وعمار بن ياسر - وهو ممن شك فيه أخرج إلى الحبشة أم لا - ومعتب بن عوف، وعثمان بن مظعون، وابنه السائب، وأخوان قدامة وعبد الله ابنا مظعون، وخنيس بن حذافة، وهشام بن العاص بن وائل - وقد حبس بمكة إلى بعد الخندق - وعامر بن ربيعة، وامرأته ليلى بنت أبي حثمة. وعبد الله بن مخرمة، وعبد الله بن سهيل بن عمرو - وقد حبس حتى كان يوم بدر فانحاز إلى المسلمين فشهد معهم بدراً - وأبو سبرة بن أبي رهم، وامرأته أم كلثوم بنت سهيل، والسكران بن عمرو بن عبد شمس، وامرأته سودة بنت زمعة - وقد مات بمكة قبل الهجرة وخلف على امرأته رسول الله ﷺ - وسعد بن خولة، وأبو عبيدة بن الجراح، وعمرو بن الحارث بن زهير وسهيل بن بيضاء، وعمرو بن أبي سرح فجميعهم ثلاثة وثلاثون رجلاً رضي الله عنهم.

وقال البخاري: هجرة الحبشة وقالت عائشة: قال رسول الله ﷺ: «أريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين» فهاجر من هاجر قبل المدينة، ورجع عامة من كان هاجر إلى الحبشة إلى المدينة. فيه عن أبي موسى وأسماء رضي الله عنهما عن النبي ﷺ [فتح الباري: ١٨٦/٧، ١٨٧].

وقد تقدم حديث أبي موسى وهو في «الصحيحين» [خ (٣٨٧٦)، م (٢٥٠٢، ٢٥٠٣)]، وسيأتي حديث أسماء بنت عميس بعد فتح خيبر حين قدم من كان تأخر من مهاجرة الحبشة إن شاء الله وبه الثقة.

وقال البخاري [(٣٨٧٥)]: حدّثنا يحيى بن حمّاد، حدّثنا أبو عوانة عن سليمان، عن إبراهيم، عن علقمة عن عبد الله قال: كنا نسلّم على النبي ﷺ وهو يصلي فيرد علينا، فلما رجعنا من عند النجاشي سلّمنا عليه فلم يرد علينا، فقلنا: يا رسول الله إنا كنا نسلم عليك فترد علينا. قال: «إن في الصلاة شغلاً» وقد رواه البخاري [(١١٩٩)] أيضاً ومسلم [(٥٢٣)] وأبو داود [(٩٢٤)] والنسائي [(٥٤٠)] من طرق أخر عن سليمان بن مهران عن الأعمش به.

وهو يقوي تأويل من تأول حديث زيد بن أرقم الثابت في «الصحيحين» [خ (١٢٠٠)، م (٥٣٩)]: كنا نتكلم في الصلاة حتى نزل قوله: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ فأمرنا بالسكوت ونهينا عن الكلام.

على أن المراد جنس الصحابة فإن زيداً أنصاري مدني، وتحريم الكلام في الصلاة ثبت بمكة، فتعين الحمل على ما تقدم. وأما ذكره الآية وهي مدنية فمشكل ولعله اعتقد أنها المحرمة لذلك وإنما كان المحرم له غيرها معها والله اعلم.

٥٥- دخولُ بعض الصحابة في جوار عثمان بن مظعون وغيره

قال ابن إسحاق [السيرة: ١٥٨ - ١٥٩ وسيرة ابن هشام: ٣٦٩/١ - ٣٧١]: وكان ممن دخل معهم بجوار عثمان بن مظعون في جوار الوليد بن المغيرة، وأبو سلمة بن عبد الأسد في جوار خاله أبي طالب فإن أمه برة بنت عبد المطلب.

فأما عثمان بن مظعون فإن صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف حدثني عمن حدثه عن عثمان. قال: لما رأى عثمان بن مظعون ما فيه أصحاب رسول الله ﷺ من البلاء وهو يروح ويغدو في أمان من الوليد بن المغيرة قال: والله إن غدوي ورواحي آمناً في جوار رجل من أهل الشرك وأصحابي وأهل ديني يلقون من البلاء والأذى في الله ما لا يصيبني لنقص كثير في نفسي، فمشى إلى الوليد بن المغيرة فقال له: يا أبا عبد شمس وفت ذمتك، قد رددت إليك جوارك. قال: لم يا ابن أخي؟ لعله آذاك أحد من قومي؟ قال: لا ولكني أرضى بجوار الله عز وجل، ولا أريد أن أستجير بغيره. قال: فانطلق إلى المسجد فاردد علي جواري علانية كما أجرتك علانية.

قال: فانطلقا فخرجا حتى أتيا المسجد فقال الوليد بن المغيرة: هذا عثمان قد جاء يردّ عليّ جواري. قال: صدق قد وجدته وفياً كريم الجوار ولكني قد أحببت أن لا أستجير بغير الله فقد رددت عليه جواره. ثم انصرف عثمان رضي الله عنه ولبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب في مجلس من قريش ينشدهم، فجلس معهم عثمان فقال لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطلُ

فقال عثمان: صدقت. فقال لبيد:

وكلُّ نعيم لا محالة زائل

فقال عثمان: كذبت! نعيم الجنة لا يزول. فقال لبيد: يا معشر قريش والله ما كان يؤذى جليسكم فمتى حدث هذا فيكم؟ فقال رجل من القوم: إن هذا سفيه في سفهاء معه قد فارقوا ديننا فلا تجدن في نفسك من قوله، فرد عليه عثمان حتى شري أمرهما فقام إليه ذلك الرجل ولطم عينه فخضَّرها والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ عثمان. فقال: أما والله يا ابن أخي إن كانت عينك عما أصابها لغنية، ولقد كنت في ذمة منيعة. قال: يقول عثمان: بل والله إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله وإني لفي جوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس. فقال له الوليد: هلم يا ابن أخي إن شئت إلى جوارك فعد. قال: لا!

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٧١/١، ٣٧٢]: وأما أبو سلمة بن عبد الأسد فحدثني أبي إسحاق بن يسار عن سلمة بن عبد الله بن عمر بن أبي سلمة أنه حدثه أن أبا سلمة لما استجار بأبي طالب مشى إليه رجال من بني مخزوم فقالوا له: يا أبا طالب هذا منعت منا ابن أخيك محمداً فمالك ولصاحبنا تمنعه منا؟ قال: إنه استجار بي وهو ابن أختي وإن أنا لم أمنع ابن أختي لم أمنع ابن أخي.

فقام أبو لهب. فقال: يا معشر قريش والله لقد أكثرتم على هذا الشيخ ما تزالون تتواثبون عليه في جواره من بين قومه، والله لتنتهن أو لنقومن معه في كل ما قام فيه حتى يبلغ ما أراد. قال: فقالوا: بل ننصرف عما تكره يا أبا عتبة. وكان لهم ولياً وناصراً على رسول الله ﷺ فأبقوا على ذلك فطمع فيه أبو طالب حين سمعه يقول ما يقول ورجا أن يقوم معه في شأن رسول الله ﷺ فقال أبو طالب يحرض أبا لهب على نصرته ونصرة رسول الله ﷺ:

وإن امرءاً أبو عتيبة عمه ... لفي روضة ما إن يسام المظالما

أقول له وابن منه نصيحتي ... أبا معتب ثبت سوادك قائما

ولا تقبلن الدهر ما عشت خطة ... تسب بها إما هبطت المواسما

وول سبيل العجز غيرك منهم فإنك لم تخلق على العجز لازما
وحارب فإن الحرب نصف ولن ترى أخا الحرب يعطي الخسف حتى يسالما
وكيف ولم يجنوا عليك عظيمة ولم يخذلوك غانماً أو مغارما
جزى الله عنا عبد شمس ونوفلا وتيماً ومخزوماً عقوقاً ومأثما
بتفريقهم من بعد ود وألفة جماعتنا كيما ينالوا المحارما
كذبتم وبيت الله نُبزى محمداً ولما نروا يوماً لدى الشعب قائما

قال ابن هشام [السيرة: ٣٧٢/١]: وبقي منها بيت تركناه

٥٦- عزم الصدّيق على الهجرة إلى الحبشة

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٧٢/١ - ٣٧٤]: وقد كان أبو بكر الصديق ﷺ كما حدّثني محمد بن مسلم الزهري عن عروة عن عائشة حين ضاقت عليه مكة وأصابه فيها الأذى ورأى من تظاهر قريش على رسول الله ﷺ وأصحابه ما رأى، استأذن رسول الله ﷺ في الهجرة فأذن له، فخرج أبو بكر ﷺ مهاجراً حتى إذا سار من مكة يوماً - أو يومين - لقيه ابن الدُّغنة أخو بني الحارث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة وهو يومئذ سيد الأحابيش.

قال الواقدي: اسمه الحارث بن يزيد أحد بني بكر من عبد مناة بن كنانة [طبقات ابن سعد: ٥٧/٥]. وقال السهيلي [الروض الأنف: ٣٥٢/٣]: اسمه مالك. فقال: إلى أين يا أبا بكر؟ قال: أخرجني قومي وآذوني وضيقوا عليّ. قال: ولم؟ فوالله إنك لتزين العشيرة، وتعين على النوائب، وتفعل المعروف وتكسب المعدوم. ارجع فإنك في جواري. فرجع معه حتى إذا دخل مكة قام ابن الدغنة فقال: يا معشر قريش إني قد أجرت ابن أبي قحافة فلا يعرض له أحد إلا بخير. قالت: فكفوا عنه. قالت: وكان لأبي بكر مسجد عند باب داره في بني جمح فكان يصلي فيه، وكان رجلاً رقيقاً إذا قرأ القرآن استبكى قالت: فيقف عليه الصبيان والعبيد والنساء يعجبون لما يرون من هيئته.

قالت: فمشى رجال من قريش إلى ابن الدغنة. فقالوا: يا ابن الدغنة إنك لم تجر هذا الرجل ليؤذينا، إنه رجل إذا صلى وقرأ ما جاء به محمد يرق وكانت له هيئة ونحن فنحن نتخوف على صبياننا ونسائنا وضعفائنا أن يفتنهم، فأته فمره بأن يدخل بيته فليصنع فيه ما شاء.

قالت: فمشى ابن الدغنة إليه فقال: يا أبا بكر إني لم أجرك لتؤذي قومك. وقد كرهوا مكانك الذي أنت به وتأذوا بذلك منك، فادخل بيتك فأصنع فيه ما أحببت. قال: أو أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله. قال: فأردد عليّ جواري. قال: قد رددته عليك.

قالت: فقام ابن الدغنة فقال: يا معشر قريش إن ابن أبي قحافة قد رد عليّ جواري فشأنكم بصاحبكم.

وقد روى الإمام البخاري [(٣٩٠٥)] هذا الحديث متفرداً به وفيه زيادة حسنة. فقال: حدّثنا يحيى بن بكير حدثنا الليث عن عقيل قال ابن شهاب: فأخبرني عروة بن الزبير أن عائشة زوجة النبي ﷺ. قالت: لم أعقل أبوي قط إلا وهما يدينان الدين، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار بكرة وعشية، فلما ابتلي المسلمون خرج أبو بكر مهاجراً نحو أرض الحبشة حتى إذا بلغ بَرْك الغماد، لقيه ابن الدغنة وهو سيد القارة فقال: أين تريد يا أبا بكر؟ فقال أبوبكر: أخرجني قومي فأريد أن أسيح في الأرض فأعبد ربي. فقال ابن الدغنة: فإن مثلك يا أبا بكر لا يخرُج ولا يخرَج مثله، إنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق. فأنا لك جار ارجع فاعبد ربك ببلدك.

فرجع وارتحل معه ابن الدغنة، وطاف ابن الدغنة عشية في أشراف قريش فقال لهم: إن أبا بكر لا يخرج مثله ولا يخرج، أتخرجون رجلاً يكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكل، ويقري الضيف، ويعين على نوائب الحق؟ فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة وقالوا لابن الدغنة: مر أبا بكر فليعبد ربه في داره وليصل فيها وليقرأ ما شاء، ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن به، فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا.

فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر، فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربه في داره، ولا يستعلن بصلاته، ولا يقرأ في غير داره. ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجداً بفناء داره وكان يصلي فيه ويقرأ القرآن، فيتقذف عليه نساء المشركين وأبناؤهم يعجبون منه وينظرون إليه. وكان أبو بكر رجلاً بكاء لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن، فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم. فقالوا:

إنا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه في داره، فقد جاوز ذلك فابتنى مسجداً بفناء داره فأعلن في الصلاة والقراءة فيه، وإنا قد خشينا أن يفتن أبناءنا ونساءنا فانهه فإن أحب على أن يقتصر أن يعبد ربه في داره فعل، وإن أبى إلا أن يعلن ذلك فسله أن يردّ إليك ذمّتك فإنا قد كرهنا أن نخفرك ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان.

قالت عائشة: فأتى ابن الدغنة إلى أبي بكر فقال: قد علمت الذي قد عاقدت لك عليه فإما أن تقتصر على ذلك وإما أن ترد إلي ذمتي فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أخفرت في رجل عقدت له. فقال أبو بكر: فإني أرد إليك جوارك وأرضى بجوار الله عز وجل.

ثم ذكر تمام الحديث في هجرة أبي بكر رضي الله عنه مع رسول الله ﷺ كما سيأتي مبسوطاً.

قال ابن اسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٧٤/١]: وحدثني عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق قال: لقيه - يعني أبا بكر الصديق حين خرج من جوار ابن الدغنة - سفيه من سفهاء قريش وهو عامد إلى الكعبة فحثا على رأسه تراباً، فمر بأبي بكر الوليد بن المغيرة - أو العاص بن وائل - فقال له أبو بكر رضي الله عنه: ألا ترى ما يصنع هذا السفيه؟ فقال: أنت فعلت ذلك بنفسك. وهو يقول: أي رب ما أحلمك! أي رب ما أحلمك! أي رب ما أحلمك!

فصل: كل هذه القصص ذكرها ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٥١/١ - ٣٧٤] معترضاً بها بين تعاقد قريش على بني هاشم وبني المطلب وكتابتهم عليهم الصحيفة الظالمة وحصرهم إياهم في الشعب، وبين نقض الصحيفة وما كان من أمرها وهي أمور مناسبة لهذا الوقت، ولهذا قال الشافعي رحمه الله [يسنده عن الشافعي أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخه: ٢١٩/١]: من أراد المغازي فهو عيال على ابن إسحاق.

٥٧- ذكر نقض الصحيفة

قال ابن اسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٧٤/١ - ٣٧٧]: هذا وبنو هاشم، وبنو المطلب في منزلهم الذي تعاقدت فيه قريش عليهم في الصحيفة التي كتبوها،

ثم إنه قام في نقض الصحيفة نفر من قريش، ولم يل فيها أحد أحسن من بلاء هشام بن عمرو بن ربيعة بن الحارث بن حبيب بن نصر بن جذيمة بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤي، وذلك أنه كان ابن أخي نضلة بن هاشم بن عبد مناف لأمه، وكان هشام لبني هاشم واصلاً، وكان ذا شرف في قومه فكان - فيما بلغني - يأتي بالبعير وبنو هاشم وبنو المطلب في الشعب ليلاً قد أوقره طعاماً، حتى إذا بلغ به فم الشعب خلع خطامه من رأسه ثم ضرب على جنبيه فدخل الشعب عليهم ثم يأتي به قد أوقره بُراً فيفعل به مثل ذلك.

ثم إنه مشى إلى زهير بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب. فقال: يا زهير أقد رضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء وأخوالك حيث قد علمت لا يباعون ولا يبتاع منهم، ولا ينكحون ولا ينكح إليهم؟ أما إني أحلف بالله لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبداً. قال: ويحك يا هشام! فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد والله لو كان معي رجل آخر لقمت في نقضها.

قال: قد وجدت رجلاً، قال: من هو؟ قال: أنا قال له زهير: أبغنا ثالثاً، فذهب إلى المطعم بن عدي فقال له: يا مطعم أقد رضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش فيه؟ أما والله لئن أمكنتموهم من هذه لتجدنهم إليها منكم سراعاً، قال: ويحك فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، قال: قد وجدت لك ثانيا. قال: من؟ قال: أنا، قال: أبغنا ثالثاً قال: قد فعلت. قال: من هو؟ قال: زهير بن أبي أمية. قال: أبغنا رابعاً.

فذهب إلى أبي البختري بن هشام فقال له نحواً مما قال للمطعم بن عدي، فقال: وهل تجد أحداً يعين على هذا؟ قال: نعم! قال: من هو؟ قال: زهير بن أبي أمية والمطعم بن عدي وأنا معك. قال: أبغنا خامساً.

فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد فكلمه وذكر له قرابتهم وحقهم، فقال له: وهل على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد؟ قال: نعم ثم سمى القوم. فاتعدوا خطم الحجون ليلاً بأعلى مكة فاجتمعوا هنالك وأجمعوا أمرهم وتعاقدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضوها. وقال زهير: أنا أبدؤكم فأكون أول من يتكلم.

فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم، وغدا زهير بن أبي أمية عليه حلة فطاف بالبيت سبعاً ثم أقبل على الناس فقال: يا أهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يتباعون ولا يبتاع منهم؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة.

قال أبو جهل - وكان في ناحية المسجد -: كذبت والله لا تشق. قال زمعه بن الأسود: أنت والله أكذب، ما رضينا كتابها حيث كتبت.

قال أبو البختري: صدق زمعة لا نرضى ما كتب فيها ولا نقر به.

قال المطعم بن عدي: صدقتما وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها. قال هشام بن عمرو نحواً من ذلك.

قال أبو جهل: هذا أمر قد قضي بليل تُشُوور فيه بغير هذا المكان، وأبو طالب جالس في ناحية المسجد وقام المطعم بن عدي إلى الصحيفة ليشقها فوجد الأرضة قد أكلتها إلا «باسمك اللهم»، وكان كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة فشلت يده فيما يزعمون.

قال ابن هشام [السيرة: ٣٧٧/١]: وذكر بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قال لأبي طالب: «يا عمّ إنّ اللّهَ قدْ سلطَ الأرضةَ علَى صحيفةِ قريشٍ فلمْ تدعْ فيها اسماً هو للّه إلا أثبتتهُ فيهَا، ونفتْ منهَا الظلمَ والقطيعةَ والبهتانَ». فقال: أربك أخبرك بهذا؟ قال: «نعم»! قال: فوالله ما يدخل عليك أحد، ثم خرج إلى قريش فقال: يا معشر قريش إن ابن أخي قد أخبرني بكذا وكذا فهلم صحيفتكم فإن كانت كما قال فانتهوا عن قطيعتنا وانزلوا عنها، وإن كان كاذباً دفعت إليكم ابن أخي. فقال القوم: قد رضينا فتعاقدوا على ذلك ثم نظروا فإذا هي كما قال رسول الله ﷺ فزادهم ذلك شراً فعند ذلك صنع الرهط من قريش في نقض الصحيفة ما صنعوا.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٧٨/١ - ٣٨٠]: فلما مزقت وبطل ما فيها قال أبو طالب فيما كان من أمر أولئك القوم الذين قاموا في نقض الصحيفة يمدحهم:

ألا هل أتى بحرينا صنع ربنا ... على نأيهم والله بالناس أرود
فيخبرهم أن الصحيفة مزقت ... وأن كل ما لم يرضه الله مفسد
تراوحها إفك وسحر مجمع ... ولم يلف سحر آخر الدهر يصعد
تداعى لها من ليس فيها بقرقر ... فطائرها في رأسها يتردد
وكانت كفاء وقعة بأثيمة ... ليقطع منها ساعد ومقلد
ويظعن أهل المكثين فيهربوا ... فرائصهم من خشية الشر ترعد
ويترك حراث يقلب أمره ... أيتهم فيها عند فاك وينجد
وتصعد بين الأخشبين كتيبة ... لها حدج سهم وقوس ومرهد
فمن ينش من حضار مكة عزه ... فعزتنا في بطن مكة أتلد
نشأنا بها والناس فيها قلائل ... فلم نفككك نزداد خيراً ونحمد
ونطعم حتى يترك الناس فضلهم ... إذا جعلت أيدي المفيضين ترعد
جزى الله رهطاً بالحجون تتابعوا ... على ملأ يهدي لحزم ويرشد
قعوداً لدى خطم الحجون كأنهم ... مقاولة بل هم أعز وأمجد
أعان عليها كل صقر كأنه ... إذا ما مشى في رفرف الدرع أحرد
جريء على جُلّى الخطوب كأنه ... شهاب بكفي قابس يتوقد
من الأكرمين من لؤي بن غالب ... إذا سيم خسفاً وجهه يتربد
طويل النجاد خارج نصف ساقه ... على وجهه يسقى الغمام ويسعد
عظيم الرماد سيد وابن سيد ... يحض على مقرى الضيوف ويحشد
ويبني لأبناء العشيرة صالحاً ... إذا نحن طفنا في البلاد ونهمد
ألظ بهذا الصلح كل مبرأ ... عظيم اللواء أمره ثم يحمد
قضوا ما قضوا في ليلهم ثم أصبحوا ... على مهل وسائر الناس رقد
هم رجعوا سهل بن بيضاء راضياً ... وسر أبو بكر بها ومحمد
متى شرك الأقوام في جل أمرنا ... وكنا قديماً قبلها نتودد
وكنا قديماً لا نقر ظلامة ... ونمدرك ما شئنا ولا تتشدد
فيال قصي هل لكم في نفوسكم ... وهل لكم فيما يجيء به غد
فإني وإياكم كما قال قائل ... لديك البيان لو تكلمت أسود

قال السهيلي [الروض الأنف: ٣٦١/٣]: أسود اسم جبل قتل به قتيل ولم يعرف قاتله فقال أولياء المقتول: لديك البيان لو تكلمت أسود، أي: يا أسود لو تكلمت لأبنت لنا عمن قتله.

ثم ذكر ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٨٠/١، ٣٨١] شعر حسان يمدح

المطعم بن عدي وهشام بن عمرو لقيامهما في نقض الصحيفة الظالمة الفاجرة الغاشمة. وقد ذكر الأموي ههنا أشعاراً كثيرة اكتفينا بما أورده ابن إسحاق.

وقال الواقدي: سألت محمد بن صالح وعبد الرحمن بن عبد العزيز: متى خرج بنو هاشم من الشعب؟ قالا: في السنة العاشرة - يعني من البعثة - قبل الهجرة بثلاث سنين. [طبقات ابن سعد: ٢١٠/١]

قلت: وفي هذه السنة بعد خروجهم توفي أبو طالب عم رسول الله ﷺ، وزوجته خديجة بنت خويلد رضي الله عنها كما سيأتي بيان ذلك إن شاء الله تعالى.

٥٨- تنفير قريش أحياء العرب على النبيّ ﷺ

وقد ذكر محمد بن إسحاق رحمه الله بعد إبطال الصحيفة قصصاً كثيرة تتضمن نصب عداوة قريش لرسول الله ﷺ وتنفير أحياء العرب والقادمين إلى مكة - لحج أو عمرة أو غير ذلك - منه، وإظهار الله المعجزات على يديه دلالة على صدقه فيما جاءهم به من البينات والهدى، وتكذيبنا لهم فيما يرمونه من البغي والعدوان والمكر والخداع، ويرمونه من الجنون والسحر والكهانة والتقول، والله غالب على أمره.

٥٩- قصة الطفل بن عمرو الدوسي في ذلك

فذكر قصة الطفيل بن عمرو الدوسي مرسلة [سيرة ابن هشام: ٣٨٢/١ - ٣٨٥]، وكان سيداً مطاعاً شريفاً في دوس، وكان قد قدم مكة فاجتمع به أشراف قريش وحذروه من رسول الله ﷺ ونهوه أن يجتمع به أو يسمع كلامه.

قال: فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئاً ولا أكلمه، حتى حشوت أذني حين غدوت إلى المسجد كرسفاً فرقاً من أن يبلغني شيء من قوله وأنا لا أريد أن اسمعه.

قال: فغدوت إلى المسجد فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة، قال: فقمت منه قريباً فأبى الله إلا أن يسمعني بعض قوله، قال: فسمعت كلاماً حسناً، قال: فقلت في نفسي: واثكل أمي والله إني لرجل لبيب شاعر ما يخفى عليّ الحسن من القبيح فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول! فإن كان الذي يأتي به حسناً قبلته، وإن كان قبيحاً تركته.

قال: فمكثت حتى انصرف رسول الله ﷺ فاتبعته حتى إذا دخل بيته دخلت عليه فقلت: يا محمد إن قومك قالوا لي كذا وكذا للذي قالوا. قال: فوالله ما برحوا بي يخوفونني أمرك حتى سددت أذني بكرسف لئلا أسمع قولك، ثم أبى الله إلا أن يسمعني قولك فسمعت قولاً حسناً، فاعرض عليّ أمرك.

قال: فعرض عليّ رسول الله ﷺ الإسلام وتلا عليّ القرآن فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسن منه، ولا أمراً أعدل منه.

قال: فأسلمت وشهدت شهادة الحق وقلت: يا نبي الله إني امرؤ مطاع في قومي، وإني راجع إليهم وداعيهم إلى الإسلام فادع الله أن يجعل لي آية تكون لي عوناً عليهم فيما أدعوهم إليه. قال: فقال: «اللّهمّ اجعلْ لهُ آيةً».

قال: فخرجت إلى قومي حتى إذا كنت بثنية تطلعني على الحاضر، وقع بين عيني نور مثل المصباح. قال: فقلت: اللّهم في غير وجهي فإني أخشى أن يظنوا أنها مثلة وقعت في وجهي لفراقي دينهم، قال: فتحوّل فوقع في رأس سوطي. قال: فجعل الحاضرون يتراؤون ذلك النور في رأس سوطي كالقنديل المعلق وأنا أتهبط عليهم من الثنية حتى جئتهم فأصبحت فيهم، فلما نزلت أتاني أبي - وكان شيخاً كبيراً - فقلت: إليك عني يا أبت فلست منك ولست مني، قال: ولم يا بني؟ قال: قلت: أسلمت وتابعت دين محمد ﷺ. قال: أي بني ديني دينك. فقلت: فاذهب فاغتسل وطهر ثيابك ثم ائتني حتى أعلمك مما علمت. قال: فذهب فاغتسل وطهر ثيابه قال: ثم جاء فعرضت عليه الإسلام فأسلم.

قال: ثم أتتني صاحبتي فقلت: إليك عني فلست منك ولست مني. قالت: ولم؟ بأبي أنت وأمي. قال: قلت: فرق بيني وبينك الإسلام، وتابعت دين محمد ﷺ، قالت: فديني دينك. قال: فقلت: فاذهبي إلى حنى ذي الشرّى فتطهري منه، وكان ذو الشرى صنماً لدوس وكان الحمى حمى حموه له به وشل من ماء يهبط من جبل. قالت: بأبي أنت وأمي أتخشى على الصبية من ذي الشرى شيئاً؟ قال: قلت لا، أنا ضامن لذلك. قال: فذهبت فاغتسلت ثم جاءت فعرضتُ عليها الإسلام فأسلمت، ثم دعوت دوساً إلى الإسلام فابطؤوا علي.

ثم جئت رسول الله ﷺ بمكة. فقلت: يا رسول الله إنه قد غلبني على دوس الزنا فادع الله عليهم. قال: «اللّهمّ اهدِ دوساً، ارجعْ إلى قومكَ فادعهُمْ وارفُقْ بهِمْ». قال: فلم أزل بأرض دوس أدعوهم إلى الإسلام حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ومضى بدر وأحد والخندق، ثم قدمت على رسول الله ﷺ بمن أسلم معي من قومي ورسول الله ﷺ بخيبر حتى نزلت المدينة بسبعين أو ثمانين بيتاً من دوس فلحقنا برسول الله ﷺ بخيبر فأسهم لنا مع المسلمين. ثم لم أزل مع رسول الله ﷺ حتى فتح الله عليه مكة.

قلت: يا رسول الله ابعثني إلى ذي الكفين صنم عمرو بن حُممة حتى أحرقه.

قال ابن اسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٨٥/١]: فخرج إليه فجعل الطفيل وهو يوقد عليه النار يقول:

يا ذا الكفَيْنِ لستُ من عُبّادكا ميلادُنا أقْدمُ من ميلادِكا

إنّي حشوتُ النّارَ في فُؤادِكا

قال ثم رجع رسول الله ﷺ فكان معه بالمدينة حتى قبض الله رسوله ﷺ فلما ارتدت العرب خرج الطفيل مع المسلمين فسار معهم حتى فرغوا من طليحة ومن أرض نجد كلها، ثم سار مع المسلمين إلى اليمامة ومعه ابنه عمرو بن الطفيل، فرأى رؤيا وهو متوجه إلى اليمامة فقال لأصحابه:

إني قد رأيت رؤيا فاعبروها لي، رأيت أن رأسي حلق وأنه خرج من فمي طائر، وأنه لقيتني امرأة فأدخلتني في فرجها وأرى ابني يطلبني طلباً حثيثاً ثم رأيته حبس عني؛ قالوا: خيراً قال: أما أنا والله فقد أولتها، قالوا: ماذا؟ قال: أما حلق رأسي فوضعه، وأما الطائر الذي خرج منه فروحي، وأما المرأة التي أدخلتني في فرجها فالأرض تحفر لي فاغيب فيها، وأما طلب ابني إياي ثم حبسه عني فإني أراه سيجهد أن يصيبه ما أصابني.

فقتل رحمه الله تعالى شهيداً باليمامة وجرح ابنه جراحة شديدة، ثم استبل منها ثم قتل عام اليرموك زمن عمر شهيداً رحمه الله.

هكذا ذكر محمد بن إسحاق قصة الطفيل بن عمرو مرسلة بلا إسناد. ولخبره شاهد في الحديث الصحيح.

قال الإمام أحمد [٤٤٨/٢]: حدّثنا وكيع حدّثنا سفيان عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة. قال: لما قدم الطفيل وأصحابه على النبي ﷺ قال: إن دوساً قد استعصت قال: «اللّهُمَّ اهْدِ دَوْساً وائْتِ بِهِمْ».

رواه البخاري [(٤٣٩٢)] عن أبي نعيم عن سفيان الثوري.

وقال الإمام أحمد [٥٠٢/٢]: حدثنا يزيد أنبأنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة ﷺ. قال: قدم الطفيل بن عمرو الدوسي وأصحابه فقالوا: يا رسول الله إن دوساً قد عصت وأبت فادع الله عليها. قال أبو هريرة: فرفع رسول الله ﷺ يديه فقلت: هلكت دوس. فقال: «اللّهُمَّ اهْدِ دَوْساً، وائْتِ بِهِم».

إسناد جيد ولم يخرجوه.

وقال الإمام أحمد [٣٧٠/٢، ٣٧١]: حدّثنا سليمان بن حرب حدّثنا حماد بن زيد عن حجاج الصواف عن أبي الزبير عن جابر. أن الطفيل بن عمرو الدوسي أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله هل لك في حصن حصين ومنعة؟ - قال: حصن كان لدوس في الجاهلية - فأبى ذلك رسول الله ﷺ للذي ذخر الله للأنصار.

فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة هاجر إليه الطفيل بن عمرو، وهاجر معه رجل من قومه فاجتووا المدينة فمرض فجزع فأخذ مشاقص فقطع بها براجمه فشخبت يداه فما رقأ الدم حتى مات. فرآه الطفيل بن عمرو في منامه في هيئة حسنة، ورآه مغطياً يديه. فقال له: ما صنع ربك بك؟ فقال: غفر لي بهجرتي إلى نبيه ﷺ قال: فما لي أراك مغطياً يديك؟ قال: قيل لي: لن يصلح منك ما أفسدت. قال: فقصها الطفيل على رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «اللّهُمَّ ولِيَدَيْهِ فَاغْفِرْ».

رواه مسلم [(١١٦)] عن أبي بكر بن أبي شيبة وإسحاق بن إبراهيم كلاهما عن سليمان بن حرب به.

فإن قيل: فما الجمع بين هذا الحديث وبين ما ثبت في «الصحيحين» [خ (٣٤٦٣)، م (١١٣)] من طريق الحسن عن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: «كانَ فِيمَنْ كانَ قبلَكُم رجلٌ بِهِ جرحٌ فجزِعَ، فأخذَ سكيناً فحزَّ بِها يدهُ فمَا رقأَ الدمُ حتَّى ماتَ، فقال اللَّهُ عزَّ وجلَّ: عبدِي بادرَنِي بنفسِهِ فحرَّمتُ عليْهِ الجنَّةَ».

فالجواب من وجوه أحدها: أنه قد يكون ذاك مشركاً وهذا مؤمن، ويكون قد جعل هذا الصنيع سبباً مستقلاً في دخوله النار وإن كان شركه مستقلاً إلا أنه نبه على هذا لتعتبر أمته.

الثاني: قد يكون هذاك عالماً بالتحريم وهذا غير عالم لحداثة عهده بالإسلام.

الثالث: قد يكون ذاك فعله مستحلاً له وهذا لم يكن مستحلاً بل مخطئاً.

الرابع: قد يكون أراد ذاك بصنيعه المذكور أن يقتل نفسه بخلاف هذا فإنه يجوز أنه لم يقصد قتل نفسه وإنما أراد غير ذلك.

الخامس: قد يكون هذاك قليل الحسنات فلم تقاوم كبر ذنبه المذكور فدخل النار، وهذا قد يكون كثير الحسنات فقاومت الذنب فلم يلج النار بل غفر له بالهجرة إلى نبيه ﷺ. ولكن بقي الشين في يده فقط وحسنت هيئة سائره فغطى الشين منه فلما رآه الطفيل بن عمرو مغطياً يديه قال له: ما لك؟ قال: قيل لي: لن يصلح منك ما أفسدت.

فلما قصها الطفيل على رسول الله ﷺ دعا له فقال: «اللّهُمَّ ولِيَدَيْهِ فاغفِرْ». أي: فأصلح منها ما كان فاسداً. والحقق أن الله استجاب لرسول الله ﷺ في صاحب الطفيل بن عمرو.

٦٠- قصة أعشى بني قيس بن ثعلبة

قال ابن هشام [السيرة: ٣٨٦/١ - ٣٨٨]: حدثني خلاد بن قرة بن خالد السدوسي وغيره من مشايخ بكر بن وائل عن أهل العلم أن أعشى بن قيس بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل خرج إلى رسول الله ﷺ يريد الإسلام، فقال يمدح النبي ﷺ:

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا ... وبت كما بات السليم مسهدا
وما ذاك من عشق النساء وإنما ... تناسيت قبل اليوم خُلة مهدد
ولكن أرى الدهر الذي هو خائن ... إذا أصلحت كفاي عاد فأفسدا
كهولاً وشباناً فقدت وثروة ... فلله هذا الدهر كيف تردد
وما زلت أبغي المال مذ أنا يافع ... وليداً وكهلاً حين شبت وأمرد
وأبتذل العيس المراقيل تعتلي ... مسافة ما بين النجير فصرخد
ألا أيهذا السائلي أين يممت ... فإن لها في أهل يثرب موعدا
فإن تسألي عني فيا رب سائل ... حفي عن الأعشى به حيث أصعدا
أجدت برجليها نجاءً وراجعت ... يداها خافاً ليناً غير أحردا
وفيها إذا ما هجرت عجرفية ... إذا خلت حرباء الظهيرة أصيدا
وأليت لا آوي لها من كلالة ... ولا من حفيً حتى تلاقي محمداً
متى ما تناخي عند باب ابن هاشم ... تراحي وتلقى من فواضله ندى
نبي يرى ما لا ترون وذكره ... أغار لعمري في البلاد وأنجدا
له صدقات ما تغب ونائل ... فليس عطاء اليوم مانعه غداً
أجدك لم تسمع وصاة محمد ... نبي الإله حيث أوصى وأشهدا
إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ... ولاقيت بعد الموت من قد تزودا
ندمت على أن لا تكون كمثله ... فترصد للأمر الذي كان أرصدا
فإياك والميتات لا تقربنها ... ولا تأخذن سهماً حديداً لتفصدا
وذا النصب المنصوب لا تنسكنه ... ولا تعبد الاوثان والله فاعبدا
ولا تقربن حرة كان سرها ... عليك حراماً فانكحن أو تأبدا
وذا الرحم القربى فلا تقطعنه ... لعاقبة ولا الأسير المقيدا
وسبح على حين العشية والضحى ... ولا تحمد الشيطان والله فاحمدا
ولا تسخرن من بائس ذي ضرارة ... ولا تحسبن المال للمرء مخلدا

قال ابن هشام [السيرة: ٣٨٨/١]: فلما كان بمكة - أو قريباً منها - اعترضه بعض المشركين من قريش فسأله عن أمره فأخبره أنه جاء يريد رسول الله ﷺ ليسلم. فقال له: يا أبا بصير إنه يحرم الزنا. فقال الأعشى: والله إن ذلك لأمر ما لي فيه من أرب. فقال: يا أبا بصير إنه يحرم الخمر. فقال الأعشى: أما هذه فوالله إن في نفسي منها لعلالات ولكني منصرف فأتروى منها عامي هذا، ثم آتيه فأسلم. فانصرف فمات في عامه ذلك ولم يعد إلى النبي ﷺ.

هكذا أورد ابن هشام هذه القصة ههنا وهو كثير المؤاخذات لمحمد بن إسحاق رحمه الله، وهذا مما يؤاخذ به ابن هشام رحمه الله، فإن الخمر إنما حرمت بالمدينة بعد وقعة بني النضير كما سيأتي بيانه فالظاهر أن عزم

الأعشى على القدوم للإسلام إنما كان بعد الهجرة وفي شعره ما يدل على ذلك وهو قوله:

ألا أيهـذا السـائلي أيـنَ يَمَّمـتْ فـإنَّ لَهـا في أهـلِ يـثْربَ مَوْعِـدَا

وكان الأنسب والأليق بابن هشام أن يؤخر ذكر هذه القصة إلى ما بعد الهجرة ولا يوردها هاهنا والله أعلم.

قال السهيلي [الروض الأنف: ٣٧٨/٣]: وهذه غفلة من ابـن هشـام ومـن تابعه فإن الناس مجمعون علـى أن الخمر لم يـنزل تحريمهـا إلا بالمدينـة بعـد أحد. وقد قال: وقيل: إن القائل للأعشى هو أبـو جهـل بـن هشـام في دار عتبة بن ربيعة.

وذكر أبو عبيدة أن القائل له ذلك هو عامر بن الطفيل في بـلاد قيـس وهو مقبل إلى رسول الله ﷺ قال: وقوله: ثم آتيه فأسلم. لا يخرجـه عـن كفره بلا خلاف والله أعلم.

ثم ذكر ابن إسـحاق [سيرة ابن هشام: ٣٨٩/١] ههنـا قصـة الإراشـي وكيف استعدى إلى رسول الله ﷺ من أبي جهـل في ثمـن الجمـل الـذي ابتاعه منه، وكيف أذل الله أبا جهل وأرغم أنفه حتى أعطاه ثمنه في السـاعة الراهنة وقد قدمنا ذلك في ابتداء الوحي وما كان مـن أذية المشـركين عنـد ذلك.

٦١- قصة مصارعة رُكانة وكيف أراه الشجرة التي دعاها فأقبلت ﷺ

قال ابن اسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٩٠/١، ٣٩١]: وحدثني أبـي إسـحاق بن يسار قال: وكان ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد منـاف أشد قريش، فخلا يوماً برسول الله ﷺ في بعـض شـعاب مكـة فقـال لـه رسول الله ﷺ: «يا رُكانةُ ألا تتقي اللّهَ وتقبلُ ما أدعُوكَ إليْهِ؟» قـال: إنـي لو أعلم أن الذي تقول حق لاتبعتـك فقـال لـه رسـول اللّـه: «أفرأيـتَ إنْ صرعتُكَ أتعلمُ أنَّ مَا أقولُ حقٌّ؟».

قال: نعم! قال: «فقم حتى أصارعك». قال: فقام ركانة إليـه فصارعـه فلما بطش به رسول الله ﷺ أضجعه لا يملك مـن نفسـه شـيئاً ثـم قـال: عديا محمد فعاد فصرعه. فقال: يا محمد والله إن هذا للعجب، أتصرعـني؟! قال: «وأعجب من ذلك إن شئت أن أريكه إن اتقيت الله واتبعت أمـري» قال: وما هو؟ قال: «أدعو لك هذه الشجرة التي ترى فتأتيني». قال: ادعهـا فدعاها فأقبلت حتى وقفت بين يدي رسول الله ﷺ. فقال لهـا: «ارجعـي إلى مكانك» فرجعت إلى مكانها.

قال: فذهب ركانة إلى قومه فقال: يا بني عبد مناف ساحروا بصاحبكم أهل الأرض فوالله ما رأيت أسحر منه قط، ثم أخبرهم بالذي رأى والذي صنع.

هكذا روى ابن إسحاق هذه القصة مرسلة بهذا البيان.

وقد روى أبو داود [(٤٠٧٨)] والترمذي [(١٧٨٤)] من حديث أبـي الحسن العسقلاني عن أبي جعفر بن محمد بـن ركانـة عـن أبيـه: أن ركانـة صارع النبي ﷺ فصرعه النبي ﷺ.

ثم قال الترمذي: غريب ولا نعرف أبا الحسن ولا ابن ركانة

قلت: وقد روى أبو بكر الشافعي بإسناد جيد عن ابـن عبـاس رضـي الله عنهما: أن يزيد بن ركانة صـارع النبي ﷺ فصرعـه النـبي ﷺ ثـلاث مرات، كل مرة على مائة من الغنم فلما كان في الثالثـة قـال: يـا محمـد مـا وضع ظهري إلى الأرض أحد قبلك، وما كان أحد أبغض إليّ منـك. وأنـا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله فقـام عنـه رسـول اللّـه ﷺ وردّ عليه غنمه.

وأما قصة دعائه الشجرة فأقبلت فسيأتي في كتاب «دلائل النبوة» بعـد السيرة من طرق جيدة صحيحة في مرات متعددة إن شـاء اللّـه وبـه الثقـة. وقد تقدم عن أبي الأشدّين أنه صارع النبي ﷺ فصرعه رسول اللّه ﷺ.

ثم ذكر ابن إسحاق قصة قدوم النصارى مـن أهـل الحبشـة نحـواً مـن عشرين راكباً إلى مكة فأسلموا عن آخرهـم، وقـد تقـدم ذلـك [دلائل النبوة للبيهقي: ٣٠٦/٢] بعد قصة النجاشي ولله الحمد والمنة.

٦٢- النبي ﷺ مع المستضعفين

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٩٢/١]: وكـان رسـول اللّـه ﷺ إذا جلس في المسجد يجلس إليه المستضعفون مـن أصحابـه: خبـاب، وعمـار، وأبو فكيهة، يسار مولى صفوان بن أمية، وصهيب، وأشباههم من المسلمين. هزئت بهم قريش وقال بعضهم لبعض: هؤلاء أصحابه كما ترون، أهـؤلاء مَنَّ اللّه عليهم من بيننا بالهدى ودين الحق؟ لو كان ما جاء به محمـد خيراً ما سبقنا هؤلاء إليه وما خصهم الله به دوننا. فأنزل اللّه عـزّ وجـلّ فيهـم: ﴿وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُـونَ مِـنَ الظَّالِمِينَ. وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَـؤُلاءِ مَنَّ اللّهُ عَلَيْهِـم مِّـن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ. وَإِذَا جَاءكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَـةٍ ثُـمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٢ - ٥٤].

٦٣- قصص أخرى بين النبي والمشركين

قال: وكان رسول اللّه ﷺ كثيراً ما يجلس عند المروة إلى مبيعـة غـلام نصراني يقال له: جبر، عبد لبني الحضرمي وكانوا يقولون: واللّـه مـا يعلـم محمداً كثيراً مما يأتي به إلا جبر، فأنزل اللّه تعالى في ذلك من قولهـم ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِـيٌّ وَهَـذَا لِسَـانٌ عَرَبِـيٌّ مُّبِـينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

ثم ذكر نزول سورة «الكوثر» في العاص بن وائل حين قال عن رسول اللّه ﷺ: إنه أبتر لا عقب له فإذا مات انقطع ذكره. فقال اللّه تعـالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾ أي المقطوع الذكر بعده، ولـو خلـف ألوفـاً مـن النسـل والذرية وليس الذكر والصيت ولسان الصـدق بكثـرة الأولاد والأنسـال والعقب، وقد تكلمنا على هذه السورة في التفسير ولله الحمد.

وقد روي عن أبي جعفر الباقر: أن العاص بـن وائـل إنمـا قـال ذلـك حين مات القاسم ابن النبي ﷺ، وكان قد بلغ أن يركب الدابة ويسير على النجيبة [الروض الأنف: ٤٠٢/٣].

ثم ذكر نزول قوله: ﴿وَقَالُوا لَـوْلا أُنـزِلَ عَلَيْـهِ مَلَـكٌ وَلَـوْ أَنزَلْنَـا مَلَكـاً لَّقُضِيَ الأَمْرُ﴾ [الأنعام: ٨] وذلك بسـبب قـول أبـيّ بـن خلـف وزمعـة بـن الأسود والعاص بن وائل والنضر بن الحارث: لولا أنزل عليك ملك يكلم الناس عنك.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٩٥/١، ٣٩٦]: ومر رسول الله ﷺ فيما بلغنا بالوليد بن المغيرة وأمية بن خلف وأبي جهل بن هشام فهمزوه واستهزؤوا به، فغاظه ذلك فأنزل الله تعالى في ذلك من أمرهم: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام: ١٠].

قلت: وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر: ٩٥].

قال سفيان [من طريقه أخرجه الطبراني في الأوسط (٤٩٨٣)] عن جعفر بن إياس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. قال: المستهزؤون: الوليد بن المغيرة، والأسود بن عبد يغوث الزهري، والأسود بن المطلب أبو زمعة والحارث بن عيطل السهمي والعاص بن وائل السهمي. فأتاه جبريل فشكاهم إليه رسول الله ﷺ فأراه الوليد فأشار جبريل إلى أبجله وقال: كفيته، ثم أراه الأسود بن المطلب فأومأ إلى عنقه وقال: كفيته، ثم أراه الأسود بن عبد يغوث فأومأ إلى رأسه وقال: كفيته، ثم أراه الحارث بن عيطل فأومأ إلى بطنه وقال: كفيته، ومر به العاص بن وائل فأومأ إلى أخصه وقال: كفيته.

فأما الوليد فمر برجل من خزاعة وهو يريش نبلاً له فأصاب أبجله فقطعها، وأما الأسود بن عبد يغوث فخرج في رأسه قروح فمات منها، وأما الأسود بن المطلب فعمي. وكان سبب ذلك أنه نزل تحت سمرة فجعل يقول: يا بني ألا تدفعون عني قد قتلت فجعلوا يقولون: ما نرى شيئاً. وجعل يقول: يا بني ألا تمنعون عني قد هلكت، ها هو ذا الطعن بالشوك في عيني. فجعلوا يقولون: ما نرى شيئاً. فلم يزل كذلك حتى عميت عيناه. وأما الحارث بن عيطل فأخذه الماء الأصفر في بطنه حتى خرج خرؤه من فيه فمات منها. وأما العاص بن وائل فبينما هو كذلك يوماً إذ دخل في رأسه شبرقة حتى امتلأت منها فمات منها.

وقال غيره في هذا الحديث: فركب إلى الطائف على حمار فربض به على شبرقة - يعني شوكة - فدخلت في أخمص قدمه شوكة فقتلته. رواه البيهقي [في الدلائل: ٣١٦/٢ - ٣١٨] بنحو من هذا السياق.

وقال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٠٨/١، ٤٠٩]: وكان عظماء المستهزئين كما حدثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير خمسة نفر، وكانوا ذوي أسنان وشرف في قومهم:

الأسود بن المطلب أبو زمعة دعا عليه رسول الله ﷺ فقال: «اللهم أعم بصره وأثكله ولده».

والأسود بن عبد يغوث، والوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والحارث بن الطلاطلة. وذكر أن الله تعالى أنزل فيهم: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ. إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ. الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر ٩٤ - ٩٦].

وذكر أن جبريل أتى رسول الله ﷺ وهم يطوفون بالبيت فقام وقام رسول الله ﷺ إلى جنبه، فمر به الأسود بن المطلب فرمى في وجهه بورقة خضراء فعمي، ومر به الأسود بن عبد يغوث فأشار إلى بطنه فاستسقى بطنه فمات منه حبناً ومر به الوليد بن المغيرة فأشار إلى أثر جرح بأسفل كعبه كان أصابه قبل ذلك بسنين من مروره برجل يريش نبلاً له من خزاعة فتعلق سهم بإزاره فخدشه خدشاً يسيراً، فانتقض بعد ذلك فمات. ومرّ به العاص بن وائل فأشار إلى أخمص رجله فخرج على حمار له يريد الطائف فربض به على شبرقة فدخلت في أخمص رجله شوكة فقتلته. ومر به الحارث بن الطلاطلة فأشار إلى رأسه فامتخض قيحاً فقتله

ثم ذكر ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤١٠/١ - ٤١٢]: أن الوليد بن المغيرة لما حضره الموت أوصى بنيه الثلاثة وهم خالد وهشام والوليد. فقال لهم: أي بني أوصيكم بثلاث: دمي في خزاعة فلا تطلُّوه، والله إني لأعلم أنهم منه براء ولكني أخشى أن تسبوا به بعد اليوم. ورباي في ثقيف فلا تدعوه حتى تأخذوه، وعقري عند أبي أزيهر الدوسي فلا يفوتنكم به. وكان أبو أزيهر قد زوج الوليد بنتاً له ثم أمسكها عنه فلم يدخلها عليه حتى مات، وكان قد قبض عقرها منه - وهو صداقها - فلما مات الوليد وثبت بنو مخزوم على خزاعة يلتمسون منهم عقل الوليد، وقالوا: إنما قتله سهم صاحبكم، فأبت عليهم خزاعة ذلك حتى تقاولوا أشعاراً وغلظ بينهم الأمر. ثم أعطتهم خزاعة بعض العقل واصطلحوا وتحاجزوا.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤١٣/١، ٤١٤]: ثم عدا هشام بن الوليد على أبي أزيهر وهو بسوق ذي المجاز فقتله، وكان شريفاً في قومه. وكانت ابنته تحت أبي سفيان - وذلك بعد بدر - فعمد يزيد بن أبي سفيان فجمع الناس لبني مخزوم وكان أبوه غائباً، فلما جاء أبو سفيان غاظه ما صنع ابنه يزيد فلامه على ذلك وضربه وودّى أبا أزيهر وقال لابنه: أعمدت إلى أن تقتل قريش بعضها بعضاً في رجل من دوس؟ وكتب حسّان بن ثابت قصيدة له يحرّض أبا سفيان في دم أبي أزيهر، فقال: بئس ما ظن حسان أن يقتل بعضنا بعضاً وقد ذهب أشرافنا يوم بدر. ولما أسلم خالد بن الوليد وشهد الطائف مع رسول الله ﷺ سأله في ربا أبيه من أهل الطائف

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤١٤/١]: فذكر لي بعض أهل العلم أن هؤلاء الآيات نزلن في ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨] وما بعدها.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤١٤/١]: ولم يكن في بني أزيهر ثأر نعلمه حتى حجز الإسلام بين الناس، إلا أن ضرار بن الخطاب بن مرداس الفهري خرج في نفر من قريش إلى أرض دوس، فنزلوا على امرأة يقال لها: أم غيلان مولاة لدوس، وكانت تمشط النساء وتجهز العرائس، فأرادت دوس قتلهم بأبي أزيهر فقامت دونه أم غيلان ونسوة كن معها حتى منعتهم.

قال السهيلي [الروض الأنف: ١٩/٤]: يقال: إنها أدخلته بين درعها وبدنها.

قال ابن هشام [السيرة: ٤١٥/١]: فلما كانت أيام عمر بن الخطاب أتته أم غيلان وهي ترى أن ضراراً أخوه فقال لها عمر: لست بأخيه إلا في الإسلام، وقد عرفت متتك عليه فأعطاها على أنها بنت سبيل.

قال ابن هشام [السيرة: ٤١٥/١]: وكان ضرار بن الخطاب لحق عمر بن الخطاب يوم أحد فجعل يضربه بعرض الرمح ويقول: انج يا ابن الخطاب لا أقتلك فكان عمر يعرفها له بعد الإسلام رضي الله عنهما.

٦٤- دعاءُ النبي ﷺ على قريش لما استعصت عليه

وذكر البيهقي [الدلائل: ٣٢٧/٢] ههنا دعاء النبي ﷺ على قريش حين استعصت عليه بسبع كسبع يوسف.

وأورد [البيهقي في الدلائل: ٣٢٧/٢] ما أخرجاه في «الصحيحين» [خ

(٤٨٢٥)، م (٢٧٩٨)] من طريق الأعمش عن مسلم بن صبيح عن مسروق عن ابن مسعود. قال: خمس مضين؛ اللزام والروم، والدخان، والبطشة، والقمر. وفي رواية [البيهقي في الدلائل: ٣٢٤/٢، ٣٢٥] عن ابن مسعود. قال: إن قريشاً، لما استعصت على رسول الله ﷺ وأبطئوا عن الإسلام. قال: «اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف». قال: فأصابتهم سنة فحصّت كل شيء، حتى أكلوا الجيف والميتة وحتى أن أحدهم كان يرى ما بينه وبين السماء كهيئة الدخان من الجوع. ثم دعا فكشف الله عنهم، ثم قرأ عبد الله هذه الآية: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ [الدخان: ١٥] قال: فعادوا فكفروا فأخروا إلى يوم القيامة - أو قال: فأخروا إلى يوم بدر -. قال أبو عبد الله: إن ذلك لو كان يوم القيامة كان لا يكشف عنهم: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان: ١٦] قال: يوم بدر.

وفي رواية عنه [الدلائل للبيهقي: ٣٢٦/٢، ٣٢٧] قال: لما رأى رسول الله ﷺ من الناس إدباراً. قال: «اللهم سبعاً كسبع يوسف» فأخذتهم سنة حتى أكلوا الميتة والجلود والعظام. فجاءه أبو سفيان وناس من أهل مكة فقالوا: يا محمد إنك تزعم أنك بعثت رحمة وأن قومك قد هلكوا، فادع الله لهم. فدعا رسول الله ﷺ فسقوا الغيث، فاطبقت عليهم سبعاً فشكا الناس كثرة المطر. فقال: «اللهم حوالينا ولا علينا» فانحدرت السحابة عن رأسه فسقي الناس حولهم.

قال: لقد مضت آية الدخان - وهو الجوع الذي أصابهم - وذلك قوله: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ وآية الروم، والبطشة الكبرى. وانشقاق القمر، وذلك كله يوم بدر.

قال البيهقي [في الدلائل: ٣٢٧/٢]: يريد - والله أعلم - البطشة الكبرى والدخان وآية اللزام كلها حصلت ببدر.

قال [البيهقي في الدلائل: ٣٢٧/٢] وقد أشار البخاري [(١٠٢٠)] إلى هذه الرواية.

ثم أورد [البيهقي في الدلائل: ٣٢٨/٢، ٣٢٩] من طريق عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن عكرمة عن ابن عباس. قال: جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ يستغيث من الجوع لأنهم لم يجدوا شيئاً حتى أكلوا العهن بالدم فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٦].

قال: فدعا رسول الله ﷺ حتى فرج الله عنهم.

ثم قال الحافظ البيهقي [الدلائل: ٣٢٩/٢]: وقد روي في قصة أبي سفيان ما دل على أن ذلك كان بعد الهجرة، ولعله كان مرتين والله أعلم.

٦٥- قصة فارس والروم وهزيمة الروم

ثم أورد البيهقي [في الدلائل: ٣٣٠/٢] قصة فارس والروم ونزول قوله تعالى: ﴿الم. غُلِبَتِ الرُّومُ. فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ. فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ. بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الروم: ١ - ٥].

ثم روى [في الدلائل: ٣٣٠/٢، ٣٣١] من طريق سفيان الثوري عن حبيب بن أبي عمرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. قال: كان المسلمون يحبون أن يظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب، وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم لأنهم أهل أوثان، فذكر ذلك المسلمون لأبي بكر فذكره أبو بكر للنبي ﷺ فقال: «أما إنهم سيظهرون» فذكر أبو بكر ذلك للمشركين فقالوا: اجعل بيننا وبينك أجلاً إن ظهروا كان لك كذا وكذا، وإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا فذكر ذلك أبو بكر للنبي ﷺ فقال: «ألا جعلته - أُراه قال - دون العشر» قال: فظهرت الروم بعد ذلك.

وقد أوردنا طرق هذا الحديث في «التفسير» وذكرنا أن المباحث - أي المراهن - لأبي بكر أمية بن خلف وأن الرهن كان على خمس قلائص، وأنه كان إلى مدة، فزاد فيها الصديق عن أمر رسول الله ﷺ وفي الرهن. وأن غلبة الروم على فارس كان يوم بدر - أو كان يوم الحديبية - فالله أعلم.

ثم روي [في الدلائل: ٣٣٤/٢] من طريق الوليد بن مسلم حدثنا أسيد الكلابي أنه سمع العلاء بن الزبير الكلابي يحدث عن أبيه. قال: رأيت غلبة فارس الروم. ثم رأيت غلبة الروم فارس، ثم رأيت غلبة المسلمين فارس والروم وظهورهم على الشام والعراق، كل ذلك في خمس عشرة سنة.

٦٦- قصةُ الإسراء والمعراج

ذكر ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٤٨٠/٣ - ٥١٨] أحاديث الإسراء في أوائل البعثة.

وأما ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٩٦/١ - ٤٠٨] فذكرها في هذا الموطن بعد البعثة بنحو من عشر سنين.

وروى البيهقي [في الدلائل: ٣٥٤/٢] من طريق موسى بن عقبة عن الزهري أنه قال: أسري برسول الله ﷺ قبل خروجه إلى المدينة بسنة. قال: وكذلك ذكره ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة.

ثم روى [في الدلائل: ٣٥٥/٢] عن الحاكم عن الأصم عن أحمد بن عبد الجبار عن يونس بن بكير عن أسباط بن نصر عن إسماعيل السدي. أنه قال: فرض على رسول الله ﷺ الخمس بيبت المقدس ليلة أسري به قبل مهاجره بستة عشر شهراً.

فعلى قول السدي يكون الإسراء في شهر ذي القعدة، وعلى قول الزهري وعروة يكون في ربيع الأول.

وقال أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا عثمان عن سعيد بن مينا عن جابر وابن عباس. قالا: ولد رسول الله ﷺ عام الفيل يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول. وفيه بعث، وفيه عرج به إلى السماء، وفيه هاجر، وفيه مات.

فيه انقطاع

وقد اختاره الحافظ عبد الغني بن سرور المقدسي في «سيرته» وقد أورد حديثاً لا يصح سنده ذكرناه في فضائل شهر رجب أن الإسراء كان ليلة السابع والعشرين من رجب والله أعلم.

ومن الناس من يزعم أن الإسراء كان أول ليلة جمعة من شهر رجب وهي ليلة الرغائب التي أحدثت فيها الصلاة المشهورة ولا أصل لذلك والله أعلم.

وينشد بعضهم في ذلك:

ليلةُ الجمعةِ عُرِّجَ بالنبي ليلةُ الجمعةِ أوّلَ رجَبِ

وهذا الشعر عليه ركاكة وإنما ذكرناه استشهاداً لمن يقول به. وقد ذكرنا

الأحاديث الواردة في ذلك مستقصاة عند قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ فلتكتب من هناك على ما هي عليه من الأسانيد والعزو، والكلام عليها ومعها ففيها مقنع وكفاية ولله الحمد والمنة.

ولنذكر ملخص كلام ابن إسحاق رحمه الله [السيرة: ٢٧٤، سيرة ابن هشام: ١/ ٣٩٦، ٣٩٧] فإنه قال بعد ذكر ما تقدم من الفصول: ثم أسري برسول الله ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى - وهو بيت المقدس - من إيلياء وقد فشا الإسلام بمكة في قريش وفي القبائل كلها. قال: وكان من الحديث - فيما بلغني عن مسراه ﷺ عن ابن مسعود وأبي سعيد وعائشة ومعاوية وأم هانئ بنت أبي طالب رضي الله عنهم والحسن بن أبي الحسن وابن شهاب الزهري وقتادة وغيرهم من أهل العلم - ما اجتمع في هذا الحديث كل يحدث عنه بعض ما ذكر لي من أمره وكان في مسراه ﷺ وما ذكر لي منه بلاء. وتمحيص وأمر من أمر الله وقدرته وسلطانه فيه عبرة لأولي الألباب، وهدى ورحمة وثبات لمن آمن وصدق وكان من أمر الله على يقين، فأسري به كيف شاء وكما شاء ليريه من آياته ما أراد حتى عاين ما عاين من أمره وسلطانه العظيم وقدرته التي يصنع بها ما يريد.

فكان عبد الله بن مسعود فيما بلغني يقول: أتى رسول الله ﷺ بالبراق وهي الدابة التي كانت تحمل عليها الأنبياء قبله، تضع حافرها في منتهى طرفها فحمل عليها ثم خرج به صاحبه يرى الآيات فيما بين السماء والأرض حتى انتهى إلى بيت المقدس فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى في نفر من الأنبياء قد جمعوا له فصلّى بهم ثم أتي بثلاثة آنية من لبن وخمر، وماء فذكر أنه شرب إناء اللبن، «فقال لي جبريل: هديت وهديت أمتك».

وذكر ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/ ٣٩٧] في سياق الحسن البصري مرسلاً أن جبريل أيقظه ثم خرج به إلى باب المسجد الحرام فأركبه البراق وهو «دابة أبيض بين البغل والحمار وفي فخذيه جناحان يحفز بهما رجليه يضع حافره في منتهى طرفه، ثم حملني عليه ثم خرج معي لا يفوتني ولا أفوته».

قلت: وفي الحديث وهو عن قتادة فيما ذكره ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/ ٣٩٨] أن رسول الله ﷺ لما أراد ركوب البراق شمّس به فوضع جبريل يده على معرفته ثم قال: «ألا تستحي يا براق مما تصنع، فوالله ما ركبك عبد لله قبل محمد أكرم عليه منه. قال: فاستحى حتى ارفضّ عرقاً ثم قر حتى ركبته».

قال الحسن في حديثه [سيرة ابن هشام: ١/ ٣٩٨]: فمضى رسول الله ﷺ ومضى معه جبريل حتى انتهى به إلى بيت المقدس فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى في نفر من الأنبياء فأمهم رسول الله ﷺ فصلى بهم، ثم ذكر اختياره إناء اللبن على إناء الخمر وقول جبريل له: هديت وهديت أمتك، وحرّمت عليكم الخمر.

قال: ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى مكة فأصبح يخبر قريشاً بذلك فذكر [سيرة ابن هشام: ١/ ٣٩٨، ٣٩٩] أنه كذّبه أكثر الناس، وارتدت طائفة بعد إسلامها، وبادر الصدّيق إلى التصديق وقال: إني لأصدقه في خبر السماء بكرة وعشية أفلا أصدّقه في بيت المقدس! وذكر أن الصديق سأله عن صفة بيت المقدس فذكرها له رسول الله ﷺ قال: فيومئذ سمي أبو بكر الصديق.

قال الحسن [سيرة ابن هشام: ١/ ٣٩٨، ٣٩٩]: وأنزل الله في ذلك: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَاناً كَبِيراً﴾ الآية.

وذكر ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/ ٤٠٢] فيما بلغه عن أم هانئ. أنها قالت: ما أسري برسول الله ﷺ إلا من بيتي، نام عندي تلك الليلة بعدما صلى العشاء الآخرة فلما كان قبيل الفجر أهبّنا فلمّا صلى الصبح وصلينا معه. قال: «يا أم هانئ لقد صليت معكم العشاء الآخرة في هذا الوادي ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه ثم قد صليت الغداة معكم الآن كما ترين» ثم قام ليخرج فأخذت بطرف ردائه فقلت: يا نبي الله لا تحدث بهذا الحديث الناس فيكذبونك ويؤذوك. قال: «والله لأحدثنهموه» فأخبرهم فكذّبوه. فقال: «وآية ذلك أني مررت بعير بني فلان بوادي كذا وكذا، فأنفرهم حسّ الدابة فندّ لهم بعير فدللتهم عليه وأنا مُوجّه إلى الشام، ثم أقبلت حتى إذا كنت بضجنان مررت بعير بني فلان فوجدت القوم نياماً ولهم إناء فيه ماء قد غطوا عليه بشيء فكشفت غطاءه وشربت ما فيه، ثم غطيت عليه كما كان. وآية ذلك أن عيرهم يصوب الآن من ثنية التنعيم البيضاء يقدمها جمل أورق عليه غرارتان إحداهما سوداء والأخرى برقاء. قالت: فابتدر القوم الثنية فلم يلقهم أول من الجمل الذي وصف لهم، وسألوهم عن الإناء وعن البعير فأخبروهم كما ذكر صلوات الله وسلامه عليه.

وذكر يونس بن بكير عن أسباط عن إسماعيل السدّي أن الشمس كادت أن تغرب قبل أن يقدم ذلك العير، فدعا الله عزّ وجلّ فحبسها حتى قدموا كما وصف لهم. قال: فلم تحتبس الشمس على أحد إلا عليه ذلك اليوم وعلى يوشع بن نون. رواه البيهقي [في الدلائل: ٢/ ٤٠٤].

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/ ٤٠٣]: وأخبرني من لا أتهم عن أبي سعيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لما فرغت مما كان في بيت المقدس أتي بالمعراج ولم أر شيئاً قط أحسن منه وهو الذي يمد إليه ميتكم عينيه إذا حضر، فأصعدني فيه صاحبي حتى انتهى بي إلى باب من أبواب السماء يقال له: باب الحفظة، عليه ملك من الملائكة يقال له: إسماعيل تحت يده اثنا عشر ألف ملك، تحت يدي كل ملك منهم اثنا عشر ألف ملك».

قال: يقول رسول الله ﷺ إذا حدث بهذا الحديث: «﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾» [المدثر: ٣١]. ثم ذكر بقية الحديث.

وهو مطول جداً وقد سقناه بإسناده ولفظه بكماله في «التفسير» وتكلمنا عليه فإنه من غرائب الأحاديث وفي إسناده ضعف.

وكذا في سياق حديث أم هانئ فإن الثابت في «الصحيحين» [خ (٣٥٧٠)، م (١٦٢)] من رواية شريك بن عبد الله بن أبي نمر عن أنس أن الإسراء كان من المسجد من عند الحجر.

وفي سياقه غرابة أيضاً من وجوه قد تكلمنا عليها هناك ومنها قوله: وذلك قبل أن يوحى إليه، والجواب أن مجيئهم أول مرة كان قبل أن يوحى إليه فكانت تلك الليلة ولم يكن فيها شيء ثم جاءه الملائكة ليلة أخرى ولم يقل في ذلك: وذلك قبل أن يوحى إليه بل جاءه بعد ما أوحي إليه فكان الإسراء قطعاً بعد الإيحاء إما بقليل كما زعمه طائفة، أو بكثير نحو من عشر سنين كما زعمه آخرون وهو الأظهر، وغسل صدره تلك الليلة قبل الإسراء غسلاً ثانياً - أو ثالثاً - على قول لأنه مطلوب إلى الملأ الأعلى

والحضرة الإلهية ثم ركب البراق رفعةً له وتعظيماً وتكريماً.

فلما جاء بيت المقدس ربطه بالحلقة التي كانت تُربط بها الأنبياء ثم دخل بيت المقدس فصلّى في قبلته تحيّة المسجد

وأنكر حذيفة ﷺ دخوله إلى بيت المقدس وربطه الدابة وصلاته فيه [حديث حذيفة أخرجه ت (٣١٤٧)].

وهذا غريب، والنص المثبت مقدم على النافي.

ثم اختلفوا في اجتماعه بالأنبياء وصلاته بهم أكان قبل عروجه إلى السماء كما دلّ عليه ما تقدّم أو بعد نزوله منها كما دلّ عليه بعض السياقات وهو أنسب كما سنذكره على قولين فالله أعلم.

وقيل: إن صلاته بالأنبياء كانت في السماء، وهكذا تخيره من الآنية اللبن والخمر والماء هل كانت بيت المقدس كما تقدم أو في السماء كما ثبت في الحديث الصحيح خ (٣٨٨٧)، م (١٦٤)].

والمقصود أنه ﷺ لما فرغ من أمر بيت المقدس نصب له المعراج وهو السلّم، فصعد فيه إلى السماء، ولم يكن الصعود على البراق كما قد يتوهمه بعض الناس بل كان البراق مربوطاً على باب مسجد بيت المقدس ليرجع عليه إلى مكة. فصعد من سماء إلى سماء في المعراج حتى جاوز السابعة وكلما جاء سماء تلقته منها مقربوها ومن فيها من أكابر الملائكة والأنبياء.

وذكر أعيان من رآه من المرسلين كآدم في سماء الدنيا، ويحيى وعيسى في الثانية وإدريس في الرابعة، وموسى في السادسة - على الصحيح - وإبراهيم في السابعة مسنداً ظهره إلى البيت المعمور الذي يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة يتعبدون فيه صلاةً وطوافاً ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة، ثم جاوز مراتبهم كلهم حتى ظهر لمستوى يسمع فيه صريف الأقلام، ورفعت لرسول الله ﷺ سدرة المنتهى وإذا ورقها كآذان الفيلة، ونبقها كقلال هجر، وغشيها عند ذلك أمور عظيمة ألوان متعددة باهرة وركبتها الملائكة مثل الغربان على الشجر كثرة وفراش من ذهب وغشيها من نور الرب جل جلاله.

ورأى هناك جبريل عليه السلام له ستمائة جناح ما بين كل جناحين كما بين السماء والأرض وهو الذي يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى. عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى. عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى. إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى. مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم: ١٣ - ١٧] أي: ما زاغ يميناً ولا شمالاً ولا ارتفع عن المكان الذي حد له النظر إليه.

وهذا هو الثبات العظيم والأدب الكريم وهذه الرؤيا الثانية لجبريل عليه السلام على الصفة التي خلقه الله تعالى عليها كما نقله ابن مسعود [المسند: ٤١٢/١] وأبو هريرة [م (١٧٥)] وأبو ذر [خ (٣٤٩)، م (١٦٣)] وعائشة [خ (٤٨٥٥)، م (١٧٧)] رضي الله عنهم أجمعين.

والأولى هي قوله تعالى: عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى. ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى. وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى. ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى. فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى. فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ [النجم: ٥ - ١٠] وكان ذلك بالأبطح، تدلى جبريل على رسول الله ﷺ سادّاً عظم خلقه ما بين السماء والأرض حتى كان بينه وبينه قاب قوسين أو أدنى، هذا هو الصحيح في التفسير كما دل عليه كلام أكابر الصحابة المتقدم ذكرهم رضي الله عنهم.

فأما قول شريك عن أنس في حديث الإسراء [خ (٣٥٧٠)، م (١٦٢)]: ثم دنا الجبّار ربّ العزّة فتدلّى فكان قاب قوسين أو أدنى فقد يكون من فهم الراوي فأقحمه في الحديث والله أعلم.

وإن كان محفوظاً فليس بتفسير للآية الكريمة بل هو شيء آخر غير ما دلت عليه الآية الكريمة والله أعلم.

وفرض الله سبحانه وتعالى على عبده محمد ﷺ وعلى أمته الصلوات ليلتئذ خمسين صلاة في كل يوم وليلة، ثم لم يزل يختلف بين موسى وبين ربّه عزّ وجلّ حتى وضعها الرب جل جلاله وله الحمد والمنة إلى خمس. وقال: «هي خمس وهي خمسون: الحسنة بعشر أمثالها»، فحصل له التكليم من الربّ عزّ وجلّ ليلتئذ، وأئمة السنّة كالمطبقين على هذا، واختلفوا في الرؤية، فقال بعضهم: رآه بفؤاده مرّتين، قاله ابن عباس وطائفة.

وأطلق ابن عبّاس وغيره الرؤية وهو محمول على التقييد، وممن أطلق الرؤية أبو هريرة وأحمد بن حنبل رضي الله عنهما [ذكره القاضي عياض في الشفا: ٢٦٠/١] وصرّح بعضهم بالرؤية بالعينين[ذكره القاضي عياض في الشفا: ٢٦٠/١]، واختاره ابن جرير وبالغ فيه، وتبعه على ذلك آخرون من المتأخرين.

وممن نصّ على الرؤية بعيني رأسه الشيخ أبو الحسن الأشعري فيما نقله السهيلي عنه [الروض الأنف: ٤٤٥/٣]، واختاره الشيخ أبو زكريا النووي في فتاويه.

وقالت طائفة: لم يقع ذلك لحديث أبي ذر في «صحيح مسلم» [(١٧٨)]. قلت: يا رسول الله هل رأيت ربك؟ فقال: «نور أنّى أراه» وفي رواية: «رأيت نوراً».

قالوا: ولم يمكن رؤية الباقي بالعين الفانية ولهذا قال الله تعالى لموسى فيما روي في بعض الكتب الإلهية: يا موسى إنه لا يراني حي إلا مات، ولا يابس إلا تدهده.

والخلاف في هذه المسألة مشهور بين السلف والخلف والله أعلم.

ثم هبط رسول الله ﷺ إلى بيت المقدس والظاهر أن الأنبياء هبطوا معه تكريماً له وتعظيماً عند رجوعه من الحضرة الإلهية العظيمة كما هي عادة الوافدين لا يجتمعون بأحد قبل الذي طلبوا إليه، ولهذا كان كلّما مرّ على واحد منهم يقول له جبريل، عند مَقْدم ذاك للسلام عليه: هذا فلان فسلّم عليه، فلو كان قد اجتمع بهم قبل صعوده لما احتاج إلى تعرّف بهم مرّة ثانية. ومما يدل على ذلك أنه قال: «فلما حانت الصلاة: أمتهم». ولم يحن وقت إذ ذاك إلا صلاة الفجر فتقدمهم إماماً بهم عن أمر جبريل فيما يرويه عن ربّه عزّ وجلّ - فاستفاد بعضهم من هذا أن الإمام الأعظم يقدم في الإمامة على ربّ المنزل حيث كان بيت المقدس محلّهم ودار إقامتهم - ثم خرج منه فركب البراق وعاد إلى مكة فأصبح بها وهو في غاية الثبات والسكينة والوقار.

وقد عاين في تلك الليلة من الآيات والأمور التي لو رآها - أو بعضها - غيره لأصبح مندهشاً أو طائش العقل، ولكنه ﷺ أصبح واجماً - أي ساكناً - يخشى إن بدأ فأخبر قومه بما رأى أن يبادروا إلى تكذيبه، فتلطف بإخبارهم أولاً بأنه جاء بيت المقدس في تلك الليلة وذلك أن أبا جهل - لعنه الله - رأى رسول الله ﷺ في المسجد الحرام وهو جالس واجم. فقال له: هل من خبر؟ فقال: «نعم!» فقال: وما هو؟ فقال: «إني أسري بي الليلة إلى بيت المقدس». قال: إلى بيت المقدس؟ قال: «نعم!» قال: أرأيت إن دعوت قومك لك لتخبرهم أتخبرهم بما أخبرتني به؟ قال: «نعم!» فأراد أبو جهل جمع قريش ليسمعوا منه ذلك وأراد رسول الله ﷺ جمعهم ليخبرهم ذلك ويبلغهم.

فقال أبو جهل: هيا معشر قريش فاجتمعوا من أنديتهم فقال: أخبر قومك بما أخبرتني به، فقص عليهم رسول الله ﷺ خبر ما رأى وأنه جاء

بيت المقدس هذه الليلة وصلّى فيه، فمن بين مصفّق وبين مصفّر تكذيباً له واستبعاداً لخبره وطار الخبر بمكة وجاء الناس إلى أبي بكر ﷺ فاخبروه أن محمداً ﷺ يقول كذا وكذا. فقال: إنكم تكذبون عليه فقالوا: والله إنه ليقوله. فقال: إن كان قاله فلقد صدق. ثم جاء إلى رسول الله ﷺ وحوله مشركو قريش فسأله عن ذلك فأخبره فاستعلمه عن صفات بيت المقدس ليسمع المشركون ويعلموا صدقه فيما أخبرهم به.

وفي «الصحيح» [م (١٧٢)]: أن المشركين هم الذين سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك. قال: «فجعلت أخبرهم عن آياته فالتبس عليّ بعض الشيء، فجلّى الله لي بيت المقدس حتى جعلت أنظر إليه دون دار عقيل وأنعته لهم». فقالوا: أما الصفة فقد أصاب.

وذكر ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٠٢/١، ٤٠٣] ما تقدم من إخباره لهم بمروره بعيرهم وما كان من شربه ماءهم، فأقام الله عليهم الحجّة واستلزمت لهم المحجّة، فآمن من آمن على يقين من ربه وكفر من كفر بعد قيام الحجة عليه. كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠] أي اختباراً لهم وامتحاناً.

قال ابن عبّاس [هذه أخرجه: خ (٣٨٨٨)]: هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ.

وهذا مذهب جمهور السلف والخلف من أن الإسراء كان ببدنه وروحه صلوات الله وسلامه عليه كما دلّ على ذلك ظاهر السياقات من ركوبه وصعوده في المعراج وغير ذلك. ولهذا قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى﴾.

والتسبيح إنما يكون عند الآيات العظيمة الخارقة فدل على أنه بالروح والجسد والعبد عبارة عنهما وأيضاً فلو كان مناماً لما بادر كفّار قريش إلى التكذيب به والاستبعاد له إذ ليس في ذلك كبير أمر، فدلّ على أنه أخبرهم بأنه أسري به يقظةً لا مناماً.

وقوله في حديث شريك عن أنس [خ (٣٥٧٠)، م (١٦٢)]: «ثم استيقظت فإذا أنا في الحجر» معدود في غلطات شريك أو محمول على أن الانتقال من حال إلى حال يسمى يقظة كما سيأتي في حديث عائشة رضي الله عنها حين ذهب رسول الله ﷺ الطائف فكذبوه، قال: «فرجعت مهموماً فلم أستفق إلا بقرن الثعالب».

وفي حديث أبي أسيد [خ (٦١٩١)، م (٢١٤٩) كلاهما من حديث سهل بن سعد] حين جاء بابنه إلى رسول الله ﷺ ليحنكه فوضعه على فخذ رسول الله ﷺ واشتغل رسول الله ﷺ بالحديث مع الناس فرفع أبو أسيد ابنه، ثم استيقظ رسول الله ﷺ فلم يجد الصبي فسأل عنه فقالوا: رُفع فسمّاه المنذر.

وهذا الحمل أحسن من التغليط والله أعلم.

وقد حكى ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٩٩/١] فقال: حدثني بعض آل أبي بكر عن عائشة أم المؤمنين أنها كانت تقول: ما فقد جسد رسول الله ﷺ ولكن الله أسرى بروحه. قال: وحدثني يعقوب بن عتبة: أن معاوية كان إذا سئل عن مسرى رسول الله ﷺ قال: كانت رؤيا من الله صادقة.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٠٠/١]: فلم ينكر ذلك من قولهما لقول الحسن: إن هذه الآية نزلت في ذلك ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ وكما قال إبراهيم عليه السلام ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات: ١٠٢] وفي الحديث [خ (٣٥٦٩) بلفظ «نام عيني ولا ينام قلبي»]: «تنام عيني وقلبي يقظان».

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٣٩٧/١]: فالله أعلم أي ذلك كان قد جاءه وعاين فيه ما عاين من أمر الله تعالى على أي حاليه كان نائماً أو يقظان كل ذلك حق وصدق.

قلت: وقد توقف ابن إسحاق في ذلك وجوّز كلاً من الأمرين من حيث الجملة، ولكن الذي لا يشك فيه ولا يتمارى أنه كان يقظان لا محالة لما تقدم وليس مقتضى كلام عائشة رضي الله عنها أن جسده ﷺ ما فقد وإنما كان الإسراء بروحه أن يكون مناماً كما فهمه ابن إسحاق بل قد يكون وقع الإسراء بروحه حقيقة وهو يقظان لا نائم وركب البراق وجاء بيت المقدس وصعد السموات وعاين ما عاين حقيقة ويقظة لا مناماً. لعل هذا مراد عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، ومراد من تابعها على ذلك. لا ما فهمه ابن إسحاق من أنهم أرادوا بذلك المنام والله أعلم.

تنبيه: ونحن لا ننكر وقوع منام قبل الإسراء طبق ما وقع بعد ذلك، فإنه ﷺ كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، وقد تقدم مثل ذلك في حديث بدء الوحي أنه رأى مثل ما وقع له يقظة مناماً قبله ليكون ذلك من باب الإرهاص والتوطئة والتثبيت والإيناس والله أعلم.

ثم قد اختلف العلماء في أن الإسراء والمعراج هل كانا في ليلة واحدة أو كل في ليلة على حدة؟.

فمنهم من يزعم أن الإسراء في اليقظة، والمعراج في المنام.

وقد حكى المهلب بن أبي صفرة في «شرحه البخاري» [ذكره عنه السهيلي في الروض الأنف: ٤١٧/٣] عن طائفة أنهم ذهبوا إلى أن الإسراء مرتين؛ مرة بروحه مناماً، ومرة ببدنه وروحه يقظة. وقد حكاه الحافظ أبو القاسم السهيلي [الروض الأنف: ٤١٧/٣] عن شيخه أبي بكر بن العربي الفقيه المالكي. وهذا القول يجمع الأحاديث فإن في حديث شريك عن أنس: وذلك فيما يرى قلبه وتنام عيناه ولا ينام قلبه، وقال في آخره: «ثم استيقظت فإذا أنا في الحجر» وهذا منام. ودل غيره على اليقظة.

ومنهم من يدعي تعدد الإسراء في اليقظة أيضاً حتى قال بعضهم: إنها أربع إسراءات، وزعم بعضهم أن بعضها كان بالمدينة.

وقد حاول الشيخ شهاب الدين أبو شامة رحمه الله أن يوفّق بين اختلاف ما وقع في روايات حديث الإسراء بالجمع بالتعدد فجعل ثلاث إسراءات، مرة من مكة إلى بيت المقدس فقط على البراق، ومرة من مكة إلى السموات على البراق أيضاً لحديث حذيفة، ومرّة من مكة إلى بيت المقدس ثم إلى السموات.

فنقول: إن كان إنما حمله على القول بهذه الثلاث اختلاف الروايات فقد اختلف لفظ الحديث في ذلك على أكثر من هذ الثلاث صفات ومن أراد الوقوف على ذلك فلينظر فيما جمعناه مستقصىً في كتابنا «التفسير» عند قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً﴾ وإن كان إنما حمله أن التقسيم انحصر في ثلاث صفات بالنسبة إلى بيت المقدس وإلى السموات فلا يلزم من الحصر العقلي الوقوع كذلك في الخارج إلا بدليل والله أعلم.

والعجب أن الإمام أبا عبد الله البخاري رحمه الله ذكر الإسراء بعد ذكره موت أبي طالب فوافق ابن إسحاق في ذكره المعراج في أواخر الأمر، وخالفه في ذكره بعد موت أبي طالب، وابن إسحاق أخر ذكر موت أبي طالب على الإسراء، فالله أعلم أي ذلك كان.

والمقصود أن البخاري فرق بين الإسراء وبين المعراج فبوّب لكل منهما باباً على حدة فقال [خ (٣٨٨٦)]: باب حديث الإسراء وقول الله سبحانه

وتعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً﴾:

حدثنا يحيى بن بكير حدّثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب حدثني أبو سلمة بن عبد الرحمن قال: سمعت جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لما كذبني قريش كنت في الحجر فجلى الله لي بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه».

وقد رواه مسلم [(١٧٠)] والترمذي [(٣١٣٣)] والنسائي [(١١٢٨٢)] من حديث الزهري عن أبي سلمة عن جابر به.

ورواه مسلم [(١٧٢)] والنسائي [(١١٢٨٤)] من حديث عبد الله بن الفضل عن أبي سلمة، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه.

ثم قال البخاري [(٣٨٨٧)]: باب حديث المعراج:

حدّثنا هدبة بن خالد حدّثنا همام حدّثنا قتادة عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة: أن النبي ﷺ حدثهم عن ليلة أسري به. قال: «بينما أنا في الحطيم - وربما قال: في الحجر - مضطجعاً إذ أتاني آتٍ فقد - قال: وسمعته يقول: فشق - ما بين هذه إلى هذه». فقلت للجارود وهو إلى جنبي: ما يعني به؟ قال: من ثغرة نحره إلى شعرته. وسمعته يقول: من قصه إلى شعرته. «فاستخرج قلبي ثم أتيت بطست من ذهب مملوءة إيماناً فغسل قلبي ثم حشي ثم أعيد، ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض» فقال له الجارود: هو البراق يا أبا حمزة؟ قال: أنس: نعم! «يضع خطوه عند أقصى طرفه. فحملت عليه.

فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح قيل: من هذا؟ قال: جبريل قيل: ومن معك؟ قال: محمد قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم! قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء، ففتح فلما خلصت فإذا فيها آدم فقال: هذا أبوك آدم فسلم عليه فسلمت عليه فرد السلام ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح.

ثم صعد بي إلى السماء الثانية فاستفتح قيل: من هذا؟ قال: جبريل قيل: ومن معك؟ قال: محمد قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم! قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء، ففتح فلما خلصت إذا يحيى وعيسى وهما ابنا خالة. قال: هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما فسلمت فردا ثم قالا: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صعد بي إلى السماء الثالثة فاستفتح قيل: من هذا؟ قال: جبريل قيل: ومن معك؟ قال: محمد قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم! قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء، ففتح فلما خلصت إذا يوسف قال: هذا يوسف فسلم عليه فسلمت عليه فرد ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صعد بي حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح قيل: من هذا؟ قال جبريل قيل: ومن معك؟ قال: محمد قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم! قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء. ففتح فلما خلصت فإذا إدريس قال: هذا إدريس فسلم عليه فسلمت عليه فرد، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صعد بي حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح قيل: من هذا؟ قال جبريل قيل: ومن معك؟ قال: محمد قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم! قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء. فلما خلصت إذا هارون قال: هذا هارون فسلم عليه فسلمت عليه فرد ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صعد بي حتى أتى السماء السادسة فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال: جبريل قيل: ومن معك؟ قال: محمد قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم! قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء. فلما خلصت فإذا موسى قال: هذا موسى فسلم عليه، فسلمت عليه فرد ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح. فلما تجاوزت، بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلاماً بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي.

ثم صعد بي إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل قيل: من هذا؟ قال: جبريل قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: نعم! قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء. فلما خلصت فإذا إبراهيم قال: هذا أبوك إبراهيم فسلم عليه، فسلمت عليه فرد السلام ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح.

ثم رفعت لي سدرة المنتهى فإذا نبقها مثل قلال هجر، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة، قال: هذه سدرة المنتهى وإذا أربعة أنهار؛ نهران ظاهران، ونهران باطنان. فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات.

ثم رُفع لي البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ثم أتيت بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل، فأخذت اللبن قال: هي الفطرة التي أنت عليها وأمتك. ثم فرضت عليّ الصلوات خمسين صلاة كل يوم، فرجعت فمررت على موسى فقال: بما أمرت؟ قال: «أمرت بخمسين صلاة كل يوم». قال: إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم، وإني والله قد جرّبت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة؛ فارجع إلى ربك فسله التخفيف لأمتك.

فرجعت فوضع عني عشراً. فرجعت إلى موسى فقال مثله فرجعت فوضع عشراً. فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فوضع عني عشراً. فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فأمرت بعشر صلوات كل يوم فرجعت، فقال مثله، فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت؟ فقلت: بخمس صلوات كل يوم. قال: إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم، وإني قد جربت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فسله التخفيف لأمتك. قال: سألت ربي حتى استحييت ولكن أرضى وأسلم. قال: فلما جاوزت ناداني مناد: أمضيت فريضتي، وخففت عن عبادي.

هكذا روى البخاري هذا الحديث ههنا.

وقد رواه في مواضع أخر من «صحيحه» [خ (٣٢٠٧)] ومسلم [(١٦٤)] والترمذي [(٣٣٤٦)] والنسائي [(٤٤٧) وفي الكبرى (٣١٣)] من طرق عن قتادة عن أنس عن مالك بن صعصعة.

ورويناه من حديث أنس بن مالك عن أبي بن كعب. ومن حديث أنس عن أبي ذر. ومن طرق كثيرة عن أنس عن النبي ﷺ. وقد ذكرنا ذلك مستقصى بطرقه وألفاظه في «التفسير»، ولم يقع في هذا السياق ذكر بيت المقدس، وكان بعض الرواة يحذف بعض الخبر للعلم به، أو ينساه أو يذكر ما هو الأهم عنده، أو يبسط تارة فيسوقه كله، وتارة يحذف عن مخاطبه بما هو الأنفع عنده.

ومن جعل كل رواية إسراءً على حدة كما تقدّم عن بعضهم، فقد أبعد جداً. وذلك أن كل السياقات فيها السلام على الأنبياء، وفي كل منها تعريفه بهم، وفي كلّها يفرض عليه الصلوات. فكيف يمكن أن يدّعى تعدّد ذلك؟ هذا في غاية البعد والاستحالة والله أعلم.

ثم قال البخاري [(٣٨٨٨)]: حدّثنا الحميدي، حدّثنا سفيان عن عمرو، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾. قال: هي رؤيا عين، أريها رسول الله ﷺ ليلة

أسري به إلى بيت المقدس، ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾. قال: هي شجرة الزقوم.

٦٧- فريضة الصلاة

ولما أصبح رسول الله ﷺ من صبيحة ليلة الإسراء جاءه جبريل عند الزوال فبيّن له كيفية الصلاة وأوقاتها، وأمر رسول الله ﷺ أصحابه فاجتمعوا وصلى به جبريل في ذلك اليوم إلى الغد والمسلمون يأتمّون بالنبي ﷺ وهو يقتدي بجبريل كما جاء في الحديث عن ابن عباس وجابر: «أمني جبريل عند البيت مرتين». فبين له الوقتين الأول والآخر، وما بينهما الوقت الموسع، ولم يذكر توسعة في وقت المغرب.

وقد ثبت ذلك في حديث أبي موسى وبريدة وعبد الله بن عمرو وكلها في «صحيح مسلم» [(٦١٤، ٦١٣، ٦١٢)]. وموضع بسط ذلك في كتابنا «الأحكام» ولله الحمد.

فأما ما ثبت في «صحيح البخاري» [(١٠٨٩)] من طريق سفيان عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت: فرضت الصلاة أول ما فرضت ركعتين فأقرّت صلاة السفر وزيد في صلاة الحضر.

وكذا رواه الأوزاعي عن الزهري، ورواه الشعبي عن مسروق عنها [حديث الأوزاعي رواه النسائي (٤٥٣) والبيهقي في السنن الكبرى ٣/١. وحديث الشعبي رواه البيهقي في السنن الكبرى ٣/١].

وهذا مشكل من جهة أن عائشة كانت تتم الصلاة في السفر، وكذا عثمان بن عفان وقد تكلمنا على ذلك عند قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [النساء: ١٠١].

قال البيهقي [في الدلائل: ٤٠٧/٢]: وقد ذهب الحسن البصري إلى أن صلاة الحضر أول ما فرضت أربعاً كما ذكره مرسلاً من صلاته عليه السلام صبيحة الإسراء الظهر أربعاً، والعصر أربعاً، والمغرب ثلاثاً يجهر في الأوليين، والعشاء أربعاً يجهر في الأوليين. والصبح ركعتين يجهر فيهما.

قلت: فلعلّ عائشة أرادت أن الصلاة كانت قبل الإسراء تكون ركعتين ركعتين ثم لما فرضت الخمس فرضت حضراً على ما هي عليه، ورخص في السفر أن يصلّي ركعتين، كما كان الأمر عليه قديماً وعلى هذا لا يبقى إشكال بالكلية والله أعلم.

٦٨- آية انشقاق القمر

قال الله تعالى في محكم كتابه العزيز: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ. وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ. وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ [القمر: ١: ٣] وقد أجمع المسلمون على وقوع ذلك في زمنه عليه الصلاة والسلام. وجاءت بذلك الأحاديث المتواترة من طرق متعددة تفيد القطع عند من أحاط بها ونظر فيها. ونحن نذكر من ذلك ما تيسر إن شاء الله وبه الثقة وعليه التكلان.

وقد تقصينا ذلك في كتابنا «التفسير» فذكرنا الطرق والألفاظ محررة، ونحن نشير ههنا إلى أطراف من طرقها ونعزوها إلى الكتب المشهورة بحول الله وقوته. وذلك مروي عن أنس بن مالك، وجبير بن مطعم، وحذيفة، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم أجمعين.

أما أنس:

فقال الإمام أحمد [١٦٥/٣]: حدّثنا عبد الرزاق حدّثنا معمر عن قتادة عن أنس بن مالك قال: سأل أهل مكة النبي ﷺ آية، فانشق القمر بمكة مرتين. فقال: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القلم: ١].

ورواه مسلم [(٢٨٠٢)] عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق به.

وهذا من مرسلات الصحابة، والظاهر أنه تلقاه عن الجم الغفير من الصحابة، أو عن النبي ﷺ، أو عن الجميع.

وقد روى البخاري [(٣٦٣٧)] ومسلم [(٢٨٠٢)] هذا الحديث من طريق شيبان.

زاد البخاري [(٣٦٣٧)]: وسعيد بن أبي عروبة.

وزاد مسلم [(٢٨٠٢)]: وشعبة ثلاثتهم عن قتادة عن أنس: أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما. لفظ البخاري.

وأما جبير بن مطعم:

فقال الإمام أحمد [٨١/٤، ٨٢]: حدّثنا محمد بن كثير حدّثنا سليمان بن كثير عن حصين بن عبد الرحمن عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين، فرقة على هذا الجبل، وفرقة على هذا الجبل. فقالوا: سحرنا محمد، فقالوا: إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلّهم. تفرّد به أحمد.

وهكذا رواه ابن جرير [في تفسيره: ٨٦/٢٧] من حديث محمد بن فضيل وغيره عن حصين به.

وقد رواه البيهقي [في الدلائل: ٢٦٨/٢] من طريق إبراهيم بن طهمان وهشيم كلاهما عن حصين بن عبد الرحمن عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن جده به، فزاد رجلاً في الإسناد.

وأما حذيفة بن اليمان:

فروى أبو نعيم في «الدلائل» من طرق عن عطاء بن السائب عن أبي عبد الرحمن السلمي. قال: خطبنا حذيفة بن اليمان بالمدائن فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ ألا وإن الساعة قد اقتربت، ألا وإن القمر قد انشق، ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق، ألا وإن اليوم المضمار وغداً السباق. فلما كانت الجمعة الثانية انطلقت مع أبي إلى الجمعة فحمد الله وقال مثله وزاد: ألا وإن السابق من سبق إلى الجنة. فلما كنا في الطريق قلت لأبي: ما يعني بقوله: غداً السباق؟ قال: من سبق إلى الجنة.

وأما ابن عباس:

فقال البخاري [(٤٨٦٦)]: حدّثنا يحيى بن بكير حدّثنا بكر عن جعفر عن عراك بن مالك عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس. قال: إن القمر انشق في زمان النبي ﷺ.

ورواه البخاري أيضاً [(٣٦٣٨)] ومسلم [(٢٨٠٣)] من حديث بكر - وهو ابن مضر - عن جعفر هو ابن ربيعة، عن عراك به.

وقال ابن جرير [في تفسيره: ٨٦/٢٧]: حدثنا ابن المثنى، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا داود بن أبي هند، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ. وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ قال: قد مضى ذلك كان قبل الهجرة انشق القمر حتى رأوا

شقين.

وهكذا رواه العوفي عن ابن عباس ﷺ وهو من مرسلاته [تفسير الطبري: ٨٦/٢٧].

وقال الحافظ أبو نعيم [الدلائل: ٢٠٩]: حدّثنا سليمان بن أحمد حدّثنا بكر بن سهل حدّثنا عبد الغني بن سعيد حدّثنا موسى بن عبد الرحمن عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس. وعن مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس في قوله: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾.

قال ابن عباس: اجتمع المشركون إلى رسول الله ﷺ منهم الوليد بن المغيرة، وأبو جهل بن هشام، والعاص بن وائل، والعاص بن هشام، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن المطلب، وزمعة بن الأسود، والنضر بن الحارث، ونظراؤهم. فقالوا للنبي ﷺ: إن كنت صادقاً فشق لنا القمر فرقتين نصفاً على أبي قبيس ونصفاً على قعيقعان.

فقال لهم النبي ﷺ: «إن فعلت تؤمنوا؟» قالوا: نعم! وكانت ليلة بدر، فسأل الله عزّ وجلّ أن يعطيه ما سألوا، فأمسى القمر قد مُثل نصفاً على أبي قبيس ونصفاً على قعيقعان، ورسول الله ﷺ ينادي: «يا أبا سلمة بن عبد الأسد والأرقم بن الأرقم اشهدوا».

ثم قال أبو نعيم: وحدثنا سليمان بن أحمد حدّثنا الحسن بن العباس الرازي عن الهيثم بن النعمان حدّثنا إسماعيل بن زياد عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عبّاس. قال: انتهى أهل مكة إلى رسول الله ﷺ فقالوا: هل من آية نعرف بها أنك رسول الله؟ فهبط جبريل فقال: يا محمد قل لأهل مكة أن يحتفلوا هذه الليلة فسيرون آية إن انتفعوا بها. فأخبرهم رسول الله ﷺ بمقالة جبريل فخرجوا ليلة الشق ليلة أربع عشرة، فانشق القمر نصفين نصفاً على الصفا ونصفاً على المروة فنظروا، ثم قالوا بأبصارهم فمسحوها، ثم أعادوا النظر فنظروا ثم مسحوا أعينهم ثم نظروا. فقالوا: يا محمد ما هذا إلا سحر ذاهب. فأنزل الله: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾.

ثم روى [أبو نعيم في الدلائل: ٢١٠] عن الضحّاك عن ابن عبّاس. قال: جاءت أحبار اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: أرنا آية حتى نؤمن بها، فسأل ربه فأراهم القمر قد انشقّ فصار قمرين؛ أحدهما على الصفا والآخر على المروة، قدر ما بين العصر إلى الليل ينظرون إليه ثم غاب. فقالوا: هذا سحر مستمر.

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني [في المعجم الكبير: ١١٦٤٢]: حدّثنا أحمد بن عمرو البزار حدّثنا محمد بن يحيى القطعي حدّثنا محمد بن بكر حدّثنا ابن جريج عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس. قال: كسف القمر على عهد رسول الله ﷺ فقالوا: سحر القمر فنزلت: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ. وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾

وهذا إسناد جيد وفيه أنه كسف تلك الليلة فلعله حصل له انشقاق في ليلة كسوفه ولهذا خفي أمره على كثير من أهل الأرض ولعلّ ذلك في بعض ليالي الشتاء، حيث يكون أكثر الناس في البيوت، أو ستره غيم عن كثير من الأرض ومع هذا قد شوهد ذلك في كثير من بقاع الأرض ويقال: إنه أرخ ذلك في بعض بلاد الهند، وبني بناء تلك الليلة وأرخ بليلة انشقاق القمر.

وأما ابن عمر:

فقال الحافظ البيهقي [في الدلائل: ٢٦٧/٢]: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ وأبو بكر أحمد بن الحسن القاضي قالا: حدّثنا أبو العباس الأصم حدّثنا العباس بن محمد الدوري حدّثنا وهب بن جرير عن شعبة عن الأعمش عن مجاهد عن عبد الله بن عمر، في قوله: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾. قال: وقد كان ذلك على عهد رسول الله ﷺ، انشق فلقتين؛ فلقةً من دون الجبل وفلقةً من خلف الجبل، فقال النبي ﷺ: «اللهم اشهد». وهكذا رواه مسلم [(٢٨٠١)] والترمذي [(٣٢٨٨)] من طرق عن الأعمش، عن مجاهد به.

قال مسلم [(٢٨٠٠)] كرواية مجاهد عن أبي معمر عن ابن مسعود.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وأما عبد الله بن مسعود:

فقال الإمام أحمد [(٣٧٧/١)]: حدّثنا سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن أبي معمر عن ابن مسعود. قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقّتين حتى نظروا إليه، فقال رسول الله ﷺ «اشهدوا».

وهكذا أخرجاه [خ (٣٦٣٦)، م (٢٨٠٠)] من حديث سفيان - وهو ابن عيينة - به.

ومن حديث الأعمش عن إبراهيم عن أبي معمر عن عبد الله بن سخبرة عن عبد الله بن مسعود قال: انشق القمر ونحن مع رسول الله ﷺ بمنى، فقال النبي ﷺ: «اشهدوا» وذهبت فرقة نحو الجبل. لفظ البخاري.

ثم قال البخاري [(٣٨٦٩) تعليقاً]: وقال أبو الضحاك عن مسروق عن عبد الله: بمكة. وتابعه محمد بن مسلم عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن أبي معمر عن عبد الله رضي الله عنه.

وقد أسند أبو داود الطيالسي [في مسنده (٢٩٥)] حديث أبي الضحى عن مسروق ذلك في «مسنده» فقال: ثنا أبو عوانة، عن المغيرة، عن أبي الضحى، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود. قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ، فقالت قريش: هذا سحر ابن أبي كبشة. فقالوا: انظروا ما يأتيكم به السفّار، فإن محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم. قال: فجاء السفّار فقالوا ذلك.

وقال البيهقي [في الدلائل: ٢٦٦/٢]: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ثنا أبو العبّاس حدّثنا العبّاس بن محمّد الدوري حدّثنا سعيد بن سليمان حدّثنا هشيم حدّثنا مغيرة عن أبي الضحى عن مسروق عن عبد الله قال: انشق القمر بمكة حتى صار فرقتين. فقال كفّار قريش لأهل مكة: هذا سحر سحركم به ابن أبي كبشة، انظروا السفار فإن كانوا رأوا ما رأيتم فقد صدق وإن كانوا لم يروا مثل ما رأيتم فهو سحر سحركم به. قال: فسئل السفار - قال: وقدموا من كل وجهة - فقالوا: رأينا.

وهكذا رواه ابن جرير [في تفسيره: ٨٥/٢٧] من حديث المغيرة، وزاد: فأنزل الله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾.

ورواه أبو نعيم من حديث جرير عن الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق عن عبد الله به.

وقال الإمام أحمد [٤١٣/١]: حدّثنا مؤمل حدّثنا إسرائيل عن سماك عن إبراهيم عن الأسود عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ حتى رأيت الجبل بين فرجتي القمر.

وهكذا رواه ابن جرير [في تفسيره: ٨٥/٢٧] من حديث أسباط عن سمّاك به.

وقال الحافظ أبو نعيم: حدّثنا أبو بكر الطلحي حدّثنا أبو حصين محمد بن الحسين الوادعي حدّثنا يحيى الحمّاني حدّثنا يزيد عن عطاء عن سماك عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال: كنا مع النبي ﷺ بمنى فانشق القمر حتى صار فرقتين فتوارت، فرقة خلف الجبل فقال النبي ﷺ:

«اشهدوا، اشهدوا» [أخرجه الطبراني في الكبير (١٠٠٠٩) من طريق إبراهيم به].

وقال أبو نعيم: حدّثنا سليمان بن أحمد حدّثنا جعفر بن محمد القلانسي حدّثنا آدم بن أبي إياس ثنا الليث بن سعد حدّثنا هشام بن سعد عن عتبة عن عبد الله بن عتبة عن ابن مسعود. قال: انشق القمر ونحن بمكة، فلقد رأيت أحد شقيه على الجبل الذي بمنى ونحن بمكة.

وحدثنا [القائل أبو نعيم في الدلائل: ٢٠٧] أحمد بن إسحاق حدّثنا أبو بكر بن أبي عاصم حدّثنا محمد بن حاتم أبو سعيد حدّثنا معاوية بن عمرو عن زائدة عن عاصم عن زر عن عبد الله قال: انشقّ القمر بمكة فرأيته فرقتين.

ثم روى من حديث علي بن سعيد بن مسروق حدّثنا موسى بن عمير عن منصور بن المعتمر عن زيد بن وهب عن عبد الله بن مسعود. قال: رأيت القمر والله منشقاً بائنتين بينهما حراء [الطبراني في الكبير (٩٩٩٧) من طريق علي بن سعيد به].

وروى أبو نعيم من طريق السدّي الصغير عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. قال: انشق القمر فلقتين. فلقة ذهبت، وفلقة بقيت.

قال ابن مسعود: لقد رأيت جبل حراء من بين فلقتي القمر، فذهبت فلقة. فتعجب أهل مكة من ذلك وقالوا: هذا سحر مصنوع سيذهب.

وقال ليث بن أبي سليم عن مجاهد قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين. فقال النبي ﷺ لأبي بكر: «اشهد يا أبا بكر» وقال المشركون: سحر القمر حتى انشق [تفسير الطبري: ٢٧/٨٧].

فهذه طرق متعدّدة قوية الأسانيد تفيد القطع لمن تأملها وعرف عدالة رجالها. وما يذكره بعض القصّاص من أن القمر سقط إلى الأرض حتى دخل في كم النبي ﷺ وخرج من الكم الآخر فلا أصل له، وهو كذب مفترى ليس بصحيح.

والقمر حين انشق لم يزايل السماء غير أنه حين أشار إليه النبي ﷺ انشق عن إشارته فصار فرقتين، فسارت واحدة حتى صارت من وراء حراء، ونظروا إلى الجبل بين هذه وهذه كما أخبر بذلك ابن مسعود أنه شاهد ذلك.

وما وقع في رواية أنس في «مسند أحمد» [١٦٥/٣]: فانشق القمر بمكة مرتين فيه نظر، والظاهر أنه أراد فرقتين والله أعلم.

٦٩- وفاة أبي طالب عمّ النبيّ ﷺ وذكر الأحاديث فيه

وقيل: بل هي توفيت قبله والمشهور الأول. وهما المشفقان؛ هذا في الظاهر وهذه في الباطن، هناك كافر وهذه مؤمنة صديقة رضي الله عنها وأرضاها.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤١٦/١]: ثم إن خديجة وأبا طالب هلكا في عام واحد، فتتابعت على رسول الله ﷺ المصائب بهلك خديجة، وكانت له وزير صدق على الإسلام يسكن إليها، وبهلك عمّه أبي طالب وكان له عضداً وحرزاً في أمره، ومنعة وناصراً على قومه. وذلك قبل مهاجره إلى المدينة بثلاث سنين فلما هلك أبو طالب، نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش فنثر على رأسه تراباً.

فحدثني هشام بن عروة عن أبيه. قال: فدخل رسول الله ﷺ بيته والتراب على رأسه فقامت إليه إحدى بناته فجعلت تغسله وتبكي، ورسول الله ﷺ يقول: «لا تبكي يا بنية فإن الله مانعٌ أباك» ويقول بين ذلك: «ما نالتني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب»

وذكر ابن إسحاق قبل ذلك [سيرة ابن هشام: ٤١٦/١]: أن أحدهم ربما طرح الأذى في برمته ﷺ إذا نصبت له. قال: فكان إذا فعلوا ذلك - كما حدثني عمر بن عبد الله عن عروة - يخرج بذلك الشيء على العود فيقف به على بابه ثم يقول: «يا بني عبد مناف أي جوار هذا؟» ثم يلقيه في الطريق.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤١٧/١]: لما اشتكى أبو طالب وبلغ قريشاً ثقله قالت قريش بعضها لبعض: إن حمزة وعمر قد أسلما، وقد فشا أمر محمد في قبائل قريش كلها، فانطلقوا بنا إلى أبي طالب فليأخذ لنا على ابن أخيه وليعطه منا، فإنا والله ما نأمن أن يبتزونا أمرنا.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤١٧/١]: وحدثني العباس بن عبد الله بن معبد عن بعض أهله عن ابن عباس. قال: لما مشوا إلى أبي طالب وكلموه - وهم أشراف قومه عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف، وأبو سفيان بن حرب - في رجال من أشرافهم، فقالوا: يا أبا طالب إنك منّا حيث قد علمت، وقد حضرك ما ترى وتخوّفنا عليك وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك فادعه فخذ لنا منه وخذ له منّا ليكفّ عنا ولنكفّ عنه، وليدعنا وديننا ولندعه ودينه. فبعث إليه أبو طالب فجاءه فقال: يا ابن أخي هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا إليك ليعطوك وليأخذوا منك.

قال: فقال رسول الله ﷺ: «نعم كلمة واحدة تعطونها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم». فقال أبو جهل: نعم وأبيك وعشر كلمات. قال: «تقولون لا إله إلا الله وتخلعون ما تعبدون من دونه». قال: فصفّقوا بأيديهم. ثم قالوا: يا محمد أتريد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً؟! إن أمرك لعجب. قال: ثم قال بعضهم لبعض: إنه والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئاً مما تريدون، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم حتى يحكم الله بينكم وبينه، ثم تفرقوا.

قال: فقال أبو طالب: والله يا ابن أخي ما رأيتك سألتهم شططاً. قال: فطمع رسول الله ﷺ فيه فجعل يقول له: «أي عم فأنت فقلها أستحل لك بها الشفاعة يوم القيامة» قال: فلما رأى حرص رسول الله ﷺ قال: يا ابن أخي والله لولا مخافة السبة عليك وعلى بني أبيك من بعدي، وأن تظن قريش أني إنّما قلتها جزعاً من الموت لقلتها، لا أقولها إلا لأسرك بها. قال: فلما تقارب من أبي طالب الموت نظر العباس إليه يحرّك شفتيه فأصغى إليه بأذنه، قال: فقال: يا ابن أخي والله لقد قال أخي الكلمة التي أمرته أن يقولها قال: فقال رسول الله ﷺ: «لم أسمع» قال: وأنزل الله تعالى في أولئك الرهط: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ. بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ [ص: ١-٢].

وقد تكلمنا على ذلك في «التفسير» ولله الحمد والمنة.

وقد استدل بعض من ذهب من الشيعة وغيرهم من الغلاة إلى أن أبا طالب مات مسلماً بقول العبّاس هذا الحديث: يا ابن أخي لقد قال أخي الكلمة التي أمرته أن يقولها. يعني: لا إله إلا الله.

والجواب عن هذا من وجوه. أحدها: أن في السند مبهماً لا يعرف حاله وهو قوله: عن بعض أهله وهذا إبهام في الاسم والحال، ومثله يتوقف فيه لو انفرد.

وقد روى الإمام أحمد [٢٢٨/١] والنسائي [(١١٤٣٧)] وابن جرير [في تفسيره: ١٢٥/٢٣] نحواً من السياق من طريق أبي أسامة عن الأعمش حدّثنا عباد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فذكره ولم يذكر قول العباس.

ورواه الثوري أيضاً عن الأعمش عن يحيى بن عمارة الكوفي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فذكره بغير زيادة قول العباس.

ورواه الترمذي [٣٢٣٢] وحسنه والنسائي [(١١٤٣٦)] وابن جرير أيضاً [في تفسيره: ١٢٥/٢٣]

ولفظ الحديث من سياق البيهقي [الدلائل: ٣٤٥/٢] فيما رواه من طريق الثوري عن الأعمش عن يحيى بن عمارة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، قال: مرض أبو طالب فجاءت قريش وجاء النبي ﷺ عند رأس أبي طالب، مجلس رجل فقام أبو جهل كي يمنعه ذاك. وشكوه إلى أبي طالب. فقال: يا ابن أخي ما تريد من قومك؟ فقال: «يا عم إنما أريد منهم كلمة تذل لهم بها العرب، وتؤدي إليهم بها الجزية العجم، كلمة واحدة». قال: ما هي؟ قال: «لا إله إلا الله» قال: فقالوا: أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب! قال: ونزل فيهم ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ الآيات إلى قوله ﴿إِلاَّ اخْتِلاقٌ﴾.

ثم قد عارضه - أعني سياق ابن إسحاق - ما هو أصح منه، وهو ما رواه البخاري [٣٨٨٤] قائلا:

حدّثنا محمود حدّثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهري عن ابن المسيّب عن أبيه رضي الله عنه. أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل. فقال: «أي عم قل: لا إله إلا الله كلمة أحاجّ لك بها عند الله». فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب ترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزالا يكلمانه حتى قال آخر ما كلّمهم به: على ملّة عبد المطلب. فقال النبي ﷺ: «لأستغفرنّ لك ما لم أنه عنك».

فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣] ونزلت: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.

ورواه مسلم [(٢٤)] عن إسحاق بن إبراهيم وعبد عن عبد الرزاق.

وأخرجاه [خ (١٣٦٠)، م (٢٤)] أيضاً من حديث الزهري عن سعيد بن المسيّب عن أبيه بنحوه. وقال فيه: فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعودان له بتلك المقالة حتى قال آخر ما قال: هو على ملّة عبد المطلب. وأبى أن يقول لا إله إلا الله فقال النبي ﷺ: «أما لأستغفرن لك ما لم أنه عنك» فأنزل الله - يعني بعد ذلك -: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى﴾ ونزل في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾.

وهكذا روى الإمام أحمد [٤٤١/٢] ومسلم [(٢٥)] والترمذي [(٣١٨٨)] من حديث يزيد بن كيسان عن أبي حازم عن أبي هريرة. قال: لما حضرت وفاة أبي طالب أتاه رسول الله ﷺ فقال: «يا عمّاه قل: لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة» فقال: لولا أن تعيرني قريش يقولون ما حمله عليه إلا جزع الموت لأقررت بها عينك، ولا أقولها إلا لأقر بها عينك. فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.

وهكذا قال عبد الله بن عباس وابن عمر ومجاهد والشعبي وقتادة: إنها نزلت في أبي طالب حين عرض عليه رسول الله ﷺ أن يقول: لا إله إلا الله فأبى أن يقولها، وقال: هو على ملّة الأشياخ وكان آخر ما قال: هو على ملّة عبد المطلب.

ويؤكد هذا كله ما قال البخاري [(٣٨٨٣)]: حدّثنا مسدد حدّثنا يحيى عن سفيان عن عبد الملك بن عمير حدّثني عبد الله بن الحارث حدّثنا العباس بن عبد المطلب أنه قال: قلت للنبي ﷺ: ما أغنيت عن عمّك فإنه كان يحوطك ويغضب لك. قال: «هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل» من النار».

ورواه مسلم في «صحيحه» [(٢٠٩)] من طرق عن عبد الملك بن عمير به.

وأخرجاه في «الصحيحين» [خ (٣٨٨٥)، م (٢١٠)] من حديث الليث حدّثني ابن الهاد عن عبد الله بن خباب عن أبي سعيد أنه سمع النبي ﷺ وذكر عنده عمّه فقال: «لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيجعل في ضحضاح من النار يبلغ كعبيه يغلي منه دماغه» لفظ البخاري.

وفي رواية: «تغلي منه أم دماغه».

وروى مسلم [(٢١٢)] عن أبي بكر بن أبي شيبة عن عفّان عن حمّاد بن سلمة عن ثابت عن أبي عثمان عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «أهون أهل النار عذاباً أبو طالب، منتعل بنعلين من نار يغلي منهما دماغه».

وفي «مغازي» يونس بن بكير: «يغلي منهما دماغه حتى يسيل على قدميه» ذكره السهيلي [الروض الأنف: ٢٨/٤].

وقال الحافظ أبو بكر البزار في «مسنده»: حدّثنا عمر - هو ابن إسماعيل بن مجالد - حدّثنا أبي عن مجالد عن الشعبي عن جابر. قال: سئل رسول الله ﷺ -أو قيل له - هل نفعت أبا طالب؟ قال: «أخرجته من النار إلى ضحضاح منها» تفرّد به البزار.

قال السهيلي [الروض الأنف: ٢٧/٤]: وإنما لم يقبل النبي ﷺ شهادة العبّاس لأخيه أنه قال الكلمة، وقال: «لم أسمع» لأن العبّاس كان إذ ذاك كافراً غير مقبول الشهادة.

قلت: وعندي أن الخبر بذلك ما صحّ لضعف سنده كما تقدّم. ومما يدل على ذلك أنه سأل النبي ﷺ بعد ذلك عن أبي طالب فذكر له ما تقدم، وبتقدير صحته لعله قال ذلك عند معاينة الملك بعد الغرغرة حين لا ينفع نفساً إيمانها والله أعلم.

وقال أبو داود الطيالسي [في مسنده: ١٢٠]: حدّثنا شعبة عن أبي إسحاق سمعت ناجية بن كعب يقول: سمعت علياً يقول: لما توفي أبي أتيت رسول الله ﷺ فقلت: إن عمك قد توفي. قال: «اذهب فواره» فقلت: إنه مات مشركاً، فقال: «اذهب فواره ولا تحدثن شيئاً حتى تأتيني» ففعلت ثم أتيته، فأمرني أن أغتسل.

ورواه النسائي [(١٩٠)] عن محمد بن المثنى عن غندر عن شعبة.

ورواه أبو داود [(٣٢١٤)] والنسائي [(٢٠٠٥)] من حديث سفيان عن أبي إسحاق عن ناجية عن علي: لما مات أبو طالب قلت يا رسول الله: إن عمك الشيخ الضال قد مات فمن يواريه؟ قال: «اذهب فوار أباك ولا تحدثن شيئاً حتى تأتيني» فأتيته فأمرني فاغتسلت، ثم دعا لي بدعوات ما يسرني أن لي بهن ما على الأرض من شيء.

وقال الحافظ البيهقي [الدلائل: ٣٤٩/٢]: أخبرنا أبو سعد المالكي حدّثنا أبو أحمد بن عدي حدّثنا محمد بن هارون بن حميد حدّثنا محمد بن عبد

العزيز بن أبي رزمة حدّثنا الفضل عن إبراهيم بن عبد الرحمن عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس: أن النبي ﷺ عارض جنازة أبي طالب فقال: «وصلتك رحم، وجزيت خيراً يا عم». قال [البيهقي في الدلائل: ٣٤٩/٢]: وروي عن أبي اليمان الهوزني عن النبي ﷺ مرسلاً وزاد: ولم يقم على قبره. قال: وإبراهيم بن عبد الرحمن هذا هو الخوارزمي تكلموا فيه.

قلت: قد روى عنه غير واحد منهم الفضل بن موسى السيناني ومحمّد بن سلام البيكندي، ومع هذا قال ابن عدي [في الكامل: ٢٥٩/١]: ليس بمعروف، وأحاديثه عن كل من روى عنه ليست بمستقيمة.

وقد قدمنا ما كان يتعاطاه أبو طالب من المحاماة والمحاجة والممانعة عن رسول الله ﷺ والدفع عنه وعن أصحابه وما قاله فيه من المادح والثناء، وما أظهره له ولأصحابه من المودّة والمحبّة والشفقة في أشعاره التي أسلفناها وما تضمنته من العيب والتنقص لمن خالفه وكذّبه بتلك العبارة الفصيحة البليغة الهاشمية المطلبية التي لا تدانى ولا تسامى، ولا يمكن عربياً مقاربتها ولا معارضتها، وهو في ذلك كله يعلم أن رسول الله ﷺ صادق بار راشد، ولكن مع هذا لم يؤمن قلبه. وفرق بين علم القلب وتصديقه كما قررنا ذلك في شرح كتاب الإيمان من «صحيح البخاري»، وشاهد ذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦] وقال تعالى في قوم فرعون ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤٠] وقال موسى لفرعون قَالَ ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً﴾ [الإسراء: ١٠٢].

وقول بعض السلف في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ إنها نزلت في أبي طالب حيث كان ينهى الناس عن أذية رسول الله ﷺ وينأى هو عما جاء به الرسول من الهدى ودين الحق. فقد روي عن ابن عباس، والقاسم بن مخيمرة، وحبيب بن أبي ثابت، وعطاء بن دينار، ومحمّد بن كعب، وغيرهم، وفيه نظر والله أعلم.

والأظهر - والله أعلم - الرواية الأخرى عن ابن عباس [تفسير الطبري: ١٧٢/٧]؛ وهم ينهون الناس عن محمد أن يؤمنوا به. وبهذا قال مجاهد وقتادة والضحاك وغير واحد - وهو اختيار ابن جرير [في تفسيره: ١٧٢/٧، ١٧٣] - وتوجيهه أن هذا الكلام سيق لتمام ذم المشركين حيث كانوا يصدّون الناس عن اتباع الحق ولا يتفعون هم أيضاً به. ولهذا قال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّى إِذَا جَآؤُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ. وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٥ - ٢٦].

وهذا اللفظ وهو قوله ﴿وَهُمْ﴾ يدل على أن المراد بهذا جماعة وهم المذكورون في سياق الكلام وقوله: ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ يدل على تمام الذم. وأبو طالب لم يكن بهذه المثابة بل كان يصد الناس عن أذية رسول الله ﷺ وأصحابه بكل ما يقدر عليه من فعال ومقال، ونفس ومال. ولكن مع هذا لم يقدر الله له الإيمان لما له تعالى في ذلك من الحكمة العظيمة، والحجة القاطعة البالغة الدامغة التي يجب الإيمان بها والتسليم لها، ولولا ما نهانا الله عنه من الاستغفار للمشركين لاستغفرنا لأبي طالب وترحمنا عليه.

٧٠- موتُ خديجة زوج النبيّ ﷺ وذكر فضائلها

في موت خديجة بنت خويلد وذكر شيء من فضائلها ومناقبها رضي الله عنها وأرضاها، وجعل جنات الفردوس متقلبها ومثواها. وقد فعل ذلك لا محالة بخبر الصادق المصدوق حيث بشّرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب.

قال يعقوب بن سفيان [المعرفة والتاريخ: ٢٦٨/٣]: حدّثنا أبو صالح حدّثنا الليث حدّثني عقيل عن ابن شهاب. قال: قال عروة بن الزبير: وقد كانت خديجة توفيت قبل أن تفرض الصلاة.

ثم روي [في المعرفة والتاريخ: ٢٦٨/٣] من وجه آخر عن الزهري أنه قال: توفيت خديجة بمكة قبل خروج رسول الله ﷺ إلى المدينة، وقبل أن تفرض الصلاة.

وقال محمد بن إسحاق [السيرة: ٢٢٧، سيرة ابن هشام: ٤١٦/١]: ماتت خديجة وأبو طالب في عام واحد.

وقال البيهقي [في الدلائل: ٣٥٢/٢، ٣٥٣]: بلغني أن خديجة توفيت بعد موت أبي طالب بثلاثة أيام. ذكره عبد الله بن منده في كتاب «المعرفة»، وشيخنا أبو عبد الله الحافظ.

قال البيهقي [في الدلائل: ٣٥٣/٣]: وزعم الواقدي أن خديجة وأبا طالب ماتا قبل الهجرة بثلاث سنين عام خرجوا من الشعب، وأن خديجة توفيت قبل أبي طالب بخمس وثلاثين ليلة.

قلت: مرادهم قبل أن تفرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء، وكان الأنسب بنا أن نذكر وفاة أبي طالب وخديجة قبل الإسراء كما ذكره البيهقي وغير واحد، ولكن أخرنا ذلك عن الإسراء لمقصد ستطلع عليه بعد ذلك فإن الكلام به ينتظم ويتسق السياق كما تقف على ذلك إن شاء الله.

وقال البخاري [(٣٨٢٠)]: حدّثنا قتيبة، حدّثنا محمد بن فضيل بن غزوان عن عمارة عن أبي زرعة عن أبي هريرة. قال: أتى جبريل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله هذه خديجة قد أتت، معها إناء فيه إدام - أو طعام أو شراب - فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب.

وقد رواه مسلم [(٢٤٣٢)] من حديث محمد بن فضيل به.

وقال البخاري [(٣٨١٩)]: حدّثنا مسدد، حدّثنا يحيى عن إسماعيل. قال: قلت لعبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنهما: بشر النبي ﷺ خديجة؟ قال: نعم! ببيت من قصب لا صخب فيه ولا نصب.

ورواه البخاري [(١٧٩٢)] أيضاً ومسلم [(٢٤٣٣)] من طرق عن إسماعيل بن أبي خالد به.

قال السهيلي [الروض الأنف: ٤٢٥/٢، ٤٢٦]: وإنما بشرها ببيت في الجنة من قصب - يعني: قصب اللؤلؤ - لأنها حازت قصب السبق إلى الإيمان، لا صخب فيه ولا نصب لأنها لم ترفع صوتها على النبي ﷺ ولم تتعبه يوماً من الدهر فلم تصخب عليه يوماً ولا آذته أبداً.

وأخرجاه في «الصحيحين» [خ (٣٨١٦)، م (٢٤٣٥)] من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ما غرت على امرأة للنبي ﷺ ما غرت على خديجة - وهلكت قبل أن يتزوجني - لما كنت اسمعه يذكها، وأمره الله أن يبشرها ببيت من قصب. وإن كان ليذبح الشاة فيهدي في خلائلها منها ما يسعهن. لفظ البخاري.

وفي لفظ له [خ (٣٨١٧)] عن عائشة: ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة من كثرة ذكر رسول الله ﷺ إياها. قالت: وتزوجني بعدها بثلاث سنين، وأمره ربه - أو جبريل عليه السلام - أن يبشرها ببيت في الجنة من قصب. وفي لفظ له [خ (٣٨١٨)] قالت: ما غرت على أحد من نساء النبي ﷺ ما غرت على خديجة - وما رأيتها - ولكن كان يكثر ذكرها وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء، ثم يبعثها في صدائق خديجة. فربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة فيقول: «إنها كانت وكانت، وكان لي منها ولد».

ثم قال البخاري [(٣٨٢١)]: حدّثنا إسماعيل بن خليل أخبرنا علي بن مسهر عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت: استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله ﷺ فعرف استئذان خديجة فارتاع فقال: «اللهم هالة».

قالت: فغرت فقلت: ما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين هلكت في الدهر قد أبدلك الله خيراً منها. وهكذا رواه مسلم [(٢٤٣٧)] عن سويد بن سعيد عن علي بن مسهر به.

وهذا ظاهر في التقرير على أن عائشة خير من خديجة إما فضلاً وإما عشرة. إذا لم ينكر عليها ولا رد عليها ذلك كما هو ظاهر سياق البخاري رحمه الله.

ولكن قال الإمام أحمد [١٥٤/٦]: حدّثنا مؤمل أبو عبد الرحمن حدّثنا حماد - هو ابن سلمة - عن عبد الملك - هو ابن عمير- عن موسى بن طلحة عن عائشة قالت: ذكر رسول الله ﷺ يوماً خديجة فاطنب في الثناء عليها، فأدركني ما يدرك النساء من الغيرة، فقلت: لقد أعقبك الله يا رسول الله من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين. قالت: فتغير وجه رسول الله ﷺ تغيراً لم أره تغير عند شيء قط إلا عند نزول الوحي، أو عند المخيلة، حتى يعلم رحمة أو عذاب؟.

وكذا رواه [في المسند: ١٥٠/٦] عن بهز بن أسد وعثمان بن مسلم كلاهما عن حماد بن سلمة عن عبد الملك بن عمير به.

وزاد بعد قوله: حمراء الشدقين: هلكت في الدهر الأول. قالت: فتمعرّ وجهه تمعراً ما كنت أراه إلا عند نزول الوحي أو عند المخيلة حتى ينظر أرحمة أم عذاب؟ تفرّد به أحمد. وهذا إسناد جيد.

وقال الإمام أحمد أيضاً [١١٧/٦، ١١٨]: ثنا علي بن إسحاق أخبرنا عبد الله أخبرنا مجالد عن الشعبي عن مسروق عن عائشة. قالت: كان النبي ﷺ إذا ذكر خديجة أثنى عليها بأحسن الثناء. قالت: فغرت يوماً فقلت: ما أكثر ما تذكرها حمراء الشدق قد أبدلك الله خيراً منها. قال: «ما أبدلني الله خيراً منها، قد آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله ولدها إذ حرمني أولاد النساء» تفرد به أحمد أيضاً. وإسناده لا بأس به ومجالد روى له مسلم متابعة وفيه كلام مشهور والله أعلم.

ولعل هذا - أعني قوله: «ورزقني الله ولدها إذ حرمني أولاد النساء» - كان قبل أن يولد إبراهيم بن النبي ﷺ من مارية، وقبل مقدمها بالكلية وهذا متعين. فإن جميع أولاد النبي ﷺ - كما تقدم وكما سيأتي - من خديجة إلا إبراهيم فمن مارية القبطية المصرية رضي الله عنها.

وقد استدل بهذا الحديث جماعة من أهل العلم على تفضيل خديجة على عائشة رضي الله عنهما وأرضاهما.

وتكلم آخرون في إسناده وتأوله آخرون على أنها كانت خيراً عشرة وهو محتمل أو ظاهر. وسببه أن عائشة سمت بشبابها وحسنها وجمال عشرتها، وليس مرادها بقولها: قد أبدلك الله خيراً منها أنها تزكي نفسها وتفضلها على خديجة، فإن هذا أمر مرجعه إلى الله عزّ وجلّ كما قال: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢] وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٩] الآية.

وهذه مسألة وقع النزاع فيها بين العلماء قديما وحديثاً وتجاذبها طرفا نقيض أهل التشيع وغيرهم لا يعدلون بخديجة أحداً من النساء لسلام الربّ عليها، وكون ولد النبي ﷺ جميعهم - إلا إبراهيم - منها. وكونه لم يتزوج عليها حتى ماتت إكراماً لها، وتقدم إسلامها، وكونها من الصدّيقات ولها مقام صدق في أول البعثة. وبذلت نفسها ومالها لرسول الله ﷺ.

وأما أهل السنة فمنهم من يغلو أيضاً ويثبت لكل واحدة منهما من الفضائل ما هو معروف ولكن تحملهم قوة التسنن على تفضيل عائشة لكونها ابنة الصدّيق، ولكونها أعلم من خديجة فإنه لم يكن في الأمم مثل عائشة في حفظها وعلمها وفصاحتها وعقلها، ولم يكن الرسول يحب أحداً من نسائه كمحبته إياها ونزلت براءتها من فوق سبع سموات وروت بعده عنه عليه السلام علماً جماً كثيراً طيباً مباركاً فيه حتى قد ذكر كثير من الناس الحديث المشهور: «خذوا شطر دينكم عن الحميراء».

والحق أن كلاً منهما لها من الفضائل ما لو نظر الناظر فيه لبهره وحيّره، والأحس التوقف في ذلك ورد علم ذلك إلى الله عز وجلّ. ومن ظهر له دليل يقطع به، أو يغلب على ظنه في هذا الباب فذاك الذي يجب عليه أن يقول بما عنده من العلم ومن حصل له توقف في هذه المسألة أو في غيرها فالطريق الأقوم والمسلك الأسلم أن يقول: الله أعلم. وقد روى الإمام أحمد [] والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي من طرق عن هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن جعفر عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه. قال: قال رسول الله ﷺ: «خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة بنت خويلد» أي خير نساء زمانهما.

وروى شعبة عن معاوية بن قرة عن أبيه قرة بن إياس رضي الله عنه. قال: قال رسول الله ﷺ: «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا ثلاث مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» رواه ابن مردويه في «تفسيره». وهذا إسناد صحيح إلى شعبة وبعده.

قالوا: والقدر المشترك بين هذه الثلاث نسوة؛ آسية ومريم وخديجة أن كلاً منهن كفلت نبياً مرسلاً وأحسنت الصحبة في كفالتها وصدقته.

فآسية ربت موسى وأحسنت إليه وصدقته حين بعث، ومريم كفلت ولدها أتم كفالة وأعظمها وصدقته حين أرسل. وخديجة رغبت في تزويج رسول الله ﷺ بها وبذلت في ذلك أموالها كما تقدم وصدقته حين نزل عليه الوحي من الله عز وجل.

وقوله: «وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» هو ثابت في «الصحيحين» من طريق شعبة أيضاً عن عمرو بن مرة عن مرة الطيب الهمداني عن أبي موسى الأشعري. قال: قال رسول الله ﷺ: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» والثريد: هو الخبز واللحم جميعاً وهو أفخر طعام العرب كما قال بعض الشعراء:

إذا مـا الخـبـزُ تأدِمُـهُ بلحـمٍ ... فـذاكَ، أمانـةُ اللّـه، الـثـريدُ

ويحتمل قوله «وفضل عائشة على النساء» أن يكون عاماً فيعم النساء المذكورات وغيرهن، ويحتمل أن يكون عاماً فيما عداهن ويبقى الكلام فيها وفيهن موقوف يحتمل التسوية بينهن فيحتاج مرجِّح واحدة منهن على غيرها إلى دليل من خارج والله أعلم.

٧١- زواجُ النبيّ ﷺ بعائشة وسودة

في تزويجه عليه السلام بعد خديجة رضي الله عنها بعائشة بنت الصديق وسودة بنت زمعة رضي الله عنهما.

والصحيح أن عائشة تزوجها أولاً لما سيأتي. قال البخاري في باب تزويج عائشة [(٣٨٩٥)]: حدّثنا معلى بن أسد حدّثنا وهيب عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أن النبي ﷺ قال لها: «أريتك في المنام مرتين، أرى أنك في سرقة من حرير، ويقول: هذه امرأتك. فاكشف عنها فإذا هي أنت، فأقول: «إن يك هذا من عند الله يمضه».

وقال البخاري: باب نكاح الأبكار [(٥٠٧٧)]: وقال ابن أبي مليكة: قال ابن عباس لعائشة: لم ينكح النبي ﷺ بكراً غيرك.

حدثنا إسماعيل بن عبد الله حدّثني أخي عن سليمان بن بلال عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله أرأيت لو نزلت وادياً وفيه شجرة قد أكل منها، ووجدت شجرة لم يؤكل منها في أيها كنت ترتع بعيرك؟ قال: «في التي لم يرتع منها» تعني أن النبي ﷺ لم يتزوج بكراً غيرها. انفرد به البخاري.

ثم قال [خ (٥٠٧٨)]: حدّثنا عبيد بن إسماعيل حدّثنا أبو أسامة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة. قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «أريتك في المنام مرتين، إذا رجل يحملك في سرقة حرير، فيقول: هذه امرأتك. فأكشفها، فإذا هي أنت، فأقول: إن يكن هذا من عند الله، يُمضِه».

ورواه مسلم [(٢٤٣٨)] من طريق هشام بن عروة به.

ورواه البخاري في باب النظر إلى المرأة قبل التزويج [(٥١٢٥)]، ثنا مسدد، ثنا حماد بن زيد، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «أريتك في المنام يجيء بك الملك في سرقة من حرير فقال لي: هذه امرأتك، فكشفت عن وجهك الثوب فإذا أنت هي، فقلت: إن يكُ هذا من عند الله يمضه».

وفي رواية: «أريتك في المنام ثلاث ليال».

وعند الترمذي [(٣٨٨٠)] أن جبريل جاء بصورتها في خرقة من حرير خضراء فقال: هذه زوجتك في الدنيا والآخرة.

وقال البخاري [(٥٠٨١)] باب تزويج الصغار من الكبار.

حدثنا عبد الله بن يوسف حدّثنا الليث عن يزيد عن عراك عن عروة أن رسول الله ﷺ خطب عائشة إلى أبي بكر، فقال له أبو بكر: إنما أنا أخوك. فقال: «أنت أخي في دين الله وكتابه، وهي لي حلال».

هذا الحديث ظاهر سياقه كأنه مرسل وهو عند البخاري والمحققين متصل لأنه من حديث عروة عن عائشة رضي الله عنها، وهذا من أفراد البخاري رحمه الله.

وقال يونس بن بكير [هذه أخرجه البيهقي في الدلائل: ٢/٤١٠] عن هشام بن عروة عن أبيه. قال: تزوج رسول الله ﷺ عائشة بعد خديجة بثلاث سنين وعائشة يومئذ ابنة ست سنين، وبنى بها وهي ابنة تسع. ومات رسول الله ﷺ وعائشة ابنة ثماني عشرة سنة. وهذا غريب.

وقد روى البخاري [(٣٨٩٦)] عن عبيد بن إسماعيل عن أبي أسامة عن هشام بن عروة عن أبيه. قال: توفيت خديجة قبل مخرج النبي ﷺ بثلاث سنين، فلبث سنتين - أو قريباً من ذلك - ونكح عائشة وهي بنت ست سنين، ثم بنى بها وهي بنت تسع سنين.

وهذا الذي قاله عروة مرسل في ظاهر السياق كما قدمنا ولكنه في حكم المتصل في نفس الأمر.

وقوله: تزوجها وهي ابنة ست سنين وبنى بها وهي ابنة تسع ما لا خلاف فيه بين الناس - وقد ثبت في «الصحاح» وغيرها - وكان بناؤه بها عليه السلام في السنة الثانية من الهجرة إلى المدينة.

وأما كون تزويجها كان بعد موت خديجة بنحو من ثلاث سنين ففيه نظر. فإن يعقوب بن سفيان الحافظ قال [المعرفة والتاريخ: ٣/٢٦٨]: حدّثنا الحجاج حدّثنا حماد عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: تزوجني رسول الله ﷺ متوفى خديجة قبل مخرجه من مكة وأنا ابنة سبع - أو ست - سنين، فلما قدمنا المدينة جاءني نسوة وأنا ألعب في أرجوحة وأنا مجممة، فهيأنني وصنعنني ثم أتين بي إلى رسول الله ﷺ وأنا ابنة تسع سنين.

فقوله في هذا الحديث: «متوفى خديجة» يقتضي أنه على أثر ذلك قريباً، اللهم إلا أن يكون قد سقط من النسخة: بعد متوفى خديجة فلا ينفي ما ذكره يونس بن بكير وأبو أسامة عن هشام بن عروة عن أبيه والله أعلم.

وقال البخاري [(٣٨٩٤)]: حدّثنا فروة بن أبي المغراء حدّثنا علي بن مسهر، عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة. قالت: تزوجني النبي ﷺ وأنا بنت ست سنين، فقدمنا المدينة فنزلنا في بني الحارث بن الخزرج. فوعكت فتمزق شعري فوفى لي جميمة فأتتني أمي أم رومان - وإني لفي أرجوحة ومعي صواحب لي - فصرخت بي فأتيتها ما أدري ما تريد بي، فأخذت بيدي حتى أوقفتني على باب الدار وإني لأنهج حتى سكن بعض نفسي ثم أخذت شيئاً من ماء فمسحت به وجهي ورأسي، ثم أدخلتني الدار فإذا نسوة من الأنصار في البيت فقلن: على الخير والبركة وعلى خير طائر، فأسلمتني إليهن، فأصلحن من شأني، فلم يرعني إلا رسول الله ﷺ ضحى، فأسلمنني إليه وأنا يومئذ بنت تسع سنين.

وقال الإمام أحمد في مسند عائشة أم المؤمنين [٦/٢١٠، ٢١١]: حدّثنا محمّد بن بشر، حدّثنا محمد بن عمرو، حدّثنا أبو سلمة ويحيى. قالا: لما هلكت خديجة جاءت خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون فقالت: يا رسول الله ألا تزوج؟ قال: «من»؟ قالت: إن شئت بكراً، وإن شئت ثيباً، قال: «فمن البكر؟» قالت: ابنة أحب خلق الله إليك، عائشة ابنة أبي بكر. قال: «ومن الثيب؟» قالت: سودة بنت زمعة. قد آمنت بك واتبعتك على ما تقول قال: «فاذهبي فاذكريهما عَليَّ». فدخلت بيت أبي بكر فقالت: يا أم رومان ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة! قالت: وما ذاك؟ قالت: أرسلني رسول الله ﷺ أخطب عليه عائشة، قالت: انظري أبا بكر حتى يأتي، فجاء أبو بكر فقالت: يا أبا بكر ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة! قال: وما ذاك؟ قالت: أرسلني رسول الله ﷺ أخطب عليه عائشة قال: وهل تصلح له؟ إنما هي ابنة أخيه.

فرجعت إلى رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له قال: «ارجعي إليه فقولي له أنا أخوك وأنت أخي في الإسلام، وابنتك تصلح لي» فرجعت فذكرت ذلك له قال: انتظري، وخرج. قالت أم رومان: إن مطعم بن عدي قد ذكرها على ابنه، ووالله ما وعد وعداً قط فأخلفه - لأبي بكر - فدخل أبو بكر على مطعم بن عدي وعنده امرأته أم الفتى. فقالت: يا ابن أبي

قحافة لعلك مصب صاحبنا مدخله في دينك الذي أنت عليه إن تزوج إليك؟ فقال أبو بكر للمطعم بن عدي: أقول هذه تقول؟ قال: إنها تقول ذلك. فخرج من عنده وقد أذهب الله ما كان في نفسه من عدته التي وعده. فرجع فقال لخولة: ادعي لي رسول الله ﷺ فدعته فزوجها إياه وعائشة يومئذ بنت ست سنين.

ثم خرجت فدخلت على سودة بنت زمعة فقالت: ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة قالت: وما ذاك؟ قالت: أرسلني رسول الله ﷺ أخطبك عليه. قالت: وددت، ادخلي إلى أبي فاذكري ذلك له. وكان شيخاً كبيراً قد أدركه السن قد تخلف عن الحج، فدخلت عليه فحيته بتحية الجاهلية، فقال: من هذه؟ قالت: خولة بنت حكيم. قال: فما شأنك؟ قالت: أرسلني محمد بن عبد الله أخطب عليه سودة. فقال: كفؤ كريم، ماذا تقول صاحبتك؟ قالت: تحب ذاك. قال: ادعيها لي فدعتها قال: أي بنية إن هذه تزعم أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب قد أرسل يخطبك وهو كفؤ كريم، اتحبين أن أزوجك به؟ قالت: نعم. قال: ادعيه لي فجاء رسول الله ﷺ فزوجها إياه.

فجاء أخوها عبد بن زمعة من الحج فجعل يحثي على رأسه التراب. فقال بعد أن أسلم: لعمرك إني لسفيه يوم أحثي في رأسي التراب أن تزوج رسول الله ﷺ سودة بنت زمعة. قالت عائشة: فقدمنا المدينة فنزلنا في بني الحارث بن الخزرج في السنح. قالت: فجاء رسول الله ﷺ فدخل بيتنا واجتمع إليه رجال من الأنصار ونساء، فجاءتني أمي وأنا لفي أرجوحة بين عذقين ترجح بي فأنزلتني من الأرجوحة ولي جميمة ففرقتها، ومسحت وجهي بشيء من ماء، ثم أقبلت تقودني حتى وقفت بي عند الباب وإني لأنهج حتى سكن من نفسي، ثم دخلت بي فإذا رسول الله ﷺ جالس على سرير في بيتنا وعنده رجال ونساء من الأنصار، فأجلستني في حجرة ثم قالت: هؤلاء أهلك فبارك الله لك فيهم، وبارك لهم فيك. فوثب الرجال والنساء فخرجوا وبنى بي رسول الله ﷺ في بيتنا ما نحرت علي جزور، ولا ذبحت علي شاة. حتى أرسل إلينا سعد بن عبادة بجفنة كان يرسل بها إلى رسول الله ﷺ إذا دار إلى نسائه، وأنا يومئذ ابنة تسع سنين.

وهذا السياق كأنه مرسل وهو متصل لما رواه البيهقي [في الدلائل: ٤١١/٢] من طريق أحمد بن عبد الجبار.

حدّثنا عبد الله بن إدريس الأودي عن محمّد بن عمرو عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب. قال: قالت عائشة: لما ماتت خديجة جاءت خولة بنت حكيم إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله ألا تزوج؟ قال: «ومن؟» قالت: إن شئت بكراً وإن شئت ثيباً. قال: «ومن البكر ومن الثيب؟» قالت: أما البكر فابنة أحب خلق الله إليك عائشة، وأما الثيب فسودة بنت زمعة قد آمنت بك واتبعتك. قال: «فاذكريهما عليّ». وذكر تمام الحديث نحو ما تقدم.

وهذا يقتضي أن عقده على عائشة كان متقدماً على تزويجه بسودة بنت زمعة، ولكن دخوله على سودة كان بمكة، وأما دخوله على عائشة فتأخر إلى المدينة في السنة الثانية كما تقدم وكما سيأتي.

وقال الإمام أحمد: حدّثنا أسود، حدّثنا شريك عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت: لما كبرت سودة وهبت يومها لي، فكان رسول الله ﷺ يقسم لي بيومها مع نسائه. قالت: وكانت أول امرأة تزوّجها بعدي.

وقال الإمام أحمد [٣١٨/١، ٣١٩]: حدّثنا أبو النضر حدّثنا عبد الحميد، حدّثني شهر، حدّثني عبد الله بن عباس أن رسول الله ﷺ خطب امرأة من قومه يقال لها: سودة وكانت مصبية، كان لها خمسة صبية - أو ست - من بعل لها مات. فقال رسول الله ﷺ: «ما يمنعك مني؟» قالت: والله يا نبي الله ما يمنعني منك أن لا تكون أحب البرية إليّ، ولكني أكرمك أن يَضْغُوَ هؤلاء الصبية عند رأسك بكرة وعشية. قال: «فهل منعك مني شيء غير ذلك؟» قالت: لا والله، قال لها رسول الله ﷺ: «يرحمك الله إن خير نساء ركبن أعجاز الإبل، صالح نساء قريش أحناه على ولد في صغره، وأرعاه على بعل بذات يده».

قلت: وكان زوجها قبله عليه السلام السكران بن عمرو أخو سهيل بن عمرو، وكان ممن أسلم وهاجر إلى الحبشة كما تقدم، ثم رجع إلى مكة فمات بها قبل الهجرة رضي الله عنه.

فهذه السياقات كلها دالة على أن العقد على عائشة كان متقدماً على العقد بسودة وهو قول عبد الله بن محمد بن عقيل.

ورواه يونس عن الزهري.

واختار ابن عبد البر أن العقد على سودة قبل عائشة وحكاه عن قتادة وأبي عبيد [الاستيعاب: ١٨٦٧/٤]. قال: ورواه عقيل عن الزهري.

٧٢- ما نالَ النبيّ ﷺ من قريش بعد وفاة عمّه أبي طالب

قد تقدم ذكر موت أبي طالب عم رسول الله ﷺ وأنه كان ناصراً له وقائماً في صفه ومدافعاً عنه بكل ما يقدر عليه من نفس ومال ومقال وفعال، فلما مات اجترأ سفهاء قريش على رسول الله ﷺ ونالوا منه ما لم يكونوا يصلون إليه ولا يقدرون عليه.

كما قد رواه البيهقي [في الدلائل: ٣٥٠/٢] عن الحاكم عن الأصم حدّثنا محمد بن إسحاق الصغاني حدّثنا يوسف بن بهلول حدّثنا عبد الله بن إدريس حدّثنا محمد بن إسحاق عمن حدثه عن عروة بن الزبير عن عبد الله بن جعفر. قال: لما مات أبو طالب عرض لرسول الله ﷺ سفيه من سفهاء قريش فألقى عليه تراباً، فرجع إلى بيته فأتت امرأة من بناته تمسح عن وجهه التراب وتبكي، فجعل يقول: «أي بنية لا تبكين فإن الله مانع أباك» ويقول ما بين ذلك: «ما نالت قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب».

وقد رواه زياد البكائي عن محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤١٦/١] عن هشام بن عروة عن أبيه مرسلاً والله أعلم.

وروى البيهقي [الدلائل: ٣٤٩/٢] أيضاً عن الحاكم وغيره عن الأصم عن أحمد بن عبد الجبار عن يونس بن بكير عن هشام بن عروة عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «ما زالت قريش كاعين عني حتى مات أبو طالب».

ثم رواه [البيهقي في الدلائل: ٣٤٩/٢، ٣٥٠] عن الحاكم عن الأصم عن عباس الدوري، عن يحيى بن معين حدّثنا عقبة الحجر عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة عن النبي ﷺ قال: «ما زالت قريش كاعةً حتى توفي أبو طالب».

وقد روى الحافظ أبو الفرج ابن الجوزي [المنتظم: ١١/٣، ١٢] بسنده عن ثعلبة بن صعير وحكيم بن حزام أنهما قالا: لما توفي أبو طالب وخديجة - وكان بينهما شهرٌ وخمسة أيام - اجتمع على رسول الله ﷺ مصيبتان فلزم بيته وأقل الخروج، ونالت منه قريش ما لم تكن تنال ولا

تطمع فيه، فبلغ ذلك أبا لهب فجاءه فقال: يا محمد امض لما أردت وما كنت صانعاً إذ كان أبو طالب حياً فاصنعه، لا والـلات لا يوصل إليك حتى أموت.

وسب ابن الغيطلة رسول الله ﷺ فأقبل إليه أبو لهب فنال منه، فولّى يصيح: يا معشر قريش صبأ أبو عتبة. فأقبلت قريش حتى وقفوا على أبي لهب فقال: ما فارقت دين عبد المطلب، ولكني أمنع ابن أخي أن يضام حتى يمضي لما يريد. فقالوا: لقد أحسنت وأجملت ووصلت الرحم. فمكث رسول الله ﷺ كذلك أياماً يأتي ويذهب لا يعرض له أحد من قريش، وهابوا أبا لهب إلى أن جاء عقبة بن أبي معيط، وأبو جهل إلى أبي لهب فقالا له: أخبرك ابن أخيك أين مدخل أبيك؟ فقال له أبو لهب: يا محمد أين مدخل عبد المطلب؟ قال: «مع قومه». فخرج إليهما فقال: قد سألته فقال: «مع قومه». فقالا: يزعم أنه في النار. فقال: يا محمد أيدخل عبد المطلب النار؟ فقال رسول الله ﷺ: «ومن مات على ما مات عليه عبد المطلب دخل النار». فقال أبو لهب - لعنه الله - والله لا برحت لك إلا عدواً أبداً، وأنت تزعم أن عبد المطلب في النار. واشتدّ عند ذلك أبو لهب وسائر قريش عليه.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤١٥/١، ٤١٦]: وكان النفر الذين يؤذون رسول الله ﷺ في بيته أبو لهب، والحكم بن أبي العاص بن أمية، وعقبة بن أبي معيط، وعدي بن الحمراء، وابن الأصداء الهذلي. وكانوا جيرانه لم يسلم منهم أحد إلا الحكم بن أبي العاص. وكان أحدهم - فيما ذكر لي - يطرح عليه رحم الشاة وهو يصلي، وكان أحدهم يطرحها في برمته إذا نصبت له، حتى اتخذ رسول الله ﷺ حجراً يستتر به منهم إذا صلى، فكان إذا طرحوا شيئاً من ذلك يحمله على عود ثم يقف به على بابه ثم يقول: «يا بني عبد مناف أي جوار هذا؟» ثم يلقيه في الطريق.

قلت: وعندي أن غالب ما روي مما تقدم من طرحهم سلى الجزور بين كتفيه وهو يصلي كما رواه ابن مسعود، وفيه أن فاطمة جاءت فطرحته عنه، وأقبلت عليهم فشتمتهم، ثم لما انصرف رسول الله ﷺ دعا على سبعة منهم كما تقدم [المسند: ٤١٧/١].

وكذلك ما أخبر به عبد الله بن عمرو بن العاص من خنقهم له عليه السلام خنقاً شديداً حتى حال دونه أبو بكر الصديق قائلاً: أتقتلون رجلاً أن يقول: ربي الله. وكذلك عزم أبي جهل - لعنه الله - على أن يطأ على عنقه وهو يصلي فحيل بينه وبين ذلك، وما أشبه ذلك كان بعد وفاة أبي طالب والله أعلم. فذكرها ههنا أنسب وأشبه.

٧٣- دعوة النبيّ ﷺ في الطائف

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤١٩/١]: فلما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تناله منه في حياة عمّه أبي طالب، فخرج رسول الله ﷺ إلى الطائف يلتمس من ثقيف النصرة والمنعة بهم من قومه، ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله تعالى، فخرج إليهم وحده. فحدّثني يزيد بن أبي زياد عن محمّد بن كعب القرظي. قال: لما انتهى رسول الله ﷺ إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف هم سادة ثقيف وأشرافهم وهم أخوة ثلاثة: عبد ياليل، ومسعود، وحبيب بنو عمرو بن عمير بن عوف بن عقدة بن غيرة بن عوف بن ثقيف. وعند أحدهم امرأة من قريش من بني جمح، فجلس إليهم فدعاهم إلى الله وكلّمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه، فقال أحدهم: هو يمرُط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك. وقال الآخر: أما وجد الله أحداً أرسله غيرك؟ وقال الثالث: والله لا أكلمك أبداً لئن كنت رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك. فقام رسول الله ﷺ من عندهم وقد يئس من خير ثقيف.

وقد قال لهم - فيما ذكر لي -: «إن فعلتم ما فعلتم فاكتموا عليّ» وكره رسول الله ﷺ أن يبلغ قومه عنه فينفرهم ذلك عليه. فلم يفعلوا وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس وألجؤوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما فيه، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه. فعمد إلى ظل حبلة من عنب، فجلس فيه وابنا ربيعة ينظران إليه ويريان ما يلقى من سفهاء أهل الطائف، وقد لقي رسول الله ﷺ - فيما ذكر لي - المرأة التي من بني جمح، فقال لها: «ماذا لقينا من أحمائك». فلما اطمأن قال - فيما ذكر لي - «اللّهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو تحل علي سخطك لك العتبى حتى ترضى لا حول ولا قوة إلا بك». هكذا أورد ابن إسحاق في كتابه «السيرة» هذا الدعاء من غير إسناد، بل ذكره معلقاً بصيغة البلاغ، فقال: فيما ذكر لي.

وقد روى الحافظ ابن عساكر، في ترجمة القاسم بن الليث الرَّسعنيّ، شيخ النسائي والطبراني وغير واحد، بسنده من حديثه، حدثني محمد بن أبي صفوان الثقفي، حدثنا وهب بن جرير بن حازم، حدثنا أبي، عن محمد بن إسحاق، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عبد الله بن جعفر، قال: لما توفي أبو طالب، خرج النبي ﷺ إلى الطائف ماشياً على قدميه. قال: فدعاهم إلى الإسلام، فلم يجيبوه، فانصرف إلى ظلّ شجرة فصلى ركعتين، ثم قال: «اللّهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، أرحم الراحمين، أنت أرحم بي، إلى من تكلني؟ إلى عدو يتجهمني، أم إلى قريب ملكته أمري؟ إن لم تكن غضبان عليّ فلا أبالي، غير أنّ عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بي غضبك، أو تحلّ عليّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك.

قال ابن إسحاق: فلما رآه ابنا ربيعة عتبة وشيبة وما لقي تحركت له رحمهما فدعوا غلاماً لهما نصرانياً يقال له: عداس فقالا له: خذ قطفاً من هذا العنب فضعه في هذا الطبق ثم اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه. ففعل عداس، ثم ذهب به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ ثم قال له: كل، فلما وضع رسول الله ﷺ يده فيه قال: «بسم الله» ثم أكل، فنظر عداس في وجهه ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد. فقال له رسول الله ﷺ «ومن أهل أي بلاد أنت يا عداس؟ وما دينك؟» قال: نصراني وأنا رجل من أهل نينوى. فقال رسول الله ﷺ: «من قرية الرجل الصالح يونس بن متى». فقال له عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ فقال رسول الله ﷺ «ذلك أخي كان نبياً وأنا نبي».

فأكبّ عداس على رسول الله ﷺ يقبّل رأسه ويديه وقدميه. قال:

يقول ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه: أما غلامك فقد أفسده عليك. فلما جاء عداس قالا له: ويلك يا عداس ما لك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال: يا سيدي ما في الأرض شيء خير من هذا، لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي. قالا له: ويحك يا عداس لا يصرفنك عن دينك فإن دينك خير من دينه.

وقد ذكر موسى بن عقبة نحواً من هذا السياق إلا أنه لم يذكر الدعاء وزاد: وقعد له أهل الطائف صفين على طريقه، فلما مر جعلوا لا يرفع رجليه ولا يضعهما إلا رضخوهما بالحجارة حتى أدموه فخلص منهم وهما يسيلان الدماء فعمد إلى ظل حَبْلة وهو مكروب وفي ذلك الحائط عتبة وشيبة ابنا ربيعة، فكره مكانهما لعداوتهما لله ورسوله. ثم ذكر قصة عداس النصراني كنحو ما تقدم [الدلائل للبيهقي: ٤١٤/٢ - ٤١٦].

وقد روى الإمام أحمد [٣٣٥/٤] عن أبي بكر بن أبي شيبة: حدّثنا مروان بن معاوية الفزاري، عن عبد الله بن عبد الرحمن الطائفي عن عبد الرحمن بن خالد بن أبي جبل العدواني عن أبيه أنه أبصر رسول الله ﷺ في مشرق ثقيف وهو قائم على قوس - أو عصى - حين أتاهم يبتغي عندهم النصر، فسمعته يقرأ: «والسماء والطارق» حتى ختمها. قال: فوعيتها في الجاهلية وأنا مشرك ثم قرأتها في الإسلام قال: فدعتني ثقيف فقالوا: ماذا سمعت من هذا الرجل؟ فقرأتها عليهم، فقال من معهم من قريش: نحن أعلم بصاحبنا، لو كنا نعلم ما يقول حقاً لاتبعناه.

وثبت في «الصحيحين» [خ (٣٢٣١)، م (١٧٩٥)] من طريق عبد الله بن وهب أخبرني يونس بن يزيد عن ابن شهاب قال: أخبرني عروة بن الزبير أن عائشة حدثته أنها قالت لرسول الله ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد؟ قال: «ما لقيت من قومك كان أشد منه يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث لك ملك الجبال، لتأمره بما شئت فيهم. ثم ناداني ملك الجبال فسلم علي ثم قال: يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك وأنا ملك الجبال قد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك فما شئت؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين. فقال رسول الله ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا»

٧٤- دخول النبي في جوار المطعم بن عديّ

وقد ذكر محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٢١/١، ٤٢٢] سماع الجن لقراءة رسول الله ﷺ، وذلك مرجعه من الطائف حين بات بنخلة وصلى بأصحابه الصبح، فاستمع الجن الذين صرفوا إليه قراءته هنالك.

قال ابن إسحاق: وكانوا سبعة نفر فأنزل الله تعالى فيهم قوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ [الأحقاف: ٢٩].

قلت: وقد تكلمنا على ذلك مستقصى في «التفسير»، وتقدم قطعة من ذلك فالله أعلم.

ثم دخل رسول الله ﷺ مكة مرجعه من الطائف في جوار المطعم بن عدي، وازداد قومه عليه حنقاً وغيظاً وجرأة وتكذيباً وعناداً والله المستعان وعليه التكلان.

وقد ذكر الأموي في مغازيه أن رسول الله ﷺ بعث عبد الله بن أريقط إلى الأخنس بن شريق فطلب منه أن يجيره بمكة. فقال: إن حليف قريش لا يجير على صميمها. ثم بعثه إلى سهيل بن عمرو ليجيره فقال: إن بني عامر بن لؤي لا تجير على بني كعب بن لؤي. فبعثه إلى المطعم بن عدي ليجيره فقال: نعم! قل له فليأت.

فلهب إليه رسول الله ﷺ فبات عنده تلك الليلة، فلما أصبح خرج معه هو وبنوه ستة - أو سبعة - متقلدي السيوف جميعاً فدخلوا المسجد وقال لرسول الله ر: طف واحتبوا بحمائل سيوفهم في المطاف، فأقبل أبو سفيان إلى مطعم. فقال: أمجير أو تابع؟ قال: لا بل مجير. قال: إذاً لا تخفر. فجلس معه حتى قضى رسول الله ﷺ طوافه، فلما انصرف انصرفوا معه. وذهب أبو سفيان إلى مجلسه. قال: فمكث أياماً ثم أذن له في الهجرة، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة توفي المطعم بن عدي بعده بيسير، فقال حسان بن ثابت: والله لأرثينه فقال فيما قال [ديوان حسان: ٢٤٣، ٢٤٤]:

فلو كان مجد يخلد اليوم واحداً ... من الناس نجّى مجدُه اليوم مُطعما

أجرتَ رسولَ الله منهم فأصبحوا ... عبادَك ما لبّى مُحِلٌّ وأحرما

فلو سئلتْ عنه معدٌّ بأسرِها ... وقحطان أو باقي بقية جُرهُما

لقالوا هو المولى بخُفرةِ جاره ... وذمّتِه يوماً إذا ما تذمّما

وما تطلعُ الشمسُ المنيرةُ فوقهم ... على مثلِه فيهم أعز وأكرما

أبيّاً إذا ما يأبى والِينَ شيمةً ... وأنومَ عن جارٍ إذا الليلُ أظلما

قلت: ولهذا قال النبي ﷺ يوم أسارى بدر [خ (٣١٣٩)]: «لو كان المطعم بن عدي حيّاً ثم سألني في هؤلاء النّتنى لوهبتهم له»

٧٥- عرض النبي ﷺ نفسه على أحياء العرب

في عَرض رسول الله ﷺ نفسه الكريمة على أحياء العرب في مواسم الحج أن يؤووه وينصروه ويمنعوه ممن كذبه وخالفه فلم يجبه أحد منهم لما ذخره الله تعالى للأنصار من الكرامة العظيمة رضي الله عنهم.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٢٢/١]: ثم قدم رسول الله ﷺ مكة وقومه أشد ما كانوا عليه من خلافه وفراق دينه إلا قليلاً مستضعفين ممن آمن به، فكان رسول الله ﷺ يعرض نفسه في المواسم - إذا كانت - على قبائل العرب يدعوهم إلى الله عز وجل، ويخبرهم أنه نبي مرسل، ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه حتى يبين عن الله ما بعثه به.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٢٢/١، ٤٢٣]: فحدثني من أصحابنا من لا أتهم عن زيد بن أسلم عن ربيعة بن عباد الدؤلي - أو من حدّثه أبو الزناد عنه. وحدثني حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس قال: سمعت ربيعة بن عباد يحدّثه أبي. قال: إني لغلام شاب مع أبي بمنى ورسول الله ﷺ يقف على منازل القبائل من العرب فيقول: «يا بني فلان إني رسول الله إليكم، آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بي وتصدقوني وتمنعوني، حتى أبين عن الله ما بعثني به».

قال: وخلفه رجل أحول وضيء له غديرتان عليه حلة عدنية، فإذا فرغ رسول الله ﷺ من قوله وما دعا إليه. قال ذلك الرجل: يا بني فلان إن هذا إنما يدعوكم إلى أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم، وحلفاءكم

من الجن من بني مالك بن أقيش إلى ما جاء به من البدعة والضلالة فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه.

قال: فقلت لأبي: يا أبت، من هذا الرجل الذي يتبعه ويرد عليه ما يقول؟ قال: هذا عمّه عبد العزى بن عبد المطلب أبو لهب.

وقد روى الإمام أحمد [٤/٣٤١] هذا الحديث عن إبراهيم بن أبي العباس حدّثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه أخبرني رجل يقال له: ربيعة بن عباد من بني الدئل - وكان جاهلياً فأسلم - قال: رأيت رسول الله ﷺ في الجاهلية في سوق ذي المجاز وهو يقول: «يا أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا» والناس مجتمعون عليه ووراءه رجل وضيء الوجه أحول ذو غديرتين يقول: إنه صابئ كاذب - يتبعه حيث ذهب - فسألت عنه فذكروا لي نسب رسول الله ﷺ وقالوا: هذا عمّه أبو لهب.

ورواه البيهقي [في الدلائل: ٢/١٨٥] من طريق محمد بن عبد الله الأنصاري عن محمد بن عمرو عن محمد بن المنكدر عن ربيعة الدؤلي: رأيت رسول الله ﷺ بسوق ذي المجاز يتبع الناس في منازلهم يدعوهم إلى الله، ووراءه رجل أحول تقدُ وجنتاه وهو يقول: أيها الناس لا يغرّنكم هذا عن دينكم ودين آبائكم. قلت: من هذا؟ قالوا: هذا أبو لهب.

وكذا رواه أبو نعيم في «الدلائل» من طريق ابن أبي ذئب وسعيد بن سلمة بن أبي الحسام كلاهما عن محمد بن المنكدر به نحوه [ومن هذين الطريقين رواه أحمد في المسند: ٢/٤٩٢].

ثم رواه البيهقي [في الدلائل: ٢/١٨٦] من طريق شعبة عن الأشعث بن سليم عن رجل من كنانة. قال: رأيت رسول الله ﷺ بسوق ذي المجاز وهو يقول: «يا أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا» وإذا رجل خلفه يسفي عليه التراب فإذا هو أبو جهل وهو يقول: يا أيها الناس لا يغرنكم هذا عن دينكم فإنما يريد أن تتركوا عبادة اللات والعزى.

كذا قال في هذا السياق: أبو جهل. وقد يكون وهماً ويحتمل أن يكون تارة يكون ذا، وتارة يكون ذا وأنهما كانا يتناوبان على ايذائه ﷺ.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٤٢٤]: وحدثني ابن شهاب الزهري أنه عليه السلام أتى كندة في منازلهم وفيهم سيد لهم يقال له: مليح، فدعاهم إلى الله عزّ وجلّ وعرض عليهم نفسه فأبوا عليه.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٤٢٤]: وحدثني محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن حصين أنه أتى كلباً في منازلهم، إلى بطن منهم يقال لهم: بنو عبد الله، فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه حتى إنه ليقول لهم: «يا بني عبد الله إن الله قد أحسن اسم أبيكم» فلم يقبلوا منه ما عرض عليهم.

وحدثني [سيرة ابن هشام: ١/٤٢٤] بعض أصحابنا عن عبد الله بن كعب بن مالك أن رسول الله ﷺ أتى بني حنيفة في منازلهم فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه فلم يكن أحد من العرب أقبح رداً عليه منهم.

وحدثني [سيرة ابن هشام: ١/٤٢٤، ٤٢٥] الزهري أنه أتى بني عامر بن صعصعة فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه. فقال له رجل منهم يقال له: بيحرة بن فراس: والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب، ثم قال له: أرأيت إن نحن تابعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من يخالفك أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال: «الأمر لله يضعه حيث يشاء».

قال: فقال له: أفنهدف نُحورنا للعرب دونك فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا! لا حاجة لنا بأمرك. فأبوا عليه. فلما صدر الناس رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم قد كان أدركه السن حتى لا يقدر أن يوافي معهم المواسم، فكانوا إذا رجعوا إليه حدّثوه بما يكون في ذلك الموسم، فلمّا قدموا عليه ذلك العام سألهم عما كان في موسمهم فقالوا: جاءنا فتى من قريش ثم أحد بني عبد المطلب يزعم أنه نبي يدعونا إلى أن نمنعه ونقوم معه ونخرج به إلى بلادنا قال: فوضع الشيخ يده على رأسه ثم قال: يا بني عامر هل لها من تلاف؟ هل لذنابها من مطلب؟ والذي نفس فلان بيده ما تقوّلها إسماعيلي قط، وإنها لحق فأين رأيكم كان عنكم؟.

وقال موسى بن عقبة [من طريقه أخرجه البيهقي في الدلائل: ٢/٤١٤] عن الزهري: فكان رسول الله ﷺ في تلك السنين يعرض نفسه على قبائل العرب في كل موسم، ويكلم كل شريف قوم لا يسألهم مع ذلك إلا أن يؤووه ويمنعوه، ويقول: «لا أكره أحداً منكم على شيء، من رضي منكم بالذي أدعوه إليه فذلك، ومن كره لم أكرهه، إنما أريد أن تحرزوني مما يراد بي من القتل حتى أبلغ رسالة ربي، وحتى يقضي الله لي ولمن صحبني بما شاء».

فلم يقبله أحد منهم، ولم يأت أحد من تلك القبائل إلا قال: قوم الرجل أعلم به، أترون أن رجلاً يصلحنا وقد أفسد قومه ولفظوه؟! وكان ذلك مما ذخره الله للأنصار وأكرمهم به.

وقد روى الحافظ أبو نعيم من طريق عبد الله بن الأجلح، ويحيى بن سعيد الأموي، كلاهما عن محمّد بن السائب الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس عن العباس. قال: قال لي رسول الله ﷺ: «لا أرى لي عندك ولا عند أخيك منعةً فهل أنت مخرجي إلى السوق غداً حتى تعرفني منازل قبائل الناس؟» وكانت مجمع العرب. قال: فقلت: هذه كندة ولفها وهي أفضل من يحج البيت من اليمن وهذه منازل بكر بن وائل، وهذه منازل بني عامر بن صعصعة، فاختر لنفسك.

قال: فبدأ بكندة فأتاهم فقال: «من القوم؟» قالوا: من أهل اليمن. قال: «من أي اليمن؟». قالوا: من كندة. قال: «من أي كندة؟» قالوا: من بني عمرو بن معاوية، قال: «فهل لكم إلى خير؟» قالوا: وما هو؟ قال: «تشهدون أن لا إله إلا الله وتقيمون الصلاة وتؤمنون بما جاء من عند الله».

قال عبد الله بن الأجلح: وحدثني أبي عن أشياخ قومه أن كندة قالت له: إن ظفرت تجعل لنا الملك من بعدك؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن الملك لله يجعله حيث يشاء» فقالوا: لا حاجة لنا فيما جئتنا به.

وقال الكلبي: فقالوا: أجئتنا لتصدنا عن آلهتنا ونبابذ العرب، ألحق بقومك فلا حاجة لنا بك. فانصرف من عندهم فأتى بكر بن وائل فقال: «من القوم؟» قالوا: من بكر بن وائل. فقال: «من أي بكر بن وائل؟» قالوا: من بني قيس بن ثعلبة. قال: «كيف العدد؟» قالوا: كثير مثل الثرى. قال: «فكيف المنعة؟» قالوا: لا منعة جاورنا فارس فنحن لا نمتنع منهم ولا نجير عليهم. قال: «فتجعلون لله عليكم إن هو أبقاكم حتى تنزلوا منازلهم، وتستنكحوا نساءهم، وتستعبدوا أبناءهم أن تسبحوا الله ثلاثاً وثلاثين، وتحمدوه ثلاثاً وثلاثين، وتكبروه أربعاً وثلاثين».

قالوا: ومن أنت؟ قال: «أنا رسول الله». ثم انطلق فلما ولى عنهم قال الكلبي: وكان عمّه أبو لهب يتبعه فيقول للناس: لا تقبلوا قوله، ثم مر أبو لهب فقالوا: هل تعرف هذا الرجل؟ قال: نعم هذا في الذروة منا فعن أي شأنه تسألون؟ فأخبروه بما دعاهم إليه وقالوا: زعم أنه رسول الله، قال: ألا لا ترفعوا بقوله رأساً، فإنه مجنون يهذي أم رأسه. قالوا: قد رأينا ذلك حين ذكر من أمر فارس ما ذكر.

قال الكلبي [عنه أخرجه أبو نعيم في الدلائل: ٢١٥]: وأخبرني عبد الرحمن

العامري عن أشياخ من قومه قالوا: أتانا رسول الله ﷺ ونحن بسوق عكاظ، فقال: «ممن القوم؟» قلنا: من بني عامر بن صعصعة. قال: «من أي بني عامر بن صعصعة؟» قالوا: بنو كعب بن ربيعة. قال: «كيف المنعة؟» قلنا: لا يرام ما قبلنا، ولا يُصطلى بنارنا. قال: فقال لهم: «إني رسول الله وأتيتكم لتمنعوني حتى أبلغ رسالة ربي ولا أكره أحداً منكم على شيء» قالوا: ومن أي قريش أنت؟ قال: «من بني عبد المطلب». قالوا: فأين أنت من عبد مناف؟ قال: «هم أول من كذبني وطردني». قالوا: ولكنا لا نطردك ولا نؤمن بك، وسنمنعك حتى تبلغ رسالة ربك قال: فنزل إليهم والقوم يتسوقون، إذ أتاهم بيحرة بن فراس القشيري فقال: من هذا الرجل أراه عندكم أنكره؟ قالوا: محمّد بن عبد الله القرشي. قال: فما لكم وله؟ قالوا: زعم لنا أنه رسول الله ﷺ فطلب إلينا أن نمنعه حتى يبلّغ رسالة ربه قال: ماذا رددتم عليه؟ قالوا: بالترحيب والسعة، نخرجك إلى بلادنا ونمنعك ما نمنع به أنفسنا قال بيحرة: ما أعلم أحداً من أهل هذه السوق يرجع بشيء أشرّ من شيء ترجعون به بدأتم لتابذوا الناس وترميكم العرب عن قوس واحدة، قومه أعلم به لو آنسوا منه خيراً لكانوا أسعد الناس به، أتعمدون إلى رهيق قوم قد طرده قومه وكذبوه فتؤوونه وتنصرونه؟ فبئس الرأي رأيتم. ثم أقبل على رسول الله ﷺ فقال: قم فالحق بقومك، فوالله لولا أنك عند قومي لضربت عنقك.

قال فقام رسول الله ﷺ إلى ناقته فركبها، فغمز الخبيث بيحرة شاكلتها فقمصت برسول الله ﷺ فألقته. وعند بني عامر يومئذ ضباعة ابنة عامر بن قرط، كانت من النسوة اللاتي أسلمن مع رسول الله بمكة، جاءت زائرة إلى بني عمها، فقالت: يا آل عامر - ولا عامر لي - أيصنع هذا برسول الله ﷺ بين أظهركم لا يمنعه أحد منكم؟. فقام ثلاثة نفر من بني عمها إلى بيحرة واثنين أعماه، فأخذ كل رجل منهم رجلاً فجلد به الأرض، ثم جلس على صدره ثم علوا وجوههم لطماً، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم بارك على هؤلاء والعن هؤلاء».

قال: فأسلم الثلاثة الذين نصروه وقتلوا شهداء وهم: غطيف وغطفان ابنا سهل، وعروة - أو عَزْرة - بن عبد الله بن سلمة رضي الله عنهم. وهلك الآخرون لعناً وهم: بيحرة بن فراس، وحزن بن عبد الله بن سلمة بن قشير، ومعاوية بن عبادة أحد بني عقيل لعنهم الله لعناً كبيراً.

وهذا أثر غريب كتبناه لغرابته والله أعلم. وقد روى هذا الحديث بتمامه الحافظ سعيد بن يحيى بن سعيد الأموي في مغازيه عن أبيه به.

وقد روى أبو نعيم [في الدلائل: ٢١٩] له شاهداً من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه في قصة بني عامر بن صعصعة وقبيح ردهم عليه.

وأغرب من ذلك وأطول ما رواه أبو نعيم [في الدلائل: ٢١٤] والحاكم والبيهقي [في الدلائل: ٤٢٢/٢] - والسياق لأبي نعيم رحمهم الله - من حديث أبان بن عبد الله البجلي عن أبان بن تغلب، عن عكرمة، عن ابن عبّاس، حدّثني علي بن أبي طالب. قال: لما أمر الله رسوله أن يعرض نفسه على قبائل العرب خرج وأنا معه وأبو بكر إلى منى حتى دفعنا إلى مجلس من مجالس العرب، فتقدم أبو بكر رضي الله عنه فسلم، وكان أبو بكر مقدّماً في كل خير، وكان رجلاً نسابة فقال: ممن القوم؟ قالوا: من ربيعة، قال: وأي ربيعة أنتم؟ أمن هامها أم من لهازمها؟ قالوا: بل من هامها العظمى. قال أبو بكر: فمن أي هامتها العظمى؟ قالوا: ذهل الأكبر، قال لهم أبو بكر: منكم عوف الذي كان يقال: لا حر بوادي عوف؟ قالوا: لا قال: فمنكم بسطام بن قيس بن مسعود أبو اللواء، ومنتهى الأحياء؟ قالوا: لا. قال: فمنكم الحوفزان بن شريك قاتل الملوك وسالبها أنفسها؟ قالوا: لا. قال: فمنكم جسّاس بن مرة بن ذهل حامي الذمار ومانع الجار؟ قالوا: لا. قال: فمنكم المزدلف صاحب العمامة الفردة؟ قالوا: لا. قال: فأنتم أخوال الملوك من كندة؟ قالوا: لا. قال: فأنتم أصهار الملوك من لخم؟ قالوا: لا. قال لهم أبو بكر رضي الله عنه: فلستم بذهل الأكبر، بل أنتم ذهل الأصغر. قال: فوثب إليه منهم غلام يدعى دغفل بن حنظلة الذهلي، حين بقل وجهه، فأخذ بزمام ناقة أبي بكر وهو يقول:

إنّ على سائلِنا أن نسألَه ... والعبءُ لا تعرفُهُ أوْ تحمِلَه

يا هذا إنك سألتنا فأخبرناك ولم نكتمك شيئاً، ونحن نريد أن نسألك فمن أنت؟ قال: رجل من قريش. فقال الغلام: بخ بخ أهل السؤدد والرئاسة، وأزمّة العرب وهداتها فمن أنت من قريش؟ فقال له: رجل من بني تيم بن مرّة. فقال له الغلام: أمكنت والله الرامي من سواء الثغرة؟ أفمنكم قصي بن كلاب الذي قتل بمكة المتغلبين عليها، وأجلى بقيتهم وجمع قومه من كل أوب حتى أوطنهم مكة ثم استولى على الدار، ونزّل قريشاً منازلها فسمته العرب بذلك مجمعاً، وفيه يقول الشاعر لبني عبد مناف:

أليسَ أبوكم كانَ يُدعى مجمعاً ... بهِ جَمعَ اللّهُ القبائلَ من فِهْر

فقال أبو بكر: لا. قال: فمنكم عبد مناف الذي انتهت إليه الوصايا وأبو الغطاريف السادة؟ فقال: أبو بكر: لا. قال: فمنكم عمرو بن عبد مناف هاشم الذي هشم الثريد لقومه ولأهل مكة، ففيه يقول الشاعر:

عَمْرو العُلا هشَمَ الثريدَ لقومِهِ ... ورجالُ مكّةَ مُسْنِتون عِجافُ

سَنّوا إليه الرحلتَيْن كِلَيْهما ... عندَ الشتاءِ ورحلةَ الأصْيافِ

كانت قريشٌ بيضةً فتفلّقتْ ... فالمحُ خالصةً لعبدِ مَنافِ

الرائشين وليس يُعْرف رائشٌ ... والقائلينَ هلُمّ للأضيافِ

والضاربين الكبشَ يَبْرقُ بَيْضُه ... والمانعينَ البَيْضَ بالأسيافِ

للّه درُّكَ لو نزلتَ بدارِهم ... منعوكَ من أزلٍ ومن إقْرافِ

فقال أبو بكر: لا. قال: فمنكم عبد المطلب شيبة الحمد، وصاحب عير مكة، ومطعم طير السماء والوحوش والسباع في الفلا الذي كأن وجهه قمر يتلألأ في الليلة الظلماء؟ قال: لا. قال: أفمن أهل الإفاضة أنت؟ قال: لا. قال: أفمن أهل الحجابة أنت؟ قال: لا. قال: أفمن أهل الندوة أنت؟ قال: لا. قال: أفمن أهل السقاية أنت؟ قال: لا قال: أفمن أهل الردفاة أنت؟ قال: لا. قال: أفمن المفيضين بالناس أنت؟ قال: لا. ثم جذب أبو بكر رضي الله عنه زمام ناقته من يده، فقال له الغلام:

صادف درءَ السيلِ درءٌ يدفَعُه ... يَهيضه حيناً وحيناً يصدعُه

ثم قال: أما والله يا أخا قريش لو ثبتّ لخبرتك أنك من زمعات قريش ولست من الذوائب. قال: فأقبل إلينا رسول الله ﷺ يتبسّم قال عليٌّ: فقلت له: يا أبا بكر لقد وقعت من الأعرابي على باقعة. فقال: أجل يا أبا الحسن، إنه ليس من طامة إلا وفوقها طامة، والبلاء موكل بالقول. قال: ثم انتهينا إلى مجلس عليه السكينة والوقار وإذا مشايخ لهم أقدار وهيئات، فتقدم أبو بكر فسلم - قال علي: وكان أبو بكر مقدّماً في كل خير - فقال لهم أبو بكر: ممن القوم؟ قالوا: من بني شيبان بن ثعلبة، فالتفت إلى رسول الله ﷺ فقال: بأبي أنت وأمي ليس بعد هؤلاء من عز في قومهم - وفي رواية: ليس وراء هؤلاء غُرر من قومهم - وهؤلاء غرر

الناس. وكان في القوم مفروق بن عمرو، وهانئ بن قبيصة، والمثنى بن حارثة، والنعمان بن شريك.

وكان أقرب القوم إلى أبي بكر مفروق بن عمرو وكان مفروق بن عمرو قد غلب عليهم بياناً ولساناً، وكانت له غديرتان تسقطان على صدره. فكان أدنى القوم مجلساً من أبي بكر فقال له أبو بكر: كيف العدد فيكم؟ فقال له: إنا لنزيد على ألف، ولن تغلب ألف من قلة. فقال له: فكيف المنعة فيكم؟ فقال: علينا الجهد ولكل قوم جد. فقال أبو بكر: فكيف الحرب بينكم وبين عدوكم؟ فقال مفروق: إنا أشد ما نكون غضباً حين نلقى، وإنا أشد ما نكون لقاء حين نغضب، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد، والسلاح على اللقاح، والنصر من عند الله. يديلنا مرة ويديل علينا مرة لعلك أخو قريش؟ فقال أبو بكر: إن كان بلغكم أنه رسول الله ﷺ فها هو هذا فقال مفروق: قد بلغنا أنه يذكر ذلك.

ثم التفت إلى رسول الله ﷺ فقال له: إلامَ تدعو يا أخا قريش؟ فتقدم رسول الله ر فجلس وقام أبو بكر يظله بثوبه فقال ر: «أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأني رسول الله، وأن تؤووني وتمنعوني وتنصروني حتى أؤدي عن الله الذي أمرني به، فإن قريشاً قد تظاهرت على أمر الله وكذبت رسوله واستغنت بالباطل عن الحق والله هو الغني الحميد».

قال له: وإلى ما تدعو أيضاً يا أخا قريش؟ فتلا رسول الله ﷺ: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ إلى قوله: ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام ١٥١].

فقال له مفروق: وإلى ما تدعو أيضاً يا أخا قريش؟ فوالله ما هذا من كلام أهل الأرض، ولو كان من كلامهم لعرفناه، فتلا رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

فقال له مفروق: دعوت والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك، وكأنه أحب أن يشركه في الكلام هانئ بن قبيصة فقال: وهذا هانئ بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا.

فقال له هانئ: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش وصدقت قولك، وإني أرى أن تركنا ديننا واتباعنا إياك على دينك - لمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر لم نتفكر في أمرك، ونظر في عاقبة ما تدعو إليه - زلة في الرأي، وطيشة في العقل، وقلة نظر في العاقبة وإنما تكون الزلة مع العجلة، وإن من وراءنا قوما نكره أن نعقد عليهم عقداً ولكن ترجع ونرجع وتنظر وننظر - وكأنه أحب أن يشركه في الكلام المثنى بن حارثة - فقال: وهذا المثنى شيخنا وصاحب حربنا. فقال المثنى: قد سمعت مقالتك واستحسنت قولك يا أخا قريش، وأعجبني ما تكلمت به. والجواب هو جواب هانئ بن قبيصة وتركنا ديننا واتباعنا إياك على دينك لمجلس جلسته إلينا وإنا إنما نزلنا بين صيرين أحدهما اليمامة، والآخر السَّماة. فقال له رسول الله ﷺ: «وما هذان الصيران؟» فقال له: أما أحدهما فطفوف البر وأرض العرب، وأما الآخر فأرض فارس وأنهار كسرى وإنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى أن لا نحدث حدثاً، ولا نؤوي محدثاً. ولعل هذا الأمر الذي تدعونا إليه مما تكرهه الملوك، فأما ما كان مما يلي بلاد العرب فذنب صاحبه مغفور، وعذره مقبول، وأما ما كان يلي بلاد فارس فذنب صاحبه غير مغفور، وعذره غير مقبول. فإن أردت أن ننصرك ونمنعك مما يلي العرب فعلنا.

فقال رسول الله ﷺ: «ما أسأتم الرد إذ أفصحتم بالصدق إنه لا يقوم بدين الله إلا من حاطه من جميع جوانبه». ثم قال رسول الله ﷺ: «أرأيتم إن لم تلبثوا إلا يسيراً حتى يمنحكم الله بلادهم وأموالهم وفرشكم بناتهم أتسبحون الله وتقدسونه؟».

فقال له النعمان بن شريك: اللّهم وإن ذلك لك يا أخا قريش! فتلا رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً. وَدَاعِياً إِلَى اللّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦] ثم نهض رسول الله ﷺ قابضاً على يدي أبي بكر.

قال علي: ثم التفت إلينا رسول الله ﷺ فقال: «يا علي أية أخلاق للعرب كانت في الجاهلية، ما أشرفها! بها يتحاجزون في الحياة الدّنيا». قال: ثم دفعنا إلى مجلس الأوس والخزرج، فما نهضنا حتى بايعوا النبي ﷺ.

قال علي: وكانوا صدقاً صبراً فسرّ رسول الله ﷺ بما رأى من معرفة أبي بكر رضي الله عنه بأنسابهم. قال: فلم يلبث رسول الله ﷺ إلا يسيراً حتى خرج إلى أصحابه فقال: «ادعوا لإخوانكم من ربيعة؛ فقد أحاطتهم اليوم أبناء فارس». ثم دخل منزله، فلم يلبث إلا يسيراً حتى خرج إلى أصحابه، فقال لهم: «احمدوا الله كثيراً فقد ظفرت اليوم أبناء ربيعة بأهل فارس، قتلوا ملوكهم واستباحوا عسكرهم وبي نصروا». قال: وكانت الوقعة بقراقر إلى جنب ذي قار وفيها يقول الأعشى: [ديوان الأعشى الكبير: ٢٥٩]

فدى لبني ذُهْل بنِ شيبانَ ناقتي ... وراكبها عند اللقاء وقَلَّت

همُو ضربوا بالحنو حنو قراقر ... مقدمةَ الهامَرزِ حتى تولت

فللهِ عينا من رأى من فوارسٍ ... كذُهلِ بن شيبانٍ بها حينَ ولّت

فَثَارُوا وثُرنا والمودةُ بيننا ... وكانت علينا غمرةٌ فتجلّت

هذا حديث غريب جداً كتبناه لما فيه من دلائل النبوة ومحاسن الأخلاق ومكارم الشيم وفصاحة العرب وقد ورد هذا من طريق أخرى وفيه أنهم لما تحاربوا هم وفارس والتقوا معهم بقراقر - مكان قريب من الفرات - جعلوا شعارهم اسم محمد ﷺ فنصروا على فارس بذلك، وقد دخلوا بعد ذلك في الإسلام.

وقال الواقدي [من طريقه اخرجه ابو نعيم في الدلائل: ٢٢٠]: أخبرنا عبد الله بن وابصة العبسي عن أبيه عن جده قال: جاءنا رسول الله ﷺ في منازلنا بمنى ونحن نازلون بإزاء الجمرة الأولى التي تلي مسجد الخيف وهو على راحلته مردفاً خلفه زيد بن حارثة، فدعانا فوالله ما استجبنا له ولا خير لنا، قال: وقد كنا سمعنا به وبدعائه في المواسم، فوقف علينا يدعونا فلم نستجب له، وكان معنا ميسرة بن مسروق العبسي. فقال لنا: أحلف بالله لو قد صدقنا هذا الرجل وحملناه حتى نحل به وسط بلادنا لكان الرأي. فأحلف بالله ليظهرن أمره حتى يبلغ كل مبلغ. فقال القوم: دعنا منك لا تعرضنا لما لا قبل لنا به.

وطمع رسول الله ﷺ في ميسرة فكلمه فقال ميسرة: ما أحسن كلامك وأنوره، ولكن قومي يخالفوني وإنما الرجل بقومه فإذا لم يعضدوه فالعدى أبعد فانصرف رسول الله ﷺ وخرج القوم صادرين إلى أهليهم. فقال لهم ميسرة: ميلوا بنا إلى فدك فإن بها يهود نسائلهم عن هذا الرجل،

فمالوا إلى يهود فأخرجوا سفراً لهم فوضعوه ثم درسوا ذكر رسول الله ﷺ النبي الأمي العربي يركب الحمار ويجتزئ بالكسرة ليس بالطويل ولا بالقصير، ولا بالجعد ولا بالسبط، في عينيه حمرة مشرق اللون. فإن كان هو الذي دعاكم فأجيبوه وادخلوا في دينه فإنا نحسده ولا نتبعه، ولنا منه في مواطن بلاء عظيم ولا يبقى أحد من العرب إلا اتبعه وإلا قاتله فكونوا ممن يتبعه.

فقال ميسرة: يا قوم ألا إن هذا الأمر بين، فقال القوم: نرجع إلى الموسم فنلقاه فرجعوا إلى بلادهم وأبى ذلك عليهم رجالهم فلم يتبعه أحد منهم.

فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة مهاجراً وحجّ حجّة الوداع لقاه ميسرة فعرفه. فقال: يا رسول الله والله ما زلت حريصاً على اتباعك من يوم أخذت بنا حتى كان ما كان وأبى الله إلا ماترى من تأخر إسلامي، وقد مات عامة النفر الذين كانوا معي فأين مدخلهم يا رسول الله؟.

فقال رسول الله ﷺ: «كل من مات على غير دين الإسلام فهو في النار» فقال: الحمد لله الذي أنقذني. فأسلم وحسن إسلامه، وكان له عند أبي بكر مكان.

وقد استقصى الإمام محمد بن عمر الواقدي [منه اخرجه ابو نعيم في الدلائل: ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢٢، وابن سعد في الطبقات: ٢١٦/١] قصص القبائل واحدة واحدة، فذكر عرضه عليه السلام نفسه على بني عامر وغسان وبني فزارة وبني مرّة وبني حنيفة وبني سليم وبني عبس وبني نضر بن هوازن وبني ثعلبة بن عكابة وكندة وكلب وبني الحارث بن كعب وبني عذرة وقيس بن الخطيم وغيرهم. وسياق أخبارها مطولة وقد ذكرنا من ذلك طرفاً صالحاً ولله الحمد والمنة.

وقال الإمام أحمد [٣٩٠/٣]: حدّثنا أسود بن عامر أخبرنا إسرائيل عن عثمان - يعني ابن المغيرة - عن سالم بن أبي الجعد عن جابر بن عبد الله. قال: كان النبي ﷺ يعرض نفسه على الناس بالموقف فيقول: «هل من رجل يحملني إلى قومه فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي عز وجل؟» فأتاه رجل من همدان فقال: ممن أنت؟ قال الرجل: من همدان. قال: «فهل عند قومك من منعة؟» قال: نعم! ثم إن الرجل خشي أن يحقره قومه فأتى رسول الله ﷺ فقال: آتيهم فأخبرهم ثم آتيك من عام قابل! قال: «نعم»! فانطلق وجاء وفد الأنصار في رجب. وقد رواه أهل السنن الأربعة [د (٤٧٣٤)، ت (٢٩٢٥)، س (٧٧٢٧)، ج (٢٠١)] من طرق عن إسرائيل به.

وقال الترمذي: حسن صحيح.

٧٦- وفود الأنصار وبيعتهم

ثم بعد ذلك تحول إليهم رسول الله ﷺ إلى المدينة فنزل.

بين أظهرهم كما سيأتي بيانه وتفصيله إن شاء الله وبه الثقة.

حليث سويد بن صامت الأنصاري وهو سويد بن الصامت بن خالد بن عطية بن حوط بن حبيب بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس، وأمه ليلى بنت عمرو النجارية أخت سلمى بنت عمرو أم عبد المطلب بن هاشم. فسويد هذا ابن خالة عبد المطلب جد رسول الله ﷺ.

قال محمد بن إسحاق بن يسار [سيرة ابن هشام: ٤٢٥/١]: وكان رسول الله ﷺ على ذلك من أمره كلما اجتمع له الناس بالموسم أتاهم يدعو القبائل إلى الله وإلى الإسلام، ويعرض عليهم نفسه وما جاء به من الهدى والرحمة ولا يسمع بقادم يقدم مكة من العرب له اسم وشرف إلا تصدّى له ودعاه إلى الله تعالى، وعرض عليه ما عنده.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٢٥/١ - ٤٢٧]: حدّثني عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ من قومه. قالوا: قدم سويد بن الصامت أخو بني عمرو بن عوف مكّة حاجاً - أو معتمراً - وكان سويد إنما يسميه قومنا - فيهم - الكامل لجلده وشعره وشرفه ونسبه، وهو الذي يقول:

ألا ربَّ مَن تدعو صديقاً ولو ترى ... مقالتَهُ بالغيب ساءَكَ ما يَفْري

مقالتُه كالشُّهد ما كان شاهداً ... وبالغيبِ مأثورٌ على ثُغْرةِ النَّحر

يسرُّك باديهِ وتحتَ أديمِهِ ... نميمة غِشٌّ تَبْتَري عَقَبَ الظَّهر

تُبين لك العينان ما هو كاتم ... من الغِلّ والبغضاء بالنظرِ الشَّزر

فَرِشني بخيرٍ طالما قد بَرَيْتَني ... وخيرُ الموالي من يَريشُ ولا يبري

قال: فتصدى له رسول الله ﷺ حين سمع به فدعاه إلى الله والإسلام، فقال له سويد: فلعل الذي معك مثل الذي معي؟ فقال له رسول الله ﷺ: «وما الذي معك؟» قال: مجلّة لقمان - يعني حكمة لقمان - فقال رسول الله ﷺ: «اعرضها علي»، فعرضها عليه فقال: «إن هذا الكلام حسن، والذي معي أفضل من هذا؛ قرآن أنزله الله علي هو هدى ونور».

فتلا عليه رسول الله ﷺ القرآن ودعاه إلى الإسلام. فلم يبعد منه وقال: إن هذا القول حسن ثم انصرف عنه فقدم المدينة على قومه فلم يلبث أن قتلته الخزرج. فإن كان رجال من قومه ليقولون: إنا لنراه قُتل وهو مسلم. وكان قتله قبل بعاث.

وقد رواه البيهقي [في الدلائل: ٤١٩/٢] عن الحاكم عن الأصم عن أحمد بن عبد الجبار عن يونس بن بكير عن ابن إسحاق بأخصر من هذا.

٧٧- إسلام إياس بن معاذ

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٢٧/١، ٤٢٨]: وحدثني الحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ عن محمود بن لبيد: قال: لما قدم أبو الحيسر أنس بن رافع مكة ومعه فتية من بني عبد الأشهل فيهم إياس بن معاذ يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج، سمع بهم رسول الله ﷺ فأتاهم فجلس إليهم فقال: «هل لكم في خير مما جئتم له؟» قال: قالوا: وما ذاك؟ قال: «أنا رسول الله إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً، وأنزل عليّ الكتاب.» ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن

قال: فقال إياس بن معاذ، وكان غلاماً حدثاً: أي قوم هذا والله خير مما جئتم له قال: فأخذ أبو الحيسر أنس بن رافع حفنة من تراب البطحاء فضرب بها وجه إياس بن معاذ وقال: دعنا منك فلعمري لقد جئنا لغير هذا. قال: فصمت إياس وقام رسول الله ﷺ عنهم وانصرفوا إلى المدينة وكانت وقعة بعاث بين الأوس والخزرج. قال: ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك.

قال محمود بن لبيد: فأخبرني من حضره من قومه أنهم لم يزالوا يسمعونه يهلل الله ويكبره ويحمده ويسبحه حتى مات، فما كانوا يشكون أنه قد مات مسلماً، لقد كان استشعر الإسلام في ذلك المجلس حين سمع

من رسول الله ﷺ ما سمع.

قلت: كان يوم بعاث - وبعاث موضع بالمدينة - كانت فيه وقعة عظيمة قتل فيها خلق من أشراف الأوس والخزرج وكبرائهم، ولم يبق من شيوخهم إلا القليل.

وقد روى البخاري في «صحيحه» [(٣٧٧٧)] عن عبيد بن إسماعيل عن أبي أسامة عن هشام عن أبيه عن عائشة. قالت: كان يوم بعاث يوماً قدمه الله لرسوله ﷺ، قدم رسول الله ﷺ إلى المدينة وقد افترق ملؤهم وقُتلت سراتهم.

٧٨- إسلام رافع بن مالك ومعاذ بن عفراء

وقال أبو زرعة الرازي في كتابه «دلائل النبوة»: باب إسلام رافع بن مالك ومعاذ بن عفراء، حدثنا إبراهيم بن يحيى بن محمد بن عباد ابن هانئ الشجري، حدثنا أبي، عن أبي إسحاق، حدثني عبيد بن يحيى، عن معاذ بن رفاعة بن رافع، عن أبيه، عن جده أنه خرج هو وابن خالته معاذ بن عفراء حتى قدما مكة، فلما هبطا من الثنيّة رأيا رجلاً تحت شجرة. قال: وهذا قبل خروج الستة من الأنصار. قال: فلما رأياه كلمناه، قلنا: نأتي هذا الرجل نستودعه راحلتينا حتى نطوف بالبيت. فجئنا فسلمنا عليه تسليم أهل الجاهلية، فردَّ علينا تسليم أهل الإسلام، وقد سمعت بالنبي. قال: فأنكرنا، فقلنا: من أنت؟ قال: «أنزلوا». فنزلنا فقلنا: أين هذا الرجل الذي يدّعي ما يدّعي، ويقول ما يقول؟ قال: «أنا هو». قلنا: فاعرض علينا الإسلام. فعرض وقال: «من خلق السماوات والأرض والجبال؟» قلنا: خلقهن الله. قال: «من خلقكم؟» قلنا: الله. قال: «فمن عمل هذه الأصنام التي تعبدون؟» قلنا: نحن. قال: «الخالق أحقُّ بالعبادة أو المخلوق؟» قلنا: «الخالق». قال: «فأنتم أحقُّ أن تعبدكم، وأنتم عملتموها، والله أحقُّ أن تعبدوه من شيء عملتموه، وأنا أدعو إلى عبادة الله وشهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، وصلة الرحم، وترك العدوان، وإن غضب الناس». فقالا: والله لو كان هذا الذي تدعو إليه باطلاً، لكان من معالي الأمور ومحاسن الأخلاق، فأمسك راحلتينا حتى نأتي البيت. فجلس عنده معاذ بن عفراء. قال رافع: وجئت البيت فطفت وأخرجت سبعة قداح، وجعلت له منها قداحا فاستقبلت البيت فقلت: اللهم إن كان ما يدعو إليه محمد حقاً فأخرج قدحه. سبع مرات، فضربت بها سبع مرات فصحت: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله. فاجتمع الناس عليَّ، وقالوا: مجنون، رجل صبأ. فقلت: بل رجل مؤمن. ثم جئت إلى النبي ﷺ بأعلى مكة، فلما رآني معاذ بن عفراء قال: لقد جئت بوجه ما ذهبت به، رافع. فجئت وآمنت، وعلمنا رسول الله ﷺ سورة «يوسف» و﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾، ثم خرجنا راجعين إلى المدينة، فلما كنا بالعقيق قال معاذ: إني لم أطرق ليلاً قطُّ، فبت بنا حتى نصبح. فقلت: أبيت ومعي ما معي من الخير؟! ما كنت لأفعل. وكان رافع إذا خرج سفراً ثم قدم عرض قومه. إسناد حسن وسياق حسن.

٧٩- بدء إسلام الأنصار رضي الله عنهم

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٢٨/١، ٤٢٩]: فلما أراد الله إظهار دينه وإعزاز نبيه. وإنجاز موعده له، خرج رسول الله ﷺ في الموسم الذي لقيه فيه النفر من الأنصار فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم، فبينا هو عند العقبة لقي رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً.

فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ من قومه قالوا: لما لقيهم رسول الله ﷺ قال لهم: «من أنتم؟» قالوا: نفر من الخزرج قال: «أمن موالي يهود؟» قالوا: نعم! قال: «أفلا تجلسون أكلمكم؟» قالوا: بلى. فجلسوا معه فدعاهم إلى الله وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن. قال: وكان مما صنع الله بهم في الإسلام أن يهود كانوا معهم في بلادهم. وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانوا هم أهل شرك أصحاب أوثان، وكانوا قد غزوهم ببلادهم فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم: إن نبياً مبعوث الآن قد أظل زمانه نتبعه، نقتلكم معه قتل عاد وإرم.

فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر ودعاهم إلى الله. قال بعضهم لبعض: يا قوم تعلمون والله إنه للنبي الذي توعّدكم به يهود فلا يسبقنكم إليه، فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام وقالوا له: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، وعسى أن يجمعهم الله بك فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك. ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم قد آمنوا وصدّقوا.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٢٩/١، ٤٣٠]: وهم فيما ذكر لي ستة نفر كلهم من الخزرج، وهم: أبو أمامة أسعد بن زرارة بن عدس بن عبيد بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجّار.

قال أبو نعيم [في الدلائل: ٢٢٦]: وقد قيل: إنه أول من أسلم من الأنصار من الخزرج. ومن الأوس أبو الهيثم بن التيهان. وقيل: إن أول من أسلم رافع بن مالك ومعاذ بن عفراء والله أعلم.

وعوف بن الحارث بن رفاعة بن سواد بن مالك بن غنم بن مالك بن النجار - وهو ابن عفراء - النجاريان، ورافع بن مالك بن العجلان بن عمرو بن زريق الزرقي وقطبة بن عامر بن حديدة بن عمرو بن سواد بن غنم بن كعب بن سلمة بن سعد بن علي بن أسد بن ساردة بن تزيد بن جشم بن الخزرج السلمي ثم من بني سواد، وعقبة بن عامر بن نابي بن زيد بن حرام بن كعب بن غنم السلمي أيضاً ثم من بني حرام، وجابر بن عبد الله بن رئاب بن النعمان بن سنان بن عبيد بن عدي بن غنم بن كعب بن سلمة السلمي أيضاً، ثم من بني عبيد رضي الله عنهم.

وهكذا روي عن الشعبي والزهري وغيرهما أنهم كانوا ليلتئذ ستة نفر من الخزرج [الدلائل لأبي نعيم: ٢٢٦].

وذكر موسى بن عقبة [عنه أخرجه البيهقي في الدلائل: ٤٣٠/٢] فيما رواه عن الزهري وعروة بن الزبير أن أول اجتماعه عليه السلام بهم كانوا ثمانية وهم: معاذ بن عفراء، وأسعد بن زرارة، ورافع بن مالك، وذكوان - وهو ابن عبد قيس - وعبادة بن الصامت، وأبو عبد الرحمن يزيد بن ثعلبة، وأبو الهيثم بن التيهان، وعويم بن ساعدة. فأسلموا وواعدوه إلى قابل. فرجعوا إلى قومهم فدعوهم إلى الإسلام، وأرسلوا إلى رسول الله ﷺ معاذ بن عفراء ورافع بن مالك أن ابعث إلينا رجلاً يفقهنا. فبعث إليهم مصعب بن عمير فنزل على أسعد بن زرارة.

وذكر تمام القصة كما سيوردها ابن إسحاق أتم من سياق موسى بن عقبة والله أعلم.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٣١/١ - ٤٣٣]: فلما قدموا المدينة إلى

قومهم ذكروا لهم رسول الله ﷺ ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر رسول الله ﷺ، حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً وهم: أبو أمامة أسعد بن زرارة المتقدم ذكره، وعوف بن الحارث المتقدم، وأخوه معاذ وهما ابنا عفراء، ورافع بن مالك المتقدم أيضاً. وذكوان بن عبد قيس بن خلدة بن مخلد بن عامر بن زريق الزرقي.

قال ابن هشام: وهو أنصاري مهاجري وعبادة بن الصامت بن قيس بن أصرم بن فهر بن ثعلبة بن غنم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج، وحليفهم أبو عبد الرحمن يزيد بن ثعلبة بن خزمة بن أصرم البلوي، والعباس بن عبادة بن نضلة بن مالك بن العجلان بن زيد بن غنم بن سالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج العجلاني، وعقبة بن عامر بن نابي المتقدّم ذكرُه، وقطبة بن عامر بن حديدة المتقدّم، فهؤلاء عشرة من الخزرج، ومن الأوس اثنان وهما: عويم بن ساعدة وأبو الهيثم مالك بن التيهان.

قال ابن هشام: التيهان يخفف ويثقل كميْت وميِّت.

قال السهيلي [الروض الأنف: ٤/٩٤، ٩٥]: أبو الهيثم بن التيهان اسمه مالك بن مالك بن عتيك بن عمرو بن عبد الأعلم بن عامر بن زَعُور بن جشم بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس.

قال [في الروض الأنف: ٤/٩٥، ٩٦]: وقيل: إنه إراشي وقيل: بلوي.

ولهذا لم ينسبه ابن إسحاق ولا ابن هشام.

قال [في الروض الأنف: ٤/٩٦]: والهيثم فرخ العقاب، وضرب من النبات.

والمقصود أن هؤلاء الاثني عشر رجلاً شهدوا الموسم عامئذ، وعزموا على الاجتماع برسول الله ﷺ فلقوه بالعقبة فبايعوه عندها بيعة النساء وهي العقبة الأولى.

وروى أبو نعيم [في الدلائل: ٢٢٦] أن رسول الله ﷺ قرأ عليهم من قوله تعالى في سورة «إبراهيم»: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ إلى آخرها.

وقال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٤٣٣]: حدّثني يزيد بن أبي حبيب عن مرثد بن عبد الله اليزني عن عبد الرحمن بن عسيلة الصنابحي عن عبادة بن الصامت قال: كنت ممن حضر العقبة الأولى وكنا اثني عشر رجلاً. فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء وذلك قبل أن تفترض الحرب على أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل أولادنا ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف، «فإن وفيتم فلكم الجنّة، وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأمركم إلى الله، إن شاء عذب وإن شاء غفر».

وقد روى البخاري [(٣٨٩٣)] ومسلم [(١٧٠٩)] هذا الحديث من طريق الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب به نحوه.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٤٣٤]: وذكر ابن شهاب الزهري عن عائذ الله بن عبد الله أبي إدريس الخولاني أن عبادة بن الصامت حدثه أنه قال: بايعنا رسول الله ﷺ ليلة العقبة الأولى: أن لا نشرك بالله شيئاً ولانسرق ولا نزني ولا نقتل أولادنا ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف، «فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأخذتم بحدّه في الدنيا فهو كفارة له، وإن سُترتم عليه إلى يوم القيامة فأمركم إلى الله إن شاء عذب وإن شاء غفر».

وهذا الحديث مخرج في «الصحيحين» [خ (١٨)، م (١٧٠٩)] وغيرهما [ت (١٤٣٩)، س (٤١٨٩)] من طرق عن الزهري به نحوه.

وقوله: على بيعة النساء - يعني: على وفق ما نزلت عليه بيعة النساء بعد ذلك عام الحديبية - وكان هذا مما نزل على وفق ما بايع عليه أصحابه ليلة العقبة. وليس هذا بعجيب فإن القرآن نزل بموافقة عمر بن الخطاب في غير ما موطن كما بيناه في «سيرته» وفي «التفسير»، وإن كانت هذه البيعة وقعت عن وحي غير متلو فهو أظهر والله أعلم.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٤٣٤]: فلما انصرف عنه القوم بعث رسول الله ﷺ معهم مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي، وأمره أن يقرئهم القرآن، ويعلّمهم الإسلام ويفقههم في الدين.

وقد روى البيهقي [في الدلائل: ٢/٤٣٧] عن ابن إسحاق قال: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة أن رسول الله ﷺ إنما بعث مصعباً حين كتبوا إليه أن يبعثه إليهم، وهو الذي ذكره موسى بن عقبة كما تقدم، إلا أنه جعل المرة الثانية هي الأولى.

قال البيهقي [في الدلائل: ٢/٤٣٣]: وسياق ابن إسحاق أتم.

وقال ابن إسحاق: فكان عبد الله بن أبي بكر يقول: لا أدري ما العقبة الأولى.

ثم يقول ابن إسحاق: بلى لعمري قد كانت عقبة وعقبة.

قالوا كلّهم [ابن هشام في السيرة: ١/٤٣٤ والبيهقي في الدلائل: ٢/٤٣١، ٤٣٧]: فنزل مصعب على أسعد بن زرارة فكان يسمى بالمدينة المقرئ.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٤٣٤، ٤٣٥]: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة أنه كان يصلّي بهم، وذلك أن الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤمّه بعض رضي الله عنهم أجمعين.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٤٣٥]: وحدثني محمد بن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن أبيه عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك قال: كنت قائد أبي حين ذهب بصره فكنت إذا خرجت به إلى الجمعة فسمع الأذان بها صلى على أبي أمامة أسعد بن زرارة. قال: فمكث حيناً على ذلك لا يسمع الأذان للجمعة إلا صلى عليه واستغفر له. قال: فقلت في نفسي: والله إن هذا بي لعجز، ألا أسأله. فقلت: يا أبت ما لك إذا سمعت الأذان للجمعة صليت على أبي أمامة؟ فقال: أي بني كان أول من جمع بنا بالمدينة في هزم النبيت من حرة بني بياضة في نقيع يقال له: نقيع الخضمات قال: قلت: وكم أنتم يومئذ؟ قال: أربعون رجلاً.

وقد روى هذا الحديث أبو داود [(١٠٦٩)] وابن ماجه [(١٠٨٢)] من طريق محمد بن إسحاق رحمه الله.

وقد روى الدارقطني عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كتب إلى مصعب بن عمير يأمره بإقامة الجمعة [ذكره السهيلي في الروض الأنف: ٤/١٠١، ١٠٢].

وفي إسناده غرابة والله أعلم.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٤٣٥، ٤٣٦]: وحدثني عبيد الله بن المغيرة بن معيقيب وعبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: أن أسعد بن زرارة خرج بمصعب بن عمير يريد به دار بني عبد الأشهل ودار بني ظفر، وكان سعد بن معاذ ابن خالة أسعد بن زرارة، فدخل به حائطاً من حوائط بني ظفر على بئر يقال له: بئر مرق فجلسا في الحائط واجتمع إليهما رجال ممن أسلم، وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير يومئذ سيدا قومهما من بني عبد الأشهل وكلاهما مشرك على دين قومه، فلما سمعا به

قال سعد لأسيد: لا أبا لك انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارينا ليسفّها ضعفاءنا فازجرهما، وانههما أن يأتيا دارينا فإنه لولا أسعد بن زرارة مني حيث قد علمت كفيتك ذلك، هو ابن خالتي ولا أجد عليه مقدماً.

قال: فأخذ أسيد بن حضير حربته ثم أقبل إليهما، فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب: هذا سيد قومه وقد جاءك فاصدق الله فيه، قال مصعب: إن يجلس أكلمه. قال: فوقف عليهما متشتماً فقال: ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة.

وقال موسى بن عقبة: فقال له: علام أتيتنا في دورنا بهذا الوحيد الغريب الطريد يسفه ضعفاءنا بالباطل ويدعوهم إليه؟.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٣٦/١، ٤٣٧]: فقال له مصعب: أوَ تجلس فتسمع فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كفّ عنك ما تكره. قال: أنصفت، قال: ثم ركز حربته وجلس إليهما فكلمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه القرآن، فقالا فيما يذكر عنهما: والله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتسهّله، ثم قال: ما أحسن هذا وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالا له: تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلّي، فقام فاغتسل وطهر ثوبيه وشهد شهادة الحق ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إن ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلّف عنه أحد من قومه وسأرسله إليكما الآن. سعد بن معاذ.

ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلاً. قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف على النادي قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأساً. وقد نهيتهما فقالا: نفعل ما أحببت.

وقد حدثت أن بني حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك ليخفروك، قال: فقام سعد بن معاذ مغضباً مبادراً تخوفاً للذي ذكر له من بني حارثة وأخذ الحربة في يده ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئاً، ثم خرج إليهما سعد فلما رآهما سعد مطمئنين عرف أن أسيداً إنما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشتماً ثم قال لأسعد بن زرارة: يا أبا أمامة والله لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت هذا مني، أتغشانا في دارنا بما نكره؟ قال: وقد قال أسعد لمصعب: جاءك والله سيد من ورائه قومه، إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان.

قال: فقال له مصعب: أوَ تقعد فتسمع فإن رضيت أمراً رغبت فيه قبلته وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره. قال سعد: أنصفت، ثم ركز الحربة وجلس فعرض عليه الإسلام وقرأ عليه القرآن.

وذكر موسى بن عقبة أنه قرأ عليه أول «الزخرف».

قال: فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم لإشراقه وتسهله ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين؟ قالا: تغتسل فتطهرّ وتطهرّ ثوبيك ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي ركعتين. قال: فقام فاغتسل وطهر ثوبيه وشهد شهادة الحق، ثم ركع ركعتين، ثم أخذ حربته فأقبل عامداً إلى نادي قومه ومعه أسيد بن الحضير.

فلما رآه قومه مقبلاً قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأياً وأيمننا نقيبة، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله، قال: فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً أو مسلمة، ورجع أسعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون، إلا ما كان من دار بني أمية بن زيد، وخطمة، ووائل، وواقف، وتلك أوس وهم من الأوس بن حارثة وذلك أنهم كان فيهم أبو قيس بن الأسلت واسمه صيفي.

وقال الزبير بن بكار: اسمه الحارث، وقيل: عبيد الله واسم أبيه الأسلت: عامر بن جشم بن وائل بن زيد بن قيس بن عامر بن مرة بن مالك بن الأوس.

وكذا نسبه ابن الكلبي أيضاً.

وكان شاعراً لهم قائداً يستمعون منه ويطيعونه، فوقف بهم عن الإسلام حتى كان بعد الخندق.

قلت: وأبو قيس بن الأسلت هذا ذكر له ابن إسحاق أشعاراً ربانية حسنة تقرب من أشعار أمية بن أبي الصلت الثقفي.

قال ابن إسحاق فيما تقدم [سيرة ابن هشام: ٢٨٢/١]: ولما انتشر أمر رسول الله ﷺ في العرب وبلغ البلدان ذكر بالمدينة ولم يكن حي من العرب أعلم بأمر رسول الله ﷺ - حين ذكر، وقبل أن يذكر - من هذا الحي من الأوس والخزرج، وذلك لما كانوا يسمعون من أحبار يهود. فلما وقع أمره بالمدينة وتحدثوا بما بين قريش فيه من الاختلاف قال أبو قيس بن الأسلت أخو بني واقف.

٨٠- إسلام أبي قيس بن الأسلت

قال السهيلي [في الروض الأنف: ٣٨٩/٤]: هو أبو قيس صرمة بن أبي أنس واسم أبي أنس قيس بن صرمة بن مالك بن عدي بن عمرو بن غنم بن عدي بن النجار، قال: وهو الذي أنزل فيه وفي عمر ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ﴾ الآية.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٢٨٣/١ - ٢٨٦]: وكان يحب قريشاً، وكان لهم صهراً. كانت تحته أرنب بنت أسد بن عبد العزى بن قصي وكان يقيم عندهم السنين بامرأته.

قال قصيدة يعظم فيها الحرمة وينهى قريشاً فيها عن الحرب ويذكر فضلهم وأحلامهم ويذكرهم بلاء الله عندهم ودفعه عنهم الفيل وكيده ويأمرهم بالكف عن رسول الله ﷺ:

أيا راكباً إما عرضت فبلغن ... مغلغلةً عني لؤي بن غالب
رسول امرئ قد راعه فات بينكم ... على النأي محزون بذلك ناصب
وقد كان عندي للهموم معرس ... ولم أقض منها حاجتي ومآربي
نبيتكم شرجين كل قبيلة ... لها أزمل من بين مذك وحاطب
أعيذكم بالله من شرّ صنعكم ... وشر تباغيكم ودس العقارب
وإظهار أخلاق ونجوى سقيمة ... كوخز الأشافي وقعها حق صائب
فذكرهم بالله أول وهلة ... وإحلال إحرام الظباء الشوازب
وقل لهم والله يحكم حكمه ... ذروا الحرب تذهب عنكم في المراحب
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة ... هي الغول للأقصين أو للأقارب
تقطع أرحاماً وتهلك أمة ... وتبري السديف من سنام وغارب
وتستبدلوا بالأنعمية بعدها ... شليلاً وأصداءً ثياب المحارب

وبالمسك والكافور غبراً سوابغاً كأنّ قتيرها عيون الجنادب
فإياكم والحرب لا تعلقنكم وحوضاً وخيم الماء مر المشارب
تزين للأقوام ثم يرونها بعاقبة إذ بينت أم صاحب
تحرق لا تشوي ضعيفاً وتنتحي ذوي العزّ منكم بالحتوف الصوائب
ألم تعلموا ما كان في حرب داحس فتعتبروا أو كان في حرب حاطب
وكم قد أصابت من شريف مسود طويل العماد ضيفه غير خائب
عظيم رماد النار يحمد أمره وذي شيمة محض كريم المضارب
وماء هريق في الضلال كأنما أذاعت به ريح الصبا والجنائب
يخبركم عنها امرؤ حق عالم بأيامها والعلم علم التجارب
فيعوا الحراب ملمحارب واذكروا حسابكم واللّه خير محاسب
ولي امرئ فاختار ديناً فلا يكن عليكم رقيب غير رب الثواقب
أقيموا لنا ديناً حنيفاً فأنتمُ لنا غاية قد يُهتدى بالثواقب
وأنتم لهذا الناس نور وعصمة تؤمون والأحلام غير عوازب
وأنتم إذا ما حُصِّل الناس جوهر لكم سرة البطحاء ثم الأرانب
تصونون أجساداً كراماً عتيقة مهذبة الأنساب غير أشائب
ترى طالب الحاجات نحو بيوتكم عصائب هلكى تهتدي بعصائب
لقد علم الأقوام أن سراتكم على كل حال خير أهل الجباجب
وأفضله رأياً وأعلاه سنةً وأقوله للحق وسط المواكب
فقوموا فصلوا ربكم وتمسحوا بأركان هذا البيت بين الأخاشب
فعندكم منه بلاء ومَصْدق غداة أبي يكسوم هادي الكتائب
كتيبته بالسهل تُمشي ورَجْلُه على القاذفات في رؤوس المناقب
فلما أتاكم نصر ذي العرش ردهم جنود المليك بين ساف وحاصب
فولوا سراعاً هاربين ولم يؤب إلى أهله ملحَبَّش غير عصائب
فإن تهلكوا نهلك وتهلك مواسم يعاش بها قول امرئ غير كاذب

وحرب داحس التي ذكرها أبو قيس في شعره كانت في زمن الجاهلية مشهورة، وكان سببها فيما ذكره أبو عبيدة معمر بن المثنى وغيره: أن فرساً يقال له: داحس كانت لقيس بن زهير بن جذيمة بن رواحة العطفاني. أجراه مع فرس لحذيفة بن بدر بن عمرو بن جؤية الغطفاني أيضاً يقال لها: الغبراء، فجاءت داحس سابقاً فأمر حذيفة من ضرّب وجهه فوثب مالك بن زهير فلطم وجه الغبراء، فقام حمل بن بدر فلطم مالكاً، ثم إن أبا جنيدب العبسي لقي عوف بن حذيفة فقتله، ثم لقي رجل من بني فزارة مالكاً فقتله، فشبت الحرب بين بني عبس وفزارة فقتل حذيفة بن بدر وأخوه حمل بن بدر وجماعات آخرون، وقالوا في ذلك أشعاراً كثيرة يطول بسطها وذكرها.

قال ابن هشام [سيرة ابن هشام: ٢٨٧/١]: ويقال: أرسل قيس داحساً والغبراء وأرسل حذيفة الخطار والحنفاء، والأول أصح.

قال: وأما حرب حاطب فيعني حاطب بن الحارث بن قيس بن هيشة بن الحارث بن أمية بن معاوية بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس. كان قتل يهودياً جاراً للخزرج، فخرج إليه يزيد بن الحارث بن قيس بن مالك بن أحمر بن حارثة بن ثعلبة بن كعب بن مالك بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج - وهو الذي يقال له: ابن فسحم - في نفر من بني الحارث بن الخزرج فقتلوه فوقعت الحرب بين الأوس والخزرج فاقتتلوا قتالاً شديداً، وكان الظفر للخزرج، وقتل يومئذ الأسود بن الصامت الأوسي، قتله المجذر بن ذياد حليف بني عوف بن الخزرج، ثم كانت بينهم حروب يطول ذكرها أيضاً.

والمقصود أن أبا قيس بن الأسلت مع علمه وفهمه لم ينتفع بذلك حين قدم مصعب بن عمير المدينة ودعا أهلها إلى الإسلام، فأسلم من أهلها بشر كثير ولم يبق دار - أي محلة - من دور المدينة إلا وفيها مسلمون ومسلمات غير دار بني واقف قبيلة أبي قيس ثبطهم عن الإسلام وهو القائل أيضاً:

أربُّ الناس أشياء ألمت يلف الصعب منها بالذلول
أربُّ الناس إما إن ضللنا فيرنا لمعروف السبيل
فلولا ربنا كنا يهوداً وما دين اليهود بذي شكول
ولولا ربنا كنا نصارى مع الرهبان في جبل الجليل
ولكنا خُلقنا إذ خُلقنا حنيفاً ديننا عن كل جبل
نسوق الهدي ترسف مذعنات مكشفة المناكب في الجلول

وحاصل ما يقول أنه حائر فيما وقع من الأمر الذي قد سمعه من بعثة رسول اللّه ﷺ فتوقف الواقفي في ذلك مع علمه ومعرفته وكان الذي ثبطه عن الإسلام أولاً عبد اللّه بن أبي بن سلول بعد ما أخبره أبو قيس أنه الذي بشر به يهود فمنعه عن الإسلام

قال ابن إسحاق: ولم يسلم إلى يوم الفتح هو وأخوه وَحْوَح. [ذكره ابن الأثير في أسد الغابة: ٤٠/٣].

وأنكر الزبير بن بكار أن يكون أبو قيس أسلم [انظر أسد الغابة: ٤٠/٣، ٤١].

وكذا الواقدي، قال: كان عزم على الإسلام أول ما دعاه رسول اللّه ﷺ، فلامه عبد اللّه بن أبي فحلف لا يسلم إلى حول فمات في ذي القعدة [طبقات ابن سعد: ٣٨٥/٤].

وقد ذكر غيره فيما حكاه ابن الأثير في كتابه «أسد الغابة» [٢٥٧/٦] أنه لما حضره الموت دعاه النبي ﷺ إلى الإسلام فسُمع يقول: لا إله إلا اللّه.

وقال الإمام أحمد [١٥٤/٣]: حدّثنا حسن بن موسى حدّثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك أن رسول اللّه ﷺ عاد رجلاً من الأنصار، فقال: «يا خال قل: لا إله إلا اللّه» فقال: أخال أم عم؟ قال: «بل خال» قال: فخير لي أن أقول: لا إله إلا اللّه؟ فقال رسول اللّه ﷺ: «نعم!» تفرد به أحمد رحمه اللّه.

وذكر عكرمة وغيره أنه لما توفي أراد ابنه أن يتزوج امرأته كبيشة بنت معن بن عاصم، فسألت رسول اللّه ﷺ في ذلك فأنزل اللّه ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٢] الآية [انظر تفسير الطبري: ٣١٨/٤].

وقال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥١٠/١]: وسعيد بن يحيى الأموي في «مغازيه»: كان أبو قيس هذا قد ترهّب في الجاهلية ولبس المسوح، وفارق الأوثان، واغتسل من الجنابة، وتطهر من الحائض من النساء وهمّ بالنصرانية ثم أمسك عنها ودخل بيتاً له فاتخذه مسجداً لا يدخل عليه فيه حائض ولا جنب. وقال: أعبد إله إبراهيم حين فارق الأوثان وكرهها، حتى قدم رسول اللّه ﷺ المدينة فأسلم فحسن إسلامه، وهو شيخ كبير وكان قوالاً بالحق معظّماً للّه في جاهليته يقول في ذلك أشعاراً حساناً وهو الذي يقول:

يقول أبو قيس وأصبح غادياً ... ألا ما استطعتم من وصاتي فافعلوا
فأوصيكم بالله والبر والتقى ... وأعراضكم والبر بالله أوّل
وإن قومكم سادوا فلا تحسدنهم ... وإن كنتم أهل الرئاسة فاعدلوا
وإن نزلت إحدى الدواهي بقومكم ... فأنفسكم دون العشيرة فاجعلوا
وإن ناب غرم فادح فارفقوهم ... وما حُمّلوكم في الملمات فاحملوا
وإن أنتم أعسرتم فتعففوا ... وإن كان فضل الخير فيكم فأفضلوا

وقال أبو قيس أيضاً:

سبحوا الله شرق كل صباح ... طلعت شمسه وكل هلال
عالم السر والبيان جميعاً ... ليس ما قال ربنا بضلال
وله الطير تستريد وتأوي ... في وكور من آمنات الجبال
وله الوحش بالفلاة تراها ... في حقاف وفي ظلال الرمال
وله هودت يهود ودانت ... كل دين مخافة من عضال
وله شمّس النصارى وقاموا ... كل عيد لربهم واحتفال
وله الراهب الحبيس تراه ... رهن بؤس وكان ناعِمَ بال
يا بني الأرحام لا تقطعوها ... وصلوها قصيرة من طوال
واتقوا الله في ضعاف اليتامى ... وبما يستحل غير الحلال
واعلموا أن لليتيم ولياً ... عالماً يهتدي بغير سؤال
ثم مال اليتيم لا تأكلوه ... إن مال اليتيم يرعاه والي
يا بني التخوم لا تجزلوها ... إن جزل التخوم ذو عقال
يا بني الأيام لا تأمنوها ... واحذروا مكرها ومر الليالي
واعلموا أن مُرّها لنفاد ... الخلق ما كان من جديد وبالي
واجمعوا أمركم على البر والتقوى ... وتركك الخنا وأخذ الحلال

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥١٢/١]: وقال أبو قيس صرمة أيضاً يذكر ما أكرمهم الله به من الإسلام، وما خصهم به من نزول رسول الله ﷺ عندهم:

ثوى في قريشٍ بضعَ عشرةَ حجّةً ... يذكّر لو يَلقى صَديقاً مُواتيا

وسيأتي ذكرها بتمامها فيما بعد إن شاء الله وبه الثقة.

٨١- قصة بيعة العقبة الثانية

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٣٨/١ - ٤٤١]: ثم إن مصعب بن عمير رجع إلى مكة، وخرج من خرج من الأنصار من المسلمين مع حجاج قومهم من أهل الشرك حتى قدموا مكة فواعدوا رسول الله ﷺ العقبة من أواسط أيام التشريق حين أراد الله بهم من كرامته والنصر لنبيّه وإعزاز الإسلام وأهله. فحدثني معبد بن كعب بن مالك أن أخاه عبد الله بن كعب - وكان من أعلم الأنصار - حدثه أن أباه كعباً حدثه - وكان ممن شهد العقبة وبايع رسول الله ﷺ بها - قال: خرجنا في حجّاج قومنا من المشركين وقد صلينا وفقهنا ومعنا البراء بن معرور سيدنا وكبيرنا، فلما وجهنا لسفرنا وخرجنا من المدينة قال البراء: يا هؤلاء إني قد رأيت رأياً والله ما أدري أتوافقونني عليه أم لا؟ قال: قلنا: وما ذاك؟ قال: قد رأيت أن لا أدع هذه البنية مني بظهر - يعني الكعبة - وأن أصلي إليها قال: فقلنا: والله ما بلغنا أن نبينا ﷺ يصلي إلا إلى الشام وما نريد أن نخالفه. فقال: إني لمصل إليها، قال: فقلنا له: لكنا لا نفعل. قال: فكنا إذا حضرت الصلاة صلّينا إلى الشام وصلّى هو إلى الكعبة حتى قدمنا مكة.

قال: وقد كنا عبنا عليه ما صنع وأبى إلا الإقامة على ذلك فلما قدمنا مكة قال لي: يا ابن أخي انطلق بنا إلى رسول الله ﷺ حتى اسأله عما صنعت في سفري هذا فإنه قد وقع في نفسي منه شيء، لما رأيت من خلافكم إياي فيه.

قال: فخرجنا نسأل عن رسول الله ﷺ - وكنا لا نعرفه ولم نره قبل ذلك - فلقينا رجلاً من أهل مكة فسألناه عن رسول الله ﷺ قال: هل تعرفانه؟ فقلنا: لا، فقال: هل تعرفان العباس بن عبد المطلب عمه؟ قال: قلنا: نعم! وقد كنا نعرف العباس كان لا يزال يقدم علينا تاجراً، قال: فإذا دخلتما المسجد فهو الرجل الجالس مع العباس قال: فدخلنا المسجد وإذا العباس جالس ورسول الله ﷺ جالس معه، فسلّمنا ثم جلسنا إليه.

فقال رسول الله ﷺ للعباس: «هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل؟» قال: نعم، هذا البراء بن معرور سيد قومه وهذا كعب بن مالك قال: فوالله ما أنسى قول رسول الله ﷺ: «الشاعر؟» قال: نعم! فقال له البراء بن معرور: يا نبي الله إني خرجت في سفري هذا قد هداني الله تعالى للإسلام، فرأيت أن لا أجعل هذه البنية مني بظهر فصليت إليها وقد خالفني أصحابي في ذلك حتى وقع في نفسي من ذلك شيء فماذا ترى يا رسول الله؟ قال: «قد كنت على قبلة لو صبرت عليها» قال: فرجع البراء إلى قبلة رسول الله ﷺ فصلى معنا إلى الشام، قال: وأهله يزعمون أنه صلى إلى الكعبة حتى مات، وليس ذلك كما قالوا نحن أعلم به منهم.

قال كعب بن مالك: ثم خرجنا إلى الحج وواعدنا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق، فلما فرغنا من الحج وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله ﷺ لها ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر سيد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا أخذناه وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا، فكلمناه وقلنا له: يا أبا جابر إنك سيد من ساداتنا وشريف من أشرافنا وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطباً للنار غداً، ثم دعوناه إلى الإسلام وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ إيانا العقبة قال: فأسلم وشهد معنا العقبة وكان نقيباً.

وقد روى البخاري [(٣٨٩١)]: حدّثني إبراهيم حدّثنا هشام أن ابن جريج أخبرهم قال عطاء: قال جابر: أنا وأبي وخالي من أصحاب العقبة. قال عبد الله بن محمد: قال ابن عيينة: أحدهما البراء بن معرور.

حدّثنا علي بن المديني حدّثنا سفيان قال: كان عمرو يقول: سمعت جابر بن عبد الله يقول: شهد بي خالاي العقبة. [خ (٣٨٩٠)]

وقال الإمام أحمد [٣٢٢/٣، ٣٢٣]: حدّثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن ابن خثيم عن أبي الزبير عن جابر. قال: مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين يتبع الناس في منازلهم، بعكاظ ومجنة، وفي المواسم بمنى يقول: «من يؤويني؟ من ينصرني؟ حتى أبلغ رسالة ربي وله الجنة» حتى إن الرجل ليخرج من اليمن أو من مضر - كذا قال فيه - فيأتيه قومه فيقولون: احذر غلام قريش لا يفتنك، ويمضي بين رحالهم وهم يشيرون إليه بالأصابع حتى بعثنا الله إليه من يثرب فآويناه وصدقناه، فيخرج الرجل منا فيؤمن به ويقرئه القرآن فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام، ثم ائتمروا جميعاً فقلنا: حتى متى نترك رسول الله ﷺ يطرد في جبال مكة ويُخاف؟. فرحل

إليه منا سبعون رجلاً حتى قدموا عليه في الموسم فواعدناه شعب العقبة، فاجتمعنا عندها من رجل ورجلين حتى توافينا فقلنا: يا رسول الله علام نبايعك؟ قال: «تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله لا تخافون في الله لومة لائم وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة».

فقمنا إليه وأخذ بيده أسعد بن زرارة - وهو من أصغرهم - وفي رواية البيهقي [الدلائل: ٤٤٢/٢، ٤٤٣]: وهو أصغر السبعين إلا أنا - فقال: رويداً يا أهل يثرب فإنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، وأن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة وقتل خياركم وأن تعضكم السيوف. فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك فخذوه وأجركم على الله، وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم خيفة. فبينوا ذلك فهو أعذر لكم عند الله. قالوا: أمِطْ عنا يا أسعد فوالله لا ندع هذه البيعة أبداً ولا نسلبها أبداً.

قال: فقمنا إليه فبايعناه وأخذ علينا وشرط ويعطينا على ذلك الجنة.

وقد رواه الإمام أحمد أيضاً [٣٢٣/٣] **والبيهقي** [في الدلائل: ٤٤٣/٢، ٤٤٤] من طريق داود بن عبدالرحمن العطار، زاد البيهقي [في الدلائل: ٤٤٣/٢ - ٤٤٥] عن الحاكم بسنده: إلى يحيى بن سليم كلاهما عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن أبي الزبير به نحوه.

وهذا إسناد جيد على شرط مسلم ولم يخرجوه.

وقال البزار [كشف الأستار: ٣٠٨/٢]: ورواه غير واحد عن ابن خثيم ولا نعلمه يُروى عن جابر إلا من هذا الوجه.

وقال الإمام أحمد [٣٩٦/٣]: حدّثنا سليمان بن داود حدّثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد عن موسى بن عقبة عن أبي الزبير عن جابر. قال: كان العباس آخذاً بيد رسول الله ﷺ ورسوله الله يواثقنا، فلما فرغنا قال رسول الله ﷺ: «أخذت وأعطيت».

وقال البزار [كشف الأستار: ٣٠٧/٢]: حدّثنا محمد بن معمر حدّثنا قبيصة حدّثنا سفيان - هو الثوري - عن جابر - يعني الجعفي - وداود - هو ابن أبي هند - عن الشعبي عن جابر - يعني ابن عبد الله - قال قال رسول الله ﷺ للنقباء من الأنصار: «تزوروني وتمنعوني؟» قالوا: نعم قالوا: فما لنا؟ قال: «الجنة».

ثم قال: لا نعلمه يروى إلا بهذا الإسناد عن جابر.

ثم قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٤١/١ - ٤٤٣] عن معبد عن عبد الله عن أبيه كعب بن مالك. قال: فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ نتسلل تسلل القطا مستخفين حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً ومعنا امرأتان من نسائنا نسيبة بنت كعب أم عمارة إحدى نساء بني مازن بن النجار، وأسماء ابنة عمرو بن عدي بن نابي إحدى نساء بني سلمة وهي أم منيع.

وقد صرح ابن إسحاق [عنه أخرجه البيهقي في الدلائل: ٤٥٥/٢] في رواية يونس بن بكير عنه بأسمائهم وأنسابهم.

قلت: وما ورد في بعض الأحاديث أنهم كانوا سبعين، فالعرب كثيراً ما تحذف الكسر.

وقال عروة بن الزبير وموسى بن عقبة [عنهما بإسنادين أخرجه البيهقي في الدلائل: ٤٥٣/٢، ٤٥٤]: كانوا سبعين رجلاً وامرأة واحدة، قال: منهم أربعون من ذوي أسنانهم، وثلاثون من شبابهم قال: وأصغرهم أبو مسعود وجابر بن عبد الله.

وقول محمد بن إسحاق أنهم خمسة وسبعون أثبت. والله أعلم.

قال كعب بن مالك: فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ومعه العباس بن عبد المطلب وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له، فلما جلس كان أول متكلم العبّاس بن عبد المطلب فقال: يا معشر الخزرج - قال: وكانت العرب إنما يسمون هذا الحي من الأنصار الخزرج خزرجها وأوسها - إن محمّداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عزّة من قومه، ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه فإنه في عزة ومنعة من قومه وبلده. قال: فقلنا له: قد سمعنا ما قلت فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت، قال: فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن ودعا إلى الله ورغب في الإسلام ثم قال: «أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم».

قال: فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: نعم! فوالذي بعثك بالحق لنمنعنّك مما نمنع منه أزرنا فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر. قال: فاعترض القول - والبراء يكلّم رسول الله ﷺ - أبو الهيثم بن التيهان فقال: يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالاً وإنا قاطعوها - يعني اليهود - فهل عسيت إن فعلنا ذلكَ ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ قال: فتبسّم رسول الله ﷺ ثم قال: «بل الدّم الدّم، والهدم الهدم. أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم» قال كعب: وقد قال رسول الله ﷺ: «أخرجوا إليّ منكم اثني عشر نقيباً يكونون على قومهم بما فيهم» فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس. [سيرة ابن هشام: ٤٤١/١].

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٤٣/١، ٤٤٤]: وهم أبو أمامة أسعد بن زرارة - المتقدم - وسعد بن الربيع بن عمرو بن أبي زهير بن مالك بن امرئ القيس بن مالك بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج وعبد الله بن رواحة بن ثعلبة بن امرئ القيس بن عمرو بن امرئ القيس بن مالك بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج، ورافع بن مالك بن العجلان - المتقدم - والبراء بن معرور بن صخر بن خنساء بن سنان بن عبيد بن عدي بن غنم بن كعب بن سلمة بن سعد بن علي بن أسد بن ساردة بن تزيد بن جشم بن الخزرج، وعبد الله بن عمرو بن حرام بن ثعلبة بن حرام بن كعب بن غنم بن كعب بن سلمة، وعبادة بن الصامت - المتقدم - وسعد بن عبادة بن دليم بن حارثة بن خزيمة بن ثعلبة بن طريف بن الخزرج بن ساعدة بن كعب بن الخزرج، والمنذر بن عمرو بن خنيس بن حارثة بن لوذان بن عبد ود بن زيد بن ثعلبة بن الخزرج بن ساعدة بن كعب بن الخزرج.

فهؤلاء تسعة من الخزرج ومن الأوس ثلاثة وهم: أسيد بن حضير بن سماك بن عتيك بن رافع بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل بن جشم بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس، وسعد بن خيثمة بن الحارث بن مالك بن كعب بن النحاط بن كعب بن حارثة بن غنم بن السلم بن امرئ القيس بن مالك بن الأوس، ورفاعة بن عبد المنذر بن زبير بن زيد بن أمية بن زيد بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف بن

مالك بن الأوس.

قال ابن هشام [في السيرة: ٤٤٥]: وأهل العلم يعدون فيهم أبا الهيثم بن التيّهان بدل رفاعة هذا.

وهو كذلك في رواية يونس عن ابن إسحاق [عنه أخرجه البيهقي في الدلائل: ٤٤٨/٢].

واختاره السهيلي [في الروض الأنف: ٩٤/٤، ٩٥] وابن الأثير في «الغابة» [٢٣٢/٦].

ثم استشهد ابن هشام [في السيرة: ٤٤٥/١] على ذلك بما رواه عن أبي زيد الأنصاري فيما ذكره من شعر كعب بن مالك في ذكر النقباء الاثني عشر هذه الليلة - ليلة العقبة الثانية - حين قال:

فأبلغ أبيا أنه قال رأيه ... وحان غداة الشعب والحين واقع
أبى الله ما متك نفسك إنه ... بمرصاد أمر الناس راء وسامع
وأبلغ أبا سفيان أن قد بدا لنا ... بأحمد نور من هدى الله ساطع
فلا ترعين في حشد أمر تريده ... وألب وجمع كل ما أنت جامع
ودونك فاعلم أن نقض عهودنا ... أباه عليك الرهط حين تتابعوا
أباه البراء وابن عمرو كلاهما ... وأسعد بأباه عليك ورافع
وسعد أباه الساعدي ومنذر ... لأنفك إن حاولت ذلك جادع
وما ابن رييع إن تناولت عهده ... بمسلمه لا يطمعن ثم طامع
وأيضاً فلا يعطيكه ابن رواحة ... وإخفاره من دونه السم ناقع
وفاء به والقوقلي بن صامت ... بمندوحة عما تحاول يافع
أبو هيثم أيضاً وفي بمثلها ... وفاء بما أعطى من العهد خانع
وما ابن حضير إن أردت بمطمع ... فهل أنت عن أحوقة الغي نازع
وسعد أخو عمرو بن عوف فإنه ... ضروح لما حاولت ملأمر مانع
أولاك نجوم لا يغبك منهم ... عليك بنحس في دجى الليل طالع

قال ابن هشام [في السيرة: ٤٤٥/١]: فذكر فيهم أبا الهيثم بن التيهان ولم يذكر رفاعة

قلت: وذكر سعد بن معاذ وليس من النقباء بالكلية في هذه الليلة.

وروى يعقوب بن سفيان [عنه أخرجه البيهقي في الدلائل: ٤٥٣/٢] عن يونس بن عبد الأعلى عن ابن وهب عن مالك. قال: كان الأنصار ليلة العقبة سبعون رجلاً، وكان نقباؤهم اثني عشر نقيباً، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس.

وحدثني شيخ من الأنصار أن جبريل كان يشير إلى رسول الله ﷺ إلى من يجعله نقيباً ليلة العقبة وكان أسيد بن حضير أحد النقباء تلك الليلة. رواه البيهقي.

وقال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٤٦/١]: فحدثني عبد الله بن أبي بكر أن رسول الله ﷺ قال للنقباء: «أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم، وأنا كفيل على قومي» قالوا: نعم!.

وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة أن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله ﷺ قال العبّاس بن عبادة بن نضلة الأنصاري أخو بني سالم بن عوف: يا معشر الخزرج هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم! قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلٌ أسلمتموه فمن الآن فهو والله - إن فعلتم - خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة. قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا؟ قال: «الجنة» قالوا: ابسط يدك فبسط يده فبايعوه.

قال عاصم بن عمر بن قتادة: وإنما قال العبّاس بن عبادة ذلك ليشد العقد في أعناقهم.

وزعم عبد الله بن أبي بكر أنه إنما قال ذلك ليؤخر البيعة تلك الليلة رجاء أن يحضرها عبد الله بن أبي بن سلول سيد الخزرج ليكون أقوى لأمر القوم، فالله أعلم أي ذلك كان.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٤٧/١]: فبنو النجار يزعمون أن أبا أمامة أسعد بن زارارة كان أول من ضرب على يده. وبنو عبد الأشهل يقولون: بل أبو الهيثم بن التيهان.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٧٧/١]: وحدثني معبد بن كعب عن أخيه عبد الله عن أبيه كعب بن مالك قال: فكان أول من ضرب على يد رسول الله ﷺ البراء بن معرور، ثم بايع القوم.

وقال ابن الأثير في «أسد الغابة» [١٤/٥]: وبنو سلمة يزعمون أن أول من بايعه ليلتئذ كعب بن مالك.

وقد ثبت في «صحيح» البخاري [(٣٨٨٩)] ومسلم [(٢٧٦٩)] من حديث الزهري عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب عن أبيه عن كعب بن مالك في حديثه حين تخلف عن غزوة تبوك. قال: ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكرَ في الناس منها.

وقال البيهقي [في الدلائل: ٤٥٠/٢، ٤٥١]: أخبرنا أبو الحسين بن بشران أخبرنا عمرو بن السماك حدّثنا حنبل بن إسحاق حدّثنا أبو نعيم حدّثنا زكريا بن أبي زائدة عن عامر الشعبي. قال: انطلق رسول الله ﷺ مع العبّاس عمّه إلى السبعين من الأنصار عند العقبة تحت الشجرة، فقال: «ليتكلم متكلمكم ولا يطل الخطبة فإن عليكم من المشركين عيناً، وإن يعلموا بكم يفضحوكم».

فقال قائلهم - وهو أبو أمامة -: سل يا محمد لربك ما شئت، ثم سل لنفسك بعد ذلك ما شئت. ثم أخبرنا ما لنا من الثواب على الله وعليكم إذا فعلنا ذلك.

قال: «أسألكم لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأسألكم لنفسي وأصحابي أن تؤوونا وتنصرونا وتمنعونا مما تمنعون منه أنفسكم». قالوا: فما لنا إذا فعلنا ذلك؟ قال: «لكم الجنة» قالوا: فلك ذلك.

ثم رواه حنبل [من طريقه أخرجه البيهقي في الدلائل: ٤٥١/٢] عن الإمام أحمد عن يحيى بن زكريا عن مجالد عن الشعبي عن أبي مسعود الأنصاري فذكره قال: وكان أبو مسعود أصغرهم.

وقال أحمد [في المسند: ١٢٠/٤]: عن يحيى عن إسماعيل بن أبي خالد عن الشعبي قال: فما سمع الشيب والشبان خطبة مثلها. وقال البيهقي [في الدلائل: ٤٥١/٢، ٤٥٢]: أخبرنا أبو طاهر محمّد بن محمّد بن محمّد بن محمش أخبرنا محمّد بن إبراهيم بن الفضل الفحام أخبرنا محمد بن يحيى الذهلي أخبرنا عمرو بن عثمان الرقي حدّثنا زهير حدّثنا عبد الله بن عثمان بن خثيم عن إسماعيل بن عبيد الله بن رفاعة عن أبيه قال: قدمت روايا خمر، فأتاها عبادة بن الصامت فخرقها وقال: إنا بايعنا رسول الله ﷺ على

السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن نقول في الله لا تأخذنا فيه لومة لائم، وعلى أن ننصر رسول الله ﷺ إذا قدم علينا يثرب مما نمنع به أنفسنا وأزواجنا وأبناءنا ولنا الجنة. فهذه بيعة رسول الله ﷺ التي بايعناه عليها.

وهذا إسناد جيد قوي ولم يخرجوه.

وقد روى يونس عن ابن إسحاق: حدّثني عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت عن أبيه عن جده عبادة بن الصامت. قال: بايعنا رسول الله ﷺ بيعة الحرب على السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا، ومنشطنا ومكرهنا وأثرة علينا وأن لا ننازع الأمر أهله، وأن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم. [الدلائل للبيهقي: ٤٥٢/٢]

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٤٧/١، ٤٤٨] في حديثه عن معبد بن كعب عن أخيه عبد الله عن كعب بن مالك. قال: فلمّا بايعنا رسول الله ﷺ صرخ الشيطان من رأس العقبة بأنفذ صوت سمعته قط؟ يا أهل الجباجب: - والجباجب المنازل - هل لكم في مذمّم والصُباة معه قد اجتمعوا على حربكم. قال: فقال رسول الله ﷺ: «هذا أزبُ العقبة، هذا ابن أزيب».

قال ابن هشام: ويقال: ابن أُزيب. «أتسمع أي عدو الله؟ أما والله لأتفرغن لك». ثم قال رسول الله ﷺ: «ارفضوا إلى رحالكم» قال: فقال العبّاس بن عبادة بن نضلة: يا رسول الله والذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيافنا قال: فقال رسول الله ﷺ: «لم نؤمر بذلك ولكن ارجعوا إلى رحالكم». قال: فرجعنا إلى مضاجعنا فنمنا فيها حتى أصبحنا.

فلما أصبحنا غدت علينا جلة قريش حتى جاؤونا في منازلنا فقالوا: يا معشر الخزرج إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا. وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا من أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم قال: فانبعث من هناك من مشركي قومنا يحلفون: ما كان من هذا شيء وما علمناه، قال: وصدقوا لم يعلموا، قال: وبعضنا ينظر إلى بعض.

قال: ثم قام القوم وفيهم الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي وعليه نعلان له جديدان، قال: فقلت له كلمة - كأني أريد أن أشرك القوم بها فيما قالوا - يا أبا جابر أما تستطيع أن تتخذ وأنت سيد من سادتنا مثل نعليْ هذا الفتى من قريش؟ قال: فسمعها الحارث فخلعهما من رجليه ثم رمى بهما إلي. قال: والله لتتعلنهما، قال: يقول أبو جابر: مه أحفظت والله الفتى فاردد إليه نعليه. قال: قلت: والله لا أردهما، قال والله صالح، لئن صدق الفأل لأسلبنّه.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٤٨/١ - ٤٥٠]: وحدّثني عبد الله بن أبي بكر أنهم أتوا عبد الله بن أُبي بن سلول فقالوا مثل ما ذكر كعب من القول فقال لهم: إن هذا الأمر جسيم ما كان قومي ليتفرقوا على مثل هذا وما علمته كان. قال: فانصرفوا عنه. قال: ونفر الناس من منى فتنطس القوم الخبر فوجدوه قد كان، فخرجوا في طلب القوم فأدركوا سعد بن عبادة بأذاخر والمنذر بن عمرو أخا بني ساعدة بن كعب بن الخزرج وكلاهما كان نقيباً.

فأما المنذر فأعجز القوم، وأما سعد بن عبادة فأخذوه فربطوا يديه إلى عنقه بنسع رحله ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه ويجذبونه بجمّته - وكان ذا شعر كثير - قال سعد: فوالله إني لفي أيديهم إذ طلع علي نفر من قريش فيهم رجل وضيء أبيض شعشاع حلو من الرجال، فقلت في نفسي إن يك عند أحد من القوم خير فعند هذا.

فلما دنا مني رفع يده فلكمني لكمة شديدة فقلت في نفسي: لا والله ما عندهم بعد هذا من خير، فوالله إني لفي أيديهم يسحبونني إذ أوى لي رجل ممن معهم. فقال: ويحك أما بينك وبين أحد من قريش جوار ولا عهد؟ قال: قلت: بلى والله لقد كنت أجير لجبير بن مطعم تجّاره وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادي. وللحارث بن حرب بن أمية بن عبد شمس، فقال: ويحك فاهتف باسم الرجلين واذكر ما بينك وبينهما، قال: ففعلت وخرج ذلك الرجل إليهما فوجدهما في المسجد عند الكعبة فقال لهما: إن رجلاً من الخزرج الآن يُضرب بالأبطح ليهتف بكما.

قالا: ومن هو؟ قال: سعد بن عبادة. قالا: صدق والله إن كان ليجير لنا تجارنا ويمنعهم أن يظلموا ببلده، قال: فجاءا فخلصا سعداً من أيديهم، فانطلق وكان الذي لكَم سعداً سهيل بن عمرو.

قال ابن هشام [في السيرة: ٤٥٠/١]: وكان الذي أوى له أبو البختري بن هشام.

وروى البيهقي [في الدلائل: ٤٢٨/٢، ٤٢٩] بسنده عن عبد الحميد بن أبي عبس بن جبر عن أبيه قال: سمعت قريش قائلاً يقول في الليل على أبي قبيس:

فإن يُسْلِمِ السّعدانِ يصبح محمدٌ بمكةَ لا يخشى خِلافَ المُخَالِف

فلما أصبحوا قال أبو سفيان: من السعدان؟ أسعد بن بكر أم سعد بن هذيم؟ فلما كانت الليلة الثانية سمعوا قائلاً يقول:

أيا سعدُ سعدَ الأوسِ كُن أنتَ ناصراً ويا سعدُ سعدَ الخزرجينِ الغطارف

أجيبا إلى داعي الهدى وتمنيا على اللّهِ في الفردوسِ مُنيةَ عارف

فإنّ ثوابَ اللّهِ للطالبِ الهدى جنانٌ من الفردوس ذات رفارف

فلما أصبحوا قال أبو سفيان: هو والله سعد بن معاذ وسعد بن عبادة

٨٢- قصة عمرو بن الجموح

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٥٢/١]: فلما رجع الأنصار الذين بايعوا رسول الله ﷺ ليلة العقبة الثانية إلى المدينة أظهروا الإسلام بها. وفي قومهم بقايا من شيوخ لهم على دينهم من الشرك منهم: عمرو بن الجموح بن زيد بن حرام بن كعب بن غنم بن كعب بن سلمة، وكان ابنه معاذ بن عمرو ممن شهد العقبة، وكان عمرو بن الجموح من سادات بني سلمة وأشرافهم، وكان قد اتخذ صنماً من خشب في داره يقال له: مناة كما كانت الأشراف يصنعون يتخذه إلهاً يعظمه ويطهره.

فلما أسلم فتيان بني سلمة؛ ابنه معاذ، ومعاذ بن جبل كانوا يدلجون بالليل على صنم عمرو ذلك فيحملونه فيطرحونه في بعض حفر بني سلمة وفيها عذر الناس منكساً على رأسه، فإذا أصبح عمرو قال: ويلكم من عدا على إلهنا هذه الليلة؟ ثم يغدو يلتمسه حتى إذا وجده غسله وطيبه وطهره ثم قال: أما والله لو أعلم من فعل بك هذا لأخزينه.

فإذا أمسى ونام عمرو عدَوا عليه ففعلوا مثل ذلك، فيغدو فيجده في مثل ما كان فيه من الأذى فيغسله ويطيبه ويطهره، ثم يعدون عليه إذا أمسى فيفعلون به مثل ذلك.

فلما أكثروا عليه استخرجه من حيث ألقوه يوماً فغسله وطهره وطيبه.

ثم جاء بسيفه فعلقه عليه ثم قال له: إني والله ما أعلم من يصنع بك ما أرى، فإن كان فيك خير فامتنع، فهذا السيف معك.

فلما أمسى ونام عمرو عدَوا عليه فأخذوا السيف من عنقه ثم أخذوا كلباً ميتاً فقرنوه به بحبل ثم ألقوه في بئر من آبار بني سلمة فيها عذر من عذر الناس وغدا عمرو بن الجموح فلم يجده في مكانه الذي كان به، فخرج يتبعه حتى إذا وجده في تلك البئر منكساً مقروناً بكلب ميت فلما رآه أبصر شأنه وكلمه من أسلم من قومه فأسلم برحمة الله وحسن إسلامه.

فقال حين أسلم وعرف من الله ما عرف، وهو يذكر صنمه ذلك وما أبصر من أمره ويشكر الله الذي أنقذه مما كان فيه من العمى والضلالة:

واللهِ لو كنتَ إلهاً لم تكن أنتَ وكلبٌ وسطَ بئرٍ في قَرَن
افٌ للمقالكَ إلهاً مُستدَنْ الآن فتّشناك عن سوء الغَبَن
الحمدُ للّه العلي ذي المِنَن الواهبِ الرزاقِ ديان الدِّين
هو الذي أنقذني من قبلِ أن أكونَ في ظُلمة قبرٍ مرتهن

٨٣- فصل يتضمن أسماء من شهد بيعة العقبة الثانية

وجملتهم على ما ذكره ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٥٤/١ - ٤٦٧] ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان فمن الأوس أحد عشر رجلاً؛ أسيد بن حضير أحد النقباء، وأبو الهيثم بن التيهان بدري أيضاً، وسلمة بن سلامة بن وقش بدري أيضاً، وظهير بن رافع، وأبو بردة بن نيار بدري، ونهير بن الهيثم بن نابي بن مجدعة بن حارثة، وسعد بن خيثمة أحد النقباء بدري وقتل بها شهيداً ورفاعة بن عبد المنذر بن زُنَيْر نقيب بدري، وعبد الله بن جبير بن النعمان بن أمية بن البرك بدري، وقتل يوم أحد شهيداً أميراً على الرماة، ومعن بن عدي بن الجد بن عجلان بن الحارث بن ضبيعة البلوي حليف للأوس شهد بدراً وما بعدها وقتل باليمامة شهيداً، وعويم بن ساعدة شهد بدراً وما بعدها.

ومن الخزرج اثنان وستون رجلاً؛ أبو أيوب خالد بن زيد وشهد بدراً وما بعدها ومات بأرض الروم زمن معاوية شهيداً، ومعاذ بن الحارث وأخواه عوف ومعوذ وهم بنو عفراء بدريون، وعمارة بن حزم شهد بدراً وما بعدها وقتل باليمامة، وأسعد بن زرارة أبو أمامة أحد النقباء مات قبل بدر، وسهل بن عتيك بدري، وأوس بن ثابت بن المنذر بدري، وأبو طلحة زيد بن سهل بدري، وقيس بن أبي صعصعة عمرو بن زيد بن عوف بن مبذول بن عمرو بن غنم بن مازن كان أميراً على الساقة يوم بدر، وعمرو بن غزية، وسعد بن الربيع أحد النقباء شهد بدراً وقتل يوم أحد.

وخارجة بن زيد شهد بدراً وقتل يوم أحد، وعبد الله بن رواحة أحد النقباء شهد بدراً وأحداً والخندق، وقتل يوم مؤتة أميراً، وبشير بن سعد بدري، وعبد الله بن زيد بن ثعلبة بن عبد ربه الذي أرى النداء وهو بدري، وخلاد بن سويد بدري أُحُدي خندقي وقتل يوم بني قريظة شهيداً طرحت عليه رحى فشدخته فيقال: إن رسول الله ﷺ قال: «إن له لأجر شهيدين».

وأبو مسعود عقبة بن عمرو البدري - قال ابن إسحاق: وهو أحدث من شهد العقبة سناً ولم يشهد بدراً - وزياد بن لبيد بدري، وفروة بن عمرو بن ودفة بدري، وخالد بن قيس بن مالك بدري، ورافع بن مالك أحد النقباء، وذكوان بن عبد قيس بن خلدة بن مخلد بن عامر بن زريق، وهو الذي يقال له: مهاجريّ أنصاريّ لأنه أقام عند رسول الله ﷺ بمكة حتى هاجر منها وهو بدري قتل يوم أحد.

وعباد بن قيس بن عامر بن خالد بن عامر بن زريق بدري، وأخوه الحارث بن قيس بن عامر بدري أيضاً، والبراء بن معرور أحد النقباء وأول من بايع فيما تزعم بنو سلمة وقد مات قبل مقدم النبي ﷺ المدينة وأوصى له بثلث ماله فرده رسول الله ﷺ على ورثته، وابنه بشر بن البراء وقد شهد بدراً وأحداً والخندق ومات بخيبر شهيداً من أكله مع رسول الله ﷺ من تلك الشاة المسمومة رضي الله عنه.

وسنان بن صيفي بن صخر بدري، والطفيل بن النعمان بن خنساء بدري، قتل يوم الخندق، ومعقل بن المنذر بن سرح بدري، وأخوه يزيد بن المنذر بدري ومسعود بن زيد بن سبيع، والضحاك بن حارثة بن زيد بن ثعلبة بدري، ويزيد بن خذام بن سبيع، وجبار بن صخر بن أمية بن خنساء بن سنان بن عبيد بدري، والطفيل بن مالك بن خنساء بدري، وكعب بن مالك، وسليم بن عمرو بن حديدة بدري وقطبة بن عامر بن حديدة بدري، وأخوه أبو المنذر يزيد بدري أيضاً، وأبو اليسر كعب بن عمرو بدري، وصيفي بن سواد بن عباد، وثعلبة بن غنمة بن عدي بن نابي بدري واستشهد بالخندق، وأخوه عمرو بن غنمة بن عدي، وعبس بن عامر بن عدي بدري، وخالد بن عمرو بن عدي بن نابي، وعبد الله بن أنيس حليف لهم من قضاعة.

وعبد الله بن عمرو بن حرام أحد النقباء بدري واستشهد يوم أحد، وابنه جابر بن عبد الله، ومعاذ بن عمرو بن الجموح بدري وثابت بن الجذع بدري وقتل شهيداً بالطائف، وعمير بن الحارث بن ثعلبة بدري، وخديج بن سلامة حليف لهم من بليّ، ومعاذ بن جبل شهد بدراً وما بعدها ومات بطاعون عمواس في خلافة عمر بن الخطاب وعبادة بن الصامت أحد النقباء شهد بدراً وما بعدها.

والعباس بن عبادة بن نضلة وقد أقام بمكة حتى هاجر منها فكان يقال له: مهاجريّ أنصاريّ أيضاً وقتل يوم أحد شهيداً، وأبو عبد الرحمن يزيد بن ثعلبة بن خزمة بن أصرم حليف لهم من بليّ، وعمرو بن الحارث بن لبدة، ورفاعة بن عمرو بن زيد بدري، وعقبة بن وهب بن كلدة حليف لهم بدري وكان ممن خرج إلى مكة فأقام بها حتى هاجر منها فهو ممن يقال له: مهاجريّ أنصاريّ أيضاً، وسعد بن عبادة بن دليم أحد النقباء، والمنذر بن عمرو نقيب بدري أحدي وقتل يوم بئر معونة أميراً وهو الذي يقال له: أعنق ليموت.

وأما المرأتان: فأم عمارة نسيبة بنت كعب بن عمرو بن عوف بن مبذول بن عمرو بن غنم بن مازن بن النجار المازنية النجارية.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٦٨/١]: وقد كانت شهدت الحرب مع رسول الله ﷺ وشهدت معها أختها وزوجها زيد بن عاصم بن كعب، وابناها حبيب وعبد الله، وابنها حبيب هذا هو الذي قتله مسيلمة الكذاب حين جعل يقول له: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ فيقول: نعم، فيقول: أتشهد أني رسول الله؟ فيقول: لا أسمع فجعل يقطعه عضواً عضواً حتى مات في يديه لا يزيده على ذلك، فكانت أم عمارة ممن خرج إلى اليمامة مع المسلمين حين قتل مسيلمة ورجعت وبها اثنا عشر جرحاً من بين طعنة وضربة رضي الله عنها وأرضاها.

والأخرى أم منيع أسماء بنت عمرو بن عدي بن نابي بن عمرو بن

سواد بن غنم بن كعب بن سلمة رضي الله عنها.

٨٤- بدء الهجرة من مكة إلى المدينة

قال الزهري عن عروة عن عائشة. قالت: قال رسول الله ﷺ - وهو يومئذ بمكة - للمسلمين: «قد أريت دار هجرتكم، أريت سبخة ذات نخل بين لابتين» فهاجر من هاجر قبل المدينة حين ذكر ذلك رسول الله ﷺ، ورجع إلى المدينة من كان هاجر إلى أرض الحبشة من المسلمين رواه البخاري [(٢٢٩٧)].

وقال أبو موسى عن النبي ﷺ: «رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل فذهب وهلي إلى أنها اليمامة أو هجر، فإذا هي المدينة يثرب».

وهذا الحديث قد أسنده البخاري في مواضع أخر بطوله [(٣٦٢٢)].

ورواه مسلم [(٢٢٧٢)] كلاهما عن أبي كريب.

زاد مسلم: وعبد الله بن برّاد كلاهما عن أبي أسامة عن بريد بن عبد الله بن أبي بردة عن جده أبي بردة عن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري عن النبي ﷺ الحديث بطوله.

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي [في الدلائل: ٤٥٨/٢]: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ إملاءً أخبرنا أبو العبّاس القاسم بن القاسم السياري بمرو حدّثنا إبراهيم بن هلال حدّثنا علي بن الحسن بن شقيق حدّثنا عيسى بن عبيد الكندي عن غيلان بن عبد الله العامري عن أبي زرعة عن عمرو بن جرير عن جرير أن النبي ﷺ قال: «إن الله أوحى إليّ: أي هؤلاء البلاد الثلاث نزلت فهي دار هجرتك؛ المدينة أو البحرين، أو قنّسرين».

قال أهل العلم: ثم عزم له على المدينة فأمر أصحابه بالهجرة إليها.

هذا حديث غريب جداً.

وقد رواه الترمذي في المناقب من «جامعه» [(٣٩٢٣)] منفرداً به عن أبي عمّار الحسين بن حريث عن الفضل بن موسى عن عيسى بن عبيد عن غيلان بن عبد الله العامري عن أبي زرعة بن عمر بن جرير عن جرير. قال قال رسول الله ﷺ: «إن الله أوحى إليّ: أي هؤلاء الثلاثة نزلت فهي دار هجرتك؛ المدينة، أو البحرين، أو قنسرين». ثم قال: غريب لا نعرفه إلا من حديث الفضل تفرّد به أبو عمّار.

قلت: وغيلان بن عبد الله العامري هذا ذكره ابن حبان في «الثقات» [٣١١/٧] إلا أنه قال: روى عن أبي زرعة حديثاً منكراً في الهجرة والله أعلم.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٦٧/١، ٤٦٨]: لما أذن الله تعالى في الحرب بقوله ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ. الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [الحج: ٣٩ - ٤٠] الآية. فلما أذن الله في الحرب وبايعه هذا الحي من الأنصار على الإسلام والنصرة له، ولمن اتبعه وأوى إليهم من المسلمين أمر رسول الله ﷺ أصحابه من المهاجرين من قومه ومن معه بمكة من المسلمين بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها واللحوق بإخوانهم من الأنصار وقال: «إن الله قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها».

فخرجوا أرسالاً وأقام رسول الله ﷺ بمكة ينتظر أن يأذن له ربه في الخروج من مكة والهجرة إلى المدينة، فكان أول من هاجر إلى المدينة من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين من قريش من بني مخزوم، أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم وكانت هجرته إليها قبل بيعة العقبة بسنة حين آذته قريش مرجعه من الحبشة فعزم على الرجوع إليها ثم بلغه أن بالمدينة لهم إخواناً فعزم إليها.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٦٩/١، ٤٧٠]: فحدثني أبي عن سلمة عن عبد الله بن عمر بن أبي سلمة عن جدّته أم سلمة قالت: لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحّل لي بعيره ثم حملني عليه وجعل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجري، ثم خرج يقود بي بعيره، فلما رأته رجال بني المغيرة قاموا إليه فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتنا هذه علام نتركك تسير بها في البلاد؟ قالت: فنزعوا خطام البعير من يده وأخذوني منه، قالت: وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد رهط أبي سلمة وقالوا: والله لا نترك ابنتنا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا، قالت: فتجاذبوا ابني سلمة بينهم حتى خلعوا يده، وانطلق به بنو عبد الأسد وحبسني بنو المغيرة عندهم وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة.

قالت: ففرّق بيني وبين ابني وبين زوجي. قالت: فكنت أخرج كل غداة فأجلس في الأبطح فما أزال أبكي حتى أمسي - سنة أو قريباً منها - حتى مرّ بي رجل من بني عمّي أحد بني المغيرة فرأى ما بي فرحمني، فقال لبني المغيرة: ألا تخرجون هذه المسكينة؟ فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها؟ قالت: فقالوا لي: الحقي بزوجك إن شئت. قالت: فرد بنو عبد الأسد إليّ عند ذلك ابني، قالت: فارتحلت ببعيري، ثم أخذت ابني فوضعته في حجري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة، قالت: وما معي أحد من خلق الله.

حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة أخا بني عبد الدار فقال: إلى أين يا ابنة أبي أمية؟ قلت: أريد زوجي بالمدينة، قال: أو ما معك أحد؟ قلت: ما معي أحد إلا الله وابني هذا، فقال: والله ما لك من مترك.

فأخذ بخطام البعير فانطلق معي يهوي بي فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي ثم استأخر عني حتى إذا نزلت استأخر ببعيري فحط عنه ثم قيده في الشجر ثم تنحى إلى شجرة فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيري فقدّمه فرحّله ثم استأخر عني وقال: اركبي فإذا ركبت فاستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه فقادني حتى ينزل بي، فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء قال: زوجك في هذه القرية - وكان أبو سلمة بها نازلاً - فادخليها على بركة الله.

ثم انصرف راجعاً إلى مكّة، فكانت تقول: ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة، وما رأيت صاحباً قط كان أكرم من عثمان بن طلحة.

أسلم عثمان بن طلحة بن أبي طلحة العبدري هذا بعد الحديبية، وهاجر هو وخالد بن الوليد معاً، وقتل يوم أحد أبوه وإخوته؛ الحارث وكلاب ومسافع، وعمه عثمان بن أبي طلحة. ودفع إليه رسول الله ﷺ يوم الفتح وإلى ابن عمّه شيبة والد بني شيبة مفاتيح الكعبة أقرها عليهم في الإسلام كما كانت في الجاهلية، ونزل في ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨] الآية.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٧٠/١، ٤٧١]: ثم كان أول من قدمها من المهاجرين بعد أبي سلمة عامر بن ربيعة حليف بني عدي، معه امرأته ليلى بنت أبي حثمة العدوية ثم عبد الله بن جحش بن رياب بن يعمر بن

صبرة بن مرة بن كثير بن غنم بن دودان بن أسد بن خزيمة حليف بني أمية بن عبد شمس احتمل بأهله وبأخيه عبد أبي أحمد - اسمه عبد كما ذكره ابن إسحاق وقيل: ثمامة. قال السهيلي [الروض الأنف: ١٦٢/٤]: والأول أصح - وكان أبو أحمد رجلاً ضرير البصر وكان يطوف مكّة أعلاها وأسفلها بغير قائد، وكان شاعراً وكانت عنده الفارعة بنت أبي سفيان بن حرب، وكانت أمة أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم. فغلِقت دار بني جحش هجرة، فمرّ بها عتبة بن ربيعة والعباس بن عبد المطلب وأبو جهل بن هشام وهم مصعدون إلى أعلى مكة، فنظر إليها عتبة تخفق أبوابها يباباً ليس بها ساكن، فلما رآها كذلك تنفس الصعداء وقال:

وكلّ دارٍ وإن طالتْ سلامتها يوماً ستدركُها النُكباء والحُوبُ

قال ابن هشام: وهذا البيت لأبي داود الإيادي في قصيدة له.

قال السهيلي [الروض الأنف: ١٦٣/٤]: واسم أبي داود حنظلة بن شرقي وقيل: جارية. ثم قال عتبة: أصبحت دار بني جحش خلاء من أهلها فقال أبو جهل: وما تبكي عليه من قل بن قل ثم قال - يعني للعباس - هذا من عمل ابن أخيك هذا، فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وقطع بيننا.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٧١/١ - ٤٧٤]: فنزل أبو سلمة وعامر بن ربيعة وبنو جحش بقباء على مبشر بن عبد المنذر ثم قدم المهاجرون أرسالاً قال: وكان بنو غنم بن دودان أهل إسلام قد أوعبوا إلى المدينة هجرة رجالهم ونساؤهم عبد الله بن جحش، وأخوه أبو أحمد، وعكاشة بن محصن، وشجاع، وعقبة ابنا وهب، وأربد بن حميرة ومنقذ بن نباتة، وسعيد بن رقيش، ومحرز بن نضلة، ويزيد بن رقيش، وقيس بن جابر، وعمرو بن محصن، ومالك بن عمرو، وصفوان بن عمرو، وثقف بن عمرو وربيعة بن أكثم. والزبير بن عبيدة، وتمام بن عبيدة، وسخبرة بن عبيدة، ومحمد بن عبد الله بن جحش.

ومن نسائهم: زينب بنت جحش، وحمنة بنت جحش، وأم حبيب بنت جحش، وجدامة بنت جندل، وأم قيس بنت محصن، وأم حبيب بنت ثمامة، وآمنة بنت رقيش، وسخبرة بنت تميم.

قال أبو أحمد بن جحش في هجرتهم إلى المدينة:

ولما رأتني أم أحمد غادياً بذمة من أخشى بغيب وأرهب
تقول فإما كنت لا بد فاعلاً فيمم بنا البلدان ولتنا يثرب
فقلت لها ما يثرب بمظنة وما يشأ الرحمن فالعبد يركب
إلى الله وجهي والرسول ومن يقم إلى اللّه يوماً وجهه لا يخيب
فكم قد تركنا من حميم مناصح وناصحة تبكي بدمع وتندب
ترى أن وتراً نأينا عن بلادنا ونحن نرى أن الرغائب نطلب
دعوت بني غنم لحقن دمائهم وللحق لما لاح للناس ملحب
أجابوا بحمد اللّه لما دعاهم إلى الحق داع والنجاح فأوعبوا
وكنا وأصحاباً لنا فارقوا الهدى أعانوا علينا بالسلاح وأجلبوا
كفوجين أما منهما فموفق على الحق مهدي وفوج معذب
طغوا وتمنوا كذبة وأزلهم عن الحق إبليس فخابوا وخيبوا
ورعنا إلى قول النبي محمد فطاب ولاة الحق منا وطيبوا
نمت بأرحام إليهم قريبة ولا قرب بالأرحام إذ لا تقرب
فأي ابن أخت بعدنا يأمنتكم وأية صهر بعد صهري ترقب

ستعلم يوماً أينا إذ تزيلوا وزيل أمر الناس للحق أصوب

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٧٤/١ - ٤٧٦]: ثم خرج عمر بن الخطاب، وعيّاش بن أبي ربيعه حتى قدما المدينة. فحدثني نافع عن عبد الله بن عمر عن أبيه. قال: اتّعدت لما أردت الهجرة إلى المدينة أنا وعياش بن أبي ربيعة وهشام بن العاص؛ التناضب من أضاة بني غفار فوق سرف، وقلنا: أينا لم يصبح عندها فقد حبس فليمض صاحباه، قال: فأصبحت أنا وعياش عند التناضب وحبس هشام وفتن ففتن.

فلما قدمنا المدينة نزلنا في بني عمرو بن عوف بقباء، وخرج أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام إلى عياش - وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما - حتى قدما المدينة ورسول الله ﷺ بمكّة، فكلّماه وقالا له: إن أمك قد نذرت أن لا يمسّ رأسها مشط حتى تراك، ولا تستظل من شمس حتى تراك، فرق لها فقلت له: إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم، فوالله لو قد آذى أمك القمل لامتشطت، ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظلت.

قال: فقال: أبر قسم أمي ولي هنالك مال فآخذه قال: قلت: والله إنك لتعلم أني لمن أكثر قريش مالاً، فلك نصف مالي ولا تذهب معهما. قال: فأبى علي إلا أن يخرج معهما، فلما أبى إلا ذلك قلت: أما إذ فعلت ما فعلت فخذ ناقتي هذه فإنها ناقة نجيبة ذلول فالزم ظهرها، فإن رابك من القوم ريب فانج عليها.

فخرج عليها معهما حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال له أبو جهل: يا أخي والله لقد استغلظت بعيري هذا أفلا تعقبني على ناقتك هذه قال: بلى. فأناخ وأناخا ليتحول عليها، فلما استووا بالأرض عدوا عليه فأوثقاه رباطاً، ثم دخلا به مكة وفتناه ففتن.

قال عمر: فكنا نقول: لا يقبل الله ممن افتتن توبة. وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة وأنزل الله ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ. وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ [الزمر: ٥٣ - ٥٥].

قال عمر: فكتبتها وبعثت بها إلى هشام بن العاص. قال هشام: فلما أتتني جعلت أقرأها بذي طوى أصعد بها فيه وأصوب ولا أفهمها حتى قلت: اللّهم فهمنيها، فألقى الله في قلبي أنها إنما أنزلت فينا وفيما كنا نقول في أنفسنا، ويقال فينا، قال: فرجعت إلى بعيري فجلست عليه فلحقت برسول الله ﷺ بالمدينة.

وذكر ابن هشام في السيرة: [٤٧٦/١] أن الذي قدم بهشام بن العاص، وعياش بن أبي ربيعة إلى المدينة؛ الوليد بن الوليد بن المغيرة سرقهما من مكة وقدم بهما يحملهما على بعيره وهو ماش معهما، فعثر فدميت أصبعه فقال:

هل أنتِ إلا أصبعٌ دَميتِ وفي سبيل اللّه ما لقيتِ

وقال البخاري [(٣٩٢٤)]: حدّثنا أبو الوليد حدّثنا شعبه أنبأنا أبو إسحاق سمع البراء. قال: أول من قدم علينا مصعب بن عمير وابن أم مكتوم، ثم قدم علينا عمار وبلال.

وحدّثني [القائل البخاري: ٣٩٢٥] محمّد بن بشّار حدّثنا غندر حدّثنا شعبة عن أبي إسحاق سمعت البراء بن عازب. قال: أول من قدم علينا

مصعب بن عمير وابن أم مكتوم وكانا يقرئان الناس، فقدم بلال وسعد وعمّار بن ياسر ثم قدم عمر بن الخطاب في عشرين من أصحاب النبي ﷺ ثم قدم النبي ﷺ. فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ حتى جعل الإماء يقلن: قدم رسول الله ﷺ: فما قدم حتى قرأت: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ في سور من المفصل.

ورواه مسلم في «صحيحه» من حديث إسرائيل عن أبي إسحاق عن البراء بن عازب بنحوه.

وفيه التصريح بأن سعد بن أبي وقاص هاجر قبل قدوم رسول الله ﷺ المدينة.

وقد زعم موسى بن عقبة عن الزهري أنه إنما هاجر بعد رسول الله ﷺ [البيهقي في الدلائل: ٤٦١/٢].

والصواب ما تقدم.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٧٦/١، ٤٧٧]: ولما قدم عمر بن الخطاب المدينة هو ومن لحق به من أهله وقومه وأخوه زيد بن الخطاب وعمرو وعبد الله ابنا سراقة بن المعتمر وخنيس بن حذافة السهمي زوج ابنته حفصة وابن عمّه سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وواقد بن عبد الله التميمي حليف لهم وخولي بن أبي خولي ومالك بن أبي خولي حليفان لهم من بني عجل وبنو البكير إياس وخالد وعاقل وعامر وحلفاؤهم من بني سعد بن ليث، فنزلوا على رفاعة بن عبد المنذر بن زنبر في بني عمرو بن عوف بقباء.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٧٧/١]: ثم تتابع المهاجرون رضي الله عنهم فنزل طلحة بن عبيد الله وصهيب بن سنان على خبيب بن إساف أخي بلحارث بن الخزرج بالسنح. ويقال: بل نزل طلحة على أسعد بن زرارة.

قال ابن هشام [في السيرة: ٤٧٧/١]: وذكر لي عن أبي عثمان النهدي أنه قال: بلغني أن صهيباً حين أراد الهجرة قال له كفار قريش: أتيتنا صلعوكاً حقيراً فكثر مالك عندنا وبلغت الذي بلغت، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك؟ والله لا يكون ذلك. فقال لهم صهيب: أرأيتم إن جعلت لكم مالي أتخلون سبيلي؟ قالوا: نعم! قال: فإني قد جعلت لكم مالي. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «ربح صهيب، ربح صهيب».

وقد قال البيهقي [في الدلائل: ٥٢٢/٢، ٥٢٣]: حدّثنا الحافظ أبو عبد الله - إملاء- أخبرنا أبو العبّاس إسماعيل بن عبد الله بن محمد بن ميكال أخبرنا عبدان الأهوازي حدّثنا زيد بن الحريش حدّثنا يعقوب بن محمد الزهري حدّثنا حصين بن حذيفة بن صيفي بن صهيب حدّثني أبي وعمومتي عن سعيد بن المسيب عن صهيب. قال: قال رسول الله ﷺ: «أريت دار هجرتكم سبخة بين ظهراني حرتين، فإما أن تكون هجر أو تكون يثرب».

قال: وخرج رسول الله ﷺ إلى المدينة وخرج معه أبو بكر، وكنت قد هممت معه بالخروج فصدني فتيان من قريش، فجعلت ليلتي تلك أقوم لا أقعد، فقالوا: قد شغله الله عنكم ببطنه - ولم أكن شاكياً - فناموا. فخرجت ولحقني منهم ناس بعد ما سرت بريداً ليردوني فقلت لهم: هل لكم أن أعطيكم أواقي من ذهب وتخلوا سبيلي وتوفوا لي ففعلوا فتبعتهم إلى مكة فقلت: احفروا تحت أسكفة الباب فإن تحتها أواقي، واذهبوا إلى فلانة فخذوا الحلتين.

وخرجت حتى قدمت على رسول الله ﷺ بقباء قبل أن يتحوّل منها، فلما رآني قال: «يا أبا يحيى ربح البيع». ثلاثاً، فقلت: يا رسول الله ما سبقني إليك أحد وما أخبرك إلا جبريل عليه السلام.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٧٨/١]: ونزل حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة وأبو مرثد كناز بن الحصين وابنه مرثد الغنويان حليفا حمزة، وأنسة وأبو كبشة مواليا رسول الله ﷺ على كلثوم بن الهدم أخي بني عمرو بن عوف بقباء، وقيل: على سعد بن خيثمة، وقيل: بل نزل حمزة على أسعد بن زرارة والله أعلم.

قال: ونزل عبيدة بن الحارث وأخواه الطفيل وحصين ومسطح بن أثاثة وسويط بن سعد بن حريملة أخو بني عبد الدار وطليب بن عمير أخو بني عبد بن قصي وخبّاب مولى عتبة بن غزوان على عبد الله بن سلمة أخي بلعجلان بقباء ونزل عبد الرحمن بن عوف في رجال من المهاجرين على سعد بن الربيع، ونزل الزبير بن العوام وأبو سبرة بن أبي رهم على منذر بن محمد بن عقبة بن أحيحة بن الجلاح بالعصبة دار بني جحجبي ونزل مصعب بن عمير على سعد بن معاذ ونزل أبو حذيفة بن عتبة وسالم مولاه على - شك ابن إسحاق، وقال الأموي: على خبيب بن إساف أخي بني حارثة - ونزل عتبة بن غزوان على عباد بن بشر بن وقش في بني عبد الأشهل، ونزل عثمان بن عفان على أوس بن ثابت بن المنذر أخي حسان بن ثابت في دار بني النجار.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٨٠/١]: ونزل العُزّاب من المهاجرين على سعد بن خيثمة وذلك أنه كان عزباً والله أعلم أي ذلك كان.

وقال يعقوب بن سفيان [المعرفة والتاريخ: ٢٧٣/٣]: حدّثني أحمد بن أبي بكر بن الحارث بن زرارة بن مصعب بن عبد الرحمن بن عوف حدّثنا عبد العزيز بن محمد عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر أنه قال: قدمنا من مكة فنزلنا العصبة، عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجرّاح وسالم مولى أبي حذيفة. فكان يؤمهم سالم مولى أبي حذيفة لأنه كان أكثرهم قرآناً.

٨٥- سبب هجرة رسول الله ﷺ بنفسه الكريمة

قال الله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَاناً نَّصِيراً﴾ [الإسراء: ٨٠] أرشده الله وألهمه أن يدعو بهذا الدعاء أن يجعل له مما هو فيه فرجاً قريباً ومخرجاً عاجلاً، فأذن له تعالى في الهجرة إلى المدينة النبوية حيث الأنصار والأحباب، فصارت له داراً وقراراً، وأهلها له أنصاراً.

قال أحمد بن حنبل [٢٢٣/١] وعثمان بن أبي شيبة [من طريقه اخرجه البيهقي في الدلائل: ٥١٦/٢] عن جرير عن قابوس بن أبي ظبيان عن أبيه عن ابن عباس: كان رسول الله ﷺ بمكة، فأمر بالهجرة وأنزل عليه: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَاناً نَّصِيراً﴾.

قال قتادة: ﴿أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾: المدينة ﴿وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾: الهجرة من مكة ﴿وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَاناً نَّصِيراً﴾: كتاب الله وفرائضه وحدوده.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٨٠/١]: وأقام رسول الله ﷺ بمكة بعد أصحابه من المهاجرين ينتظر أن يؤذن له في الهجرة ولم يتخلف معه بمكة إلا من حبس أو فتن، إلا علي بن أبي طالب وأبو بكر بن أبي قحافة رضي الله عنهما وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذن رسول الله ﷺ في الهجرة

فيقول له: «لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً» فيطمع أبو بكر أن يكونه.

فلما رأت قريش أن رسول الله ﷺ قد صار له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم عرفوا أنهم قد نزلوا داراً وأصابوا منهم منعة، فحذروا خروج رسول الله ﷺ إليهم وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم، فاجتمعوا له في دار الندوة - وهي دار قصي بن كلاب التي كانت قريش لا تقضي أمراً إلا فيها - يتشاورون فيما يصنعون في أمر رسول الله ﷺ حين خافوه.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٨٠/١ - ٤٨٣]: فحدثني من لا أتهم من أصحابنا عن عبد الله بن أبي نجيح عن مجاهد بن جبر عن عبد الله بن عباس. وغيره ممن لا أتهم عن عبد الله بن عباس. قال: لما اجتمعوا لذلك واتعدوا أن يدخلوا في دار الندوة ليتشاوروا فيها في أمر رسول الله ﷺ غدوا في اليوم الذي اتعدوا له وكان ذلك اليوم يسمى يوم الزحمة، فاعترضهم إبليس لعنه الله في صورة شيخ جليل عليه تبٌّ له فوقف على باب الدار فلما رأوه واقفاً على بابها قالوا: من الشيخ؟ قال: شيخ من أهل نجد سمع بالذي اتعدتم له فحضر معكم ليسمع ما تقولون وعسى أن لا يعدمكم منه رأياً ونصحاً. قالوا: أجل فادخل.

فدخل معهم وقد اجتمع فيها أشراف قريش: عتبة وشيبة وأبو سفيان وطعيمة بن عدي وجبير بن مطعم بن عدي والحارث بن عامر بن نوفل والنضر بن الحارث وأبو البختري بن هشام وزمعة بن الأسود وحكيم بن حزام وأبو جهل بن هشام ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وأمية بن خلف ومن كان منهم وغيرهم ممن لا يعد من قريش.

فقال بعضهم لبعض: إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم وإننا والله ما نأمنه على الوثوب علينا بمن قد اتبعه من غيرنا، فأجمعوا فيه رأياً.

قال: فتشاوروا ثم قال قائل منهم - قيل: إنه أبو البختري بن هشام - احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه باباً ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله زهيراً والنابغة ومن مضى منهم من هذا الموت حتى يصيبه ما أصابهم.

فقال الشيخ النجدي: لا والله ما هذا لكم برأي والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه، فلأوشكوا أن يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم، ما هذا لكم برأي.

فتشاوروا ثم قال قائل منهم: نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا فإذا خرج عنا فوالله ما نبالي أين ذهب ولا حيث وقع، إذا غاب عنا وفرغنا منه فأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت.

قال الشيخ النجدي: لا والله ما هذا لكم برأي ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به؟ والله لو فعلتم ذلك ما أمنت أن يحل على حي من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم بهم فيأخذ أمركم من أيديكم، ثم يفعل بكم ما أراد، اديروا فيه رأياً غير هذا.

فقال أبو جهل بن هشام: والله إن لي فيه رأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد. قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟ قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جليداً نسيباً وسيطاً فينا ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعها فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً. فرضوا منا بالعقل فعقلناه لهم.

قال: يقول الشيخ النجدي: القول ما قال الرجل هذا الرأي ولا رأي غيره فتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له. فأتى جبريل رسول الله ﷺ فقال له: لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه. قال: فلما كانت عتمة من الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه متى ينام فيثبون عليه، فلما رأى رسول الله ﷺ مكانهم قال لعلي بن أبي طالب: «نم على فراشي وتسج ببردي هذا الحضرمي الأخضر، فنم فيه فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم» وكان رسول الله ﷺ ينام في برده ذلك إذا نام.

وهذه القصة التي ذكرها ابن إسحاق قد رواها الواقدي [عنه أخرجه ابن سعد في الطبقات: ٢٢٧/١] بأسانيده عن عائشة وابن عباس وعلي وسراقة بن مالك بن جعشم وغيرهم دخل حديث بعضهم في بعض فذكر نحو ما تقدم

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٨٣/١]: فحدثني يزيد بن أبي زياد عن محمد بن كعب القرظي. قال: لما اجتمعوا له وفيهم أبو جهل قال، وهم على بابه: إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بعثتم من بعد موتكم، فجعلت لكم جنان كجنان الأردن وإن لم تفعلوا كان فيكم ذبح ثم بعثتم بعد موتكم، ثم جعلت لكم نار تحرقون فيها.

قال: فخرج رسول الله ﷺ فأخذ حفنة من تراب في يده ثم قال: «نعم أنا أقول ذلك أنت أحدهم» وأخذ الله على أبصارهم عنه فلا يرونه فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو هذه الآيات: ﴿يس. وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ. إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ. عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ إلى قوله ﴿وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ١ - ٩].

ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه تراباً ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب فأتاهم آت ممن لم يكن معهم فقال: ما تنتظرون ههنا؟ قالوا: محمداً، فقال: خيبكم الله، قد والله خرج عليكم محمد ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وقد وضع على رأسه تراباً، وانطلق لحاجته! أفما ترون ما بكم؟ قال: فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب، ثم جعلوا يتطلعون فيرون علياً على الفراش متسجياً ببرد رسول الله ﷺ فيقولون: والله إن هذا لمحمد نائماً عليه برده، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا فقام علي عن الفراش فقالوا: والله لقد كان صدقنا الذي كان حدثنا.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٨٤/١]: فكان مما أنزل الله في ذلك اليوم وما كانوا أجمعوا له قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠] وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ. قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ [الطور: ٣٠ - ٣١].

قال ابن إسحاق: فأذن الله لنبيه ﷺ عند ذلك بالهجرة.

٨٦- هجرة النبي ﷺ وأبي بكر الصديق

وذلك أول التاريخ الإسلامي كما اتفق عليه الصحابة في الدولة العمرية كما بيناه في سيرة عمر رضي الله عنه وعنهم أجمعين.

قال البخاري [(٣٩٠٢)]: حدثنا مطر بن الفضل حدثنا روح حدثنا هشام حدثنا عكرمة عن ابن عباس. قال: بعث النبي ﷺ لأربعين سنة،

فمكث بمكة ثلاث عشرة يوحى إليه، ثم أمر بالهجرة فهاجر عشر سنين، ومات وهو ابن ثلاث وستين سنة وقد كانت هجرته عليه السلام في شهر ربيع الأول سنة ثلاث عشرة من بعثته عليه السلام وذلك في يوم الاثنين.

كما رواه الإمام أحمد [٢٧٧/١] عن ابن عباس أنه قال: ولد نبيكم يوم الاثنين، وخرج من مكة يوم الاثنين، ونبئ يوم الاثنين، ودخل المدينة يوم الاثنين، وتوفي يوم الاثنين.

قال محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٨٤/١]: وكان أبو بكر حين استأذن رسول الله ﷺ في الهجرة فقال له: «لا تعجل لعل الله أن يجعل لك صاحباً»؛ قد طمع بأن يكون رسول الله ﷺ إنما يعني نفسه، فابتاع راحلتين فحبسهما في داره يعلفهما إعداداً لذلك.

قال الواقدي: اشتراهما بثمانمائة درهم [الطبقات لابن سعد: ٢٢٨/١ عن الواقدي].

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٨٤/١، ٤٨٥]: فحدثني من لا أتهم عن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: كان لا يخطئ رسول الله ﷺ أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النهار، إما بكرة، وإما عشية حتى إذا كان اليوم الذي أذن الله فيه لرسوله ﷺ في الهجرة والخروج من مكة من بين ظهري قومه أتانا رسول الله ﷺ بالهاجرة في ساعة كان لا يأتي فيها، قالت: فلما رآه أبو بكر قال: ما جاء رسول الله ﷺ هذه الساعة إلا لأمر حدث!.

قالت: فلما دخل تأخر له أبو بكر عن سريره فجلس رسول الله ﷺ وليس عند أبي بكر أحد إلا أنا وأختي أسماء بنت أبي بكر، فقال رسول الله ﷺ: «أخرج عني من عندك» قال: يا رسول الله إنما هما ابنتاي، وما ذاك فداك أبي وأمي؟ قال: «إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة».

قالت: فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله؟ قال: «الصحبة» قالت: فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يومئذ يبكي. ثم قال: يا نبي الله إن هاتين راحلتان كنت أعددتهما لهذا، فاستأجرا عبد الله بن أرقط - قال ابن هشام [في السيرة: ٤٨٨/١]: ويقال: عبد الله بن أريقط. رجلاً من بني الديل بن بكر، وكانت أمه من بني سهم بن عمرو، وكان مشركاً - يدلهما على الطريق ودفعا إليه راحلتيهما، فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٨٥/١]: ولم يعلم - فيما بلغني - بخروج رسول الله ﷺ أحد حين خرج إلا علي بن أبي طالب وأبو بكر الصديق وآل أبي بكر، وأما علي فإن رسول الله ﷺ أمره أن يتخلف حتى يؤدي عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده للناس، وكان رسول الله ﷺ ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده لما يعلم من صدقه وأمانته.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٨٥/١]: فلما أجمع رسول الله ﷺ الخروج أتى أبا بكر بن أبي قحافة فخرجا من خوخة لأبي بكر في ظهر بيته.

وقد روى أبو نعيم من طريق إبراهيم بن سعد عن محمّد بن إسحاق. قال: بلغني أن رسول الله ﷺ لما خرج من مكة مهاجراً إلى الله يريد المدينة قال: «الحمد لله الذي خلقني ولم أك شيئاً، اللهم أعني على هول الدنيا، وبوائق الدهر، ومصائب الليالي والأيام. اللهم اصحبني في سفري. واخلفني في أهلي، وبارك لي فيما رزقتني ولك فذللني. وعلى صالح خلقي فقومني، وإليك رب فحببني، وإلى الناس فلا تكلني، رب المستضعفين وأنت ربي أعوذ بوجهك الكريم الذي أشرقت له السموات والأرض، وكشفت به الظلمات، وصلح عليه أمر الأولين والآخرين، أن تحل علي غضبك، وتنزل بي سخطك، أعوذ بك من زوال نعمتك، وفجأة نقمتك، وتحول عافيتك وجميع سخطك. لك العتبى عندي خير ما استطعت، لا حول ولا قوة إلا بك». [أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٩٢٣٤)].

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٨٥/١، ٤٨٦]: ثم عمدا إلى غار بثور - جبل بأسفل مكة - فدخلاه، وأمر أبو بكر الصديق ابنه عبد الله أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم من الخبر. وأمر عامر بن فهيرة مولاه أن يرعى غنمه نهاره، ثم يريحها عليهما إذا أمسى في الغار. فكان عبد الله بن أبي بكر يكون في قريش نهاره معهم يسمع ما يأتمرون به، وما يقولون في شأن رسول الله ﷺ وأبي بكر، ثم يأتيهما إذا أمسى فيخبرهما الخبر.

وكان عامر بن فهيرة يرعى في رعيان أهل مكة، فإذا أمسى أراح عليهما غنم أبي بكر فاحتلبا وذبحا. فإذا غدا عبد الله بن أبي بكر من عندهما إلى مكة اتبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم يعفي عليه.

وسيأتي في سياق البخاري ما يشهد لهذا.

وقد حكى ابن جرير [في تاريخه: ٣٧٤/٢] عن بعضهم أن رسول الله ﷺ سبق الصديق في الذهاب إلى غار ثور، وأمر علياً أن يدله على مسيره ليلحقه، فلحقه في أثناء الطريق. وهذا غريب جداً وخلاف المشهور من أنهما خرجا معاً.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٨٦/١، ٤٨٧]: وكانت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما، قالت أسماء: ولما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر أتانا نفر من قريش فيهم أبو جهل بن هشام فوقفوا على باب أبي بكر، فخرجت إليهم فقالوا: أين أبوك يا ابنة أبي بكر؟ قالت: قلت: لا أدري والله أين أبي. قالت: فرفع أبو جهل يده - وكان فاحشاً خبيثاً - فلطم خدي لطمة طرح منها قرطي ثم انصرفوا.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٨٨/١]: وحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير أن أباه حدثه عن جدته أسماء قالت: لما خرج رسول الله ﷺ وخرج أبو بكر معه، احتمل أبو بكر ماله كله معه خمسة آلاف درهم - أو ستة آلاف درهم - فانطلق بها معه، قالت: فدخل علينا جدي أبو قحافة - وقد ذهب بصره - فقال: والله إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه. قالت: قلت: كلا يا أبت إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً، قالت: وأخذت أحجاراً فوضعتها في كوة في البيت الذي كان أبي يضع ماله فيها، ثم وضعت عليها ثوباً، ثم أخذت بيده فقلت: يا أبت ضع يدك على هذا المال. قالت: فوضع يده عليه فقال: لا بأس إذا كان قد ترك لكم هذا فقد أحسن وفي هذا بلاغ لكم، ولا والله ما ترك لنا شيئاً ولكن أردت أن أسكن الشيخ بذلك.

وقال ابن هشام [في السيرة: ٤٨٦/١]: وحدثني بعض أهل العلم أن الحسن بن أبي الحسن البصري. قال: انتهى رسول الله ﷺ وأبو بكر إلى الغار ليلاً، فدخل أبو بكر قبل رسول الله ﷺ فلمس الغار لينظر أفيه سبع أو حية، يقي رسول الله ﷺ بنفسه.

وهذا فيه انقطاع من طرفيه.

وقد قال أبو القاسم البغوي [عنه أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق: ٨١/٣٠] حدثنا داود بن عمرو الضبّي حدثنا نافع بن عمر الجمحي عن

ابن أبي مليكة: أن النبي ﷺ لما خرج هو وأبو بكر إلى ثور، فجعل أبو بكر يكون أمام النبي ﷺ مرّة، وخلفه مرّة. فسأله النبي ﷺ عن ذلك فقال: إذا كنت خلفك خشيت أن تؤتى من أمامك، وإذا كنت أمامك خشيت أن تؤتى من خلفك. حتى إذا انتهى إلى الغار من ثور قال أبو بكر: كما أنت حتى أدخل يدي فأحسّه وأقصّه فإن كانت فيه دابة أصابتني قبلك.

قال نافع: فبلغني أنه كان في الغار جحر فألقم أبو بكر رجله ذلك الجحر تخوفاً أن يخرج منه دابة أو شيء يؤذي رسول الله ﷺ.

وهذا مرسل. وقد ذكرنا له شواهد أخر في سيرة الصديق رضي الله عنه.

وقال البيهقي [في الدلائل: ٤٧٦/٢]: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ أخبرنا أبو بكر أحمد بن إسحاق أنا موسى بن الحسن بن عباد حدّثنا عفان بن مسلم حدّثنا السري بن يحيى حدّثنا محمّد بن سيرين. قال: ذكر رجال على عهد عمر فكأنهم فضلوا عمر على أبي بكر. فبلغ ذلك عمر فقال: والله لليلة من أبي بكر خير من آل عمر، وليوم من أبي بكر خير من آل عمر لقد خرج رسول الله ﷺ ليلة انطلق إلى الغار ومعه أبو بكر فجعل يمشي ساعة بين يديه وساعة خلفه. حتى فطن رسول الله ﷺ فقال: «يا أبا بكر ما لك تمشي ساعة بين يدي وساعة خلفي؟» فقال: يا رسول الله أذكر الطلب فأمشي خلفك، ثم أذكر الرصد فأمشي بين يديك. فقال: «يا أبا بكر لو كان شيء لأحببت أن يكون بك دوني؟» قال: نعم! والذي بعثك بالحق.

فلما انتهيا إلى الغار قال أبو بكر: مكانك يا رسول الله حتى أستبرئ لك الغار، فدخل فاستبرأه، حتى إذا كان في أعلاه ذكر أنه لم يستبرئ الجحرة فقال: مكانك يا رسول الله حتى أستبرئ. فدخل فاستبرأ ثم قال: انزل يا رسول الله، فنزل. ثم قال عمر: والذي نفسي بيده لتلك الليلة خير من آل عمر.

وقد رواه البيهقي [في الدلائل: ٤٧٦/٢، ٤٧٧] من وجه آخر عن عمر وفيه: أن أبا بكر جعل يمشي بين يدي رسول الله ﷺ تارة، وخلفه أخرى، وعن يمينه وعن شماله. وفيه: أنه لما حفيت رجلا رسول الله ﷺ حمله الصديق على كاهله، وأنه لما دخل الغار سدد تلك الأجحرة كلها وبقي منها جحر واحد، فألقمه كعبه فجعلت الأفاعي تنهشه ودموعه تسيل. فقال له رسول الله ﷺ: «لا تحزن إن الله معنا».

وفي هذا السياق غرابة ونكارة.

وقال البيهقي [في الدلائل: ٤٨٠/٢]: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ وأبو سعيد بن أبي عمرو قالا: حدّثنا أبو العبّاس الأصمّ حدّثنا عبّاس الدوري حدّثنا أسود بن عامر شاذان حدّثنا إسرائيل عن الأسود عن جندب بن عبد الله. قال: كان أبو بكر مع رسول الله ﷺ في الغار، فأصاب يده حجر فقال:

إنْ أنتِ إلا أصبعٌ دَمِيتِ ... وفي سبيلِ اللهِ ما لَقِيتِ

وقال الإمام أحمد [٣٤٨/١]: حدّثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر أخبرني عثمان الجزري أن مقسماً مولى ابن عباس أخبره عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠] قال: تشاورت قريش ليلة بمكة، فقال بعضهم: إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق، يريدون النبي ﷺ وقال بعضهم: بل اقتلوه. وقال بعضهم: بل أخرجوه. فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك، فبات عليٌّ على فراش النبي ﷺ تلك الليلة، وخرج النبي ﷺ حتى لحق بالغار، وبات المشركون يحرسون علياً يحسبونه النبي ﷺ. فلما أصبحوا ثاروا إليه، فلما رأوا علياً رد الله مكرهم. فقالوا: أين صاحبك هذا؟ فقال: لا أدري. فاقتصُّوا أثره فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم، فصعدوا الجبل فمروا بالغار، فرأوا على بابه نسج العنكبوت، فقالوا: لو دخل ههنا أحد لم يكن نسج العنكبوت على بابه، فمكث فيه ثلاث ليال.

وهذا إسناد حسن وهو من أجود ما روي في قصة نسج العنكبوت على فم الغار، وذلك من حماية الله رسوله ﷺ.

وقال الحافظ أبو بكر أحمد بن علي بن سعيد القاضي في «مسند أبي بكر» [(٧٣)]: حدّثنا بشّار الخفّاف حدّثنا جعفر بن سليمان حدّثنا أبو عمران الجوني حدّثنا المعلى بن زياد عن الحسن البصري. قال: انطلق النبي ﷺ وأبو بكر إلى الغار. وجاءت قريش يطلبون النبي ﷺ وكانوا إذا رأوا على باب الغار نسج العنكبوت قالوا: لم يدخل أحد، وكان النبي ﷺ قائماً يصلي وأبو بكر يرتقب، فقال أبو بكر للنبي ﷺ: هؤلاء قومك يطلبونك، أما والله ما على نفسي أبكي ولكن مخافة أن أرى فيك ما أكره. فقال له النبي ﷺ: «يا أبا بكر لا تخف إن الله معنا».

وهذا مرسل عن الحسن، وهو حسن بمجاله من الشاهد، وفيه زيادة صلاة النبي ﷺ في الغار.

وقد كان عليه السلام إذا حزَبَه أمر صلى.

وروى هذا الرجل - أعني أبا بكر أحمد بن علي القاضي - عن عمرو الناقد عن خلف بن تميم عن موسى بن مطير عن أبيه عن أبي هريرة أن أبا بكر قال لابنه: يا بني إذا حدث في الناس حدث فأت الغار الذي اختبأت فيه أنا ورسول الله ﷺ فكن فيه فإنه سيأتيك رزقك فيه بكرة وعشياً.

وقد نظم بعضهم هذا في شعره حيث يقول:

نسجُ داودَ ما حمى صاحبَ الغارِ ... وكان الفَخّارُ للعنكبوت

وقد ورد أن حمامتين عششتا على بابه أيضاً، وقد نظم ذلك الصرصري في شعره حيث يقول:

فغمّى عليه العنكبوتُ بنسجه ... وظلّ على البابِ الحمامُ يبيض

والحديث بذلك رواه الحافظ ابن عساكر من طريق يحيى بن محمد بن صاعد حدّثنا عمرو بن علي حدّثنا عون بن عمرو أبو عمرو القيسي - ويلقب «عوين» - [من طريقه أخرجه ابن سعد في طبقاته: ٢٢٨/١، ٢٢٩ مطولاً] حدّثني أبو مصعب المكي. قال: أدركت زيد بن أرقم والمغيرة بن شعبة وأنس بن مالك، يذكرون أن النبي ﷺ لما دخل الغار أمر الله شجرة فخرجت في وجه النبي ﷺ تستره، وأن الله بعث العنكبوت فنسجت ما بينهما فسترت وجه رسول الله ﷺ وأمر الله حمامتين وحشيتين فأقبلتا تدفان حتى وقعتا بين العنكبوت وبين الشجرة وأقبلت فتيان قريش من كل بطن منهم رجل، معهم عصيّهم وقسيّهم وهراواتهم، حتى إذا كانوا من رسول الله ﷺ قدر ماتي ذراع قال الدليل - وهو سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي -: هذا الحجر ثم لا أدري أين وضع رجله. فقال الفتيان: أنت لم تخطئ منذ الليلة. حتى إذا أصبحنا قال: انظروا في الغار، فاستقدم القوم حتى إذا كانوا من النبي ﷺ قدر خمسين ذراعا، فإذا الحمامتان فرجع فقالوا: ما ردك أن تنظر في الغار؟ قال: رأيت حمامتين وحشيتين بفم الغار، فعرفت أن ليس فيه أحد. فسمعها النبي ﷺ فعرف أن الله قد درأ عنهما بهما، فسمت عليهما - أي برّك عليهما - وأحدرهما الله إلى الحرم فأفرخا كما ترى.

وهذا حديث غريب جداً من هذا الوجه.

وقد رواه الحافظ أبو نعيم [في الدلائل: ٢٢٩] من حديث مسلم بن إبراهيم وغيره عن عون بن عمرو - وهوالملقب بعوين - بإسناده مثله.

وفيه: أن جميع حمام مكة من نسل تِيْنك الحمامتين، وفي هذا الحديث أن القائف الذي اقتفى لهم الأثر سراقة بن مالك المدلجي.

وقد روى الواقدي عن موسى بن محمد بن إبراهيم عن أبيه أن الذي اقتفى لهم الأثر كرز بن علقمة.

قلت: ويحتمل أن يكونا جميعاً اقتفيا الأثر والله أعلم. وقد قال الله تعالى: ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

يقول تعالى مؤنباً لمن تخلف عن الجهاد مع الرسول ﷺ: ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ﴾ أنتم فإن الله ناصره ومؤيده ومظفره كما نصره ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ من أهل مكة هارباً ليس معه غير صاحبه وصديقه أبي بكر ليس معه غيره ولهذا قال: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ أي وقد لجأ إلى الغار فأقاما فيه ثلاثة أيام ليسكن الطلب عنهما، وذلك لأن المشركين حين فقدوهما كما تقدم ذهبوا في طلبهما كل مذهب من سائر الجهات، وجعلوا لمن ردهما - أو أحدهما - مائة من الإبل، واقتصوا آثارهما حتى اختلط عليهم. وكان الذي يقتص الأثر لقريش سراقة بن مالك بن جعشم كما تقدم، فصعدوا الجبل. الذي هما فيه وجعلوا يمرون على باب الغار، فتحادى أرجلهم لباب الغار ولا يرونهما، حفظاً من الله لهما.

كما قال الإمام أحمد [٤/١]: حدّثنا عفان حدّثنا همام أنا ثابت عن أنس بن مالك أن أبا بكر حدّثه قال: قلت للنبي ﷺ ونحن في الغار: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه. فقال: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما».

وأخرجه البخاري ومسلم في «صحيحيهما» [خ (٣٦٥٣)، م (٢٣٨١)] من حديث همام به.

وقد ذكر بعض أهل السير أن أبا بكر لما قال ذلك قال النبي ﷺ: «لو جاؤونا من ههنا لذهبنا من ههنا» فنظر الصديق إلى الغار قد انفرج من الجانب الآخر، وإذا البحر قد اتصل به، وسفينة مشدودة إلى جانبه.

وهذا ليس بمنكر من حيث القدرة العظيمة، ولكن لم يرد ذلك بإسناد قوي ولا ضعيف، ولسنا نثبت شيئاً من تلقاء أنفسنا، ولكن ما صحّ أو حسن سنده قلنا به والله أعلم.

وقد قال الحافظ أبو بكر البزّار [كشف الأستار: ١١٧٨]: حدّثنا الفضل بن سهل حدّثنا خلف بن تميم حدّثنا موسى بن مطير القرشي عن أبيه عن أبي هريرة أن أبا بكر قال لابنه: يا بني إن حدث في الناس حدث فأت الغار الذي رأيتني اختبأت فيه أنا ورسول الله ﷺ فكن فيه، فإنه سيأتيك فيه رزقك غدوة وعشية. ثم قال البزّار: لا نعلم يرويه غير خلف بن تميم.

قلت: وموسى بن مطير هذا ضعيف متروك، وكذّبه يحيى بن معين [التاريخ ليحيى بن معين: ٥٩٦/٢] فلا يقبل حديثه والله أعلم.

وقد ذكر يونس بن بكير [عنه مطولاً أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق: ٨٥/٣٠ - ٨٧] عن محمد بن إسحاق أن الصديق قال في دخولهما الغار، وسيرهما بعد ذلك وما كان من قصّة سراقة كما سيأتي شعراً. فمنه قوله:

قال النبي ولم أجزع يوقّرني ... ونحنُ في سُدَفٍ من ظُلمة الغار

لا تخشَ شيئاً فإنّ الله ثالثنا ... وقد توكّل لي منه بإظهار

وقد روى أبو نعيم [في الدلائل: ٢٣٧] هذه القصيدة من طريق زياد عن محمد بن إسحاق فذكرها مطولة جداً، وذكر معها قصيدة أخرى والله أعلم.

وقد روى ابن لهيعة [عنه أخرجه البيهقي في الدلائل: ٤٦٥/٢] عن أبي الأسود عن عروة بن الزبير. قال فمكث رسول الله ﷺ بعد الحج - يعني الذي بايع فيه الأنصار - بقية ذي الحجة والمحرم وصفراً، ثم إن مشركي قريش أجمعوا أمرهم ومكرهم على أن يقتلوا رسول الله ﷺ، أو يحبسوه. أو يخرجوه فاطلعه الله على ذلك فأنزل عليه: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الآية. فأمر علياً فنام على فراشه، وذهب هو وأبو بكر، فلما أصبحوا ذهبوا في طلبهما في كل وجه يطلبونهما.

وهكذا ذكر موسى بن عقبة في «مغازيه»، وأن خروجه هو وأبو بكر إلى الغار كان ليلاً [الدلائل للبيهقي: ٤٦٦/٢].

وقد تقدّم عن الحسن البصري فيما ذكره ابن هشام التصريح بذلك أيضاً.

وقال البخاري: [(٣٩٠٥)] حدّثنا يحيى بن بكير حدّثنا الليث عن عقيل. قال ابن شهاب: فأخبرني عروة بن الزبير عن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: لم أعقل أبويّ قط إلا وهما يدينان الدين، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار بكرة وعشية، فلما ابتلي المسلمون خرج أبو بكر مهاجراً نحو أرض الحبشة، حتى إذا بلغ برك الغماد لقيه ابن الدغنة وهو سيد القارة، فذكرت ما كان من رده لأبي بكر إلى مكة وجواره له كما قدمناه عند هجرة الحبشة، إلى قوله: فقال أبو بكر: فإني أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله.

قالت: والنبي ﷺ يومئذ بمكة فقال النبي ﷺ للمسلمين: «إني أريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين» وهما الحرتان. فهاجر من هاجر قبل المدينة، ورجع بعض من كان هاجر قبل الحبشة إلى المدينة، وتجهز أبو بكر مهاجراً قبل المدينة. فقال له رسول الله ﷺ: «على رسلك فإني أرجو أن يؤذن لي» فقال أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبي أنت وأمي؟ قال: «نعم». فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر - وهو الخبط - أربعة أشهر.

وذكر بعضهم أنه علفهما ستة أشهر.

قال ابن شهاب: قال عروة: قالت عائشة: فبينما نحن يوماً جلوس في بيت أبي بكر في حر الظهيرة، فقال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ متقنعاً في ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: فداء له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر. قالت: فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن فأذن له، فدخل فقال النبي ﷺ: «أخرج من عندك» فقال أبو بكر: إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسول الله. قال: «فإنه قد أذن لي في الخروج». فقال أبو بكر: الصحابة بأبي أنت وأمي، قال النبي ﷺ «نعم»! قال أبو بكر: فخذ أنت يا رسول الله إحدى راحلتي هاتين. فقال رسول الله ﷺ: «بالثمن».

قالت عائشة: فجهزناهما أحث الجهاز فصنعنا لهما سفرة في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب، فلذلك سميت ذات النطاقين.

قالت: ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار في جبل ثور، فمكثا فيه ثلاث ليال يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر وهو غلام شاب ثقف لقن فيدلج من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة كبائت، لا يسمع أمراً

يُكتادان به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة من غنم فيريحها عليهما حين يذهب ساعة من العشاء، فيبيتان في رسل - وهو لبن منحتهما ورضيفهما - حتى ينعق بهما عامر بن فهيرة بغلس، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث.

واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلاً من بني الديل وهو من بني عبد بن عدي هادياً خريتاً - والخريت الماهر بالهداية - قد غمس حلفاً في آل العاص بن وائل السهمي وهو على دين كفار قريش فأمناه فدفعا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما صبح ثلاث ليال. وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل فأخذ بهم طريق السواحل.

قال ابن شهاب [خ (٣٩٠٦) معلقاً]: فأخبرني عبد الرحمن بن مالك المدلجي - وهو ابن أخي سراقة - أن أباه أخبره أنه سمع سراقة بن مالك بن جعشم. يقول: جاءنا رسل كفار قريش يجعلون في رسول الله ﷺ وأبي بكر ديّة كل واحد منهما لمن قتله أو أسره.

فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مدلج أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس. فقال: يا سراقة إني رأيت آنفاً أسودة بالساحل أراها محمداً وأصحابه. قال سراقة: فعرفت أنهم هم فقلت له: إنهم ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً انطلقوا بأعيننا، ثم لبثت في المجلس ساعة ثم قمت فدخلت فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي وهي من وراء أكمة فتحبسها عليّ، وأخذت رمحي فخرجت من ظهر البيت فخططت بزجه الأرض وخفضت عاليه، حتى أتيت فرسي فركبتها فرفعتها تُقرِّب بي حتى دنوت منهم.

فعثرت بي فرسي فخررت عنها فقمت فأهويت يدي إلى كنانتي فاستخرجت منها الأزلام فاستقسمت بها أضرّهم أم لا، فخرج الذي أكره، فركبت فرسي - وعصيت الأزلام - تقرب بي حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الالتفات، ساخت يدا فرسي في الأرض حتى بلغتا الركبتين، فخررت عنها، ثم زجرتها فنهضت، فلم تكد تخرج يديها، فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها غبار ساطع في السماء مثل الدخان، فاستقسمت الأزلام فخرج الذي أكره؛ فناديتهم بالأمان، فوقفوا فركبت فرسي حتى جئتهم، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ. فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الديّة، وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم، وعرضت عليهم الزاد والمتاع. فلم يرزآني ولم يسألاني إلا أن قال: «أخفِ عنا». فسألته أن يكتب لي كتاب أمن، فأمر عامر بن فهيرة فكتب في رقعة من أدم. ثم مضى رسول الله ﷺ.

وقد روى محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٤٨٩، ٤٩٠] عن الزهري عن عبد الرحمن بن مالك بن جعشم عن أبيه عن عمّه سراقة فذكر هذه القصة، إلا أنه ذكر أنه استقسم بالأزلام أول ما خرج من منزله فخرج السهم الذي يكره لا يضره، وذكر أنه عثر به فرسه أربع مرات، وكل ذلك يستقسم بالأزلام ويخرج الذي يكره لا يضره. حتى ناداهم بالأمان. وسأل أن يكتب له كتاباً يكون أمارة ما بينه وبين رسول الله ﷺ، قال: فكتب لي كتاباً في عظم - أو رقعة أو خرقة - وذكر أنه جاء به إلى رسول الله ﷺ وهو بالجعرانة مرجعه من الطائف، فقال له: «يوم وفاء وبر، ادنه» فدنوت منه وأسلمت.

قال ابن هشام [السيرة: ١/٤٩١]: هو عبد الرحمن بن الحارث بن مالك بن جعشم وهذا الذي قاله جيد.

ولما رجع سراقة جعل لا يلقى أحداً من الطلب إلا ردّه وقال: كفيتم هذا الوجه، فلما ظهر أن رسول الله ﷺ قد وصل إلى المدينة. جعل سراقة يقصّ على الناس ما رأى وما شاهد من أمر النبي ﷺ وما كان من قضيّة جواده، واشتهر هذا عنه. فخاف رؤساء قريش معرته، وخشوا أن يكون ذلك سبباً لإسلام كثير منهم، وكان سراقة أمير بني مدلج ورئيسهم، فكتب أبو جهل - لعنه الله - إليهم:

بني مدلج إني أخافُ سفيهكم ... سُراقةَ مستغوٍ لنَصْرِ محمد
عليكم به الا يفرق جمعكم ... فيصبحَ شتّى بعد عزٍ وسؤدُد

قال: فقال سراقة بن مالك يجيب أبا جهل في قوله هذا:

أبا حكم والله لو كنتَ شاهداً ... لأمر جوادي إذ تسُوخ قوائمه
عَجِبْتَ ولم تشكك بأن محمداً ... رسولٌ وبرهانٌ فمن ذا يقاومه
عليكَ بكفِّ القومِ عنه فإنني ... إخالُ لنا يوماً ستبدو معالمه
بأمرٍ تودّ النصرَ فيه فإنهم ... وإنْ جيعَ الناسِ طراً مُساله

وذكر هذا الشعر الأموي في «مغازيه» بسنده عن أبي إسحاق.

وقد رواه أبو نعيم [في دلائل النبوة: ٢٣٧] بسنده من طريق زياد عن ابن إسحاق، وزاد في شعر أبي جهل لعنه الله أبياتاً تتضمن كفراً بليغاً.

وقال البخاري [(٣٩٠٦)] بسنده إلى ابن شهاب: فأخبرني عروة بن الزبير أن رسول الله ﷺ لقي الزبير في ركب من المسلمين كانوا تجاراً قافلين من الشام، فكسا الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر ثياب بياض، وسمع المسلمون بالمدينة بمخرج رسول الله ﷺ من مكة، فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرة فينتظرونه حتى يردّهم حر الظهيرة، فانقلبوا يوماً بعدما أطالوا انتظارهم.

فلما أووا إلى بيوتهم أوفى رجل من اليهود على أطم من آطامهم لأمر ينظر إليه، فبصر برسول الله ﷺ وأصحابه مبيضين يزول بهم السراب فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يا معشر العرب هذا جدكم الذي تنتظرون فثار المسلمون إلى السلاح فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف، وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول فقام أبو بكر للناس وجلس رسول الله ﷺ صامتاً فطفق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله ﷺ يحيي أبا بكر حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ، فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه. فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك.

فلبث رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة وأسس المسجد الذي أسس على التقوى وصلى فيه رسول الله ﷺ ثم ركب راحلته وصار يمشي معه الناس حتى بركت عند مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة، وهو يصلي فيه يومئذ رجال من المسلمين. وكان مربداً للتمر لسهيل وسهل غلامين يتيمين في حجر أسعد بن زرارة. فقال رسول الله ﷺ حين بركت به راحلته: «هذا إن شاء الله المنزل»، ثم دعا رسول الله ﷺ الغلامين فساومهما بالمربد ليتخذه مسجداً، فقالا: بل نهبه لك يا رسول الله، فأبى رسول الله ﷺ أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما. ثم بناه مسجداً. فطفق رسول الله ﷺ ينقل معهم اللَّبِن في بنيانه، وهو يقول حين ينقل اللبن:

«هذا الحِمالُ لا حِمالُ خَيْبر ... هذا أبرُّ ربّنا وأطهر»

ويقول:

«اللّهم إن الأجر أجرُ الآخره فارحم الأنصارَ والمهاجره»

فتمثل بشعر رجل من المسلمين لم يسمّ لي.

قال ابن شهاب: ولم يبلغنا في الأحاديث أن رسول الله ﷺ تمثّل ببيت شعر تام غير هذه الأبيات.

هذا لفظ البخاري وقد تفرد بروايته دون مسلم، وله شواهد من وجوه أخر وليس فيه قصة أم معبد الخزاعية، ولنذكر هنا ما يناسب ذلك مرتباً أولاً فأولاً.

قال الإمام أحمد [٢/١، ٣]: حدّثنا عمرو بن محمد أبو سعيد العنقزي حدّثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن البراء بن عازب. قال: اشترى أبو بكر من عازب سرجاً بثلاثة عشر درهماً فقال أبو بكر لعازب: مر البراء فليحمله إلى منزلي. فقال: لا حتى تحدثنا كيف صنعت حين خرج رسول الله ﷺ وأنت معه.

فقال أبو بكر: خرجنا فأدلجنا فأحثثنا يومنا وليلتنا حتى أظهرنا وقام قائم الظهيرة، فضربت بصري هل أرى ظلاً نأوي إليه، فإذا أنا بصخرة فأهويت إليها فإذا بقية ظلها، فسويته لرسول الله ﷺ وفرشت له فروة وقلت: اضطجع يا رسول الله فاضطجع، ثم خرجت أنظر هل أرى أحداً من الطلب فإذا أنا براعي غنم، فقلت لمن أنت ياغلام؟ فقال: لرجل من قريش - فسمّاه فعرفته - فقلت: هل في غنمك من لبن؟ قال: نعم! قلت: هل أنت حالب لي؟ قال: نعم فأمرته فاعتقل شاه منها ثم أمرته ففضض ضرعها من الغبار، ثم أمرته ففضض كفيه من الغبار، ومعي إداوة على فمها خرقة فحلب لي كثبة من اللبن فصببت - يعني الماء - على القدح حتى برد أسفله ثم أتيت رسول الله ﷺ فوافيته وقد استيقظ.

فقلت: اشرب يا رسول الله فشرب حتى رضيت، ثم قلت: هل آن الرحيل؟ فارتحلنا والقوم يطلبوننا فلم يدركنا أحد منهم إلا سراقة بن مالك بن جعشم على فرس له، فقلت: يا رسول الله هذا الطلب قد لحقنا. قال: «لا تحزن إن الله معنا» حتى إذا دنا منا فكان بيننا وبينه قدر رمح أو رمحين - أو قال: رمحين أو ثلاثة - قلت: يا رسول الله هذا الطلب قد لحقنا. وبكيت قال: «لم تبكي؟» قال: قلت: أما والله ما على نفسي أبكي، ولكن أبكي عليك. فدعا عليه رسول الله ﷺ فقال: «اللّهم اكفناه بما شئت» فساخت قوائم فرسه إلى بطنها في أرض صلد ووثب عنها وقال: يا محمد قد علمت أن هذا عملك فادع الله أن ينجيني مما أنا فيه، فوالله لأعمين على من ورائي من الطلب، وهذه كنانتي فخذ منها سهماً فإنك ستمر بابلي وغنمي بموضع كذا وكذا فخذ منها حاجتك. فقال رسول الله ﷺ: «لا حاجة لي فيها» قال: ودعا له رسول الله ﷺ فأطلق ورجع إلى أصحابه، ومضى رسول الله ﷺ وأنا معه حتى قدمنا المدينة وتلقاه الناس فخرجوا في الطرق على الأجاجير واشتد الخدم والصبيان في الطريق يقولون: الله أكبر جاء رسول الله ﷺ، جاء محمد، قال: وتنازع القوم أيهم ينزل عليه، قال: فقال رسول الله ﷺ: «أنزل الليلة على بني النجار أخوال عبد المطلب لأكرمهم بذلك».

فلما أصبح غدا حيث أمر. قال البراء: أول من قدم علينا من المهاجرين مصعب بن عمير أخو بني عبد الدار، ثم قدم علينا ابن أم مكتوم الأعمى أحد بني فهر، ثم قدم علينا عمر بن الخطاب في عشرين راكباً، فقلنا: ما فعل رسول الله؟ قال: هو على أثري، ثم قدم رسول الله ﷺ وأبو بكر معه. قال البراء: ولم يقدم رسول الله ﷺ حتى قرأت سوراً من المفصل.

أخرجاه في «الصحيحين» [خ (٣٦٥٢)، م (٢٠٠٩)] من حديث إسرائيل بدون قول البراء: أول من قدم علينا... إلخ. فقد انفرد به مسلم فرواه من طريق إسرائيل به.

وقال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٨٦/١]: فأقام رسول الله ﷺ في الغار ثلاثاً ومعه أبو بكر وجعلت قريش فيه حين فقدوه مائة ناقة لمن رده عليهم، فلما مضت الثلاث وسكن عنهما الناس أتاهما صاحبهما الذي استأجراه ببعيريهما وبعير له، وأتتهما أسماء بنت أبي بكر بسفرتهما، ونسيت أن تجعل لها عصاماً فلما ارتحلا ذهبت لتعلق السفرة فإذا ليس فيها عصام، فحلت نطاقها فجعلته عصاماً ثم علقتها به. فكان يقال لها: ذات النطاق لذلك.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٨٦/١]: فلما قرب أبو بكر الراحلتين إلى رسول الله ﷺ قدم له أفضلهما ثم قال: اركب فداك أبي وأمي، فقال رسول الله ﷺ: «إني لا أركب بعيراً ليس لي» قال: فهي لك يا رسول الله بأبي أنت وأمي. قال: «لا ولكن ما الثمن الذي ابتعتها به؟» قال: كذا وكذا قال: «أخذتها بذلك» قال: هي لك يا رسول الله.

وروى الواقدي بأسانيده إنه عليه السلام أخذ القصواء، قال وكان أبو بكر اشتراهما بثمانمائة درهم [طبقات ابن سعد: ٢٢٧/١، ٢٢٨].

وروى ابن عساكر من طريق أبي أسامة [من طريقه أخرجه خ (٤٠٩٣)] عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت: وهي الجدعاء.

وهكذا حكى السهيلي [في الروض الأنف: ٢٠٥/٤] عن ابن إسحاق أنها الجدعاء والله أعلم.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٨٧/١]: فركبا وانطلقا وأردف أبو بكر عامر بن فهيرة مولاه خلفه ليخدمهما في الطريق فحدثت عن أسماء أنها قالت: لما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر أتانا نفر من قريش منهم أبو جهل فذكر ضربه لها على خدها لطمة طرح منها قرطها من أذنها كما تقدم. قالت: فمكثنا ثلاث ليال ما ندري أين وجّه رسول الله ﷺ حتى أقبل رجل من الجن من أسفل مكة يتغنى بأبيات من شعر غناء العرب، وأن الناس ليتبعونه يسمعون صوته وما يرونه حتى خرج من أعلى مكة وهو يقول:

جزى الله ربُّ الناس خيرَ جزائه رفيقين حلا خيمتي أمَّ مَعْبَدِ

هما نزلا بالبر ثم ترَوَّحا فأفلحَ من أمسى رفيقَ محمد

ليهن بني كعبٍ مكانُ فتاتهم ومقعدُها للمؤمنينَ بمرصد

قالت أسماء: فلما سمعنا قوله عرفنا حيث وجه رسول الله ﷺ، وأن وجهه إلى المدينة.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٨٨/١]: وكانوا أربعة؛ رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر، وعبد الله بن أرقد.

كذا يقول ابن إسحاق، والمشهور: عبد الله بن أريقط الدئلي، وكان إذ ذاك مشركاً.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٩١/١]: ولما خرج بهما دليلهما عبد الله بن أرقد سلك بهما أسفل مكة، ثم مضى بهما على الساحل حتى عارض الطريق أسفل من عُسْفان، ثم سلك بهما على أسفل أمج، ثم استجاز بهما حتى عارض الطريق بعد أن أجاز قديداً، ثم أجاز بهما من مكانه ذلك فسلك بهما الخرار ثم أجاز بهما ثنية المرة، ثم سلك بهما لقفاً،

ثم أجاز بهما مدلجة لقف، ثم استبطن بهما مدلجة هجاج ثم سلك بهما مرجح هجاج، ثم تبطن بهما مرجح من ذي الغضوين، ثم بطن ذي كَشْر، ثم أخذ بهما على الجداجد، ثم على الأجرد، ثم سلك بهما ذا سلم من بطن أعداء مدلجة يَعْمُن، ثم على العبابيد، ثم أجاز بهما القاحة ثم هبط بهما العرج.

وقد أبطأ عليهم بعض ظهرهم، فحمل رسول الله ﷺ رجل من أسلم يقال له: أوس بن حجر على جمل يقال له: ابن الرداء إلى المدينة وبعث معه غلاماً يقال له: مسعود بن هنيدة، ثم خرج بهما دليلهما من العرج فسلك بهما ثنية العائر عن يمين ركوبة - ويقال: ثنية الغائر فيما قال ابن هشام - حتى هبط بهما بطن ريم، ثم قدم بهما قباء على بني عمرو بن عوف لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول يوم الاثنين حين اشتد الضحاء وكادت الشمس تعتدل.

وقد روى أبو نعيم من طريق الواقدي [من طريقه اخرجه ابن سعد في الطبقات: ١/٢٣٢، ٢٣٣] نحواً من ذكر هذه المنازل، وخالفه في بعضها والله أعلم.

قال أبو نعيم: حدّثنا أبو حامد بن جبلة حدّثنا محمد بن إسحاق هو السراج حدّثنا محمّد بن عباد بن موسى العجلي حدّثني أخي موسى بن عباد حدّثني عبد الله بن سيّار حدّثني إياس بن مالك بن الأوس الأسلمي عن أبيه قال: لما هاجر رسول الله ﷺ وأبو بكر مروا بإبل لنا بالجحفة، فقال رسول الله ﷺ: «لمن هذه الإبل؟» فقالوا: لرجل من أسلم، فالتفت إلى أبي بكر فقال: «سلمت إن شاء الله»، فقال: «ما اسمك؟» قال: مسعود، فالتفت إلى أبي بكر فقال: «سعدت إن شاء الله». قال: فأتاه أبي فحمله على جمل يقال له: ابن الرداء.[أسد الغابة لابن الأثير: ٥/١٢]

قلت: وقد تقدم عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ خرج من مكة يوم الاثنين، ودخل المدينة يوم الاثنين. والظاهر أن بين خروجه عليه السلام من مكة ودخوله المدينة خمسة عشر يوماً لأنه أقام بغار ثور ثلاثة أيام، ثم سلك طريق الساحل وهي أبعد من الطريق الجادة واجتاز في مروره على أم معبد بنت كعب من بني كعب بن خزاعة، قاله ابن هشام [السيرة: ١/٤٨٧].

وقال يونس [من طريقه اخرجه البيهقي في الدلائل: ٢/٤٩٣] عن ابن إسحاق: اسمها عاتكة بنت خالد بن منقذ بن ربيعة بن أصرم.

وقال الأموي: هي عاتكة بنت تبيع حليف بني منقذ بن ربيعة بن أصرم بن ضبيس بن حرام بن حُبشية بن كعب بن عمرو، ولهذه المرأة من الولد معبد ونضرة وحنيدة بنو أبي معبد، واسمه أكثم بن عبد العزى بن منقذ بن ربيعة بن أصرم بن ضبيس، وقصتها مشهورة مروية من طرق يشد بعضها بعضاً.

وهذه قصة أم معبد الخزاعية: قال يونس [عنه اخرجه البيهقي في الدلائل: ٢/٤٩٣] عن ابن إسحاق: فنزل رسول الله ﷺ بخيمة أم معبد واسمها عاتكة بنت خالد بن منقذ بن ربيعة بن أصرم فأرادوا القرى فقالت: والله ما عندنا طعام ولا لنا منحة ولا لنا شاة إلا حائل، فدعا رسول الله ﷺ ببعض غنمها فمسح ضرعها بيده ودعا الله وحلب في العسّ حتى أرغى وقال: «اشربي يا أم معبد» فقالت: اشرب فأنت أحق به فرده عليها فشربت، ثم دعا بحائل أخرى ففعل بها مثل ذلك بها فشربه، ثم دعا بحائل أخرى ففعل بها مثل ذلك فسقى دليله، ثم دعا بحائل أخرى ففعل بها مثل ذلك فسقى عامراً، ثم تروح.

وطلبت قريش رسول الله ﷺ حتى بلغوا أم معبد فسألوا عنه فقالوا: أرأيت محمداً؟ من حليته كذا كذا، فوصفوه لها. فقالت: ما أدري ما تقولون، قد ضافني حالب الحائل. قالت قريش: فذاك الذي نريد.

وقال الحافظ أبو بكر البزار [كشف الأستار: ١٧٤٢]: حدّثنا محمد بن معمر حدّثنا يعقوب بن محمد حدّثنا عبد الرحمن بن عقبة بن عبد الرحمن بن جابر بن عبد الله حدّثنا أبي عن أبيه عن جابر. قال: لما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر مهاجرين فدخلا الغار، إذا في الغار جحر فألقمه أبو بكر عقبه حتى أصبح مخافة أن يخرج على رسول الله ﷺ منه شيء فأقاما في الغار ثلاث ليال ثم خرجا حتى نزلا بخيمات أم معبد فأرسلت إليه أم معبد: إني أرى وجوهاً حساناً، وإن الحي أقوى على كرامتكم مني، فلما أمسوا عندها بعثت مع ابن لها صغير بشفرة وشاة. فقال رسول الله ﷺ: «اردد الشرفة وهات لنا فرقاً» يعني: القدح فأرسلت إليه أن لا لبن فيها ولا ولد. قال: «هات لنا فرقاً» فجاءت بفرق فضرب ظهرها فاجترت ودرت فحلب فملأ القدح فشرب وسقى أبا بكر، ثم حلب فبعث به إلى أم معبد.

ثم قال البزار: لا نعلمه يُروى إلا بهذا الإسناد. وعبد الرحمن بن عقبة لا نعلم أحداً حدث عنه إلا يعقوب بن محمد وإن كان معروفاً في النسب.

وروى الحافظ البيهقي [في الدلائل: ٢/٤٩١] من حديث يحيى بن زكريا بن أبي زائدة حدّثنا محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى حدّثنا عبد الرحمن بن الأصبهاني سمعت عبد الرحمن بن أبي ليلى يحدث عن أبي بكر الصديق. قال: خرجت مع رسول الله ﷺ من مكة فانتهينا إلى حي من أحياء العرب، فنظر رسول الله ﷺ إلى بيت متنحياً فقصد إليه، فلما نزلنا لم يكن فيه إلا امرأة فقالت: يا عبد الله إنما أنا امرأة وليس معي أحد فعليكما بعظيم الحي إن أردتم القرى، قال: فلم يجبها وذلك عند المساء.

فجاء ابن لها بأعنز يسوقها فقالت: يا بني انطلق بهذه العنز والشفرة إلى هذين الرجلين فقل لهما: تقول لكما أمي: اذبحا هذه وكلا وأطعمانا، فلما جاء قال له النبي ﷺ: «انطلق بالشفرة وجئني بالقدح» قال: إنها قد عزبت وليس بها لبن، قال: «انطلق»، فجاء بقدح فمسح النبي ﷺ ضرعها ثم حلب حتى ملأ القدح، ثم قال: «انطلق به إلى أمك»، فشربت حتى رويت، ثم جاء به فقال: «انطلق بهذه وجئني بأخرى». ففعل بها كذلك ثم سقى أبا بكر، ثم جاء بأخرى ففعل بها كذلك، ثم شرب النبي ﷺ فبتنا ليلتنا، ثم انطلقنا. فكانت تسميه المبارك. وكثرت غنمها حتى جلبت جلباً إلى المدينة، فمر أبو بكر فرآه ابنها فعرفه فقال: يا أمه هذا الرجل الذي كان مع المبارك.

فقامت إليه فقالت: يا عبد الله من الرجل الذي كان معك؟ قال: أو ما تدرين من هو! قالت: لا، قال: هو نبي الله. قالت: فأدخلني عليه. قال: فأدخلها فأطعمها رسول الله ﷺ وأعطاها.

زاد ابن عبدان في روايته: قالت: فدلني عليه، فانطلقت معي وأهدت لرسول الله ﷺ شيئاً من أقط ومتاع الأعراب. قال: فكساها وأعطاها. قال: ولا أعلمه إلا قال: وأسلمت.

إسناد حسن.

وقال البيهقي [في الدلائل: ٢/٤٩٢]: هذه القصة شبيهة بقصة أم معبد، والظاهر أنها هي والله أعلم.

وقال البيهقي أخبرنا أبو عبد الله الحافظ وأبو بكر أحمد بن الحسن القاضي [من طريقه اخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق: ٣/٣١٩ - ٣٢٢]. قالا: حدّثنا أبو العبّاس الأصم حدّثنا الحسن بن مكرم حدّثني أبو أحمد بشر بن محمد السكري حدّثنا عبد الملك بن وهب المذحجي حدّثنا الحُرُّ بن الصياح

عن أبي معبد الخزاعي أن رسول الله ﷺ خرج ليلة هاجر من مكة إلى المدينة هو وأبو بكر وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر ودليلهم عبد الله بن أريقط الليثي، فمروا بخيمتي أم معبد الخزاعية، وكانت أم معبد امرأة برزة جلدة تحتبي وتجلس بفناء الخيمة فتطعم وتسقي. فسألوها هل عندها لحم أو لبن يشترونه منها؟ فلم يجدوا عندها شيئاً من ذلك. وقالت: لو كان عندنا شيء ما أعوزكم القرى، وإذا القوم مرملون مسنتون. فنظر رسول الله ﷺ فإذا شاة في كسر خيمتها فقال: «ما هذه الشاة يا أم معبد؟» فقالت: شاة خلّفها الجهد عن الغنم. قال: «فهل بها من لبن؟» قالت: هي أجهد من ذلك. قال: «تأذنين لي أن أحلبها؟» قالت: إن كان بها حلب فاحلبها.

فدعا رسول الله ﷺ بالشاة فمسحها وذكر اسم الله ومسح ضرعها وذكر اسم الله ودعا بإناء لها يربض الرهط فتفاجت واجترت فحلب فيه ثجاً حتى علاه البهاء فسقاها وسقى أصحابه فشربوا عللاً بعد نهل، حتى إذا رووا شرب آخرهم وقال: «ساقي القوم آخرهم» ثم حلب فيه ثانياً عوداً على بدء فغادره عندها ثم ارتحلوا قال: فقلّ ما لبثت أن جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزاً عجافاً يتساوكن هزلى لا نقي بهن مخهن قليل فلما رأى اللبن عجب وقال: من أين هذا اللبن يا أم معبد ولا حلوبة في البيت والشاء عازب؟ فقالت: لا والله إنه مر بنا رجل مبارك كان من حديثه كيت وكيت.

فقال: صفيه لي فوالله إني لأراه صاحب قريش الذي تطلب فقالت: رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة حسن الخلق مليح الوجه لم تعبه ثجلة ولم تزر به صعلة قسيم وسيم في عينيه دعج، وفي أشفاره وطف، وفي صوته صحل. أحور أكحل أزج أقرن في عنقه سطع وفي لحيته كثافة. إذا صمت فعليه الوقار، وإذا تكلم سما وعلاه البهاء، حلو المنطق فصل لا نزر ولا هذر كأن منطقه خرزات نظم ينحدرن، أبهى الناس وأجمله من بعيد، وأحلاه وأحسنه من قريب. ربعة لا تشنؤه عين من طول، ولا تقتحمه عين من قصر غصن بين غصنين فهو أنضر الثلاثة منظراً، وأحسنهم قداً له رفقاء يحفون به إن قال استمعوا لقوله، وإن أمر تبادروا لأمره. محفود محشود لا عابس ولا مفنّد فقال - يعني بعلها -: هذا والله صاحب قريش الذي تطلب، ولو صادفته لالتمست أن أصحبه، ولأجهدنّ إن وجدت إلى ذلك سبيلاً، قال: وأصبح صوت بمكة عال بين السماء والأرض يسمعونه ولا يرون من يقول وهو يقول:

جزى الله رب الناس خير جزائه ... رفيقين حلا خيمتي أم معبد
هما نزلا بالبر وارتحلا به ... فأفلح من أمسى رفيق محمد
فيال قصي ما زوى الله عنكم ... به من فعال لا تجارى وسؤدد
سلوا أختكم عن شاتها وإنائها ... فإنكم إن تسألوا الشاة تشهد
دعاها بشاة حائل فتحلبت ... له بصريح ضرة الشاة مزبد
فغادرة رهنا لديها لحالب ... يدر لها في مصدر ثم مورد

قال: وأصبح الناس - يعني بمكة - وقد فقدوا نبيهم، فأخذوا على خيمتي أم معبد حتى لحقوا برسول الله ﷺ قال: وأجابه حسان بن ثابت: [ديوان حسان بن ثابت: ٣٧٦، ٣٧٧].

لقد خاب قوم زال عنهم نبيهم ... وقُدِّس من يسري إليهم ويغتدي
ترحل عن قوم فزالت عقولهم ... وحل على قوم بنور مجدد
وهل يستوي ضلال قوم تسفهوا ... عمى وهداة يهتدون بمهتد
نبي يرى ما لا يرى الناس حوله ... ويتلو كتاب الله في كل مشهد
وإن قال في يوم مقالة غائب ... فتصديقها في اليوم أو في ضحى الغد
ليهن أبا بكر سعادة جده ... بصحبته من يسعد الله يسعد
وليهن بني كعب مكان فتاتهم ... ومقعدها للمسلمين بمرصد

قال - يعني عبد الملك بن وهب - فبلغني أن أبا معبد أسلم وهاجر إلى النبي ﷺ.

وهكذا روى الحافظ أبو نعيم [في الدلائل: ٢٣٨] من طريق عبد الملك بن وهب المذحجي فذكر مثله سواء وزاد في آخره: قال عبد الملك: بلغني أن أم معبد هاجرت وأسلمت ولحقت برسول الله ﷺ. ثم رواه أبو نعيم [في الدلائل: ٢٣٨] من طرق عن مكرم بن محرز الكعبي الخزاعي عن أبيه محرز بن مهدي عن حزام بن هشام بن حبيش بن خالد عن أبيه عن جده حبيش بن خالد صاحب رسول الله ﷺ، أن رسول الله ﷺ حين أخرج من مكة خرج منها مهاجراً هو وأبو بكر وعامر بن فهيرة ودليلهما عبد الله بن أريقط الليثي فمروا بخيمة أم معبد وكانت امرأة برزة جلدة تحتبي بفناء القبة، وذكر مثل ما تقدم سواء.

قال: وحدثناه - فيما أظن - محمد بن أحمد بن علي بن مخلد حدّثنا محمد بن يونس بن موسى - يعني الكديمي - حدّثنا عبد العزيز بن يحيى بن عبد العزيز مولى العبّاس بن عبد المطلب [ومن طريقه أخرجه الطبراني في الكبير: ٦٥١٠] حدّثنا محمد بن سليمان بن سليط الأنصاري حدّثني أبي عن أبيه سليط البدري. قال: لما خرج رسول الله ﷺ في الهجرة ومعه أبو بكر وعامر بن فهيرة وابن أريقط يدلهم على الطريق، مر بأم معبد الخزاعية وهي لا تعرفه فقال لها: «يا أم معبد هل عندك من لبن؟» قالت: لا والله إن الغنم لعازبة قال: «فما هذه الشاة؟» قالت: خلفها الجهد عن الغنم. ثم ذكر تمام الحديث كنحو ما تقدم.

ثم قال البيهقي [في الدلائل: ٤٩٢/٢]: يحتمل أن هذه القصص كلها واحدة، ثم ذكر قصة شبيهة بقصة شاة أم معبد الخزاعية فقال: حدّثنا أبو عبد الله الحافظ - إملاء - حدّثنا أبو بكر أحمد بن إسحاق بن أيوب أخبرنا محمد بن غالب حدّثنا أبو الوليد حدّثنا عبيد الله بن إياد بن لقيط حدّثنا إياد بن لقيط عن قيس بن النعمان. قال: لما انطلق النبي ﷺ وأبو بكر مستخفين، مروا بعبد يرعى غنماً فاستسقياه اللبن فقال: ما عندي شاة تحلب، غير أن ههنا عناقاً حملت أول الشتاء وقد أخدجت وما بقي لها من لبن فقال: «ادع بها» فدعا بها.

فاعتقلها النبي ﷺ ومسح ضرعها ودعا حتى أنزلت، وجاء أبو بكر بمجن فحلب فسقى أبا بكر، ثم حلب فسقى الراعي ثم حلب فشرب. فقال الراعي: بالله من أنت؟ فوالله ما رأيت مثلك قط. قال: «أو تراك تكتم عليّ حتى أخبرك؟» قال: نعم! قال: «فإني محمد رسول الله».

فقال: أنت الذي تزعم قريش أنه صابئ؟ قال: «إنهم ليقولون ذلك». قال: فأشهد أنك نبي، وأشهد أن ما جئت به حق وأنه لا يفعل ما فعلت إلا نبي وأنا متبعك. قال: «إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا فإذا بلغك أني قد ظهرت فأتنا».

ورواه أبو يعلى الموصلي عن جعفر بن حميد الكوفي عن عبيد الله بن إياد بن لقيط به. وقد ذكر أبو نعيم [في الدلائل: ٢٣٣] ههنا قصة عبد الله بن مسعود فقال: حدّثنا عبد الله بن جعفر حدّثنا يونس بن حبيب حدّثنا أبو داود حدّثنا حماد بن سلمة عن عاصم عن زر عن عبد الله بن مسعود.

قال: كنت غلاماً يافعاً أرعى غنماً لعقبة بن أبي معيط بمكة، فأتى رسول الله ﷺ وأبو بكر - وقد فرا من المشركين - فقال: «يا غلام عندك لبن تسقينا؟» فقلت: إني مؤتمن ولست بساقيكما، فقالا: هل عندك من جذعة لم ينز عليها الفحل بعد؟ قلت: نعم! فأتيتهما بها فاعتقلها أبو بكر وأخذ رسول الله ﷺ الضرع فدعا فحفل الضرع وجاء أبو بكر بصخرة منقعرة فحلب فيها. ثم شرب هو وأبو بكر وسقياني، ثم قال للضرع: «اقلص» فقلص.

فلما كان بعد أتيت رسول الله ﷺ فقلت: علمني من هذا القول الطيب - يعني القرآن - فقال رسول الله ﷺ: «إنك غلام معلم» فأخذت من فيه سبعين سورة ما ينازعني فيها أحد.

فقوله في هذا السياق: وقد فرا من المشركين ليس المراد منه وقت الهجرة، إنما ذلك في بعض الأحوال قبل الهجرة. فإن ابن مسعود ممن أسلم قديماً وهاجر إلى الحبشة ورجع إلى مكة كما تقدّم، وقصته هذه صحيحة ثابتة في «الصّحاح» [خ (٢٤٣٩)، م (٢٠٠٩/٧٥)] وغيرها [المسند: ٣٧٩/١، ٤٦٢] والله أعلم.

وقال الإمام أحمد [٧٤/٤]: حدّثنا عبد الله بن مصعب بن عبد الله - هو الزبيري - حدّثني أبي عن فائد مولى عبادل قال: خرجت مع إبراهيم بن عبد الرحمن بن سعد حتى إذا كنا بالعرج أتى ابن سعد - وسعد هو الذي دل رسول الله ﷺ على طريق ركوبة - فقال إبراهيم: أخبرني ما حدّثك أبوك؟ قال ابن سعد: حدّثني أبي أن رسول الله ﷺ أتاهم ومعه أبو بكر - وكان لأبي بكر عندنا بنت مسترضعة - وكان رسول الله ﷺ أراد الاختصار في الطريق إلى المدينة، فقال له سعد: هذا الغائر من ركوبة وبه لصان من أسلم يقال لهما: المهانان. فإن شئت أخذنا عليهما، فقال النبي ﷺ: «خذ بنا عليهما» قال سعد: فخرجنا حتى إذا أشرفنا إذا أحدهما يقول لصاحبه: هذا اليماني. فدعاهما رسول الله ﷺ فعرض عليهما الإسلام فأسلما، ثم سألهما عن أسمائهما فقالا: نحن المهانان. فقال: «بل أنتما المكرمان» وأمرهما أن يقدما عليه المدينة فخرجنا حتى إذا أتينا ظاهر قباء فتلقاه بنو عمرو بن عوف فقال رسول الله ﷺ: «أين أبو أمامة أسعد بن زرارة؟» فقال سعد بن خيثمة. إنه أصاب قبلي يا رسول الله أفلا أخبره ذلك؟ ثم مضى رسول الله ﷺ حتى إذا طلع على النخل فإذا الشرب مملوء، فالتفت رسول الله ﷺ إلى أبي بكر فقال: «يا أبا بكر هذا المنزل. رأيتني أنزل إلى حياض كحياض بني مدلج» انفرد به أحمد.

٨٧- دخولُ النبي ﷺ المدينة ومنزله بها

قد تقدم فيما رواه البخاري [(٣٩٠٦)] عن الزهري عن عروة أن النبي ﷺ دخل المدينة عند الظهيرة.

قلت: ولعل ذلك كان بعد الزوال لما ثبت في «الصحيحين» [خ (٢٤٣٩)، م (٢٠٠٩)] من حديث إسرائيل عن أبي إسحاق عن البراء بن عازب عن أبي بكر في حديث الهجرة قال: فقدمنا ليلاً فتنازعه القوم أيهم ينزل عليه، فقال رسول الله ﷺ: «أنزل علي بني النجار أخوال عبد المطلب أكرمهم بذلك».

وهذا والله أعلم إما أن يكون يوم قدومه إلى قباء فيكون حال وصوله إلى قرب المدينة كان في حرّ الظهيرة وأقام تحت تلك النخلة ثم سار بالمسلمين فنزل قباء وذلك ليلاً، وأنه أطلق على ما بعد الزوال ليلاً، فإن العشي من الزوال، وإما أن يكون المراد بذلك لما رحل من قباء - كما سيأتي - فسار فما انتهى إلى بني النجار إلا عشاء كما سيأتي بيانه والله أعلم.

وذكر البخاري [(٣٩٠٦)] عن الزهري عن عروة أنه نزل في بني عمرو بن عوف بقباء وأقام فيهم بضع عشرة ليلة وأسس مسجد قباء في تلك الأيام، ثم ركب ومعه الناس حتى بركت به راحلته في مكان مسجده، وكان مربداً لغلامين يتيمين وهما سهل وسهيل، فابتاعه منهما واتخذه مسجداً. وذلك في دار بني النجار رضي الله عنهم.

وقال محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٩٢/١]: حدّثني محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير عن عبد الرحمن بن عويم بن ساعدة قال: حدّثني رجال من قومي من أصحاب النبي ﷺ قالوا: لما بلغنا مخرج النبي ﷺ من مكة وتوكّفنا قدومه كنا نخرج إذا صلّينا الصبح إلى ظاهر حرتنا ننتظر النبي ﷺ فوالله ما نبرح حتى تغلبنا الشمس على الظلال فإذا لم نجد ظلاً دخلنا - وذلك في أيام حارة - حتى إذا كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله ﷺ جلسنا كما كنا نجلس، حتى إذ لم يبق ظل دخلنا بيوتنا وقدم رسول الله ﷺ حين دخلنا البيوت فكان أول من رآه رجل من اليهود فصرخ بأعلى صوته: يا بني قيلة هذا جدكم قد جاء.

فخرجنا إلى رسول الله ﷺ وهو في ظل نخلة ومعه أبو بكر في مثل سنه، وأكثرنا لم يكن رأى رسول الله ﷺ قبل ذلك: وركبه الناس وما يعرفونه من أبي بكر حتى زال الظل عن رسول الله ﷺ، فقام أبو بكر فأظله بردائه، فعرفناه عند ذلك.

وقد تقدم مثل ذلك في سياق البخاري وكذا ذكر موسى بن عقبة في «مغازيه» [انظر الدلائل للبيهقي: ٤٩٨/٢، ٤٩٩].

وقال الإمام أحمد [٢٢٢/٣]: حدّثنا هاشم حدّثنا سليمان عن ثابت عن أنس بن مالك. قال: إني لأسعى في الغلمان يقولون: جاء محمد فأسعى ولا أرى شيئاً، ثم يقولون: جاء محمد فأسعى ولا أرى شيئاً، قال: حتى جاء رسول الله ﷺ وصاحبه أبو بكر.

فكمنا في بعض حرار المدينة، ثم بعثا رجلاً من أهل البادية ليؤذن بهما الأنصار فاستقبلهما زهاء خمسمائة من الأنصار حتى انتهوا إليهما فقالت الأنصار: انطلقا آمنين مطاعين.

فأقبل رسول الله ﷺ وصاحبه بين أظهرهم فخرج أهل المدينة حتى إن العواتق لفوق البيوت يتراءينه يقلن: أيهم هو؟ أيهم هو؟ فما رأينا منظراً شبيهاً به يومئذ.

قال أنس: فلقد رأيته يوم دخل علينا ويوم قبض، فلم أر يومين مشبّهاً بهما.

ورواه البيهقي [في الدلائل: ٥٠٧/٢] عن الحاكم عن الأصم عن محمد بن إسحاق الصغاني عن أبي النضر هاشم بن القاسم عن سليمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس بنحوه، أو مثله. وفي «الصحيحين» [خ (٢٤٣٩)، م (٢٠٠٩)] من طريق إسرائيل عن أبي إسحاق عن البراء عن أبي بكر في حديث الهجرة. قال: وخرج الناس حين قدمنا المدينة في الطرق وعلى البيوت والغلمان والخدم يقولون: الله أكبر جاء رسول الله، الله أكبر جاء محمد، الله أكبر جاء محمد، الله أكبر جاء رسول الله. فلما أصبح انطلق وذهب حيث أمر.

وقال البيهقي [في الدلائل: ٥٠٦/٢، ٥٠٧]: أخبرنا أبو عمرو الأديب أخبرنا أبو بكر الإسماعيلي سمعت أبا خليفة يقول: سمعت ابن عائشة

يقول: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة جعل النساء والصبيان يقلن:

طلعَ البدرُ علينا ... من ثنيات الوداع

وجبَ الشكرُ علينا ... ما دعا للّه داع

قال محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٦٣/١]: فنزل رسول الله ﷺ - فيما يذكرون يعني: حين نزل بقباء - على كلثوم بن الهدم أخي بني عمرو بن عوف ثم أحد بني عبيد، ويقال: بل نزل على سعد بن خيثمة.

ويقول من يذكر أنه نزل على كلثوم بن الهدم: إنما كان رسول الله ﷺ إذا خرج من منزل كلثوم بن الهدم جلس للناس في بيت سعد بن خيثمة، وذلك أنه كان عزباً لا أهل له، وكان يقال لبيته: بيت العزاب والله أعلم.

ونزل أبو بكر ﷺ على خبيب بن إساف أحد بني الحارث بن الخزرج بالسنح وقيل: على خارجة بن زيد بن أبي زهير أخي بني الحارث بن الخزرج.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٩٣/١، ٤٩٤]: وأقام علي بن أبي طالب بمكة ثلاث ليال وأيامها حتى أدى عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده، ثم لحق برسول الله ﷺ فنزل معه على كلثوم بن الهدم فكان علي بن أبي طالب - وإنما كانت اقامته بقباء ليلة أو ليلتين -. يقول: كانت بقباء امرأة لا زوج لها مسلمة، فرأيت انساناً يأتيها من جوف الليل فيضرب عليها بابها فتخرج إليه فيعطيها شيئاً معه فتأخذه، فاستربت بشأنه فقلت لها: يا أمة الله من هذا الذي يضرب عليك بابك كل ليلة فتخرجين إليه فيعطيك شيئاً لا أدري ما هو وأنت امرأة مسلمة لا زوج لك؟ قالت: هذا سهل بن حنيف، وقد عرف أني امرأة لا أحد لي فإذا أمسى عدا على أوثان قومه فكسرها ثم جاءني بها فقال: احتطبي بهذا، فكان علي ﷺ يأثر ذلك من شأن سهل بن حنيف حين هلك عنده بالعراق.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٩٤/١]: فأقام رسول الله ﷺ بقباء في بني عمرو بن عوف يوم الاثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ويوم الخميس وأسس مسجده، ثم أخرجه الله من بين أظهرهم يوم الجمعة وبنو عمرو بن عوف يزعمون أنه مكث فيهم أكثر من ذلك.

وقال عبد الله بن إدريس عن محمد بن إسحاق قال: وبنو عمرو بن عوف يزعمون أنه عليه السلام أقام فيهم ثماني عشرة ليلة.

قلت: وقد تقدم فيما رواه البخاري [(٣٩٠٦)] من طريق الزهري عن عروة أنه عليه السلام أقام فيهم بضع عشرة ليلة.

وحكى موسى بن عقبة عن مجمع بن يزيد بن جارية أنه قال: أقام رسول الله ﷺ فينا - يعني في بني عمرو بن عوف بقباء - اثنتين وعشرين ليلة [انظر الدلائل للبيهقي: ٥٠١/٢].

وقال الواقدي: ويقال: أقام فيهم أربع عشرة ليلة. [طبقات ابن سعد: ٢٣٦/١]

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٩٤/١، ٤٩٥]: فأدركت رسول الله ﷺ الجمعة في بني سالم بن عوف فصلاها في المسجد الذي في بطن الوادي - وادي رانونا - فكان أول جمعة صلاها بالمدينة. فأتاه عتبان بن مالك وعباس بن عبادة بن نضلة في رجال من بني سالم فقالوا: يا رسول الله أقم عندنا في العدد والعدة والمنعة. قال: «خلوا سبيلها فإنها مأمورة» لناقته فخلوا سبيلها فانطلقت.

حتى إذا وازت دار بني بياضة تلقاه زياد بن لبيد وفروة بن عمرو في رجال من بني بياضة فقالوا: يا رسول الله هلم إلينا إلى العدد والعدة والمنعة. قال: «خلوا سبيلها فإنها مأمورة» فخلوا سبيلها فانطلقت.

حتى إذا مرت بدار بني ساعدة اعترضه سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو في رجال من بني ساعدة فقالوا: يا رسول الله هلم إلينا إلى العدد والعدة والمنعة. قال: «خلوا سبيلها فإنها مأمورة» فخلوا سبيلها فانطلقت.

حتى إذا وازت دار بني الحارث بن الخزرج اعترضه سعد بن الربيع وخارجة بن زيد وعبد الله بن رواحة في رجال من بني الحارث بن الخزرج فقالوا: يا رسول الله هلم إلينا إلى العدد والعدة والمنعة. قال: «خلوا سبيلها فإنها مأمورة» فخلوا سبيلها فانطلقت.

حتى إذا مرت بدار عدي بن النجار - وهم أخواله دِنْيا أم عبد المطلب، سلمى بنت عمرو إحدى نسائهم - اعترضه سليط بن قيس وأبو سليط أسيرة بن خارجة في رجال من بني عدي بن النجار فقالوا: يا رسول الله هلم إلى أخوالك إلى العدد والعدة والمنعة. قال: «خلوا سبيلها فإنها مأمورة» فخلوا سبيلها فانطلقت.

حتى إذا أتت دار بني مالك بن النجار بركت على باب مسجده عليه السلام اليوم، وكان يومئذ مربداً لغلامين يتيمين من بني مالك بن النجار، وهما سهل وسهيل ابنا عمرو، وكانا في حجر معاذ بن عفراء.

قلت: وقد تقدم في رواية البخاري [(٣٩٠٦)] من طريق الزهري عن عروة أنهما كانا في حجر أسعد بن زرارة والله أعلم.

وذكر موسى بن عقبة أن رسول الله ﷺ مرّ في طريقه بعبد الله بن أبي بن سلول وهو في بيت. فوقف رسول الله ﷺ ينتظر أن يدعوه إلى المنزل - وهو يومئذ سيد الخزرج في أنفسهم - فقال عبد الله: انظر الذين دعوك فانزل عليهم فذكر ذلك رسول الله ﷺ لنفر من الأنصار فقال سعد بن عبادة يعتذر عنه: لقد من الله علينا بك يا رسول الله وإنا نريد أن نعقد على رأسه التاج ونملّكه علينا [الدلائل للبيهقي: ٤٩٩/٢، ٥٠٠].

قال موسى بن عقبة: وكانت الأنصار قد اجتمعوا قبل أن يركب رسول الله ﷺ من بني عمرو بن عوف فمشوا حول ناقته لا يزال أحدهم ينازع صاحبه زمام الناقة شحّاً على كرامة رسول الله ﷺ وتعظيماً له وكلما مرّ بدار من دور الأنصار دعوه إلى المنزل فيقول ﷺ: «دعوها فإنها مأمورة فإنما أنزل حيث أنزلني الله» فلما انتهت إلى باب أبي أيوب بركت به على الباب فنزل فدخل بيت أبي أيوب حتى ابتنى مسجده ومساكنه. [الدلائل للبيهقي: ٥٠١/٢]

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٩٥/١، ٤٩٦]: لما بركت الناقة برسول الله ﷺ لم ينزل عنها حتى وثبت فسارت غير بعيد ورسول الله ﷺ واضع لها زمامها لا يثنيها به، ثم التفتت خلفها فرجعت إلى مبركها أول مرة فبركت فيه، ثم تحلحلت ورزمت ووضعت جرانها فنزل عنها رسول الله ﷺ. فاحتمل أبو أيوب خالد بن زيد رحله فوضعه في بيته ونزل عليه رسول الله ﷺ وسأل عن المربد: «لمن هو؟» فقال له معاذ بن عفراء: هو يا رسول الله لسهل وسهيل ابني عمرو وهما يتيمان لي وسأرضيهما منه فاتخذه مسجداً، فأمر به رسول الله ﷺ أن يبنى ونزل رسول الله ﷺ في دار أبي أيوب حتى بنى مسجده ومساكنه فعمل فيه رسول الله ﷺ والمسلمون من المهاجرين والأنصار.

وستأتي قصة بناء المسجد قريباً إن شاء الله.

وقال البيهقي في «الدلائل» [(٥٠٨/٢)] وقال أبو عبد الله أخبرنا أبو الحسن علي بن عمرو الحافظ حدّثنا أبو عبد الله محمد بن مخلد الدوري حدّثنا محمد بن سليمان بن إسماعيل بن أبي الورد حدّثنا إبراهيم بن

صرمة حدّثنا يحيى بن سعيد عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس. قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة فلما دخلنا جاء الأنصار برجالها ونسائها فقالوا: إلينا يا رسول الله. فقال: «دعوا الناقة فإنها مأمورة» فبركت على باب أبي أيوب فخرجت جوار من بني النجار يضربن بالدفوف وهن يقلن:

نحنُ جوارٍ من بني النجّار يا حبّذا محمدٌ من جارِ

فخرج إليهم رسول الله ﷺ فقال: «أتحبوني؟» فقالوا: أي والله يا رسول الله. فقال: «وأنا والله أحبكم، وأنا والله أحبكم، وأنا والله أحبكم».

هذا حديث غريب من هذا الوجه لم يروه أحد من أصحاب السنن، وقد خرجه الحاكم في «مستدركه» كما ترى.

ثم قال البيهقي: [في الدلائل: ٥٠٨/٢] أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمي أخبرنا أبو القاسم عبد الله بن سليمان النحاس المقرئ ببغداد حدّثنا عمر بن الحسن الحلبي حدّثنا أبو خيثمة المصيصي حدّثنا عيسى بن يونس عن عوف الأعرابي عن ثمامة عن أنس. قال: مر النبي ﷺ بحي من بني النجار، وإذا جوار يضربن بالدفوف يقلن:

نحنُ جوارٍ من بني النجّار يا حبّذا محمدٌ من جارِ

فقال رسول الله ﷺ: «يعلم الله أن قلبي يحبكن».

ورواه ابن ماجه [(١٨٩٩)] عن هشام بن عمار عن عيسى بن يونس به.

وفي «صحيح البخاري» [(٣٧٨٥)] عن أبي معمر عن عبد الوارث عن عبد العزيز عن أنس قال: رأى النبي ﷺ النساء والصبيان مقبلين - حسبت أنه قال: من عرس - فقام النبي ﷺ ممثلاً فقال: «اللهم أنتم من أحب الناس إلي» قالها ثلاث مرات.

وقال الإمام أحمد [٢١١/٣]: حدّثنا عبد الصمد بن عبد الوارث حدّثني أبي حدّثني عبد العزيز بن صهيب حدّثنا أنس بن مالك. قال: أقبل رسول الله ﷺ إلى المدينة وهو مردف أبا بكر، وأبو بكر شيخ يعرف ورسول الله ﷺ شاب لا يعرف، قال: فيلقى الرجل أبا بكر فيقول: يا أبا بكر من هذا الرجل الذي بين يديك؟ فيقول: هذا الرجل يهديني السبيل، فيحسب الحاسب إنما يهديه الطريق، وإنما يعني سبيل الخير.

فالتفت أبو بكر فإذا هو بفارس قد لحقهم فقال: يا نبي الله هذا فارس قد لحق بنا، فالتفت رسول الله ﷺ فقال: «اللهم اصرعه» فصرعته فرسه ثم قامت تحمحم، ثم قال: يا نبي الله مرني بما شئت. فقال: «قف مكانك لا تتركن أحداً يلحق بنا» قال: فكان أول النهار جاهداً على رسول الله ﷺ، وكان آخر النهار مسلحة له.

قال: فنزل رسول الله ﷺ جانب الحرة ثم بعث إلى الأنصار فجاؤوا فسلموا عليهما وقالوا: اركبا آمنين مطمئنين. فركب رسول الله ﷺ وأبو بكر وحفوا حولهما بالسلاح، فقيل في المدينة: جاء نبي الله ﷺ فاستشرفوا نبي الله ينظرون إليه ويقولون: جاء نبي الله. قال: فأقبل يسير حتى نزل إلى جانب دار أبي أيوب، قال: فإنه ليحدث أهله إذ سمع به عبد الله بن سلام وهو في نخل لأهله يخترف لهم، فعجل أن يضع الذي يخترف فيها فجاء وهي معه، وسمع من نبي الله ﷺ ورجع إلى أهله، وقال نبي الله: «أي بيوت أهلنا أقرب؟» فقال أبو أيوب: أنا يا نبي الله، هذه داري وهذا بابي قال: «فانطلق فهيئ لنا مقيلاً».

فذهب فهيأ لهما مقيلاً ثم جاء فقال يا رسول الله قد هيأت مقيلاً قوما على بركة الله فقيلا، فلما جاء نبي الله ﷺ جاء عبد الله بن سلام فقال: أشهد أنك نبي الله حقاً، وأنك جئت بحق ولقد علمت يهود أني سيدهم وابن سيدهم وأعلمهم وابن أعلمهم، فادعهم فاسألهم.

فدخلوا عليه فقال لهم رسول الله ﷺ: «يا معشر اليهود ويلكم اتقوا الله فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أني رسول الله حقاً وأني جئت بحق أسلموا» فقالوا: ما نعلمه، ثلاثاً.

وكذا رواه البخاري [(٣٩١١)] منفرداً به عن محمد غير منسوب عن عبد الصمد به.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٩٨/١، ٤٩٩]: وحدثني يزيد بن أبي حبيب عن مرثد بن عبد الله اليزني عن أبي رهم السماعي حدّثني أبو أيوب. قال: لما نزل عليّ رسول الله ﷺ في بيتي نزل في السفل، وأنا وأم أيوب في العلو، فقلت له: بأبي أنت وأمي يا رسول الله إني أكره وأعظم أن أكون فوقك وتكون تحتي، فاظهر أنت فكن في العلو ونتزل نحن فنكون في السفل، فقال: «يا أبا أيوب إن أرفق بنا وبمن يغشانا أن أكون في سفل البيت».

فكان رسول الله ﷺ في سفله وكنا فوقه في المسكن. فلقد انكسر حب لنا فيه ماء، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا - ما لنا لحاف غيرها - ننشف بها الماء تخوفاً أن يقطر على رسول الله ﷺ منه شيء فيؤذيه، قال وكنا نصنع له العشاء ثم نبعث إليه فإذا رد علينا فضلة تيممت أنا وأم أيوب موضع يده فأكلنا منه نبتغي بذلك البركة، حتى بعثنا إليه ليلة بعشائه وقد جعلنا له فيه بصلاً - أو ثوماً - فرده رسول الله ﷺ فلم أر ليده فيه أثراً، قال: فجئته فزعاً فقلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي رددت عشاءك ولم أر فيه موضع يدك؟ فقال «إني وجدت فيه ريح هذه الشجرة، وأنا رجل أناجَى فأما أنتم فكلوه» قال: فأكلنا ولم نصنع له تلك الشجرة بعد.

وكذلك رواه البيهقي [في الدلائل: ٥١٠/٢] من طريق الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير - أو أبي الخير - مرثد بن عبد الله اليزني عن أبي رهم عن أبي أيوب فذكره.

ورواه أبو بكر بن أبي شيبة [في مصنفه: ٤٥٤١] عن يونس بن محمد المؤدّب عن الليث.

وقال البيهقي [في الدلائل: ٥٠٩/٢] أخبرنا أبو عبد الله الحافظ أخبرنا أبو عمرو الحيري حدّثنا عبد الله بن محمد حدّثنا أحمد بن سعيد الدارمي حدّثنا أبو النعمان حدّثنا ثابت بن يزيد حدّثنا عاصم الأحول عن عبد الله بن الحارث عن أفلح مولى أبي أيوب عن أبي أيوب أن رسول الله ﷺ نزل عليه فنزل في السفل وأبو أيوب في العلو فانتبه أبو أيوب ليلته فقال: نمشي فوق رأس رسول الله ﷺ! فتنحوا فباتوا في جانب، ثم قال للنبي ﷺ - يعني في ذلك - فقال: «السفل أرفق بنا» فقال: لا أعلو سقيفة أنت تحتها، فتحول رسول الله ﷺ في العلو، وأبو أيوب في السفل.

فكان يصنع لرسول الله ﷺ طعاماً، فإذا جيء به سأل عن موضع أصابعه فيتتبع موضع أصابع رسول الله ﷺ فصنع له طعاماً فيه ثوم، فلما رد إليه سأل عن موضع أصابع رسول الله ﷺ فقيل له: لم يأكل ففزع وصعد إليه فقال: أحرام؟ فقال النبي ﷺ: «لا ولكني أكرهه» قال: فإني أكره ما تكره - أو ما كرهت - قال: وكان النبي ﷺ يُؤتى. يعني: يأتيه الملك.

ورواه مسلم [(٢٠٥٣)] عن أحمد بن سعيد به.

وثبت في «الصحيحين» [خ (٧٣٥٩)، م (٥٦٤)] عن أنس بن مالك قال: جيء رسول الله ﷺ ببدر - وفي رواية: بقدر - فيه خضروات من بقول، قال: فسأل فأخبر بما فيها من القبول فلما رآه كره أكلها، قال: «كل فإني أناجي من لا تناجي».

وقد روى الواقدي أن أسعد بن زرارة - لما نزل رسول الله ﷺ في دار أبي أيوب - أخذ بخطام ناقة رسول الله ﷺ فكانت عنده [طبقات ابن سعد: ٢٣٧/١].

وروي عن زيد بن ثابت أنه قال: أول هدية أهديت إلى رسول الله ﷺ حين نزل دار أبي أيوب أنا جئت بها، قصعة فيها خبز مثرود بلبن وسمن، فقلت: أرسلت بهذه القصعة أمي، فقال: «بارك الله فيك» ودعا أصحابه فأكلوا، ثم جاءت قصعة سعد بن عبادة ثريد وعراق لحم، وما كانت من ليلة إلا وعلى باب رسول الله ﷺ الثلاث والأربعة يحملون الطعام يتناوبون، وكان مقامه في دار أبي أيوب سبعة أشهر.

قال: وبعث رسول الله ﷺ - وهو نازل في دار أبي أيوب - مولاه زيد بن حارثة وأبا رافع ومعهما بعيران وخمسمائة درهم ليجيئا بفاطمة وأم كلثوم ابنتي رسول الله ﷺ، وسودة بنت زمعة زوجته، وأسامة بن زيد، وكانت رقية قد هاجرت مع زوجها عثمان، وزينب عند زوجها بمكة أبي العاص بن الربيع، وجاءت معهم أم أيمن امرأة زيد بن حارثة وخرج معهم عبد الله بن أبي بكر بعيال أبي بكر وفيهم عائشة أم المؤمنين ولم يدخل بها رسول الله ﷺ. [طبقات ابن سعد: ٢٣٧/١٠، ٢٣٨]

وقال البيهقي [في الدلائل: ٥٠٩/٢]: أخبرنا علي بن أحمد بن عبدان أخبرنا أحمد بن عبيد الصفار حدثنا خلف بن عمرو العكبري حدثنا سعيد بن منصور حدثنا عطاف بن خالد حدثنا صديق بن موسى عن عبد الله بن الزبير أن رسول الله ﷺ قدم المدينة، فاستناخت به راحلته بين دار جعفر بن محمد بن علي وبين دار الحسن بن زيد، فأتاه الناس فقالوا: يا رسول الله المنزل. فانبعثت به راحلته فقال: «دعوها فإنها مأمورة» ثم خرجت به حتى جاءت موضع المنبر فاستناخت ثم تخللت الناس وثم عريش كانوا يرشونه ويعمرونه ويتبردون فيه، فنزل رسول الله ﷺ عن راحلته فيه فأوى إلى الظل فأتاه أبو أيوب فقال: يا رسول الله إن منزلي أقرب المنازل إليك فانقل رحلك إلي؟ قال: «نعم» فذهب برحله إلى المنزل، ثم أتاه رجل فقال: يا رسول الله أين تحل؟ قال: «إن الرجل مع رحله حيث كان».

وثبت رسول الله ﷺ في العريش اثنتي عشرة ليلة حتى بنى المسجد، وهذه منقبة عظيمة لأبي أيوب خالد بن زيد رضي الله عنه، حيث نزل في داره رسول الله ﷺ.

وقد رُوِّينا من طريق يزيد بن أبي حبيب عن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس رضي الله عنهم أنه لما قدم أبو أيوب البصرة - وكان ابن عباس نائباً عليها من جهة علي بن أبي طالب رضي الله عنه - فخرج له ابن عباس عن داره حتى أنزله فيها كما أنزل رسول الله ﷺ في داره، وملّكه كل ما أغلق عليه بابها. ولما أراد الانصراف أعطاه ابن عباس عشرين ألفاً، وأربعين عبداً. وقد صارت دار أبي أيوب بعده إلى مولاه أفلح. فاشتراها منه المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بألف دينار وصلح ما وَهَى من بنيانها ووهبها لأهل بيت فقراء من أهل المدينة.

وكذلك نزوله عليه السلام في دار بني النجار واختيار الله له ذلك منقبة عظيمة لهم وقد كان في المدينة دور كثيرة تبلغ تسعاً كل دار محلة مستقلة بمساكنها ونخيلها وزروعها وأهلها، كل قبيلة من قبائلهم قد اجتمعوا في محلتهم وهي كالقرى المتلاصقة، فاختار الله لرسول الله ﷺ دار بني مالك بن النجار. [تاريخ دمشق: ٥٥/١٦ من طريق حبيب بن أبي ثابت به]

وقد ثبت في «الصحيحين» [خ (٣٧٨٩)، م (٢٥١١)] من حديث شعبة: سمعت قتادة عن أنس بن مالك عن أبي أسيد رضي الله عنه. قال: قال رسول الله ﷺ: «خير دور الأنصار بنو النجار، ثم بنو عبد الأشهل، ثم بنو الحارث بن الخزرج، ثم بنو ساعدة، وفي كل دور الأنصار خير» فقال سعد بن عبادة: ما أرى النبي ﷺ إلا قد فضل علينا فقيل: قد فضّلكم على كثير: هذا لفظ البخاري.

وكذلك رواه البخاري [(٣٧٩٠)] ومسلم [(٢٥١١)] من حديث أنس وأبي سلمة عن أبي أسيد مالك بن ربيعة، ومن حديث عباس بن سهل عن أبي حميد عن النبي ﷺ بمثله سواء.

زاد في حديث أبي حميد: فقال أبو أسيد لسعد بن عبادة: ألم تر أن النبي ﷺ خير الأنصار فجعلنا آخراً، فأدرك سعد النبي ﷺ فقال: يا رسول الله خيّرت دور الأنصار فجعلتنا آخراً؟ قال: «أو ليس بحسبكم أن تكونوا من الخيار؟».

بل قد ثبت لجميع من أسلم من أهل المدينة - وهم الأنصار - الشرف والرفعة في الدنيا والآخرة. قال الله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠] وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

وقال رسول الله ﷺ: «لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناس وادياً وشعباً لسلكت وادي الأنصار وشعبهم، الأنصار شعار والناس دثار» [خ (٤٣٣٠)].

وقال: «الأنصار كرشي وعيبتي» [خ (٣٨٠١)].

وقال: «أنا سلم لمن سالمهم، وحرب لمن حاربهم» [المسند: ٤٦٢/٣].

وقال البخاري [٣٧٨٣]: حدثنا حجاج بن منهال حدثنا شعبة حدثني عدي بن ثابت قال: سمعت البراء بن عازب يقول: سمعت رسول الله ﷺ - أو قال: قال رسول الله ﷺ -: «الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق. فمن أحبهم أحبه الله ومن أبغضهم أبغضه الله».

وقد أخرجه بقية الجماعة [م (٧٥)، ت (٣٩٠٠)، س (٨٣٣٤)، ج (١٦٣)] إلا أبا داود من حديث شعبة به.

وقال البخاري أيضاً [(٣٧٨٤)]: حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا شعبة عن عبد الله بن عبد الله بن جبر عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار».

ورواه البخاري أيضاً [(١٧)] عن أبي الوليد الطيالسي ومسلم [(٧٤)] من حديث خالد بن الحارث وعبد الرحمن بن مهدي أربعتهم عن شعبة به.

والآيات والأحاديث في فضائل الأنصار كثيرة جداً. وما أحسن ما قال أبو قيس صرمة بن أبي أنس - المتقدم ذكره أحد شعراء الأنصار - في قدوم رسول الله ﷺ إليهم ونصرهم إياه ومواساتهم له ولأصحابه رضي الله عنهم أجمعين.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥١٢/١]: وقال أبو قيس صِرْمة بن أبي أنس أيضاً يذكر ما أكرمهم الله به من الإسلام وما خصهم به من رسوله عليه السلام:

ثوى في قريش بضع عشرة حجةً ... يذكر لو يلقى صديقاً مواتيا
ويعرض في أهل المواسم نفسه ... فلم ير من يؤوي ولم ير داعيا
فلما أتانا أظهر الله دينه ... وأصبح مسروراً بطيبة راضيا
وألفى صديقاً واطمأنت به النوى ... وكان له عوناً من الله باديا
يقص لنا ما قال نوح لقومه ... وما قال موسى إذ أجاب المناديا
فأصبح لا يخشى من الناس واحداً ... قريباً ولا يخشى من الناس نائيا
بذلنا له الأموال من حل مالنا ... وأنفسنا عند الوغى والتآسيا
نعادي الذي عادى من الناس كلهم ... جميعاً ولو كان الحبيب المواسيا
ونعلم أن الله لا شيء غيره ... وأن كتاب الله أصبح هاديا
أقول إذا صليت في كل بيعة ... حنانيك لا تظهر علينا الأعاديا
أقول إذا جاوزت أرضاً مخيفةً ... تباركت إسم الله أنت الموالیا
فطأ معرضاً إن الحتوف كثيرة ... وإنك لا تبقي لنفسك باقيا
فوالله ما يدري الفتى كيف سعيه ... إذا هو لم يجعل له الله واقيا
ولا تحفل النخل المعيمة ربها ... إذا أصبحت رياً وأصبح ناويا

ذكرها ابن إسحاق وغيره [الاستيعاب لابن عبد البر: ٧٣٨/٢]، ورواها عبد الله بن الزبير الحميدي وغيره عن سفيان بن عيينة عن يحيى بن سعيد الأنصاري عن عجوز من الأنصار قالت: رأيت عبد الله بن عباس يختلف إلى صرمة بن قيس يروي هذه الأبيات. رواه البيهقي [في الدلائل: ٥١٣/٢، ٥١٤].

٨٨- فضل المدينة

وقد شرفت المدينة أيضاً بهجرته عليه السلام إليها وصارت كهفاً لأولياء الله وعباده الصالحين ومعقلاً وحصناً منيعاً للمسلمين، ودار هدى للعالمين والأحاديث في فضلها كثيرة جداً لها موضع آخر نوردها فيه إن شاء الله.

وقد ثبت في «الصحيحين» [خ (١٨٧٦)، م (١٤٧)] من طريق خبيب بن عبد الرحمن بن خبيب بن يساف عن حفص بن عاصم عن أبي هريرة. قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها».

ورواه مسلم [(١٤٦)] أيضاً عن محمد بن رافع عن شبابة عن عاصم بن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر عن أبيه عن ابن عمر عن النبي ﷺ نحوه. وفي «الصحيحين» [خ (١٨٧١)، م (١٣٨٢)] أيضاً من حديث مالك عن يحيى بن سعيد أنه سمع أبا الحباب سعيد بن يسار سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «أمرت بقرية تأكل القرى، يقولون: يثرب وهي المدينة تنفي الناس كما ينفى الكير خبث الحديد».

وقد انفرد الإمام مالك عن بقية الأئمة الأربعة بتفضيلها على مكة.

وقد قال البيهقي [في الدلائل: ٥١٩/٢]: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ أخبرني أبو الوليد وأبو بكر بن عبد الله قالا: حدثنا الحسن بن سفيان حدثنا أبو موسى الأنصاري حدثنا سعيد بن سعيد حدثني أخي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم إنك أخرجتني من أحب البلاد إليّ فأسكني أحب البلاد إليك».

فأسكنه الله المدينة. وهذا حديث غريب جداً.

والمشهور عن الجمهور أن مكة أفضل من المدينة إلا المكان الذي ضم جسد رسول الله ﷺ، وقد استدل الجمهور على ذلك بأدلة يطول ذكرها ههنا ومحلها في كتاب المناسك من «الأحكام» إن شاء الله تعالى.

وأشهر دليل لهم في ذلك ما قال الإمام أحمد [٣٠٥/٤]: حدثنا أبو اليمان حدثنا شعيب عن الزهري أخبرنا أبو سلمة بن عبد الرحمن أن عبد الله بن عدي بن الحمراء أخبره أنه سمع النبي ﷺ وهو واقف بالحزورة في سوق مكة يقول: «والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت».

ورواه الطبراني [في الأوسط: ٤٥٧] عن أحمد بن خليد الحلبي عن الحميدي عن الدراوردي عن ابن أخي الزهري عن محمد بن جبير بن مطعم عن عبد الله بن عدي بن الحمراء به.

فهذه طرق هذا الحديث، وأصحها ما تقدم والله أعلم.

سنة ١- حوادث ووقائع

اتفق الصحابة رضي الله عنهم في سنة ست عشرة - وقيل: سنة سبع عشرة، أو ثماني عشرة - في الدولة العمرية على جعل ابتداء التاريخ الإسلامي من سنة الهجرة، وذلك أن أمير المؤمنين عمر ﷺ رفع إليه صك - أي حجة - لرجل على آخر وفيه؛ أنه يحل عليه في شعبان. فقال عمر: أي شعبان؟ أشعبان هذه السنة التي نحن فيها أو السنة الماضية، أو الآتية؟ ثم جمع الصحابة فاستشارهم في وضع تاريخ يتعرفون به حلول الديون وغير ذلك.

فقال قائل: أرخوا كتأريخ الفرس فكره ذلك، وكانت الفرس يؤرخون بملوكهم واحداً بعد واحد. وقال قائل: أرخوا بتأريخ الروم. وكانوا يؤرخون بملك إسكندر بن فيليبُّس المقدوني فكره ذلك. وقال آخرون: أرخوا بمولد رسول الله ﷺ وقال آخرون: بل بمبعثه، وقال آخرون: بل بهجرته، وقال آخرون: بل بوفاته عليه السلام. فمال عمر ﷺ إلى التأريخ بالهجرة لظهوره واشتهاره. واتفقوا معه على ذلك [انظر تاريخ الطبري: ٣٨٨/٢، ٣٨٩].

وقال البخاري في «صحيحه» [(٣٩٣٤)]: التاريخ ومتى أرّخوا التاريخ:

حدثنا عبد الله بن مسلمة حدثنا عبد العزيز عن أبيه عن سهل بن سعد. قال: ما عدوا من مبعث النبي ﷺ ولا من وفاته، ما عدوا إلا من مقدمه المدينة.

وقال الواقدي: حدثنا ابن أبي الزناد عن أبيه. قال: استشار عمر في التاريخ فأجمعوا على الهجرة.

وقال أبو داود الطيالسي عن قرة بن خالد السدوسي عن محمد بن سيرين قال: قام رجل إلى عمر فقال: أرخوا. فقال: ما أرّخوا؟ فقال: شيء تفعله الأعاجم يكتبون: في شهر كذا من سنة كذا.

فقال عمر: حسن فأرخوا، فقالوا: من أي السنين نبدأ؟ فقالوا: من مبعثه، وقالوا: من وفاته، ثم أجمعوا على الهجرة، ثم قالوا: وأي الشهور نبدأ؟ فقالوا: رمضان، ثم قالوا: المحرم فهو منصرف الناس من حجهم وهو شهر حرام فاجتمعوا على المحرم [تاريخ الطبري: ٣٨٩/٢].

وقال ابن جرير [في تاريخه: ٣٩٠/٢]: حدثنا محمد بن إسماعيل حدّثنا قتيبة حدّثنا نوح بن قيس الطاحي عن عثمان بن محصن أن ابن عباس كان يقول في قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ. وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ هو المحرم فجر السنة.

وروي [الطبراني في تاريخه: ٣٩٠/٢] عن عبيد بن عمير. قال: إن المحرم شهر الله وهو رأس السنة يكسى به البيت، ويؤرخ به الناس، ويضرب فيه الورق.

وقال أحمد [من طريقه أخرجه الطبري في تاريخه: ٣٩٠/٢]: حدّثنا روح بن عبادة حدّثنا زكريا بن إسحاق عن عمرو بن دينار قال: إن أول من أرخ الكتب: يعلى بن أمية باليمن، وإن رسول الله ﷺ قدم المدينة في ربيع الأول وإن الناس أرخوا لأول السنة.

وروى محمد بن إسحاق عن الزهري وعن محمد بن صالح عن الشعبي أنهما قالا: أرخ بنو إسماعيل من نار إبراهيم، ثم أرخوا من بنيان إبراهيم وإسماعيل البيت، ثم أرخوا من موت كعب بن لؤي. ثم أرخوا من الفيل، ثم أرخ عمر بن الخطاب من الهجرة وذلك سنة سبع عشرة أو ثماني عشرة [تاريخ الطبري: ٣٩٠/٢].

وقد ذكرنا هذا الفصل محرراً بأسانيده وطرقه في «السيرة العمرية» ولله الحمد.

والمقصود أنهم جعلوا ابتداء التاريخ الإسلامي من سنة الهجرة، وجعلوا أولها من المحرم فيما اشتهر عنهم وهذا هو قول جمهور الأئمة.

وحكى السهيلي وغيره عن الإمام مالك أنه قال: أول السنة الإسلامية ربيع الأول لأنه الشهر الذي هاجر فيه رسول الله ﷺ.

وقد استدل السهيلي [الروض الأنف: ٢٥٤/٤ ـ ٢٥٧] على ذلك في موضع آخر بقوله تعالى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ [التوبة: ١٠٨] أي من أول يوم حلول النبي ﷺ المدينة، وهو أول يوم من التاريخ كما اتفق الصحابة على أول سني التاريخ عام الهجرة.

ولا شك أن هذا الذي قاله الإمام مالك رحمه الله مناسب، ولكن العمل على خلافه، وذلك لأن أول شهور العرب المحرم فجعلوا السنة الأولى سنة الهجرة. وجعلوا أولها المحرم كما هو المعروف لئلا يختلط النظام والله أعلم.

فنقول وبالله المستعان: استهلت سنة الهجرة المباركة ورسول الله ﷺ مقيم بمكة، وقد بايع الأنصار بيعة العقبة الثانية كما قدمنا في أوسط أيام التشريق وهي ليلة الثاني عشر من ذي الحجة قبل سنة الهجرة.

ثم رجع الأنصار وأذن رسول الله ﷺ للمسلمين في الهجرة إلى المدينة فهاجر من هاجر من أصحابه إلى المدينة حتى لم يبق بمكة من يمكنه الخروج إلا رسول الله ﷺ، وحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه في الطريق كما قدمنا.

ثم خرجا على الوجه الذي تقدم بسطه وتأخر علي بن أبي طالب بعد النبي ﷺ بأمره ليؤدي ما كان عنده عليه السلام من الودائع ثم لحقهم بقباء فقدم رسول الله ﷺ يوم الاثنين قريباً من الزوال وقد اشتد الضحاء.

قال الواقدي وغيره: وذلك لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول [طبقات ابن سعد: ٢٣٣/١].

وحكاه ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٩٢/١] إلا أنه لم يعرج عليه ورجح أنه لثنتي عشرة ليلة خلت منه، وهذا هو المشهور الذي عليه الجمهور.

وقد كانت مدة إقامته عليه السلام بمكة بعد البعثة ثلاث عشرة سنة في أصح الأقوال، وهو رواية حماد بن سلمة [من طريقه أخرجه الطبري في تاريخه: ٣٨٤/٢] عن أبي جمرة الضبعي عن ابن عباس. قال: بعث رسول الله ﷺ لأربعين سنة، وأقام بمكة ثلاث عشرة سنة.

وهكذا روى ابن جرير [في تاريخه: ٣٨٥/٢] عن محمد بن معمر عن روح بن عبادة عن زكريا بن إسحاق عن عمرو بن دينار عن ابن عباس أنه قال: مكث رسول الله ﷺ بمكة ثلاث عشرة.

وتقدم أن ابن عباس كتب أبيات صرمة بن أبي أنس بن قيس:

ثوى في قريش بضع عشرة حجة يذكّر لو يلقى صديقاً مواتيا

وقال الواقدي عن إبراهيم بن إسماعيل عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس أنه استشهد بقول صرمة:

ثوى في قريش بضع عشرة حجة يذكر لو يلقى صديقاً مواتيا

وهكذا رواه ابن جرير [في تاريخه: ٣٨٦/٢] عن الحارث عن محمد بن سعد عن الواقدي: خمس عشرة حجة.

وهو قول غريب جداً، وأغرب منه ما قال ابن جرير [في تاريخه: ٣٨٧/٢]: حدثت عن روح بن عبادة حدّثنا سعيد عن قتادة قال: نزل القرآن على رسول الله ﷺ ثماني سنين بمكة، وعشراً بالمدينة.

وكان الحسن يقول: عشراً بمكة، وعشراً بالمدينة.

وهذا القول الآخر الذي ذهب إليه الحسن البصري من أنه أقام بمكة عشر سنين ذهب إليه أنس بن مالك وعائشة وسعيد بن المسيّب وعمرو بن دينار فيما رواه ابن جرير [في تاريخه: ٢٨٣/٢، ٢٨٤] عنهم.

وهو رواية عن ابن عباس رواها أحمد بن حنبل [٢٢٨/١] عن يحيى بن سعيد عن هشام عن عكرمة عن ابن عباس. قال: أنزل على النبي ﷺ وهو ابن ثلاث وأربعين، فمكث بمكة عشراً.

وقد قدمنا عن الشعبي أنه قال: قرن إسرافيل برسول الله ﷺ ثلاث سنين يلقي إليه الكلمة والشيء.

وفي رواية: يسمع حسّه ولا يرى شخصه، ثم كان بعد ذلك جبريل.

وقد حكى الواقدي عن بعض مشايخه أنه أنكر قول الشعبي هذا [تاريخ الطبري: ٣٨٦/٢، ٣٨٧].

وحاول ابن جرير أن يجمع بين قول من قال: إنه عليه السلام أقام بمكة عشراً، وقول من قال: ثلاث عشرة بهذا الذي ذكره الشعبي والله أعلم.

سنة ١ ـ مسجد قباء

ولما حل الركاب النبوي بالمدينة، كان أول نزوله بها في دار بني عمرو بن عوف وهي قباء كما تقدم فأقام بها ـ أكثر ما قيل: ـ ثنتين وعشرين ليلة، وقيل: ثماني عشرة ليلة. وقيل: بضع عشرة ليلة.

وقال موسى بن عقبة: ثلاث ليال [الدلائل للبيهقي: ٥٠٠/٢].

والأشهر ما ذكره ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٩٤/١] وغيره أنه عليه السلام أقام فيهم بقباء من يوم الاثنين إلى يوم الجمعة، وقد أسس في هذه المدة المختلف في مقدارها ـ على ما ذكرناه ـ مسجد قباء.

وقد ادعى السهيلي [في الروض الأنف: ٢٥٤/٤، ٢٥٥] أن رسول الله ﷺ أسسه في أول يوم قدم إلى قباء وحمل على ذلك قوله تعالى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾.

ورد قول من أعربها: من تأسيس أول يوم، وهو مسجد شريف فاضل نزل فيه قوله تعالى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن

تَقُومَ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨].

كما تكلمنا على تقرير ذلك في «التفسير» وذكرنا الحديث الذي في «صحيح مسلم» [(١٣٩٨)] أنه مسجد المدينة والجواب عنه.

وذكرنا الحديث الذي رواه الإمام أحمد [٤٢٢/٣] حدّثنا حسين بن محمد حدّثنا أبو أويس حدّثنا شرحبيل عن عويم بن ساعدة أنه حدثه أن رسول الله ﷺ أتاهم في مسجد قباء فقال: «إن الله قد أحسن عليكم الثناء في الطهور في قصة مسجدكم فما هذا الطهور الذي تطهرون به؟» قالوا: والله يا رسول الله ما نعلم شيئاً إلا أنه كان لنا جيران من اليهود فكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط فغسلنا كما غسلوا.

وأخرجه ابن خزيمة في «صحيحه» [(٨٣)] وله شواهد أخر.

وروي عن خزيمة بن ثابت ومحمد بن عبد الله بن سلام وابن عباس.

وقد روى أبو داود [(٤٤)] والترمذي [(٣١٠٠)] وابن ماجه [(٣٥٧)] من حديث يونس بن الحارث عن إبراهيم بن أبي ميمونة عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: نزلت هذه الآية في أهل قباء: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾. قال: كانوا يستنجون بالماء فنزلت فيهم هذه الآية.

ثم قال الترمذي: غريب من هذا الوجه.

قلت: ويونس بن الحارث هذا ضعيف والله أعلم.

وعمن قال بأنه المسجد الذي أسس على التقوى ما رواه عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن عروة بن الزبير.

ورواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

وحكي عن الشعبي والحسن البصري وقتادة وسعيد بن جبير وعطية العوفي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم [انظر تفسير الطبري: ٢٧/١١، ٢٨].

وقد كان النبي ﷺ يزوره فيما بعد ويصلي فيه، وكان يأتي قباء كل سبت تارة راكباً وتارة ماشياً [م (١٣٩٩)].

وفي الحديث [ت (٣٢٤)، ج (١٤١١)]: «صلاة في مسجد قباء كعمرة».

وقد ورد في حديث [الطبراني في الكبير: ٣١٧/٢٤، ٣١٨] أن جبريل عليه السلام هو الذي أشار للنبي ﷺ إلى موضع قبلة مسجد قباء.

فكان هذا المسجد أول مسجد بني في الإسلام بالمدينة، بل أول مسجد جعل لعموم الناس في هذه الملة. واحترزنا بهذا عن المسجد الذي بناه الصديق بمكة عند باب داره يتعبد فيه ويصلي لأن ذاك كان لخاصة نفسه لم يكن للناس عامة والله أعلم.

وقد تقدم إسلام سلمان في البشارات، أن سلمان الفارسي لما سمع بقدوم رسول الله ﷺ إلى المدينة ذهب إليه وأخذ معه شيئاً فوضعه بين يديه وهو بقباء قال: هذا صدقة فكف رسول الله ﷺ فلم يأكله وأمر أصحابه فأكلوا منه، ثم جاء مرة أخرى ومعه شيء فوضعه وقال: هذه هدية فأكل منه وأمر أصحابه فأكلوا. تقدم الحديث بطوله.

سنة ١- إسلام عبد الله بن سلام رضي الله عنه

قال الإمام أحمد [٤٥١/٥]: حدّثنا محمد بن جعفر حدّثنا عوف عن زرارة عن عبد الله بن سلام. قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه، فكنت فيمن انجفل، فلما تبينت وجهه عرفت أنه ليس بوجه كذاب.

فكان أول شيء سمعته يقول: «أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام».

ورواه الترمذي [(٢٤٨٥)] وابن ماجه [(١٣٣٤، ٣٢٥١)] من طرق عن عوف الأعرابي عن زرارة بن أبي أوفى به عنه.

وقال الترمذي: صحيح.

ومقتضى هذا السياق يقتضي أنه سمع بالنبي ﷺ ورآه أول قدومه حين أناخ بقباء في بني عمرو بن عوف.

وتقدم في رواية عبد العزيز بن صهيب عن أنس أنه اجتمع به حين أناخ عند دار أبي أيوب بعد ارتحاله من قباء إلى دار بني النجار كما تقدم [المسند: ٢١١/٣].

فلعله رآه أول ما رآه بقباء، واجتمع به بعدما صار إلى دار بني النجار والله أعلم.

وفي سياق البخاري [(٣٩١١)] من طريق عبد العزيز عن أنس قال: فلما جاء النبي ﷺ جاء عبد الله بن سلام فقال: أشهد أنك رسول الله وأنك جئت بحق، وقد علمت يهود أني سيدهم وابن سيدهم وأعلمهم وابن أعلمهم فادعهم فسلهم عني قبل أن يعلموا أني قد أسلمت فإنهم إن يعلموا أني قد أسلمت قالوا فيّ ما ليس فيّ. فأرسل نبي الله ﷺ إلى اليهود فدخلوا عليه. فقال لهم: «يا معشر اليهود ويلكم اتقوا الله فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أني رسول الله حقاً وأني جئتكم بحق فأسلموا» قالوا: ما نعلمه قالوا للنبي ﷺ قالها ثلاث مرار. قال: «فأي رجل فيكم عبد الله بن سلام؟ قالوا: ذاك سيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا. قال: «أفرأيتم إن أسلم؟» قالوا: حاش لله ما كان ليسلم. قال: «يا ابن سلام اخرج عليهم» فخرج فقال: يا معشر يهود اتقوا الله فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله وأنه جاء بالحق. فقالوا: كذبت. فأخرجهم رسول الله ﷺ. هذه لفظه.

وفي رواية [خ (٣٩٣٨)، س (٩٠٧٤)] فلما خرج عليهم شهد شهادة الحق قالوا: شرّنا وابن شرّنا، وتنقصوه فقال: يا رسول الله هذا الذي كنت أخاف.

وقال البيهقي في الدلائل: ٥٢٨/٢، ٥٢٩]: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ أخبرنا الأصم حدّثنا محمد بن إسحاق الصّغاني حدّثنا عبد الله بن أبي بكر حدّثنا حميد عن أنس. قال: سمع عبد الله بن سلام بقدوم النبي ﷺ - وهو في أرض له - فأتى النبي ﷺ فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي؛ ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال: «أخبرني بهن جبريل آنفاً» قال: جبريل؟ قال: «نعم!» قال: عدو اليهود من الملائكة. ثم قرأ: ﴿مَن كَانَ عَدُوّاً لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّهِ﴾ [البقرة: ٩٧].

«أما أول أشراط الساعة فنار تخرج على الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد حوت، وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزعت الولد».

قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله. يا رسول الله إن اليهود قوم بهت وإنهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم عني بهتوني. فجاءت اليهود فقال: «أي رجل عبد الله فيكم؟» قالوا: خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا. قال: «أرأيتم إن أسلم؟» قالوا: أعاذه الله من ذلك. فخرج عبد الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله.

قالوا: شرنا وابن شرنا وانتقصوه. قال: هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله.

ورواه البخاري [(٤٤٨٠)] عن عبد الله بن منير عن عبد الله بن بكر به.

ورواه [خ (٣٩٣٨)] عن حامد بن عمر عن بشر بن المفضل عن حميد به.

قال محمد بن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي بكر عن يحيى بن عبد الله عن رجل من آل عبد الله بن سلام. قال: كان من حديث عبد الله بن سلام حين أسلم - وكان حبراً عالماً - قال: لما سمعت برسول الله ﷺ وعرفت صفته واسمه وهيئته والذي كنا نتوكف له فكنت مسراً بذلك صامتاً عليه حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة.

فلما قدم نزل بقباء في بني عمرو بن عوف. فأقبل رجل حتى أخبر بقدومه، وأنا في رأس نخلة لي أعمل فيها، وعمتي خالدة بنت الحارث تحتي جالسة، فلما سمعت الخبر بقدوم رسول الله ﷺ كبرت، فقالت عمتي حين سمعت تكبيري: لو كنت سمعت بموسى بن عمران ما زدت، قال: قلت لها: أي عمه. هو والله أخو موسى بن عمران وعلى دينه بعث بما بعث به. قال: فقالت له: يا ابن أخي أهو الذي كنا نخبر أنه يبعث مع نفس الساعة؟ قال: قلت لها: نعم!قالت: فذاك إذاً.

قال: فخرجت إلى رسول الله ﷺ فأسلمت ثم رجعت إلى أهل بيتي فأمرتهم فأسلموا وكتمت إسلامي من اليهود وقلت: يا رسول الله إن اليهود قوم بهت وإني أحب أن تدخلني في بعض بيوتك فتغيبني عنهم، ثم تسألهم عني فيخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا بإسلامي فإنهم إن يعلموا بذلك بهتوني وعابوني، وذكر نحو ما تقدم. قال: فأظهرت إسلامي وإسلام أهل بيتي وأسلمت عمّتي خالدة بنت الحارث. [الدلائل للبيهقي: ٥٣٠/٢، ٥٣١]

وقال يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق حدثني عبد الله بن أبي بكر حدثني محدث عن صفية بنت حيي قالت: لم يكن أحد من ولد أبي وعمي أحب إليهما مني، لم ألقهما في ولد لهما قط أهش إليهما إلا أخذاني دونه، فلما قدم رسول الله ﷺ قباء - قرية بني عمرو بن عوف - غدا إليه أبي وعمي أبو ياسر بن أخطب مغلسين، فوالله ما جاءانا إلا مع مغيب الشمس. فجاءانا فاترين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينى، فهششت إليهما كما كنت أصنع فوالله ما نظر إليّ واحد منهما، فسمعت عمي أبا ياسر يقول لأبي: أهو هو؟ قال: نعم والله! قال: تعرفه بعينه وصفته؟ قال: نعم والله! قال: فماذا في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت [الدلائل للبيهقي: ٥٣٣/٢]. وذكر موسى بن عقبة عن الزهري أن أبا ياسر بن أخطب حين قدم رسول الله ﷺ المدينة ذهب إليه وسمع منه وحادثه ثم رجع إلى قومه فقال: يا قوم أطيعون فإن الله قد جاءكم بالذي كنتم تنتظرون، فاتبعوه ولا تخالفوه فانطلق أخوه حيي بن أخطب - وهو يومئذ سيد اليهود، وهما من بني النضير - فجلس إلى رسول الله وسمع منه، ثم رجع إلى قومه - وكان فيهم مطاعاً - فقال: أتيت من عند رجل والله لا أزال له عدواً أبداً. فقال له أخوه أبو ياسر: يا ابن أم أطعني في هذا الأمر واعصني فيما شئت بعده لا تهلك، قال: لا والله لا أطيعك أبداً، واستحوذ عليه الشيطان واتبعه قومه على رأيه [الدلائل للبيهقي: ٥٣٢/٢، ٥٣٣].

قلت: أما أبو ياسر بن أخطب فلا أدري ما آل إليه أمره، وأما حيي بن أخطب والد صفية بنت حيي فشرب عداوة النبي ﷺ وأصحابه، ولم يزل ذلك دأبه لعنه الله حتى قتل صبراً بين يدي رسول الله ﷺ يوم قتل مقاتلة بني قريظة كما سيأتي إن شاء الله.

سنة ١- أول جمعة صلاها بالمسلمين

ولما ارتحل عليه الصلاة والسلام من قباء وهو راكب ناقته القصواء وذلك يوم الجمعة أدركه وقت الزوال وهو في دار بني سالم بن عوف، فصلى بالمسلمين الجمعة هنالك، في واد يقال له وادي رانوناء فكانت أول جمعة صلاها رسول الله ﷺ بالمسلمين بالمدينة، أو مطلقاً لأنه - والله أعلم - لم يكن يتمكن هو وأصحابه بمكة من الاجتماع حتى يقيموا بها جمعة ذات خطبة وإعلان بموعظة وما ذاك إلا لشدّة مخالفة المشركين له، وأذيّتهم إياه.

سنة ١- خطبة النبي ﷺ يومئذٍ

قال ابن جرير [في تاريخه: ٣٩٤/٢ - ٣٩٦]: حدثني يونس بن عبد الأعلى أخبرنا ابن وهب عن سعيد بن عبد الرحمن الجمحي أنه بلغه عن خطبة النبي ﷺ في أول جمعة صلاها بالمدينة في بني سالم بن عوف رضي الله عنهم: «الحمد لله أحمده وأستعينه، وأستغفره وأستهديه، وأومن به ولا أكفره، وأعادي من يكفره وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى والنور والموعظة على فترة من الرسل، وقلة من العلم، وضلالة من الناس، وانقطاع من الزمان، ودنو من الساعة، وقرب من الأجل. من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى وفرط وضل ضلالاً بعيداً، وأوصيكم بتقوى الله فإنه خير ما أوصى به المسلم المسلم أن يحضه على الآخرة، وأن يأمره بتقوى الله، فاحذروا ما حذركم الله من نفسه، ولا أفضل من ذلك نصيحة، ولا أفضل من ذلك ذكرى وإنه تقوى لمن عمل به على وجل ومخافة، وعون صدق على ما تبتغون من أمر الآخرة، ومن يصلح الذي بينه وبين الله من أمر السر والعلانية لا ينوي بذلك إلا وجه الله يكن له ذكراً في عاجل أمره وذخراً فيما بعد الموت حين يفتقر المرء إلى ما قدم، وما كان من سوى ذلك يود لو أن بينه وبينه أمداً بعيداً، ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد.

والذي صدق قوله، وأنجز وعده، لا خلف لذلك فإنه يقول تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٩] واتقوا الله في عاجل أمركم وآجله في السر والعلانية فإنه من يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً، ومن يتق الله فقد فاز فوزاً عظيماً، وإن تقوى الله توقي مقته، وتوقي عقوبته وتوقي سخطه. وإن تقوى الله تبيض الوجه، وترضي الرب، وترفع الدرجة.

خذوا بحظكم ولا تفرطوا في جنب الله قد علمكم الله كتابه، ونهج لكم سبيله ليعلم الذين صدقوا وليعلم الكاذبين فأحسنوا كما أحسن الله إليكم، وعادوا أعداءه وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وسماكم المسلمين ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيّ عن بينة ولا قوة إلا بالله.

فأكثروا ذكر الله واعملوا لما بعد الموت فإنه من أصلح ما بينه وبين الله يكفه الله ما بينه وبين الناس ذلك بأن الله يقضي على الناس ولا يقضون عليه، ويملك من الناس ولا يملكون منه، الله أكبر ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».

هكذا أوردها ابن جرير وفي السند إرسال.

وقال البيهقي [في الدلائل: ٢/٥٢٤، ٥٢٥]: باب، أول خطبة خطبها رسول الله ر حين قدم المدينة:

أخبرنا أبو عبد الله الحافظ أخبرنا أبو العبّاس الأصم حدّثنا أحمد بن عبد الجبار حدّثنا يونس بن بكير عن ابن إسحاق حدّثني المغيرة بن عثمان بن محمد بن عثمان بن الأخنس بن شريق عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال: كانت أول خطبة خطبها رسول الله ر بالمدينة أن قام فيهم فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال:

«أما بعد أيها الناس فقدموا لأنفسكم تعلمن والله ليصعقن أحدكم ثم ليدعن غنمه ليس لها راع، ثم ليقولن له ربه - ليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه - ألم يأتك رسولي فبلغك، وآتيتك مالاً وأفضلت عليك؟ فما قدمت لنفسك؟ فينظر يمينا وشمالاً فلا يرى شيئاً، ثم ينظر قدامه فلا يرى غير جهنم، فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل، ومن لم يجد فبكلمة طيبة فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف والسلام على رسول الله ر ورحمة الله وبركاته».

ثم خطب رسول الله ر مرة أخرى فقال: «إن الحمد لله أحمده وأستعينه، نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إن أحسن الحديث كتاب الله قد أفلح من زينه الله في قلبه وأدخله في الإسلام بعد الكفر واختاره على ما سواه من أحاديث الناس إنه أحسن الحديث وأبلغه، أحبوا من أحب الله، أحبوا الله من كل قلوبكم ولا تملوا كلام الله وذكره ولا تقس عنه قلوبكم فإنه من كلّ يختار الله ويصطفي فقد سماه خيرته من الأعمال وخيرته من العباد، والصالح من الحديث ومن كل ما أوتي الناس من الحلال والحرام فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً واتقوه حق تقاته واصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم وتحابوا بروح الله بينكم إن الله يغضب أن ينكث عهده والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

وهذا الطريق أيضاً مرسلة إلا أنها مقوية لما قبلها وإن اختلفت الألفاظ.

سنة ١- بناء مسجد الشريف

وقد اختلف في مدة مقامه بها، فقال الواقدي: سبعة أشهر [طبقات ابن سعد: ١/٢٣٧].

وقال غيره: أقل من شهر والله أعلم.

قال البخاري [(٣٩٣٢)]: حدّثنا إسحاق بن منصور أخبرنا عبد الصمد قال: سمعت أبي يحدث: حدّثنا أبو التياح يزيد بن حميد الضبعي حدّثنا أنس بن مالك. قال: لما قدم رسول الله ر المدينة نزل في علو المدينة في حي يقال لهم: بنو عمرو بن عوف، فأقام فيهم أربع عشرة ليلة ثم أرسل إلى ملأ بني النجار فجاؤوا متقلدي سيوفهم، قال: وكأني أنظر إلى رسول الله ر على راحلته وأبو بكر ردفه، وملأ بني النجار حوله حتى ألقى بفناء أبي أيوب.

قال: فكان يصلي حيث أدركته الصلاة، ويصلي في مرابض الغنم، قال: ثم إنه أمر ببناء المسجد فأرسل إلى ملأ بني النجار فجاؤوا فقال: «يا بني النجار ثامنوني بحائطكم هذا» فقالوا: لا والله لا نطلب ثمنه إلا إلى الله عز وجل، قال: فكان فيه ما أقول لكم، كانت فيه قبور المشركين، وكانت فيه خرب، وكان فيه نخل، فأمر رسول الله ر بقبور المشركين فنبشت وبالخرب فسويت، وبالنخل فقطع. قال: فصفوا النخل قبلة المسجد، وجعلوا عضادتيه حجارة قال: فجعلوا ينقلون ذلك الصخر وهم يرتجزون، ورسول الله ر معهم يقول:

«اللّهم إنه لا خيرَ إلا خيرُ الآخرة فانصرِ الأنصارَ والمهاجرة»

وقد رواه البخاري في مواضع أخر [(٤٢٨)] ومسلم من حديث أبي عبد الصمد وعبد الوارث بن سعيد [(٥٢٤)].

وقد تقدم في صحيح البخاري [(٣٩٠٦)] عن الزهري عن عروة أن المسجد الذي كان مربداً - وهو بيدر التمر - ليتيمين كانا في حجر أسعد بن زرارة وهما سهل وسهيل، فساومهما فيه رسول الله ر فقالا: بل نهبه لك يا رسول الله فأبى حتى ابتاعه منهما وبناه مسجداً. قال: وجعل رسول الله ر وهو ينقل معهم التراب يقول:

«هذا الحمال لاحمال خيبر هذا أبرّ ربنا وأطهر»

ويقول:

«اللّهم إن الأجر أجر الآخره فارحم الأنصار والمهاجره»

وذكر موسى بن عقبة أن أسعد بن زرارة عوضهما منه نخلاً له في بياضة، قال: وقيل: ابتاعه منهما رسول الله ر. [الدلائل للبيهقي: ٢/٥٣٨]

قلت: وذكر محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٤٩٥] أن المربد كان لغلامين يتيمين في حجر معاذ بن عفراء وهما سهل وسهيل ابنا عمرو فالله أعلم.

وروى البيهقي [في الدلائل: ٢/٥٤١، ٥٤٢] من طريق أبي بكر بن أبي الدنيا حدّثنا الحسن بن حمّاد الضبّي حدّثنا عبد الرحيم بن سليمان عن إسماعيل بن مسلم عن الحسن. قال: لما بنى رسول الله ر المسجد أعانه عليه أصحابه وهو معهم يتناول اللبن حتى اغبرّ صدره، فقال «ابنوه عريشاً كعريش موسى» فقلت للحسن: ما عريش موسى؟ قال إذا رفع يديه بلغ العريش، يعني: السقف.

وهذا مرسل.

وروى [البيهقي في الدلائل: ٢/٥٤٢] من حديث حماد بن سلمة عن أبي سنان عن يعلى بن شداد بن أوس عن عبادة أن الأنصار جمعوا مالاً فأتوا به النبي ر فقالوا: يا رسول الله ابن هذا المسجد وزينه، إلى متى نصلي تحت هذا الجريد؟ فقال: «ما بي رغبة عن أخي موسى، عريش كعريش موسى».

وهذا حديث غريب من هذا الوجه.

وقال أبو داود [(٥٤١)]: حدّثنا محمد بن حاتم حدّثنا عبيد الله بن موسى عن شيبان عن فراس عن عطية العوفي عن ابن عمر أن مسجد النبي ر كانت سواريه على عهد رسول الله ر من جذوع النخل، أعلاه مظلل بجريد النخل ثم إنها نخرت في خلافة أبي بكر، فبناها بجذوع وبجريد النخل، ثم إنها نخرت في خلافة عثمان فبناها بالآجر، فما زالت ثابتة حتى الآن.

وهذا غريب.

وقد قال أبو داود أيضاً [(٥٤١)]: حدّثنا مجاهد بن موسى حدّثني يعقوب بن إبراهيم حدّثني أبي عن صالح حدّثنا نافع عن ابن عمر أخبره أن المسجد كان على عهد رسول الله ر مبنياً باللبن، وسقفه الجريد، وعمده خشب النخل، فلم يزد فيه أبو بكر شيئاً، وزاد فيه عمر وبناه على بنائه في

بنائه في عهد النبي ﷺ باللبن والجريد وأعاد عمده خشباً. وغيّره عثمان ﷺ وزاد فيه زيادة كثيرة، وبنى جداره بالحجارة المنقوشة والقصة وجعل عمده من حجارة منقوشة وسقّفه بالساج.

وهكذا رواه البخاري [(٤٤٦)] عن علي بن المديني عن يعقوب بن إبراهيم به.

قلت: زاده عثمان بن عفان ﷺ متأولاً قوله ﷺ: «من بنى لله مسجداً ولو كمفحص قطاة بنى الله له بيتاً في الجنة» [ج (٧٣٨)].

ووافقه الصحابة الموجودون على ذلك ولم ينيروه بعده، فيستدل بذلك على الراجح من قولي العلماء أن حكم الزيادة حكم المزيد، فتدخل الزيادة في حكم سائر المسجد من تضعيف الصلاة فيه وشدّ الرحال إليه، وقد زيد في زمان الوليد بن عبد الملك باني جامع دمشق، زاده له بأمره عمر بن عبد العزيز حين كان نائبه على المدينة وأدخل الحجرة النبوية فيه كما سيأتي بيانه في وقته، ثم زيد زيادة كثيرة فيما بعد، وزيد من جهة القبلة حتى صارت الروضة والمنبر بعد الصفوف المقدمة كما هو المشاهد اليوم.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٤٩٦/١، ٤٩٧]: ونزل رسول الله ﷺ على أبي أيوب، حتى بنى مسجده ومساكنه، وعمل فيه رسول الله ﷺ، ليرغّبَ المسلمين في العمل فيه، فعمل فيه المهاجرون والأنصار، ودأبوا فيه، فقال قائل من المسلمين:

لئن قعدنا والنبيُّ يعمل لذاك منّا العمل المضلّل

وارتجز المسلمون وهم يبنونه، يقولون:

لا عيش إلاّ عيش الآخره اللّهم ارحم الأنصار والمهاجرة

فيقول رسول الله ﷺ: «لا عيش إلا عيش الآخرة اللّهم ارحم المهاجرين والأنصار» قال: فدخل عمار بن ياسر وقد انقلوه باللبن فقال: يا رسول الله قتلوني يحملون عليّ ما لا يحملون: قالت أم سلمة: فرأيت رسول الله ﷺ ينفض وفرته بيده - وكان رجلاً جعداً - وهو يقول: «ويح ابن سمية ليسوا بالذين يقتلونك إنما تقتلك الفئة الباغية».

وهذا منقطع من هذا الوجه بل هو معضل بين محمد بن إسحاق وبين أم سلمة.

وقد وصله مسلم في «صحيحه» [(٢٩١٦/٧٢)] من حديث شعبة عن خالد الحذاء عن سعيد والحسن - يعني ابني أبي الحسن البصريّ - عن أمهما خيرة مولاة أم سلمة عن أم سلمة قالت: قال رسول الله ﷺ: «تقتل عماراً الفئة الباغية».

ورواه [م (٢٩١٦/٧٣)] من حديث ابن علية عن ابن عون عن الحسن عن أمه عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قال لعمار وهو ينقل الحجارة: «ويح لك يا ابن سمية تقتلك الفئة الباغية».

وقال عبد الرزاق [في مصنفه: ٢٠٤٢٦]: أخبرنا معمر عن الحسن يحدث عن أمه عن أم سلمة قالت: لما كان رسول الله ﷺ وأصحابه يبنون المسجد، جعل أصحاب النبي ﷺ يحمل كل واحد لبنة لبنة، وعمار يحمل لبتين لبنة عنه ولبنة عن النبي ﷺ فمسح ظهره. وقال: «ابن سمية، للناس أجر ولك أجران، وآخر زادك شربة من لبن وتقتلك الفئة الباغية».

وهذا إسناد على شرط «الصحيحين».

وقد أورد البيهقي [في الدلائل: ٥٤٦/٢] وغيره [المسند: ٩٠/٣، ٩١] من طريق جماعة عن خالد الحذاء عن عكرمة عن أبي سعيد الخدري. قال: كنا نحمل في بناء المسجد لبنة لبنة، وعمار يحمل لبتين لبتين. فرآه النبي ﷺ فجعل ينفض التراب عنه ويقول: «ويح عمار تقتله الفئة الباغية يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار». قال: يقول عمار: أعوذ بالله من الفتن.

لكن روى هذا الحديث الإمام البخاري [(٤٤٧)] عن مسدد عن عبد العزيز بن المختار عن خالد الحذاء.

وعن إبراهيم بن موسى [خ (٢٨١٢)] عن عبد الوهاب الثقفي عن خالد الحذاء به.

إلا أنه لم يذكر قوله: «تقتلك الفئة الباغية».

قال البيهقي [في الدلائل: ٥٤٨/٢]: وكأنه إنما تركها لما رواه مسلم [(٤٩١٥/٧٠)] من طريق عن أبي نضرة عن أبي سعيد قال: أخبرني من هو خير مني أن رسول الله ﷺ قال لعمار حين جعل يحفر الخندق، جعل يمسح رأسه ويقول: «بؤس ابن سمية تقتله فئة باغية».

وقد رواه مسلم أيضاً [(٢٩١٥/٧١)] من حديث شعبة عن أبي مسلمة عن أبي نضرة عن أبي سعيد قال: حدّثني من هو خير مني - أبو قتادة - أن رسول الله ﷺ قال لعمار بن ياسر: «بؤساً لك يا ابن سمية تقتلك الفئة الباغية».

وقال أبو داود الطيالسي: حدّثنا وهيب عن داود بن أبي هند عن أبي نضرة عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ لما حفر الخندق كان الناس يحملون لبنة لبنة، وعمار ناقه من وجع كان به، فجعل يحمل لبتين لبتين.

قال أبو سعيد: فحدثني بعض أصحابي أن رسول الله ﷺ كان ينفض التراب عن رأسه ويقول: «ويحك ابن سمية تقتلك الفئة الباغية» [الدلائل للبيهقي: ٥٤٨/٢، ٥٤٩].

قال البيهقي [في الدلائل: ٥٤٩/٢]: فقد فرق بين ما سمعه بنفسه وما سمعه من أصحابه. قال: ويشبه أن يكون قوله: الخندق وَهْماً أو أنه قال له ذلك في بناء المسجد وفي حفر الخندق والله أعلم.

قلت: حمل اللبن في حفر الخندق لا معنى له، والظاهر أنه اشتبه على الناقل والله أعلم.

وهذا الحديث من دلائل النبوة حيث أخبر صلوات الله وسلامه عليه عن عمار أنه تقتله الفئة الباغية وقد قتله أهل الشام في وقعة صفين وعمار مع علي وأهل العراق كما سيأتي بيانه وتفصيله في موضعه.

وقد كان علي أحق بالأمر من معاوية. ولا يلزم من تسمية أصحاب معاوية بغاة تكفيرهم كما يحاوله جهلة الفرقة الضالة من الشيعة وغيرهم لأنهم وإن كانوا بغاة في نفس الأمر فإنهم كانوا مجتهدين فيما تعاطوه من القتال وليس كل مجتهد مصيباً بل المصيب له أجران والمخطئ له أجر.

ومن زاد في هذا الحديث بعد قوله: «تقتلك الفئة الباغية»: لا أنالها الله شفاعتي يوم القيامة. فقد افترى في هذه الزيادة على رسول الله ﷺ؛ فإنه لم يقلها إذ لم تنقل من طريق تقبل والله أعلم.

أما قوله: «يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار» فإن عماراً وأصحابه يدعون أهل الشام إلى الألفة واجتماع الكلمة. وأهل الشام يريدون أن يستأثروا بالأمر دون من هو أحق به، وأن يكون الناس أوزاعاً على كل قطر إمام برأسه، وهذا يؤدي إلى افتراق الكلمة واختلاف الأمة فهو لازم مذهبهم وناشئ عن مسلكهم، وإن كانوا لا يقصدونه والله أعلم.

وسيأتي تقرير هذه المباحث إذا انتهينا إلى وقعة صفين من كتابنا هذا بحول الله وقوته وحسن تأييده وتوفيقه.

والمقصود ههنا إنما هو قصة بناء المسجد النبوي على بانيه أفضل الصلاة والتسليم.

وقد قال الحافظ البيهقي في «الدلائل» [٢/٥٥٣]: حدّثنا أبو عبد الله الحافظ إملاء حدّثنا أبو بكر بن إسحاق أخبرنا عبيد بن شريك حدّثنا نعيم بن حماد حدّثنا عبد الله بن المبارك أخبرنا حشرج بن نباتة عن سعيد بن جمهان عن سفينة مولى رسول الله ﷺ. قال: جاء أبو بكر بحجر فوضعه، ثم جاء عمر بحجر فوضعه، ثم جاء عثمان بحجر فوضعه. فقال رسول الله ﷺ: «هؤلاء ولاة الأمر بعدي».

ثم رواه [البيهقي في الدلائل: ٢/٥٥٣] من حديث يحيى بن عبد الحميد الحماني عن حشرج عن سعيد عن سفينة. قال: لما بنى رسول الله ﷺ المسجد وضع حجراً. ثم قال: «ليضع أبو بكر حجراً إلى جنب حجري، ثم ليضع عمر حجره إلى جنب حجر أبي بكر، ثم ليضع عثمان حجره إلى جنب حجر عمر».

فقال رسول الله ﷺ: «هؤلاء الخلفاء من بعدي» وهذا الحديث بهذا السياق غريب جداً.

والمعروف ما رواه الإمام أحمد [٥/٢٢٠، ٢٢١] عن أبي النضر عن حشرج بن نباتة العبسي وعن بهز وزيد بن الحباب وعبد الصمد عن حماد بن سلمة كلاهما عن سعيد بن جمهان عن سفينة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الخلافة ثلاثون عاماً، ثم يكون من بعد ذلك الملك».

ثم قال سفينة: أمسك؛ خلافة أبي بكر ستين، وخلافة عمر عشر سنين وخلافة عثمان اثنتي عشرة سنة وخلافة علي ست سنين، هذا لفظ أحمد.

ورواه أبو داود [(٤٦٤٦)] والترمذي والنسائي [(٨١٥٥)] من طرق عن سعيد بن جمهان.

وقال الترمذي: حسن لا نعرفه إلا من حديثه. ولفظه: «الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم يكون ملكاً عضوضاً» وذكر بقيته.

قلت: ولم يكن في مسجد النبي ﷺ أول ما بني منبر يخطب الناس عليه، بل كان النبي ﷺ يخطب الناس وهو مستند إلى جذع عند مصلاه في الحائط القبلي فلما اتخذ له عليه السلام المنبر كما سيأتي بيانه في موضعه وعدل إليه ليخطب عليه، وجاوز ذلك الجذع خار ذلك الجذع وحن حنين النوق العشار لما كان يسمع من خطب الرسول عليه السلام عنده، فرجع إليه النبي ﷺ فاحتضنه حتى سكن كما يسكن المولود الذي يسكت.

كما سيأتي تفصيل ذلك من طرق عن سهل بن سعد الساعدي وجابر وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وأنس بن مالك وأم سلمة رضي الله عنهم.

وما أحسن ما قال الحسن البصري بعدما روي هذا الحديث عن أنس بن مالك: يا معشر المسلمين الخشبة تحن إلى رسول الله ﷺ شوقاً إليه، أو ليس الرجال الذين يرجون لقاءه أحق أن يشتاقوا إليه؟!

سنة ١- فضل المسجد النبوي

قال الإمام أحمد [٣/٢٣]: حدّثنا يحيى عن أنيس بن أبي يحيى حدّثني أبي قال: سمعت أبا سعيد الخدري قال: اختلف رجلان رجل من بني خدرة ورجل من بني عمرو بن عوف في المسجد الذي أسس على التقوى، فقال الخدري: هو مسجد رسول الله ﷺ وقال العمري: هو مسجد قباء، فأتيا رسول الله ﷺ فسألاه عن ذلك فقال: «هو هذا المسجد» لمسجد رسول الله ﷺ وقال: «في ذلك خير كثير» يعني: مسجد قباء.

ورواه الترمذي [(٣٢٣)] عن قتيبة عن حاتم بن إسماعيل عن أنيس بن أبي يحيى الأسلمي به وقال: حسن صحيح.

وروى الإمام أحمد [٣/٨] عن إسحاق بن عيسى عن الليث بن سعد والترمذي [٣٠٩٩] والنسائي [٦٩٦] جميعاً عن قتيبة عن الليث عن عمران بن أبي أنس عن عبد الرحمن بن أبي سعيد عن أبيه. قال: تمارى رجلان في المسجد الذي أسس على التقوى، وذكر نحو ما تقدم.

وفي «صحيح مسلم» [١٣٩٨] من حديث حميد الخراط عن أبي سلمة بن عبد الرحمن أنه سأل عبد الرحمن بن أبي سعيد: كيف سمعت أباك يذكر في المسجد الذي أسس على التقوى؟ قال: قال أبي: أتيت رسول الله ﷺ فسألته عن المسجد الذي أسس على التقوى فأخذ كفاً من حصباء فضرب به الأرض. ثم قال: «هو مسجدكم هذا».

وقال الإمام أحمد [٥/٣٣١]: حدّثنا وكيع حدّثنا ربيعة بن عثمان التيمي عن عمران بن أبي أنس عن سهل بن سعد قال: اختلف رجلان على عهد رسول الله ﷺ في المسجد في الذي أسس على التقوى. فقال أحدهما: هو مسجد رسول الله ﷺ وقال الآخر: هو مسجد قباء، فأتيا رسول الله ﷺ فسألاه فقال: «هو مسجدي هذا».

وقال الإمام أحمد [٥/١١٦] حدّثنا أبو نعيم حدّثنا عبد الله بن عامر الأسلمي عن عمران بن أبي أنس عن سهل بن سعد عن أبيّ بن كعب أن النبي ﷺ قال: «المسجد الذي أسس على التقوى مسجدي هذا».

فهذه طرق متعددة لعلها تقرب من إفادة القطع بأنه مسجد الرسول ﷺ وإلى هذا ذهب عمر وابنه عبد الله وزيد بن ثابت، وسعيد بن المسيب، واختاره ابن جرير [تفسير الطبري: ١١/٢٨].

وقال آخرون: لا منافاة بين نزول الآية في مسجد قباء - كما تقدم بيانه - وبين هذه الأحاديث. لأن هذا المسجد أولى بهذه الصفة من ذلك لأن هذا أحد المساجد الثلاثة التي تشد الرحال إليها كما ثبت في «الصحيحين» [خ (١١٨٩)، م (١٣٩٧)] من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد؛ مسجدي هذا والمسجد الحرام، ومسجد بيت المقدس».

وفي «صحيح مسلم» [٢/٩٧٥، ٩٧٦، (٨٢٧)] عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد» وذكرها.

وثبت في «الصحيحين» [خ (١١٩٠)، م (١٣٩٤)] أن رسول الله ﷺ قال: «صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام».

وفي «مسند أحمد» [٢/٢٩] بإسناد حسن زيادة حسنة وهي قوله: «فإن ذلك أفضل».

وفي «الصحيحين» [خ (١١٩٦)، م (١٣٩١)] من حديث يحيى القطان عن عبيد الله عن خبيب عن حفص بن عاصم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي».

والأحاديث في فضائل هذا المسجد الشريف كثيرة جداً وسنوردها في كتاب المناسك من كتاب «الأحكام الكبير» إن شاء الله وبه الثقة وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم.

وقد ذهب الإمام مالك وأصحابه إلى أن مسجد المدينة أفضل من المسجد الحرام لأن ذاك بناه إبراهيم، وهذا بناه محمد ﷺ، ومعلوم أن محمداً ﷺ أفضل من إبراهيم عليه السلام.

وقد ذهب الجمهور إلى خلاف ذلك وقرروا أن المسجد الحرام أفضل لأنه في بلد حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض، وحرّمه إبراهيم الخليل عليه السلام، ومحمّد خاتم المرسلين. فاجتمع فيه من الصفات ما ليس في غيره، ولبسط هذه المسألة موضع آخر وبالله المستعان.

سنة ١- مسكنُ النبي ﷺ في المسجد

وبنى لرسول الله ﷺ حول مسجده الشريف حجر لتكون مساكن له ولأهله وكانت مساكن قصيرة البناء قريبة الفناء.

قال الحسن بن أبي الحسن البصري - وكان غلاماً مع أمه خيرة مولاة أم سلمة -: لقد كنت أنال أطول سقف في حجر النبي ﷺ بيدي [انظر الروض الأنف: ٤/٢٦٧، ٢٦٨].

قلت: إلا أنه قد كان الحسن البصري شكلاً ضخماً طوالاً رحمه الله.

وقال السهيلي في «الروض» [٤/٢٦٧]: كانت مساكنه عليه السلام مبنية من جريد عليه طين بعضها من حجارة مرضومة وسقوفها كلها من جريد.

وقد حكى عن الحسن البصري ما تقدم وقال: وكانت حجره من شعر مربوطة بخشب من عرعر.

قال [السهيلي في الروض: ٤/٢٦٨] وفي «تاريخ البخاري» أن بابه عليه الصلاة والسلام كان يقرع بالأظافير.

فدل على أنه لم يكن لأبوابه حلق.

قال [السهيلي في الروض: ٤/٢٦٨]: وقد أضيفت الحجر كلها بعد موت أزواج رسول الله ﷺ إلى المسجد.

قال الواقدي [انظر طبقات ابن سعد: ٨/٦٢، ٦٣، ١٦٥] وابن جرير [في تاريخه: ٢/٤٠٠] وغيرهما: ولما رجع عبد الله بن أريقط الديلي إلى مكة بعث معه رسول الله ﷺ وأبو بكر زيد بن حارثة وأبا رافع مولي رسول الله ﷺ ليأتوا بأهاليهم من مكة وبعثا معهم بحملين وخمسمائة درهم ليشتروا بها إبلاً من قديد، فذهبوا فجاؤوا ببنتي النبي ﷺ فاطمة وأم كلثوم وزوجتيه سودة وعائشة، وأمها أم رومان وأهل النبي ﷺ وآل أبي بكر صحبة عبد الله بن أبي بكر وقد شرد بعائشة وأمها أم رومان الجمل في أثناء الطريق فجعلت أم رومان تقول: واعروساه، وابتاه.

قالت عائشة: فسمعت قائلاً يقول: أرسلي خطامه. فأرسلت خطامه فوقف بإذن الله وسلمنا الله عزّ وجلّ. فتقدموا فنزلوا بالسنح. ثم دخل رسول الله ﷺ بعائشة في شوال بعد ثمانية أشهر كما سيأتي، وقدمت معهم أسماء بنت أبي بكر امرأة الزبير بن العوام وهي حامل متم بعبد الله بن الزبير كما سيأتي بيانه في موضعه من آخر هذه السنة.

سنة ١- الوباءُ الذي كانَ في المدينة

قال البخاري [٣٩٢٦]: حدّثنا عبد الله بن يوسف حدّثنا مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أنها قالت: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وعك أبو بكر وبلال، قالت: فدخلت عليهما فقلت: يا أبه كيف تجدك؟ ويا بلال كيف تجدك؟ قالت: وكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول:

كل امرئ مصبحٌ في أهله والموتُ أدنى من شراك نعله

وكان بلال إذا أقلع عنه الحمى يرفع عقيرته ويقول:

ألا ليتَ شعري هل أبيتنّ ليلةً بوادٍ وحولي إذخر وجليل

وهل أردنْ يوماً مياه مجنةٍ وهل يَبْدوَنْ لي شامة وطَفيل

قالت عائشة: فجئت رسول الله ﷺ فاخبرته فقال: «اللّهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد وصححها وبارك لنا في صاعها ومدها، وانقل حماها فاجعلها بالجحفة».

ورواه مسلم [١٣٧٦] عن أبي بكر بن أبي شيبة عن عبيدة عن هشام مختصراً.

وفي رواية البخاري [١٨٨٩] له عن أبي أسامة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة فذكره وزاد بعد شعر بلال: ثم يقول: اللّهم العن عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة وأمية بن خلف كما أخرجونا إلى أرض الوباء.

فقال رسول الله ﷺ: «اللّهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، اللّهم بارك لنا في صاعها وفي مدها وصححها لنا وانقل حماها إلى الجحفة».

وقدمنا إلى المدينة وهي أوبأ أرض الله، وكان بطحان يجري نجلاً - تعني: ماء آجناً -.

وقال زياد عن محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٥٨٨، ٥٨٩]: حدّثني هشام بن عروة وعمر بن عبد الله عن عروة بن الزبير عن عائشة قالت: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة قدمها وهي أوبأ أرض الله من الحمى فأصاب أصحابه منها بلاء وسقم وصرف الله ذلك عن نبيه ﷺ قالت: فكان أبو بكر وعامر بن فهيرة وبلال مولايا أبي بكر في بيت واحد فأصابتهم الحمى فدخلت عليهم أعودهم وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب وبهم ما لا يعلمه إلا الله من شدة الوعك فدنوت من أبي بكر فقلت: كيف تجدك يا أبه؟ فقال:

كل امرئ مصبح في أهله والموت أدنى من شراك نعله

قالت: فقلت: والله ما يدري أبي ما يقول، قالت: ثم دنوت إلى عامر بن فهيرة فقلت: كيف تجدك يا عامر؟ قال:

لقد وجدتُ الموتَ قبل ذوقِهِ إن الجبانَ حتفُه من فوقه

كل امرئ مجاهد بطوقه كالثورِ يحمي جلدَه بِرَوْقه

قالت: فقلت: والله ما يدري عامر ما يقول، قالت: وكان بلال إذا أدركته الحمى اضطجع بفناء البيت ثم رفع عقيرته فقال:

ألا ليتَ شعري هل أبيتنّ ليلةً بفخٍ وحولي إذخر وجليل

وهل أردنْ يوماً مياه مجنةٍ وهل يَبْدوَنْ لي شامة وطَفيل

قالت عائشة: فذكرت لرسول الله ﷺ ما سمعت منهم وقلت: إنهم ليهذون وما يعقلون من شدة الحمى فقال: «اللّهم حبب إلينا المدينة، كما حببت إلينا مكة أو أشد، وبارك لنا في مدها وصاعها، وانقل وباءها إلى مهيعة» ومهيعة هي الجحفة.

وقال الإمام أحمد [٦/٦٥]: حدّثنا يونس حدّثنا ليث عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي بكر بن إسحاق بن يسار عن عبد الله بن عروة عن عروة عن عائشة قالت: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة اشتكى أصحابه واشتكى أبو بكر وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر وبلال، فاستأذنت عائشة رسول الله ﷺ في عيادتهم فأذن لها، فقالت لأبي بكر: كيف تجدك؟ فقال:

كل امرئ مصبح في أهله والموت أدنى من شراك نعله

وسألت عامراً فقال:

إني وجدت الموت قبل ذوقه إن الجبان حتفه من فوقه

وسألت بلالاً فقال:

يا ليت شعري هل أبيتن ليلة بفخ وحولي إذخر وجليل

فأتت رسول الله ﷺ فأخبرته، فنظر إلى السماء وقال: «اللّهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة أو أشد، اللّهم بارك لنا في صاعها وفي مدها، وانقل وباءها إلى مهيعة». وهي الجحفة فيما زعموا.

وكذا رواه النسائي [٧٥١٩] عن قتيبة عن الليث به.

ورواه الإمام أحمد [٦/٢٣٩، ٢٤٠] من طريق عبد الرحمن بن الحارث عنها مثله.

وقال البيهقي [في الدلائل: ٥٦٧/٢]: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ وأبو سعيد بن أبي عمرو. قالا: حدّثنا أبو العبّاس الأصم حدّثنا أحمد بن عبد الجبار حدّثنا يونس بن بكير عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: قدم رسول الله ﷺ المدينة وهي أوبأ أرض الله، ووادِيها بطحان نجل قال هشام: وكان وباؤها معروفاً في الجاهلية، وكان إذا كان الوادي وبيئاً فأشرف عليه الإنسان قيل له أن ينهق نهيق الحمار، فإذا فعل ذلك لم يضره وباء ذلك الوادي.

وقد قال الشاعر حين أشرف على المدينة: [ديوان عروة بن الورد: ٩٥]

لعمري لئن عَشَرْتُ من خيفة الردى نهيق الحمار إنني لَجَزوع

وروى البخاري [٧٠٣٨] من حديث موسى بن عقبة عن سالم عن أبيه أن النبي ﷺ قال: «رأيت كأن امرأة سوداء ثائرة الرأس خرجت من المدينة حتى قامت بمهيعة - وهي الجحفة - فأولْتُ أن وباء المدينة نقل إليها».

هذا لفظ البخاري ولم يخرجه مسلم.

ورواه الترمذي [٢٢٩٠] وصححه والنسائي [٧٦٥١] وابن ماجه [٣٩٢٤] من حديث موسى بن عقبة.

وقد روى حماد بن زيد عن هشام بن عروة عن عائشة قالت: قدم رسول الله ﷺ المدينة وهي وبيئة، فذكر الحديث بطوله إلى قوله: «وانقل حماها إلى الجحفة».

قال هشام: فكان المولود يولد بالجحفة فلا يبلغ الحلم حتى تصرعه الحمى.

ورواه البيهقي في «دلائل النبوة» [٥٦٨/٢].

وقال يونس عن ابن إسحاق: قدم رسول الله ﷺ المدينة وهي وبيئة. فأصاب أصحابه منها بلاء وسقم حتى أجهدهم ذلك، وصرف الله ذلك عن نبيه ﷺ [الدلائل للبيهقي: ٥٦٨/٢].

وقد ثبت في «الصحيحين» [خ (١٦٠٢)، م (١٢٦٦)] عن ابن عباس، قال: قدم رسول الله ﷺ وأصحابه صبيحة رابعة - يعني مكة - عام عمرة القضاء. فقال المشركون: إنه يقدم عليكم وفد قد وهنهم حمى يثرب، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يرملوا وأن يمشوا ما بين الركنين، ولم يمنعه أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم.

قلت: وعمرة القضاء كانت في سنة سبع في ذي القعدة فإما أن يكون تأخّر دعاؤه عليه الصلاة والسلام بنقل الوباء إلى قريب من ذلك، أو أنه رفع وبقي آثار منه قليل، أو أنهم بقوا في خمار ما كان أصابهم من ذلك إلى تلك المدة والله أعلم.

وقال زياد عن ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٩٠/١]: وذكر ابن شهاب الزهري عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة هو وأصحابه أصابتهم حمى المدينة حتى جهدوا مرضاً، وصرف الله ذلك عن نبيه ﷺ حتى كانوا ما يُصلُّون إلا وهم قعود، قال: فخرج رسول الله ﷺ وهم يصلون كذلك فقال لهم: «إعلموا أن صلاة القاعد على النصف من صلاة القائم» فتجشم المسلمون القيام على ما بهم من الضعف والسقم التماس الفضل.

سنة ١- موادعة اليهود

وفصل في عقده عليه السلام الألفة بين المهاجرين الأنصار بالكتاب الذي أمر به فكتب بينهم والمؤاخاة التي أمرهم بها وقررهم عليها وموادعته اليهود الذين كانوا بالمدينة

وكان بها من أحياء اليهود بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة، وكان نزولهم بالحجاز قبل الأنصار أيام بخت نصر حين دوخ بلاد المقدس فيما ذكره الطبري [في تاريخه: ٥٣٩/١].

ثم لما كان سيل العرم وتفرقت سبأ شذر مذر نزل الأوس والخزرج المدينة عند اليهود فحالفوهم وصاروا يتشبهون بهم لما يرون لهم عليهم من الفضل في العلم المأثور عن الأنبياء لكن منّ الله على هؤلاء الذين كانوا مشركين بالهدى والإسلام وخذل أولئك لحسدهم وبغيهم واستكبارهم عن اتباع الحق.

وقال الإمام أحمد [٣/٢٨١]: حدّثنا عفان حدّثنا حماد بن سلمة حدّثنا عاصم الأحول عن أنس بن مالك. قال: حالف رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دار أنس بن مالك. وقد رواه الإمام أحمد [٣/١١١، ١٤٥، ٢٨١] أيضاً والبخاري [٢٢٩٤] ومسلم [٢٥٢٩] وأبو داود [٢٩٢٦] من طرق متعددة عن عاصم بن سليمان الأحول عن أنس بن مالك. قال: حالف رسول الله ﷺ بين قريش والأنصار في داري.

وقال الإمام أحمد [٢/٢٠٤]: حدّثنا نصر بن باب عن حجاج - هو ابن أرطاة - قال: وحدثنا سريج حدّثنا عبّاد عن حجاج عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أن النبي ﷺ كتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار أن يعقلوا معاقلهم، وأن يفدوا عانيهم بالمعروف والإصلاح بين المسلمين.

قال أحمد [١/٢٧١]: وحدثنا سريج حدّثنا عباد عن حجاج عن الحكم عن مقسم عن ابن عباس مثله. تفرد به الإمام أحمد.

وفي «صحيح مسلم» [١٥٠٧] عن جابر قال: كتب رسول الله ﷺ على كل بطن عقولة.

وقال محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٠١/١ - ٥٠٤]: كتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار وادع فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم واشترط عليهم وشرط لهم:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم: إنهم أمة واحدة من دون الناس.

المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين».

ثم ذكر كل بطن من بطون الأنصار وأهل كل دار بني ساعدة وبني جشم، وبني النجار، وبني عمرو بن عوف، وبني النبيت، إلى أن قال: «وإن المؤمنين لا يتركون مفرحاً بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء وعقل، ولا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه، وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو

ابتغى دسيعة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعهم ولو كان ولد أحدهم، ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر، ولا ينصر كافر على مؤمن، وإن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم.

وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس وإنه من تبعنا من يهود فإنه له النصر والأسوة غير مظلومين، ولا متناصر عليهم، وإن سلم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم. وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً.

وإن المؤمنين يبيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه، وإنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً ولا يحول دونه على مؤمن، وإنه من اعتبط مؤمناً قتلاً عن بينة فإنه قود به إلاّ أن يرضى ولي المقتول، وإن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا قيام عليه.

وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً ولا يؤويه، وإنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل، وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإنّ مردّه إلى الله عزّ وجلّ وإلى محمد ﷺ.

وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته، وإن ليهود بني النجار وبني الحارث وبني ساعدة وبني جشم وبني الأوس وبني ثعلبة وجفنة وبني الشطبية مثل ما ليهود بني عوف، وإن بطانة يهود كأنفسهم، وإنه لا يخرج منهم أحد إلا باذن محمد ﷺ، ولا ينحجز على ثار جرح، وإنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته إلا من ظلم، وإن الله على أبر هذا.

وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة والبرّ دون الإثم، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم، وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها، وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله ﷺ.

وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبرّه، وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها وإن بينهم النصر على من دهم يثرب وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم، وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وإنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم أو أثم، وإن الله جار لمن بر واتقى».

كذا أورده ابن إسحاق بنحوه. وقد تكلم عليه أبو عبيد القاسم بن سلام رحمه الله في كتاب «الغريب» وغيره بما يطول ذكره.

سنة ١ - مؤاخاة النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار

كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ [الحشر: ٩] وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً﴾ [النساء: ٣٣].

قال البخاري [٤٥٨٠]: حدّثنا الصلت بن محمد حدّثنا أبو أسامة عن إدريس عن طلحة بن مصرف عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾ قال: ورثة ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾: كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجري الأنصاري دون ذوي رحمة للأخوة التي آخى النبي ﷺ بينهم، فلما نزلت: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾ نسخت ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ من النصر والرفادة والنصيحة، وقد ذهب الميراث ويوصي له.

وقال الإمام أحمد [١١١/٣]: قرئ على سفيان: سمعت عاصماً عن أنس قال: حالف النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دارنا قال سفيان: كأنه يقول: آخى.

وقال محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٠٤/١، ٥٠٥]: وآخى رسول الله ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار، فقال: - فيما بلغنا ونعوذ بالله أن نقول عليه ما لم يقل: - «تآخوا في الله أخوين أخوين» ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب فقال: «هذا أخي» فكان رسول الله ﷺ - سيد المرسلين، وإمام المتقين، ورسول رب العالمين، الذي ليس له خطير ولا نظير من العباد - وعلي بن أبي طالب أخوين، وكان حمزة بن عبد المطلب - أسد الله وأسد رسوله وعم رسول الله ﷺ - وزيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ أخوين وإليه أوصى حمزة يوم أحد، وجعفر بن أبي طالب ذو الجناحين ومعاذ بن جبل أخوين.

قال ابن هشام [السيرة: ٥٠٥/١]: كان جعفر يومئذ غائباً بأرض الحبشة.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٠٥/١، ٥٠٦]: وكان أبو بكر وخارجة بن زيد الخزرجي أخوين، وعمر بن الخطاب وعتبان بن مالك أخوين، وأبو عبيدة وسعد بن معاذ أخوين وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع أخوين، والزبير بن العوام وسلمة بن سلامة بن وقش أخوين، ويقال: بل كان الزبير وعبد الله بن مسعود أخوين، وعثمان بن عفان وأوس بن ثابت بن المنذر النجاري أخوين، وطلحة بن عبيد الله وكعب بن مالك أخوين، وسعيد بن زيد وأبيّ بن كعب أخوين، ومصعب بن عمير وأبو أيوب أخوين، وأبو حذيفة بن عتبة وعباد بن بشر أخوين، وعمار وحذيفة بن اليمان العبسي حليف عبد الأشهل أخوين، ويقال: بل كان عمار وثابت بن قيس بن شماس أخوين.

قلت: وهذا أنسب من وجهين.

قال [سيرة ابن هشام: ٥٠٦/١، ٥٠٧]: وأبو ذر بربر بن جنادة والمنذر بن عمرو المعنق ليموت أخوين، وحاطب بن أبي بلتعة وعويم بن ساعدة أخوين، وسلمان وأبو الدرداء أخوين وبلال وأبو رويحة عبد الله بن عبد الرحمن الخثعمي ثم أحد الفزع أخوين. قال فهؤلاء ممن سمي لنا ممن كان رسول الله ﷺ آخى بينهم من أصحابه رضي الله عنهم.

قلت: وفي بعض ما ذكره نظر، أما مؤاخاة النبي ﷺ وعلي فإن من العلماء من ينكر ذلك ويمنع صحته ومستنده في ذلك أن هذه المؤاخاة إنما شرعت لأجل ارتفاق بعضهم من بعض وليتآلف قلوب بعضهم على بعض، فلا معنى لمؤاخاة النبي ﷺ لأحد منهم، ولا مهاجري لمهاجري آخر كما ذكره من مؤاخاة حمزة وزيد بن حارثة اللهم إلا أن يكون النبي ﷺ لم يجعل مصلحة علي إلى غيره فإنه كان ممن ينفق عليه رسول الله ﷺ من صغره في حياة أبيه أبي طالب كما تقدم عن مجاهد وغيره. وكذلك يكون

حمزة قد التزم بمصالح مولاهم زيد بن حارثة فآخاه بهذا الاعتبار والله أعلم.

وهكذا ذكره لمؤاخاة جعفر ومعاذ بن جبل فيه نظر كما أشار إليه عبد الملك بن هشام، فإن جعفر بن أبي طالب إنما قدم في فتح خيبر في أول سنة سبع كما سيأتي بيانه، فكيف يؤاخي بينه وبين معاذ بن جبل أول مقدمه عليه السلام إلى المدينة اللّهم إلا أن يقال: إنه أرصد لإخوته إذا قدم حين يقدم.

وقوله: وكان أبو عبيدة وسعد بن معاذ أخوين مخالف لما رواه الإمام أحمد [١٥٢/٣]: حدّثنا عبد الصمد حدّثنا حماد حدّثنا ثابت عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ آخى بين أبي عبيدة بن الجراح وبين أبي طلحة.

وكذا رواه مسلم [٢٥٢٨] منفرداً به عن حجاج بن الشاعر عن عبد الصمد بن عبد الوارث به.

وهذا أصح مما ذكره ابن إسحاق من مؤاخاة أبي عبيدة وسعد بن معاذ والله أعلم.

وقال البخاري [فتح الباري: ٢٧٠/٧ والحديث بعده: خ (٣٩٣٧)]: باب كيف آخى النبي ﷺ بين أصحابه.

وقال عبد الرحمن بن عوف: آخى النبي ﷺ بيني وبين سعد بن الربيع لما قدمنا المدينة. وقال أبو جحيفة: آخى النبي ﷺ بين سلمان الفارسي وأبي الدرداء رضي الله عنهما.

حدّثنا محمد بن يوسف حدّثنا سفيان عن حميد عن أنس قال: قدم عبد الرحمن بن عوف فآخى النبي ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري، فعرض عليه أن يناصفه أهله وماله فقال عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك، دلني على السوق. فربح شيئاً من أقط وسمن، فرآه النبي ﷺ بعد أيام وعليه وضر من صفرة، فقال النبي ﷺ: «مهيم يا عبد الرحمن؟» قال: يا رسول الله تزوجت امرأة من الأنصار. قال: «فما سقت فيها؟» قال وزن نواة من ذهب، قال النبي ﷺ: «أولِمْ ولو بشاة».

تفرد به من هذا الوجه.

وقد رواه أيضاً [خ (٢٠٤٩)] في مواضع أخر، ومسلم [١٤٢٧] من طرق عن حميد به.

وقال الإمام أحمد [٢٧١/٣]: حدّثنا عفّان حدّثنا حمّاد حدّثنا ثابت وحميد عن أنس أن عبد الرحمن بن عوف قدم المدينة فآخى رسول الله ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري، فقال له سعد: أي أخي إنّا أكثر أهل المدينة مالاً فانظر شطر مالي فخذه وتحتي امرأتان فانظر أيهما أعجب إليك حتى أطلّقها. فقال عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك، دلّوني على السوق. فدلوه فذهب فاشترى وباع فربح فجاء بشيء من أقط وسمن.

ثم لبث ما شاء الله أن يلبث فجاء وعليه رَدْع زعفران فقال رسول الله ﷺ «مهيم؟» فقال: يا رسول الله تزوجت امرأة، قال: «ما أصدقتها؟» قال: وزن نواة من ذهب، قال: «أولِم ولو بشاة» قال عبد الرحمن: فلقد رأيتني ولو رفعت حجراً لرجوت أن أصيب ذهباً وفضة.

وتعليق البخاري هذا الحديث عن عبد الرحمن بن عوف غريب فإنه لا يعرف مسنداً إلا عن أنس اللّهم إلا أن يكون أنس تلقاه عنه فالله أعلم.

وقال الإمام أحمد [٢٠٠/٣، ٢٠١]: حدّثنا يزيد أخبرنا حميد عن أنس. قال: قال المهاجرون: يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل، ولا أحسن بذلاً من كثير، لقد كفونا المؤونة وأشركونا في المهنأ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله. قال: «لا، ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله لهم».

هذا حديث ثلاثي الإسناد على شرط «الصحيحين» ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة من هذا الوجه، وهو ثابت في الصحيح من وجه آخر.

وقال البخاري [٢٣٢٥]: أخبرنا الحكم بن نافع أخبرنا شعيب حدّثنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة. قال قالت الأنصار للنبي ﷺ: اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل. قال: «لا». قالوا: تكفونا المؤونة ونشرككم في الثمرة، قالوا: سمعنا وأطعنا.

تفرّد به.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: قال رسول الله ﷺ للأنصار: «إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم» فقالوا: أموالنا بيننا قطائع فقال رسول الله ﷺ: «أو غير ذلك؟» قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «هم قوم لا يعرفون العمل، فتكفونهم وتقاسمونهم الثمر». قالوا: نعم [انظر تفسير الطبري: ٤١/٢٨، ٤٢].

وقد ذكرنا ما ورد من الأحاديث والآثار في فضائل الأنصار وحسن سجاياهم عند قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الآية.

سنة ١ – أول مَنْ مات في المدينة بعد مقدم النبي ﷺ

في موت أبي أمامة أسعد بن زرارة بن عدس بن عبيد بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار أحد النقباء الاثني عشر ليلة العقبة على قومه بني النجار، وقد شهد العقبات الثلاث وكان أول من بايع رسول الله ﷺ ليلة العقبة الثانية في قول وكان شاباً وهو أول من جمع بالمدينة في نقيع الخضمات في هزم النبيت كما تقدم

قال محمّد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٠٧/١]: وهلك في تلك الأشهر أبو أمامة أسعد بن زرارة والمسجد يبنى أخذته الذبحة، أو الشهقة.

وقال ابن جرير في «التاريخ» [٣٩٨/٢]: أخبرنا محمد بن عبد الأعلى حدّثنا يزيد بن زريع عن معمر عن الزهري عن أنس أن رسول الله ﷺ كوى أسعد بن زرارة من الشوكة.

رجاله ثقات.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٠٧/١]: حدّثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة. قال: قال رسول الله ﷺ: «بئس الميت أبو أمامة ليهود ومنافقي العرب، يقولون: لو كان نبياً لم يمت صاحبه، ولا أملك لنفسي ولا لصاحبي من الله شيئاً».

وهذا يقتضي أنه أول من مات بعد مقدم النبي ﷺ، وقد زعم أبو الحسن بن الأثير في «أسد الغابة» [٨٧/١] أنه مات في شوال بعد مقدم النبي ﷺ بسبعة أشهر فالله أعلم.

وذكر محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٠٧/١، ٥٠٨] عن عاصم بن عمر بن قتادة أن بني النجار سألوا رسول الله ﷺ أن يقيم لهم نقيباً بعد أبي أمامة أسعد بن زرارة فقال: «أنتم أخوالي وأنا بما فيكم وأنا نقيبكم».

وكره أن يخص بها بعضهم دون بعض. فكان من فضل بني النجار الذي يعتدون به على قومهم أن كان رسول الله ﷺ نقيبهم.

قال ابن الأثير [أسد الغابة: ٨٧/١]: وهذا يرد قول أبي نعيم وابن منده في قولهما: إن أسعد بن زرارة كان نقيباً على بني ساعدة، إنما كان على بني النجار.

وصدق ابن الأثير فيما قال.

وقد قال أبو جعفر بن جرير في «التاريخ» [٣٩٧/٢]: كان أول من توفي بعد مقدمه عليه السلام المدينة من المسلمين - فيما ذكر - صاحب منزله كلثوم بن الهدم، لم يلبث بعد مقدمه إلا يسيراً حتى مات، ثم توفي بعده أسعد بن زرارة وكانت وفاته في سنة مقدمه قبل أن يفرغ بناء المسجد بالنبكة أو الشهقة.

قلت: وكلثوم بن الهدم بن امرئ القيس بن الحارث بن زيد بن عبيد بن زيد بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس الأنصاري الأوسي وهو من بني عمرو بن عوف وكان شيخاً كبيراً أسلم قبل مقدم رسول الله ﷺ المدينة، ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة ونزل بقباء نزل في منزل هذا في الليل، وكان يتحدث بالنهار مع أصحابه في منزل سعد بن الربيع رضي الله عنهما إلى أن ارتحل إلى دار بني النجار كما تقدم.

قال ابن الأثير [أسد الغابة: ٤٩٥/٤]: وقد قيل: إنه أول من مات من المسلمين بعد مقدم رسول الله ﷺ، ثم بعده أسعد بن زرارة. ذكره الطبري.

سنة ١ - أول من وُلِدَ في الإسلام وبعد الهجرة

في ميلاد عبد الله بن الزبير في شوال سنة الهجرة فكان أول مولود ولد في الإسلام من المهاجرين كما أن النعمان بن بشير أول مولود ولد للأنصار بعد الهجرة رضي الله عنهما.

وقد زعم بعضهم [انظر تاريخ الطبري: ٤٠١/٢] أن ابن الزبير ولد بعد الهجرة بعشرين شهراً قاله أبو الأسود.

ورواه الواقدي [انظر تاريخ الطبري: ٤٠١/٢] عن محمد بن يحيى بن سهل بن أبي حثمة عن أبيه عن جده، وزعموا أن النعمان ولد قبل الزبير بستة أشهر على رأس أربعة عشر شهراً من الهجرة.

والصحيح ما قدمناه.

قال البخاري [٣٩٠٩]: حدّثنا زكريا بن يحيى حدّثنا أبو أسامة عن هشام بن عروة عن أبيه عن أسماء أنها حملت بعبد الله بن الزبير قالت: فخرجت وأنا متم فأتيت المدينة فنزلت بقباء فولدته بقباء، ثم أتيت به رسول الله ﷺ فوضعه في حجره ثم دعا بتمرة فمضغها ثم تفل في فيه فكان أول شيء دخل جوفه ريق رسول الله ﷺ، ثم حنكه بتمرة ثم دعا له وبرّك عليه. وكان أول مولود ولد في الإسلام.

تابعه خالد بن مخلد عن علي بن مسهر عن هشام عن أبيه عن أسماء أنها هاجرت إلى النبي ﷺ وهي حبلى.

حدّثنا [الكلام للبخاري. (٣٩١٠)] قتيبة عن أبي أسامة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: أول مولود ولد في الإسلام عبد الله بن الزبير، أتوا به النبي ﷺ فأخذ النبي ﷺ تمرة فلاكها ثم أدخلها في فيه فأول ما دخل بطنه ريق النبي ﷺ.

فهذا حجة على الواقدي وغيره لأنه ذكر أن النبي ﷺ بعث مع عبد الله بن أريقط - لما رجع إلى مكة - زيد بن حارثة وأبا رافع ليأتوا بعياله وعيال أبي بكر فقدموا بهم أثر هجرة النبي ﷺ وأسماء حامل متم أي مقرب قد دنا وضعها لولدها، فلما ولدته كبر المسلمون تكبيرة عظيمة فرحاً بمولده لأنه كان قد بلغهم عن اليهود أنهم سحروهم حتى لا يولد لهم بعد هجرتهم ولد، فأكذب الله اليهود فيما زعموا.

سنة ١ - بناءُ النبيّ ﷺ بعائشة

وبنى رسول الله ﷺ بعائشة في شوال من هذه السنة قال الإمام أحمد [٢٠٦/٦]: حدّثنا وكيع حدّثنا سفيان عن إسماعيل بن أمية عن عبد الله بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: تزوجني رسول الله ﷺ في شوال وبنى بي في شوال، فأي نساء رسول الله ﷺ كان أحظى عنده مني؟ وكانت عائشة تستحب أن تدخل نساءها في شوال.

ورواه مسلم [(١٤٢٣)] والترمذي [(١٠٩٣)] والنسائي [٣٢٣٦، ٣٣٧٧] وابن ماجه [١٩٩٠] من طرق عن سفيان الثوري به.

وقال الترمذي: حسن صحيح لا نعرفه إلا من حديث سفيان الثوري.

فعلى هذا يكون دخوله بها عليه السلام بعد الهجرة بسبعة أشهر - أو ثمانية أشهر -.

وقد حكى القولين ابن جرير [في تاريخه: ٣٩٨/٢].

وقد تقدم في تزويجه عليه السلام بسودة كيفية تزويجه ودخوله بعائشة بعدما قدموا المدينة وإن دخوله بها كان بالسنح نهاراً. وهذا خلاف ما يعتاده الناس اليوم.

وفي دخوله عليه السلام بها في شوال رداً لما يتوهمه بعض الناس من كراهية الدخول بين العيدين خشية المفارقة بين الزوجين وهذا ليس بشيء لما قالته عائشة رادة على من توهمه من الناس في ذلك الوقت: تزوجني في شوال وبنى بي - أي دخل بي - في شوال، فأي نسائه كان أحظى عنده مني؟.

فدل هذا على أنها فهمت منه عليه السلام أنها أحب نسائه إليه، وهذا الفهم منها صحيح لما دل على ذلك من الدلائل الواضحة، ولو لم يكن إلا الحديث الثابت في «صحيح البخاري» [٣٦٦٢] عن عمرو بن العاص: قلت: يا رسول الله أي الناس أحب إليك؟ قال: «عائشة» قلت: من الرجال؟ قال «أبوها».

سنة ١ - صلاة الحضر وصلاة السفر

قال ابن جرير [في تاريخه: ٤٠٠/٢]: وفي هذه السنة - يعني السنة الأولى من الهجرة - زيد في صلاة الحضر - فيما قيل - ركعتان، وكانت صلاة الحضر والسفر ركعتين، وذلك بعد مقدم النبي ﷺ المدينة بشهر في ربيع الآخر لمضي اثنتي عشرة ليلة منه، وقال: وزعم الواقدي أنه لا خلاف بين أهل الحجاز فيه.

قلت: قد تقدم الحديث الذي رواه البخاري [١٠٨٩] من طريق معمر عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت: فرضت الصلاة أول ما فرضت ركعتين، فأقرت صلاة السفر وزيد في صلاة الحضر.

وروي من طريق الشعبي عن مسروق عنها.

وقد حكى البيهقي [في الدلائل: ٤٠٧/٢] عن الحسن البصري أن صلاة الحضر أول ما فرضت فرضت أربعاً والله أعلم.

وقد تكلمنا على ذلك في تفسير سورة النساء عند قوله تعالى: ﴿وَإِذَا

ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ [النساء: ١٠١] الآية.

سنة ١- مشروعية الأذان

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٠٨/١، ٥٠٩]: فلما اطمأن رسول الله ﷺ بالمدينة واجتمع إليه إخوانه من المهاجرين واجتمع أمر الأنصار استحكم أمر الإسلام، فقامت الصلاة وفرضت الزكاة والصيام، وقامت الحدود وفرض الحلال والحرام وتبوأ الإسلام بين أظهرهم وكان هذا الحي من الأنصار هم الذين تبوؤوا الدار والإيمان.

وقد كان رسول الله ﷺ حين قدمها إنما يجتمع الناس إليه للصلاة لحين مواقيتها بغير دعوة، فهمَّ رسول الله ﷺ أن يجعل بوقاً كبوق يهود الذي يدْعون به لصلاتهم ثم كرهه، ثم أمر بالناقوس فنحت ليضرب به للمسلمين للصلاة.

فبينا هم على ذلك رأى عبد الله بن زيد بن ثعلبة بن عبد ربه أخو بلحارث بن الخزرج النداء، فأتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إنه طاف بي هذه الليلة طائف، مر بي رجل عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوساً في يده، فقلت: يا عبد الله أتبيع هذا الناقوس؟ فقال: وما تصنع به؟ قال: قلت: ندعو به إلى الصلاة، قال: الا أدلك على خير من ذلك؟ قلت: وما هو؟ قال: تقول: الله أكبر الله أكبر الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن محمداً رسول الله، حي على الصلاة حي على الصلاة، حي على الفلاح حي على الفلاح، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله.

فلما أخبر بها رسول الله ﷺ قال: «إنها لرؤيا حق إن شاء الله، فقم مع بلال فألقها عليه فليؤذن بها فإنه أندى صوتاً منك».

فلما أذن بها بلال سمعه عمر بن الخطاب وهو في بيته فخرج إلى رسول الله ﷺ وهو يجر رداءه وهو يقول: يا نبي الله والذي بعثك بالحق لقد رأيت مثل الذي رأى. فقال رسول الله ﷺ: «فلله الحمد». قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٠٩/١]: فحدثني بهذا الحديث محمد بن إبراهيم بن الحارث عن محمد بن عبد الله بن زيد بن ثعلبة بن عبد ربه عن أبيه.

وقد روى هذا الحديث أبو داود [٤٩٩] والترمذي [١٨٩] وابن ماجه [٧٠٦] وابن خزيمة من طرق عن محمد بن إسحاق به، وصحّحه الترمذي وابن خزيمة وغيرهما [انظر الإرواء: ٢٦٥/١].

وعند أبي داود [٤٩٩] أنه علمه الإقامة قال: ثم تقول إذا أقمت الصلاة: الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، حي على الصلاة، حي على الفلاح، قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله.

وقد روى ابن ماجه [٧٠٦] هذا الحديث عن أبي عبيد محمد بن عبيد بن ميمون عن محمد بن سلمة الحراني عن ابن إسحاق كما تقدم. ثم قال: قال أبو عبيد: وأخبرني أبو بكر الحكمي أن عبد الله بن زيد الأنصاري قال في ذلك:

أحمدُ اللّـــه ذا الجـــلال وذا ... الإ كـرام حمداً علـى الأذان كثـيرا
إذْ أتـاني بـه البشـيرُ مـن اللّـه ... فـأكرِمْ بـه لـدي بشـيرا
في ليـالٍ والى بهـنّ ثـلاثٍ ... كلمـا جـاءَ زادنـي توقـيرا

قلت: وهذا الشعر غريب وهو يقتضي أنه رأى ذلك ثلاث ليال حتى أخبر به رسول الله ﷺ فالله أعلم.

ورواه الإمام أحمد [٤٢/٤، ٤٣] من حديث محمد بن إسحاق قال: وذكر الزهري عن سعيد بن المسيّب عن عبد الله بن زيد به نحو رواية ابن إسحاق عن محمد بن إبراهيم التيمي ولم يذكر الشعر.

وقال ابن ماجه [٧٠٧]: حدّثنا محمد بن خالد بن عبد الله الواسطي حدّثنا أبي عن عبد الرحمن بن إسحاق عن الزهري عن سالم عن أبيه أن رسول الله ﷺ استشار الناس لما يهمهم إلى الصلاة، فذكروا البوق فكرهه من أجل اليهود، ثم ذكروا الناقوس فكرهه من أجل النصارى فأري النداء تلك الليلة رجل من الأنصار يقال له: عبد الله بن زيد وعمر بن الخطاب، فطرق الأنصاري رسول الله ﷺ ليلاً فأمر رسول الله ﷺ بلالاً فأذن به.

قال الزهري: وزاد بلال في نداء صلاة الغداة، الصلاة خير من النوم مرتين، فأقرها رسول الله ﷺ فقال عمر: يا رسول الله رأيت مثل الذي رأى ولكنه سبقني.

وسيأتي تحرير هذا الفصل في باب الأذان من كتاب «الأحكام الكبير» إن شاء الله تعالى وبه الثقة.

فأما الحديث الذي أورده السهيلي [الروض الأنف: ٣٨٤/٤، ٣٨٥] بسنده من طريق البزار حدّثنا محمد بن عثمان بن مخلد حدّثنا أبي عن زياد بن المنذر عن محمد بن علي بن الحسين عن أبيه عن جده عن علي بن أبي طالب فذكر حديث الإسراء وفيه:

فخرج ملك من وراء الحجاب فأذّن بهذا الأذان وكلما قال كلمة صدّقه الله تعالى، ثم أخذ الملك بيد محمد ﷺ فقدمه فأمّ بأهل السماء وفيهم آدم ونوح.

ثم قال السهيلي: وأخلق بهذا الحديث أن يكون صحيحاً لما يعضده ويشاكله من حديث الإسراء.

فهذا الحديث ليس كما زعم السهيلي أنه صحيح بل هو منكر تفرد به زياد بن المنذر أبو الجارود الذي تنسب إليه الفرقة الجارودية وهو من المتهمين.

ثم لو كان هذا قد سمعه رسول الله ﷺ ليلة الإسراء لأوشك أن يأمر به بعد الهجرة في الدعوة إلى الصلاة والله أعلم

قال ابن هشام [في السيرة: ٥٠٩/١]: وذكر ابن جريج. قال: قال لي عطاء: سمعت عبيد بن عمير يقول: ائتمر النبي ﷺ وأصحابه بالناقوس للاجتماع للصلاة، فبينا عمر بن الخطاب يريد أن يشتري خشبتين للناقوس إذ رأى عمر في المنام: لا تجعلوا الناقوس بل أذنوا للصلاة. فذهب عمر إلى النبي ﷺ ليخبره بما رأى وقد جاء النبي ﷺ الوحي بذلك فما راع عمر إلا بلال يؤذن، فقال رسول الله ﷺ حين أخبره بذلك: «قد سبقك بذلك الوحي».

وهذا يدل على أنه قد جاء الوحي بتقرير ما رآه عبد الله بن زيد بن عبد ربه كما صرح به بعضهم والله تعالى أعلم.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٠٩/١]: وحدثني محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير عن امرأة من بني النجار قالت: كان بيتي من أطول بيت حول المسجد، فكان بلال يؤذن عليه للفجر كل غداة فيأتي بسحر فيجلس على البيت ينتظر الفجر، فإذا رآه تمطى ثم قال: اللّهم أحمدك وأستعينك على قريش أن يقيموا دينك، قالت: ثم يؤذن، قالت: والله ما علمته كان تركها ليلة واحدة. يعني: هذه الكلمات.

ورواه أبو داود [٥١٩] من حديثه منفرداً به.

سنة ١- سرية حمزة بن عبد المطلب

في سرية حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه.

قال ابن جرير [في تاريخه: ٤٠٢/٢]: وزعم الواقدي أن رسول الله ﷺ عقد في هذه السنة في شهر رمضان على رأس سبعة أشهر من مهاجره لحمزة بن عبد المطلب لواء أبيض في ثلاثين رجلاً من المهاجرين ليعترض لعيرات قريش وأن حمزة لقي أبا جهل في ثلاثمائة رجل من قريش فحجز بينهم مجدي بن عمرو ولم يكن بينهم قتال، قال: وكان الذي يحمل لواء حمزة أبو مرثد الغنوي.

سنة ١- سرية عبيدة بن الحارث

في سرية عبيدة بن الحارث بن المطلب

قال ابن جرير [في تاريخه: ٤٠٢/٢]: وزعم الواقدي أيضاً أن النبي ﷺ عقد في هذه السنة على رأس ثمانية أشهر في شوال لعبيدة بن الحارث لواء أبيض وأمره بالمسير إلى بطن رابغ. وكان لواؤه مع مسطح بن أثاثة فبلغ ثنية المرة وهي بناحية الجحفة في ستين من المهاجرين ليس فيهم أنصاري وأنهم التقوا هم والمشركون على ماء يقال له: أحياء وكان بينهم الرمي دون المسايفة.

قال الواقدي: وكان المشركون مائتين عليهم أبو سفيان صخر بن حرب وهو المثبت عندنا، وقيل: كان عليهم مكرز بن حفص.

سنة ١- سرية سعد بن أبي وقاص

قال الواقدي [عنه أخرجه الطبري في تاريخه: ٤٠٣/٢]: وفيها - يعني في السنة الأولى في ذي القعدة - عقد رسول الله ﷺ لسعد بن أبي وقاص إلى الخرار لواء أبيض يحمله المقداد بن الأسود، فحدثني أبو بكر بن إسماعيل عن أبيه عن عامر بن سعد عن أبيه. قال: خرجت في عشرين رجلاً على أقدامنا، أو قال: أحد وعشرين رجلاً، فكنا نكمن النهار وننير الليل حتى صبحنا الخرار صبح خامسة، وكان رسول الله ﷺ قد عهد إليّ أن لا أجاوز الخرار، وكانت العير قد سبقتني قبل ذلك بيوم.

قال الواقدي [عنه أخرجه الطبري في تاريخه: ٤٠٣/٢]: كانت العير ستين وكان من مع سعد كلهم من المهاجرين.

قال أبو جعفر بن جرير (رحمه الله) [في تاريخه: ٤٠٣/٢]: وعند ابن إسحاق (رحمه الله) أن هذه السرايا الثلاث - التي ذكرها الواقدي - كلها في السنة الثانية من الهجرة من وقت التاريخ.

قلت: كلام ابن إسحاق ليس بصريح - فيما قاله أبو جعفر رحمه الله لمن تأمله - كما سنورده في أول كتاب المغازي في أول السنة الثانية من الهجرة وذلك تلو ما نحن فيه إن شاء الله، إذ يحتمل أن يكون مراده أنها وقعت هذه السرايا في السنة الأولى، وسنزيدها بسطاً وشرحاً إذا انتهينا إليها إن شاء الله تعالى.

والواقدي (رحمه الله) عنده زيادات حسنة، وتاريخ محرر غالباً فإنه من أئمة هذا الشأن الكبار وهو صدوق في نفسه مكثار كما بسطنا القول في عدالته وجرحه في كتابنا الموسوم بـ «التكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل» ولله الحمد والمنة.

سنة ١- ولادة ابن الزبير

وممن ولد في هذه السنة المباركة - وهي الأولى من الهجرة - عبد الله بن الزبير فكان أول مولود ولد في الإسلام بعد الهجرة كما رواه البخاري [٣٩٠٩] عن أمه أسماء وخالته عائشة أم المؤمنين ابنتي الصديق رضي الله عنهما.

ومن الناس من يقول: ولد النعمان بن بشير قبله بستة أشهر.

فعلى هذا يكون ابن الزبير أول مولود ولد بعد الهجرة من المهاجرين.

ومن الناس من يقول: إنهما ولدا في السنة الثانية من الهجرة.

والظاهر الأول كما قدّمنا بيانه ولله الحمد والمنة، وسنشير في آخر السنة الثانية إلى القول الثاني إن شاء الله تعالى.

قال ابن جرير [في تاريخه: ٤٠٢/٢]: وقد قيل: إن المختار بن أبي عبيد وزياد بن سمية ولدا في هذه السنة الأولى فالله أعلم.

وممن توفي في هذه السنة الأولى من الصحابة؛ كلثوم بن الهدم الأوسي الذي نزل رسول الله ﷺ في مسكنه بقباء إلى حين ارتحل منها إلى دار بني النجار كما تقدم، وبعده فيها أبو أمامة أسعد بن زرارة نقيب بني النجار توفي ورسول الله ﷺ يبني المسجد كما تقدم رضي الله عنهما وأرضاهما.

قال ابن جرير [في تاريخه: ٣٩٨/٢]: وفي هذه السنة - يعني الأولى من الهجرة - مات أبو أحيحة بماله بالطائف ومات الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل السهمي فيها بمكة.

قلت: وهؤلاء ماتوا على شركهم لم يسلموا لله عز وجل.

سنة ٢- حوادث ووقائع

وقع فيها كثير من المغازي والسرايا ومن أعظمها وأجلها بدر الكبرى التي كانت في رمضان منها، وقد فرق الله بها بين الحق والباطل، والهدى والغي، وهذا أوان ذكر المغازي والبعوث فنقول وبالله المستعان:

سنة ٢- عداوة اليهود للمسلمين

قال الإمام محمّد بن إسحاق بن يسار في كتاب السيرة [سيرة ابن هشام: ٥١٤/١] بعد ذكره أحبار اليهود ونصبهم العداوة للإسلام وأهله وما نزل فيهم من الآيات؛ فمنهم حيي بن أخطب وأخواه أبو ياسر وجُدَيّ، وسلام بن مشكم، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وسلام بن أبي الحقيق وهو أبو رافع الأعور، تاجر أهل الحجاز وهو الذي قتله الصحابة بأرض خيبر كما سيأتي، والربيع بن الربيع بن أبي الحقيق، وعمرو بن جحاش، وكعب بن الأشرف وهو من طيّئ ثم أحد بني نبهان وأمه من بني النضير، وقد قتله الصحابة قبل أبي رافع كما سيأتي، وحليفاه الحجاج بن عمرو وكردم بن قيس لعنهم الله فهؤلاء من بني النضير.

ومن بني ثعلبة بن الفِطْيون عبد الله بن صوريا، ولم يكن بالحجاز أحدٌ أعلم بالتوراة منه.

قلت: وقد قيل: إنه أسلم، وابن صلوبا ومخيريق وقد أسلم يوم أحد كما سيأتي وكان حبر قومه.

ومن بني قينقاع زيد بن اللّصيت، وسعد بن حنيف، ومحمود بن سيحان وعزيز بن أبي عزيز وعبد الله بن صيف، وسويد بن الحارث، ورفاعة بن قيس، وفنحاص وأشيع ونعمان بن أضا، وبحريّ بن عمرو، وشأس بن عدي، وشأس بن قيس، وزيد بن الحارث، ونعمان بن عمرو وسكين بن أبي سكين، وعدي بن زيد، ونعمان بن أبي أوفى أبو أنس، ومحمود بن دحية، ومالك بن صيف وكعب بن راشد، وعازر ورافع بن أبي رافع، وخالد وأزار بن أبي أزار.

قال ابن هشام: ويقال آزر بن آزر، ورافع بن حارثة، ورافع بن حريملة، ورافع بن خارجة، ومالك بن عوف، ورفاعة بن زيد بن التابوت، وعبد الله بن سلام.

قلت: وقد تقدم إسلامه رضي الله عنه.

قال ابن إسحاق: وكان حبرهم وأعلمهم، وكان اسمه الحصين فلما أسلم سماه رسول الله ﷺ عبد الله.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥١٥/١، ٥١٦]: ومن بني قريظة الزبير بن باطا بن وهب، وعزال بن شمويل وكعب بن أسد وهو صاحب عقدهم الذي نقضوه عام الأحزاب وشمويل بن زيد، وجبل بن عمرو بن سكينة، والنحام بن زيد، وقردم بن كعب ووهب بن زيد ونافع بن أبي نافع، وعدي بن زيد، والحارث بن عوف، وكردم بن زيد، وأسامة بن حبيب، ورافع بن رميلة، وجبل بن أبي قشير، ووهب بن يهوذا.

قال: ومن بني زريق، لبيد بن أعصم وهو الذي سحر رسول الله ﷺ.

ومن يهود بني حارثة: كنانة بن صوريا.

ومن يهود بني عمرو بن عوف: قردم بن عمرو.

ومن يهود بني النجار: سلسلة بن برهام.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥١٦/١]: فهؤلاء أحبار يهود، أهل الشرور والعداوة لرسول الله ﷺ، وأصحابه رضي الله عنهم، وأصحاب المسألة الذين يكثرون الأسئلة لرسول الله ﷺ على وجه التعنت والعناد والكفر.

قال: وأصحاب النصب لأمر الإسلام ليطفئوه إلا ما كان من عبد الله بن سلام ومخيريق.

ثم ذكر إسلام عبد الله بن سلام وإسلام عمته خالدة [سيرة ابن هشام: ٥١٦/١، ٥١٧] كما قدمناه.

وذكر إسلام مخيريق يوم أحد كما سيأتي وأنه قال لقومه - وكان يوم السبت -: يا معشر يهود والله إنكم لتعلمون أن نصر محمد عليكم لحق، قالوا: إن اليوم يوم السبت، قال: لا سبت لكم.

ثم أخذ سلاحه وخرج وعهد إلى من وراءه من قومه: إن قتلت هذا اليوم فأموالي لمحمد يرى فيها ما أراه الله - وكان كثير الأموال - ثم لحق برسول الله ﷺ فقاتل حتى قتل رضي الله عنه.

قال: فكان رسول الله ﷺ يقول فيما بلغني: «مخيريق خير يهود»

سنة ٢- عداوة المنافقين للمسلمين

ثم ذكر ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥١٩/١] من مال إلى هؤلاء الأضداد من اليهود من المنافقين من الأوس والخزرج فمن الأوس زويّ بن الحارث، وجلاس بن سويد بن الصامت الأنصاري وفيه نزل ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٤] وذلك أنه قال حين تخلف عن غزوة تبوك: لئن كان هذا الرجل صادقاً لنحن شر من الحمر.

فنماها ابن امرأته عمير بن سعد إلى رسول الله ﷺ فأنكر الجلاس ذلك وحلف ما قال فنزل فيه ذلك.

قال: وقد زعموا أنه تاب وحسنت توبته حتى عرف منه الإسلام والخير.

قال وأخوه الحارث بن سويد، وهو الذي قتل المجذّر بن زياد البلوي وقيس بن زيد أحد بني ضبيعة يوم أحد، خرج مع المسلمين وكان منافقاً فلما التقى الناس عدا عليهما فقتلهما ثم لحق بقريش [سيرة ابن هشام: ٥٢٠/١].

قال ابن هشام [سيرة ابن هشام: ٥٢٠/١]: وكان المجذّر قد قتل أباه سويد بن الصامت في بعض حروب الجاهلية فأخذ بثأر أبيه منه يوم أحد، كذا قال ابن هشام.

وقد ذكر ابن إسحاق أن الذي قتل سويد بن الصامت إنما هو معاذ بن عفراء قتله في غير حرب قبل يوم بعاث رماه بسهم فقتله.

وأنكر ابن هشام أن يكون الحارث قتل قيس بن زيد.

قال: لأن ابن إسحاق لم يذكره في قتلى أحد.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٢١/١]: وقد كان رسول الله ﷺ أمر عمر بن الخطاب بقتله إن هو ظفر به، فبعث الحارث إلى أخيه الجلاس يطلب له التوبة ليرجع إلى قومه، فأنزل الله - فيما بلغني عن ابن عباس - ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٨٦] إلى آخر القصة [تفسير الطبري: ٣٣٩/٣ - ٣٤٢].

قال: وبجاد بن عثمان بن عامر، ونبتل بن الحارث وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «من أحب أن ينظر إلى شيطان فلينظر إلى هذا» وكان جسيماً أدلم ثائر شعر الرأس أحمر العينين أسفع الخدين، وكان يسمع الكلام من رسول الله ﷺ ثم ينقله إلى المنافقين وهو الذي قال: إنما محمد أذن، من حدثه بشيء صدقه. فأنزل الله فيه ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ الآية [التوبة: ٦١] [تفسير الطبري: ١٦٨/١].

قال: وأبو حبيبة بن الأزعر وكان ممن بنى مسجد الضرار [تفسير الطبري: ٢٣/١١].

وثعلبه بن حاطب ومعتب بن قشير، وهما اللذان عاهدا الله لئن آتانا من فضله لنصدقنّ ثم نكثا، فنزل فيهما ذلك [تفسير الطبري: ١٩١/١٠ - ١٩٣].

ومعتب هو الذي قال يوم أحد: لوكان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا فنزل فيه الآية [تفسير الطبري: ١٣٩/٤ - ١٤٤].

وهو الذي قال يوم الأحزاب: كانّ محمداً يعدنا أنا نأكل كنوز كسرى وقيصر، واحدنا لا يؤمن أن يذهب إلى الغائط فنزل فيه ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً﴾ [الأحزاب: ١٢] [تفسير الطبري: ١٣٣/٢١].

قال ابن إسحاق: والحارث بن حاطب. قال ابن هشام. ومعتب بن قشير وثعلبة والحارث ابنا حاطب، وهما من بني أمية بن زيد من أهل بدر وليسوا من المنافقين فيما ذكر لي من أثق به من أهل العلم.

قال: وقد ذكر ابن إسحاق ثعلبة والحارث في بني أمية بن زيد في أسماء أهل بدر.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٢٢/١]: وعباد بن حنيف أخو سهل بن حنيف ويخرج وكان ممن بنى مسجد الضرار وعمرو بن خذام وعبد الله بن نبتل، وجارية بن عامر بن العطاف، وابناه يزيد ومجمع ابنا جارية وهم ممن اتخذ مسجد الضرار، وكان مجمع غلاماً حدثا قد جمع أكثر القرآن وكان يصلي بهم فيه، فلما خرب مسجد الضّرار كما سيأتي بيانه بعد غزوة تبوك وكان في أيام عمر سأل أهل قباء عمر أن يصلّي بهم مجمع فقال: لا والله، أو ليس إمام المنافقين في مسجد الضرّار؟ فحلف بالله ما علمت بشيء من أمرهم. فزعموا أن عمر تركه فصلى بهم. قال: ووديعة بن ثابت وكان ممن بنى مسجد الضرار وهو الذي قال: إنما كنا نخوض ونلعب؛ فنزل فيه ذلك.

قال: وخذام بن خالد وهو الذي أخرج مسجد الضرار من داره.

قال ابن هشام مستدركاً على ابن إسحاق في منافقي بني النبيت من الأوس: وبشر ورافع ابنا زيد [سيرة ابن هشام: ٥٢٣/١].

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٢٣/١ ـ ٥٢٥]: ومربع بن قيظي ـ وكان أعمى ـ وهو الذي قال لرسول الله ﷺ حين أجاز في حائطه وهو ذاهب إلى أحد: لا أحل لك إن كنت نبياً أن تمر في حائطي وأخذ في يده حفنة من تراب.

ثم قال: والله لو أعلم أني لا أصيب بها غيرك لرميتك بها. فابتدره القوم ليقتلوه فقال رسول الله ﷺ: «دعوه فهذا الأعمى أعمى القلب أعمى البصر» وقد ضربه سعد بن زيد الأشهلي بالقوس فشجه.

قال: وأخوه أوس بن قيظي وهو الذي قال: إن بيوتنا عورة. قال الله ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً﴾ [الأحزاب: ١٣].

قال وحاطب بن أمية بن رافع وكان شيخاً جسيما قد عسا في جاهليته، وكان له ابن من خيار المسلمين يقال له يزيد بن حاطب أصيب يوم أحد حتى أثبتته الجراحات، فحمل إلى دار بني ظفر.

فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة أنه اجتمع إليه من بها من رجال المسلمين ونسائهم وهو يموت فجعلوا يقولون: أبشر بالجنة يا ابن حاطب. قال: فنجم نفاق أبيه فجعل يقول: أجل جنة من حرمل، غررتم والله هذا المسكين من نفسه.

قال: وبشير بن أبيرق أبو طعمة سارق الدرعين الذي أنزل الله فيه ﴿وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ الآيات.

قال: وقزمان حليف لبني ظفر الذي قتل يوم أحد سبعة نفر، ثم لما آلمته الجراحة قتل نفسه وقال: والله ما قاتلت إلا حمية على قومي ثم مات لعنه الله.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٢٥/١]: ولم يكن في بني عبد الأشهل منافق ولا منافقة يعلم إلا أن الضحاك بن ثابت كان يتهم بالنفاق وحب يهود فهؤلاء كلهم من الأوس.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٢٥/١]: ومن الخزرج رافع بن وديعة، وزيد بن عمرو، وعمرو بن قيس، وقيس بن عمرو بن سهل، والجد بن قيس وهو الذي قال: ﴿ائْذَن لِّي وَلا تَفْتِنِّي﴾، وعبد الله بن أبي بن سلول، وكان رأس المنافقين ورئيس الخزرج والأوس أيضاً، كانوا قد أجمعوا على أن يملّكوه عليهم في الجاهلية، فلما هداهم الله للإسلام قبل ذلك شرق اللعين بريقه وغاظه ذلك جداً، وهو الذي قال: ﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ﴾، وقد نزلت فيه آيات كثيرة جداً، وفيه وفي وديعة ـ رجل من بني عوف ـ ومالك بن أبي قوقل وسويد وداعس وهم من رهطه نزل قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾ الآيات حين مالوا في الباطن إلى بني النضير [تفسير الطبري: ٤٥/٢٨، ٤٦].

سنة ٢- من المنافقين

ثم ذكر ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٢٧/١، ٥٢٨]: من أسلم من أحبار اليهود على سبيل التقية فكانوا كفاراً في الباطن فأتبعهم بصنف المنافقين وهم من شرّهم، سعد بن حنيف، وزيد بن اللصيت، وهو الذي قال حين ضلت ناقة رسول الله ﷺ يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء وهو لا يدري أين ناقته؟ فقال رسول الله ﷺ «والله لا أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلني الله عليها فهي في هذا الشعب قد حبستها شجرة بزمامها» فذهب رجال من المسلمين فوجدوها كذلك [المغازي للواقدي: ٤٢٣/٢، الدلائل للبيهقي: ٥٩/٤].

قال: ونعمان بن أوفى، وعثمان بن أوفى، ورافع بن حريملة، وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ يوم مات ـ فيما بلغنا ـ: «قد مات اليوم عظيم من عظماء المنافقين» ورفاعة بن زيد بن التابوت، وهو الذي هبت الريح الشديدة يوم موته عند مرجع رسول الله ﷺ من تبوك فقال: «إنها هبت لموت عظيم من عظماء الكفار» [المغازي للواقدي: ٤٢٢/٢، ٤٢٣، الدلائل للبيهقي: ٥٩/٤ ـ ٦١] فلما قدموا المدينة وجدوا رفاعة قد مات في ذلك اليوم وسلسلة بن برهام وكنانة بن صوريا فهؤلاء ممن أسلم من منافقي اليهود.

قال: [سيرة ابن هشام: ٥٢٨/١ ـ ٥٢٩] فكان هؤلاء المنافقون يحضرون المسجد ويسمعون أحاديث المسلمين ويسخرون ويستهزئون بدينهم، فاجتمع في المسجد يوماً منهم أناس فرآهم رسول الله ﷺ يتحدثون بينهم خافضي أصواتهم قد لصق بعضهم إلى بعض، فأمر بهم رسول الله ﷺ فأخرجوا من المسجد إخراجاً عنيفاً.

فقام أبو أيوب إلى عمرو بن قيس أحد بني النجار ـ وكان صاحب آلهتهم في الجاهلية ـ فأخذ برجله فسحبه حتى أخرجه وهو يقول ـ لعنه الله ـ أتخرجني يا أبا أيوب من مربد بني ثعلبة؟ ثم أقبل أبو أيوب إلى رافع بن وديعة النجاري فلببه بردائه، ثم نتره نتراً شديداً ولطم وجهه فأخرجه من المسجد وهو يقول: أف لك منافقاً خبيثاً.

وقام عمارة بن حزم إلى زيد بن عمرو ـ وكان طويل اللحية ـ فأخذ بلحيته وقاده بها قوداً عنيفاً حتى أخرجه من المسجد، ثم جمع عمارة يديه جميعاً فلدمه بهما لدمة في صدره خر منها قال: يقول: خدشتني ياعمارة، فقال عمارة: أبعدك الله يا منافق، فما أعد الله لك من العذاب أشد من ذلك فلا تقربن مسجد رسول الله ﷺ.

وقام أبو محمد مسعود بن أوس بن زيد بن أصرم بن زيد بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار ـ وكان بدرياً ـ إلى قيس بن عمرو بن سهل وكان شاباً ـ وليس في المنافقين شاب سواه ـ فجعل يدفع في قفاه حتى أخرجه.

وقام رجل من بني خدرة إلى رجل يقال له الحارث بن عمرو ـ وكان ذا جمة ـ فأخذ بجمته فسحبه بها سحباً عنيفاً على ما مر به من الأرض حتى أخرجه، فجعل يقول المنافق: قد أغلظت يا أبا الحارث، فقال: إنك أهل لذلك أي عدو الله لما أنزل فيك، فلا تقربن مسجد رسول الله ﷺ فإنك نجس.

وقام رجل من بني عمرو بن عوف إلى أخيه زوي بن الحارث فأخرجه

إخراجاً عنيفاً وأقف منه وقال: غلب عليك الشيطان وأمره.

ثم ذكر ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٥٣٠ - ٥٧٢] ما نزل فيهم من الآيات من سورة البقرة وغيرها ومن سورة التوبة، وتكلم على تفسير ذلك فأجاد وأفاد رحمه الله.

سنة ٢- غزوات النبي ﷺ وسراياه (بيانها)

قال البخاري [قبل (٣٩٤٩)] كتاب المغازي. قال ابن إسحاق: أول ما غزا رسول الله ﷺ الأبواء. ثم بواط، ثم العشيرة.

ثم روى [٣٩٤٩] عن زيد بن أرقم أنه سئل كم غزا رسول الله ﷺ؟ قال: تسع عشرة شهد منها سبع عشرة أولهن العسيرة - أو العشيرة -. وسيأتي الحديث بإسناده ولفظه والكلام عليه عند غزوة العشيرة إن شاء الله وبه الثقة.

وفي صحيح البخاري [٤٤٧٣] عن بريدة قال: غزا مع رسول الله ﷺ ست عشرة غزوة.

ولمسلم [١٨١٤] عنه أنه غزا مع رسول الله ﷺ ست عشرة غزوة.

وفي رواية له [١٨١٤ (١٤٧)] عنه أن رسول الله ﷺ غزا تسع عشرة غزوة، وقاتل في ثماني منهنّ.

وقال الحسين بن واقد عن ابن بريدة عن أبيه أن رسول الله ﷺ غزا سبع عشرة غزوة وقاتل في ثمان؛ يوم بدر، وأحد، والأحزاب، والمريسيع، وقديد، وخيبر، ومكة، وحنين. وبعث أربعاً وعشرين سرية [الدلائل للبيهقي: ٥/٤٥٩].

وقال يعقوب بن سفيان: حدّثنا محمد بن عثمان الدمشقي التنوخي حدّثنا الهيثم بن حميد أخبرني النعمان عن مكحول أن رسول الله ﷺ غزا ثمانية عشر غزوة، قاتل في ثمان غزوات أولهن بدر، ثم أحد، ثم الأحزاب، ثم قريظة، ثم بئر معونة، ثم غزوة بني المصطلق من خزاعة، ثم غزوة خيبر، ثم غزوة مكة، ثم حنين والطائف [المعرفة والتاريخ: ٣/٣٠٠].

قوله: بئر معونة بعد قريظة فيه نظر، والصحيح أنها بعد أحد كما سيأتي.

قال يعقوب حدّثنا سلمة بن شبيب حدّثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهري سمعت سعيد بن المسيّب يقول: غزا رسول الله ﷺ ثماني عشرة غزوة، وسمعته مرة أخرى يقول: أربعاً وعشرين. فلا أدري أكان ذلك وهماً أو شيئاً سمعه بعد ذلك [المعرفة والتاريخ: ٣/٣٠٠، ٣٠١].

وقد روى الطبراني عن الدبري عن عبد الرزاق عن معمر عن الزهري. قال: غزا رسول الله ﷺ أربعاً وعشرين غزوة [عبد الرزاق في مصنفه (٩٦٥٩) عن معمر ٧].

وقال عبد الرحمن بن حميد في مسنده حدّثنا سعيد بن سلام حدّثنا زكريا بن إسحاق حدّثنا أبو الزبير عن جابر قال: غزا رسول الله ﷺ إحدى وعشرين غزوة.

وقد روى الحاكم من طريق هشام عن قتادة أن مغازي رسول الله ﷺ وسراياه كانت ثلاثاً وأربعين.

ثم قال الحاكم: لعله أراد السرايا دون الغزوات، قد ذكرت في «الإكليل» على الترتيب بعوث رسول الله ﷺ وسراياه زيادة على المائة.

قال: وأخبرني الثقة من أصحابنا ببخارى أنه قرأ في كتاب أبي عبد الله محمد بن نصر؛ السرايا والبعوث دون الحروب نيفاً وسبعين. وهذا الذي ذكره الحاكم غريب جداً، وحمله كلام قتادة على ما قال فيه نظر.

وقد روى الإمام أحمد عن أزهر بن القاسم الراسبي عن هشام الدستوائي عن قتادة أن مغازي رسول الله ﷺ وسراياه ثلاث وأربعون، أربع وعشرون بعثاً، وتسع عشرة غزوة. خرج في ثمان منها بنفسه؛ بدر، وأحد، والأحزاب، والمريسيع، وخيبر، وفتح مكة، وحنين.

وقال موسى بن عقبة عن الزهري: هذه مغازي رسول الله ﷺ التي قاتل فيها، يوم بدر في رمضان سنة ثنتين، ثم قال يوم أحد في شوال سنة ثلاث، ثم قاتل يوم الخندق - وهو يوم الأحزاب وبني قريظة - في شوال من سنة أربع، ثم قاتل بني المصطلق وبني لحيان في شعبان سنة خمس، ثم قاتل يوم خيبر سنة ست، ثم قاتل يوم الفتح في رمضان سنة ثمان، ثم قاتل يوم حنين وحاصر أهل الطائف في شوال سنة ثمان، ثم حج أبو بكر سنة تسع، ثم حج رسول الله ﷺ حجة الوداع سنة عشر، وغزا ثنتي عشرة غزوة ولم يكن فيها قتال، وكانت أول غزاة غزاها الأبواء.

وقال حنبل بن إسحاق عن هلال بن العلاء عن عبد الله بن جعفر الرقي عن مطرف بن مازن اليماني عن معمر عن الزهري قال: أول آية نزلت في القتال ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ الآية بعد مقدم رسول الله ﷺ المدينة، فكان أول مشهد شهده رسول الله ﷺ يوم بدر يوم الجمعة لسبع عشرة من رمضان.

إلى أن قال: ثم غزا بني النضير، ثم غزا أحداً في شوال - يعني من سنة ثلاث - ثم قاتل يوم الخندق في شوال سنة أربع، ثم قاتل بني لحيان في شعبان سنة خمس، ثم قاتل يوم خيبر سنة ست، ثم قاتل يوم الفتح في شعبان سنة ثمان، وكانت حنين في رمضان سنة ثمان. وغزا رسول الله ﷺ إحدى عشرة غزوة لم يقاتل فيها، فكانت أول غزوة غزاها رسول الله ﷺ الأبواء، ثم العشيرة، ثم غزوة غطفان، ثم غزوة بني سليم، ثم غزوة الأبواء ثم غزوة بدر الأولى، ثم غزوة الطائف، ثم غزوة الحديبية، ثم غزوة الصفراء، ثم غزوة تبوك آخر غزوة.

ثم ذكر البعوث، هكذا كتبته من تاريخ الحافظ ابن عساكر [مختصر ابن عساكر: ٢/١٨٨، ١٨٩] وهو غريب جداً، والصواب ما سنذكره فيما بعد إن شاء الله مرتباً.

وهذا الفن مما ينبغي الاعتناء به والاعتبار بأمره والتهيؤ له كما رواه محمد بن عمر الواقدي عن عبد الله بن عمر بن علي عن أبيه سمعت علي بن الحسين يقول: كنا نعلم مغازي النبي ﷺ كما نعلم السورة من القرآن.

قال الواقدي: وسمعت محمد بن عبد الله يقول: سمعت عمي الزهري يقول: في علم المغازي علم الآخرة والدنيا.

وقال محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٥٩٠، ٥٩١] (رحمه الله) في المغازي بعد ذكره ما تقدم مما سقناه عنه من تعيين رؤوس الكفر من اليهود والمنافقين لعنهم الله أجمعين وجمعهم في أسفل سافلين: ثم إن رسول الله ﷺ تهيأ لحربه وقام بما أمره الله به من جهاد عدوه وقتال من أمره به ممن يليه من المشركين.

قال: وقد قدم رسول الله ﷺ المدينة يوم الاثنين حين اشتد الضحاء وكادت الشمس تعتدل لثنتي عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول، ورسول الله ﷺ يومئذ ابن ثلاث وخمسين سنة، وذلك بعد أن بعثه الله بثلاث عشرة سنة فأقام بقية شهر ربيع الأول وشهر ربيع الآخر وجمادين ورجباً وشعبان وشهر رمضان وشوالا وذا القعدة وذا الحجة وولّى تلك الحجة المشركون، والحرم.

ثم خرج رسول الله ﷺ غازياً في صفر على رأس اثني عشر شهراً من مقدمه المدينة.

قال ابن هشام [السيرة: ٥٩١/١]: واستعمل على المدينة سعد بن عبادة.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٩١/١]: حتى بلغ ودّان وهي غزوة الأبواء.

قال ابن جرير [تاريخه: ٤٠٧/٢]: ويقال لها غزوة ودان أيضاً، يريد قريشاً وبني ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة، فوادعته فيها بنو ضمرة وكان الذي وادعه منهم مخشي بن عمرو الضمري، وكان سيدهم في زمانه ذلك. ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة ولم يلق كيداً فأقام بها بقية صفر وصدراً من شهر ربيع الأول.

قال ابن هشام [السيرة: ٥٩١/١]: وهي أول غزوة غزاها عليه السلام.

قال الواقدي: وكان لواؤه مع عمّه حمزة، وكان أبيض [طبقات ابن سعد: ٨/٢].

سنة ٢- سرية عبيدة بن الحارث إلى رابغ

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٩١/١، ٥٩٢]: وبعث رسول الله ﷺ في مقامه ذلك بالمدينة عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف بن قصي في ستين - أو ثمانين - راكباً من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد، فسار حتى بلغ ماءً بالحجاز بأسفل ثنية المرة فلقي بها جمعاً عظيماً من قريش، فلم يكن بينهم قتال إلا أن سعد بن أبي وقاص قد رمى يومئذ بسهم، فكان أول سهم رمي به في سبيل الله في الإسلام. ثم انصرف القوم عن القوم. وللمسلمين حامية وفر من المشركين إلى المسلمين المقداد بن عمرو البهراني حليف بني زهرة، وعتبة بن غزوان بن جابر المازني حليف بني نوفل بن عبد مناف، وكانا مسلمين ولكنهما خرجا ليتوصلا بالكفار.

قال ابن إسحاق: وكان على المشركين يومئذ عكرمة بن أبي جهل.

وروى ابن هشام عن أبي عمرو بن العلاء عن أبي عمرو المدني أنه قال: كان عليهم مكرز بن حفص.

قلت: وقد تقدم عن حكاية الواقدي قولان:

أحدهما أنه مكرز.

والثاني: أنه أبو سفيان صخر بن حرب وأنه رجع أنه أبو سفيان فالله أعلم.

ثم ذكر ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٩٢/١ - ٥٩٣] القصيدة المنسوبة إلى أبي بكر الصديق في هذه السرية التي أولها:

أمن طيفِ سلمى بالبطاحِ الدمائثِ ... أرقتَ وأمرٍ في العشيرة حادث

ترى من لؤي فرقةً لا يصلُها ... عن الكفر تذكيرٌ ولا بعثُ باعث

رسولٌ أتاهم صادقٌ فتكذّبوا ... عليه وقالوا لستَ فينا بماكث

إذا ما دعوناهم إلى الحقّ أدبروا ... وهرُّوا هريرَ المُجْحِرات اللُّواهث

القصيدة إلى آخرها.

وذكر [سيرة ابن هشام: ٥٩٣/١، ٥٩٤] جواب عبد الله بن الزبعرى في مناقضتها التي أولها:

أمن رسمِ دارٍ أقفرتْ بالعثاعث ... بكيت بعينٍ دمعُها غير لابث

ومن عجبِ الأيام والدهرُ كلُّهُ ... له عَجَبٌ - من سابقاتٍ وحادث

لجيش أتانا ذي عَرام يقودُه ... عُبيدة يُدعى في الهياج ابنَ حارث

لنترك أصناماً بمكّة عُكّفا ... مواريثُ موروثَ كريم لوارث

وذكر تمام القصيدة وما منعنا من إيرادها بتمامها إلا أن الإمام عبد الملك بن هشام رحمه الله - وكان إماما في اللغة - ذكر أن أكثر أهل العلم بالشعر ينكر هاتين القصيدتين.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٩٤/١، ٥٩٥] وقال سعد بن أبي وقاص في رميته تلك فيما يذكرون:

الا هلْ أتى رسولَ اللّه انني ... حميْتُ صحابي بصدورِ نَبلي

أذودُ بها أوائلَهم ذياداً ... بكلِ حزونةٍ وبكلِ سهل

فما يعتدُّ رامٍ في عدوٍّ ... بسهمٍ يا رسول اللّه قبلي

وذلك أن دينك دينُ صدقٍ ... وذو حقّ أتيتَ به وفضل

ينجّي المؤمنون به ويحزى ... به الكفّار عندَ مقام مهل

فمهلاً قد غويتَ فلا تعبني ... غوي الحي ويحك يا ابن جهل

قال ابن هشام: وأكثر أهل العلم بالشعر ينكرها لسعد.

قال ابن إسحاق: فكانت راية عبيدة - فيما بلغنا - أول راية عقدها رسول الله ﷺ في الإسلام لأحد من المسلمين.

وقد خالفه الزهري وموسى بن عقبة [الدلائل للبيهقي ٨/٣ بسنده إلى موسى بن عقبة والزهري] والواقدي [المغازي: ٢/١] فذهبوا إلى أن بعث حمزة قبل بعث عبيدة بن الحارث والله أعلم.

وسيأتي في حديث سعد بن أبي وقاص أن أول أمراء السرايا عبد الله بن جحش الأسدي.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٩٥/١]: وبعض العلماء يزعم أن رسول الله ﷺ بعثه حين أقبل من غزوة الأبواء قبل أن يصل إلى المدينة.

وهكذا حكى موسى بن عقبة عن الزهري [الدلائل للبيهقي: ٩/٣].

سنة ٢- سرية حمزة بن عبد المطلب

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٩٥/١]: وبعث رسول الله ﷺ في مقامه ذلك حمزة بن عبد المطلب بن هاشم إلى سيف البحر من ناحية العيص في ثلاثين راكباً من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد فلقي أبا جهل بن هشام بذلك الساحل في ثلاثمائة راكب من أهل مكة فحجز بينهم مجدي بن عمرو الجهني وكان موادعاً للفريقين جميعاً، فانصرف بعض القوم عن بعض ولم يكن بينهم قتال.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٩٥/١، ٥٩٦]: وبعض الناس يقول: كانت راية حمزة أول راية عقدها رسول الله ﷺ لأحد من المسلمين، وذلك أن بعثه وبعث عبيدة كانا معاً فشبه ذلك على الناس.

قلت: وقد حكى موسى بن عقبة عن الزهري [الدلائل للبيهقي: ٨/٣، ٩ من طريق موسى بن عقبة] أن بعث حمزة قبل عبيدة بن الحارث، ونص على أن بعث حمزة كان قبل غزوة الأبواء. فلما قفل عليه السلام من الأبواء بعث عبيدة بن الحارث في ستين من المهاجرين، وذكر نحو ما تقدم.

وقد تقدم عن الواقدي أنه قال: كانت سرية حمزة في رمضان من السنة الأولى، وبعدها سرية عبيدة في شوال منها والله أعلم.

وقد أورد ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٩٦/١] عن حمزة رضي الله عنه شعراً يدل على أن رايته أول راية عقدت في الإسلام، لكن قال ابن إسحاق: فإن كان حمزة قال ذلك فهو كما قال، لم يكن يقول إلا حقاً والله أعلم أي

ذلك كان. فأما ما سمعنا من أهل العلم عندنا فعيدة أول. والقصيدة هي قوله:

ألا يا لقومي للتحلم والجهل وللنقص من رأي الرجال وللعقل
وللراكبينا بالمظالم لم نطأ لهم حرمات من سوام ولا أهل
كأنا تبلناهم ولا تبل عندنا لهم غير أمر بالعفاف وبالعدل
وأمر بإسلام فلا يقبلونه ويترل منهم مثل منزلة الهزل
فما برحوا حتى انتدبت لغارة لهم حيث حلوا أبتغي راحة الفضل
بأمر رسول الله أول خافق عليه لواء لم يكن لاح من قبل
لواء لديه النصر من ذي كرامة إليه عزيز فعله أفضل الفعل
عشية ساروا حاشدين وكلنا مراجله من غيظ أصحابه تغلي
فلما تراءينا أناخوا فعقلوا مطايا وعقلنا مدى غرض النبل
وقلنا لهم: حبل الإله نصيرنا وما لكم إلا الضلالة من حبل
فثار أبو جهل هنالك باغيا فخاب ورد الله كيد أبي جهل
وما نحن إلا في ثلاثين راكبا وهم مائتان بعد واحدة فضل
فيال لؤي لا تطيعوا غواتكم وفيئوا إلى الإسلام والمنهج السهل
فإني أخاف أن يصب عليكم عذاب فتدعوا بالندامة والثكل

قال [سيرة ابن هشام: ٥٩٧/١]: فأجابه أبو جهل بن هشام لعنه الله فقال:

عجبتُ لأسبابِ الحفيظةِ والجهل وللشاغبينَ بالخلافِ وبالبُطْل
وللتاركين ما وجدنا جدودنا عليه ذوي الأحساب والوُدد الجزل

ثم ذكر تمامها.

قال ابن هشام [السيرة: ٥٩٦/١، ٥٩٨] وأكثر أهل العلم بالشعر ينكر هاتين القصيدتين لحمزة رضي الله عنه ولأبي جهل لعنه الله.

سنة ٢- غزوة بواط من ناحية رضوى

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٩٨/١]: ثم غزا رسول الله ﷺ في شهر ربيع الأول - يعني من السنة الثانية - يريد قريشاً.

قال ابن هشام [سيرة ابن هشام: ٥٩٨/١]: واستعمل على المدينة السائب بن عثمان بن مظعون.

وقال الواقدي [طبقات ابن سعد: ٨/٢]: استخلف عليها سعد بن معاذ. وكان رسول الله ﷺ في مائتي راكب، وكان لواؤه مع سعد بن أبي وقاص وكان مقصده أن يعترض لعير قريش وكان فيه أمية بن خلف ومائة رجل وألفان وخمسمائة بعير.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٩٨/١]: حتى بلغ بواط من ناحية رضوى، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً فلبث بها بقية شهر ربيع الآخر وبعض جمادى الأولى.

ثم غزا قريشاً يعني بذلك الغزوة التي يقال لها: غزوة العشيرة والمهملة والعُشير والمهملة والعُشيراء والمهملة

قال ابن هشام [السيرة: ٥٩٨/١]: واستعمل على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد. قال الواقدي [طبقات ابن سعد: ٩/٢]: وكان لواؤه مع حمزة بن عبد المطلب.

قال: وخرج عليه السلام يتعرض لعيرات قريش ذاهبة إلى الشام.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٩٨/١، ٥٩٩]: فسلك على نقب بني دينار، ثم على فيفاء الخبار، فنزل تحت شجرة ببطحاء بن أزهر يقال لها ذات الساق فصلّى عندهم ثم مسجده، فصنع له عندها طعام فأكل منه وأكل الناس معه، فرسوم أثافي البرمة معلوم هنالك، واستُقي له من ماء يقال له المشيرب ثم ارتحل فترك الخلائق بيسار وسلك شعبة عبد الله، ثم صب لليسار حتى هبط يليل، فنزل بمجتمعه ومجتمع الضبوعة ثم سلك فرش ملل حتى لقي الطريق بصخيرات اليمام ثم اعتدل به الطريق حتى نزل العشيرة من بطن ينبع فأقام بها جمادى الأولى وليال من جمادى الآخرة ووادع فيها بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً.

وقد قال البخاري [٣٩٤٩] حدّثنا عبد الله حدّثنا وهب حدّثنا شعبة عن أبي إسحاق. قال: كنت إلى جنب زيد بن أرقم فقيل له: كم غزا رسول الله ﷺ من غزوة؟ قال: تسع عشرة. قلت: كم غزوت أنت معه؟ قال: سبع عشرة غزوة، قلت: فأيهن كانت أول؟ قال العشير - أو العسيرة - فذكرت لقتادة فقال: العشيرة.

وهذا الحديث ظاهر في أن أول الغزوات العشيرة، ويقال بالسين وبهما مع حذف التاء، وبهما مع المد اللهم إلا أن يكون المراد غزاة شهدها مع النبي ﷺ زيد بن أرقم العشيرة وحينئذ لا ينفي أن يكون قبلها غيرها لم يشهدها زيد بن أرقم وبهذا يحصل الجمع بين ما ذكره محمد بن إسحاق وبين هذا الحديث والله أعلم.

قال محمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٥٩٩/١]: وبومئذ قال رسول الله ﷺ لعلي ما قال فحدثني يزيد بن محمد بن خثيم عن محمد بن كعب القرظي حدّثني أبو يزيد محمد بن خثيم عن عمار بن ياسر. قال: كنت أنا وعلي بن أبي طالب رفيقين في غزوة العشيرة من بطن ينبع، فلما نزلها رسول الله ﷺ أقام بها شهراً فصالح بها بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة فوادعهم، فقال لي علي بن أبي طالب: هل لك يا أبا اليقظان أن نأتي هؤلاء النفر - من بني مدلج يعملون في عين لهم - ننظر كيف يعملون؟ فأتيناهم فنظرنا إليهم ساعة فغشينا النوم فعمدنا إلى صور من النخل في دقعاء من الأرض فنمنا فيه، فوالله ما أهبنا إلا ورسول الله ﷺ يحركنا بقدمه فجلسنا وقد تترينا من تلك الدقعاء فيومئذ قال رسول الله ﷺ لعلي: «يا أبا تراب»؛ لما عليه من التراب، فأخبرناه بما كان من أمرنا فقال: «ألا أخبركم بأشقى الناس رجلين؟» قلنا: بلى يا رسول الله فقال: «أحيمر ثمود الذي عقر الناقة والذي يضربك يا علي على هذه - ووضع رسول الله ﷺ يده على رأسه - حتى يَبُلُّ منها هذه - ووضع يده على لحيته -».

وهذا حديث غريب من هذا الوجه، وله شاهد من وجه آخر في تسمية علي أبا تراب كما في صحيح البخاري [٤٤١، ٦٢٨٠] أن علياً خرج مغاضباً فاطمة، فجاء المسجد فنام فيه فدخل رسول الله ﷺ فسألها عنه فقالت: خرج مغاضباً فجاء إلى المسجد فأيقظه وجعل يمسح التراب عنه ويقول: «قم أبا تراب قم أبا تراب»

سنة ٢- غزوة بدر الأولى

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٠١/١]: ثم لم يقم رسول الله ﷺ بالمدينة حين رجع من العشيرة إلا ليال قلائل لا تبلغ العشرة حتى أغار

كرز بن جابر الفهري على سرح المدينة، فخرج رسول الله ﷺ في طلبه حتى بلغ واديا يقال له سفوان من ناحيه بدر، وهي غزوة بدر الأولى، وفاته كرز فلم يدركه.

وقال الواقدي: وكان لواؤه مع علي بن أبي طالب [طبقات ابن سعد: ٢/٩].

قال ابن هشام والواقدي: وكان قد استخلف على المدينة زيد بن حارثة.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٦٠٠، ٦٠١]: فرجع رسول الله ﷺ فأقام جمادى ورجباً وشعبان وقد كان بعث بين يدي ذلك سعداً في ثمانية رهط من المهاجرين، فخرج حتى بلغ الخرار من أرض الحجاز.

قال ابن هشام: ذكر بعض أهل العلم أن بعث سعد هذا كان بعد حمزة ثم رجع ولم يلق كيداً.

هكذا ذكره ابن إسحاق مختصراً.

وقد تقدم ذكر الواقدي لهذه البعوث الثلاثة، أعني بعث حمزة في رمضان، وبعث عبيدة في شوال، وبعث سعد في ذي القعدة كلها في السنة الأولى.

وقد قال الإمام أحمد [١/١٧٨]: حدثني عبد المتعال بن عبد الوهاب حدثني يحيى بن سعيد. وقال عبد الله بن الإمام أحمد: وحدثني سعيد بن يحيى بن سعيد الأموي حدثنا أبي حدثنا مجالد عن زياد بن علاقة عن سعد بن أبي وقاص. قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة جاءته جهينة فقالوا: إنك قد نزلت بين أظهرنا فأوثق حتى نأتيك وتؤمنا، فأوثق لهم فأسلموا.

قال: فبعثنا رسول الله ﷺ في رجب ولا نكون مائة وأمرنا أن نغير على حي من بني كنانة إلى جنب جهينة فأغرنا عليهم وكانوا كثيراً فلجأنا إلى جهينة فمنعونا وقالوا: لم تقاتلون في الشهر الحرام؟ فقال بعضنا لبعض: ما ترون؟ فقال بعضنا: نأتي نبي الله فنخبره، وقال قوم: لا بل نقيم ههنا، وقلت أنا في أناس معي: لا بل نأتي عير قريش فنقتطعها. وكان الفيء إذ ذاك من أخذ شيئاً فهو له، فانطلقنا إلى العير وانطلق أصحابنا إلى النبي ﷺ فأخبروه الخبر فقام غضبان محمر الوجه. فقال: «أذهبتم من عندي جميعاً ورجعتم متفرقين! إنما أهلك من كان قبلكم الفرقة، لأبعثن عليكم رجلا ليس بخيركم أصبركم على الجوع والعطش» فبعث علينا عبد الله بن جحش الأسدي فكان أول أمير في الإسلام.

وقد رواه البيهقي في الدلائل [٣/١٤] من حديث يحيى بن أبي زائدة عن مجالد به نحوه وزاد بعد قولهم لأصحابه: لم تقاتلون في الشهر الحرام؟ فقالوا: نقاتل في الشهر الحرام من أخرجنا من البلد الحرام.

ثم رواه [٣/١٥] من حديث أبي أسامة عن مجالد عن زياد بن علاقة عن قطبة بن مالك عن سعد بن أبي وقاص فذكر نحوه فأدخل بين سعد وزياد قطبة بن مالك وهذا أنسب؛ والله أعلم.

وهذا الحديث يقتضي أن أول السرايا عبد الله بن جحش الأسدي وهو خلاف ما ذكره ابن إسحاق أن أول الرايات عقدت لعبيدة بن الحارث بن المطلب [سيرة ابن هشام: ٢/٥٩٥]، وللواقدي حديث زعم أن أول الرايات عقدت لحمزة بن عبد المطلب [طبقات ابن سعد: ٢/٦] والله أعلم.

سنة ٢- سرية عبد الله بن جحش

باب سرية عبد الله بن جحش التي كانت سبباً لغزوة بدر العظمى وذلك يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٦٠١، ٦٠٢]: وبعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش بن رئاب الأسدي في رجب مقفله من بدر الأولى وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد وهم أبو حذيفة بن عتبة، وعكاشة بن محصن بن حرثان حليف بني أسد بن خزيمة، وعتبة بن غزوان حليف بني نوفل، وسعد بن أبي وقاص الزهري، وعامر بن ربيعة الوائلي حليف بني عدي، وواقد بن عبد الله بن عبد مناف بن عرين بن ثعلبة بن يربوع التميمي حليف بني عدي أيضاً، وخالد بن البكير أحد بني سعد بن ليث حليف بني عدي أيضاً، وسهيل بن بيضاء الفهري؛ فهؤلاء سبعة ثامنهم أميرهم عبد الله بن جحش رضي الله عنه.

وقال يونس عن ابن إسحاق [الدلائل للبيهقي: ٣/١٨ - ٢٠ من طريق يونس بن بكير عن ابن إسحاق]: كانوا ثمانية وأميرهم التاسع فالله أعلم وستأتي تسميتهم على خلاف ما قال ابن إسحاق.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٦٠١ - ٦٠٤]: وكتب له كتاباً وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه فيمضي لما أمره به، ولا يستكره من أصحابه أحداً.

فلما سار بهم يومين فتح الكتاب فإذا فيه: «إذا نظرت في كتابي فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم».

فلما نظر في الكتاب قال: سمعاً وطاعة وأخبر أصحابه بما في الكتاب. وقال: قد نهاني أن أستكره أحداً منكم فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع فأما أنا فماض لأمر رسول الله ﷺ.

فمضى ومضى معه أصحابه لم يتخلف منهم أحد وسلك على الحجاز حتى إذا كان بمعدن فوق الفرع يقال له: بحران، أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيراً لهما كانا يعتقبانه فتخلفا في طلبه ومضى عبد الله بن جحش وبقية أصحابه حتى نزل نخلة، فمرت عير لقريش تحمل زبيباً وأدماً وتجارة من تجارة قريش فيها عمرو بن الحضرمي.

قال ابن هشام: واسم الحضرمي عبد الله بن عباد الصدفي.

قال السهيلي: وقيل غير ذلك في نسبه وعثمان بن عبد الله بن المغيرة المخزومي وأخوه نوفل والحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة.

فلما رآهم القوم هابوهم وقد نزلوا قريباً منهم فأشرف لهم عكاشة بن محصن وكان قد حلق رأسه. فلما رأوه أمنوا، وقالوا: عمار لا بأس عليكم منهم وتشاور الصحابة فيهم وذلك في آخر يوم من رجب فقالوا: والله لئن تركتموهم هذه الليلة ليدخلن الحرم فليمتنعن به منكم ولئن قتلتموهم لتقتلنهم في الشهر الحرام. فتردد القوم وهابوا الإقدام عليهم، ثم شجعوا أنفسهم عليهم وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم وأخذ ما معهم، فرمى واقد بن عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، واستأسر عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان وأفلت القوم نوفل بن عبد الله فأعجزهم، وأقبل عبد الله بن جحش وأصحابه بالعير والأسيرين حتى قدموا على رسول الله ﷺ. وقد ذكر بعض آل عبد الله بن جحش أن عبد الله قال لأصحابه: إن لرسول الله ﷺ فيما غنمنا الخمس فعزله

وقسم الباقي بين أصحابه وذلك قبل أن ينزل الخمس.

قال: ولما نزل الخمس نزل كما قسمه عبد الله بن جحش كما قاله [سيرة ابن هشام: ٦٠٥/١].

قال: ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٠٣/١، ٦٠٤]: فلما قدموا على رسول الله ﷺ قال: «ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام» فوقف العير والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً. فلما قال ذلك رسول الله ﷺ أسقط في أيدي القوم وظنوا أنهم قد هلكوا وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا، وقالت قريش: قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم وأخذوا فيه الأموال وأسروا فيه الرجال، فقال من يرد عليهم من المسلمين ممن كان بمكة: إنما أصابوا ما أصابوا في شعبان، وقالت يهود تفاءل بذلك على رسول الله ﷺ: عمرو بن الحضرمي قتله واقد بن عبد الله، عمرو عمرت الحرب، والحضرمي حضرت الحرب وواقد بن عبد الله وقدت الحرب فجعل الله ذلك عليهم لا لهم.

فلما أكثر الناس في ذلك أنزل الله تعالى على رسوله ﷺ ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧] أي إن كنتم قتلتم في الشهر الحرام فقد صدوكم عن سبيل الله مع الكفر به وعن المسجد الحرام وإخراجكم منه وأنتم أهله أكبر عند الله من قتل من قتلتم منهم ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ أي قد كانوا يفتنون المسلم عن دينه حتى يردوه إلى الكفر بعد إيمانه فذلك أكبر عند الله من القتل، ثم هم مقيمون على أخبث ذلك وأعظمه غير تائبين ولا نازعين، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ الآية.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٠٤/١، ٦٠٥]: فلما نزل القرآن بهذا من الأمر وفرج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الشفق، قبض رسول الله ﷺ العير والأسيرين، وبعثت قريش في فداء عثمان والحكم بن كيسان فقال رسول الله ﷺ: «لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا» - يعني سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان - فإنا نخشاكم عليهما. فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم».

فقدم سعد وعتبة ففاداهما رسول الله ﷺ. فأما الحكم بن كيسان فأسلم فحسن إسلامه وأقام عند رسول الله ﷺ حتى قتل يوم بئر معونة شهيداً، وأما عثمان بن عبد الله فلحق بمكة فمات بها كافراً.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٠٥/١]: فلما تجلى عن عبد الله بن جحش وأصحابه ما كانوا فيه حين نزل القرآن طمعوا في الأجر، فقالوا: يا رسول الله أنطمع أن تكون لنا غزوة نعطى فيها أجر المجاهدين؟ فأنزل الله فيهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨] فوصفهم الله من ذلك على أعظم الرجاء.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٠٥/١]: والحديث في ذلك عن الزهري ويزيد بن رومان عن عروة بن الزبير.

وهكذا ذكر موسى بن عقبة في مغازيه عن الزهري [الدلائل للبيهقي: ٢٠/٣، ٢١ من طريقين عن موسى بن عقبة عن الزهري].

وكذا روى شعيب عن الزهري عن عروة نحواً من هذا وفيه: وكان ابن الحضرمي أول قتيل قتل بين المسلمين والمشركين [البيهقي في الدلائل: ١٧/٣، من طريق شعيب به].

وقال عبد الملك بن هشام [سيرة ابن هشام: ٦٠٥/١]: هو أول قتيل قتله المسلمون، وهذه أول غنيمة غنمها المسلمون، وعثمان والحكم بن كيسان أول من أسره المسلمون.

قلت: وقد تقدم فيما رواه الإمام أحمد [المسند: ١٧٨/١] عن سعد بن أبي وقاص أنه قال: فكان عبد الله بن جحش أول أمير في الإسلام.

وقد ذكرنا في التفسير لما أورده ابن إسحاق شواهد مسندة. فمن ذلك ما رواه الحافظ أبو محمد بن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي حدثنا المعتمر بن سليمان عن أبيه حدثني الحضرمي عن أبي السوار عن جندب بن عبد الله أن رسول الله ﷺ بعث رهطاً وبعث عليهم أبا عبيدة بن الجراح. أو عبيدة بن الحارث، فلما ذهب يبكي صبابة إلى رسول الله ﷺ فجلس، فبعث عليهم مكانه عبد الله بن جحش وكتب له كتاباً وأمره أن لا يقرأه حتى يبلغ مكان كذا وكذا. وقال: «لا تكرهن أحداً على المسير معك من أصحابك» فلما قرأ الكتاب استرجع وقال: سمعاً وطاعة لله ولرسوله، فخبرهم الخبر وقرأ عليهم الكتاب فرجع منهم رجلان وبقي بقيتهم فلقوا ابن الحضرمي فقتلوه ولم يدروا أن ذلك اليوم من رجب أو من جمادى، فقال المشركون للمسلمين: قتلتم في الشهر الحرام، فأنزل الله ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ الآية.

وقال إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير في تفسيره عن أبي مالك عن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود عن جماعة من الصحابة ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ بعث سرية وكانوا سبعة نفر عليهم عبد الله بن جحش وفيهم عمار بن ياسر وأبو حذيفة بن عتبة وسعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان وسهل بن بيضاء وعامر بن فهيرة وواقد بن عبد الله اليربوعي حليف لعمر بن الخطاب، وكتب لابن جحش كتاباً وأمره أن لا يقرأه حتى ينزل بطن ملل فلما نزل بطن ملل فتح الكتاب فإذا فيه أن سر حتى تنزل بطن نخلة فقال لأصحابه: من كان يريد الموت فليمض وليوص فإني موص وماض لأمر رسول الله ﷺ فسار وتخلف عنه سعد وعتبة أضلا راحلة لهما فأقاما يطلبانها، وسار هو وأصحابه حتى نزل بطن نخلة فإذا هو بالحكم بن كيسان والمغيرة بن عثمان وعبد الله بن المغيرة. فذكر قتل واقد لعمرو بن الحضرمي ورجعوا بالغنيمة والأسيرين فكانت أول غنيمة غنمها المسلمون. وقال المشركون: إن محمداً يزعم أنه يتبع طاعة الله وهو أول من استحل الشهر الحرام وقتل صاحبنا في رجب. وقال المسلمون: إنما قتلناه في جمادى.

قال السدي: وكان قتلهم له في أول ليلة من رجب وآخر ليلة من جمادى الآخرة.

قلت: لعل جمادى كان ناقصاً فاعتقدوا بقاء الشهر ليلة الثلاثين، وقد كان الهلال رؤي تلك الليلة فالله أعلم.

وهكذا روى العوفي عن ابن عباس أن ذلك كان في آخر ليلة من جمادى، وكانت أول ليلة من رجب ولم يشعروا [تفسير الطبري: ٣٥٠/٢، ٣٥١].

وكذا تقدّم في حديث جندب الذي رواه ابن أبي حاتم.

وقد تقدم في سياق ابن إسحاق أن ذلك كان في آخر ليلة من رجب وخافوا إن لم يتداركوا هذه الغنيمة ويتهزوا هذه الفرصة دخل أولئك في الحرم فيتعذر عليهم ذلك فأقدموا عليهم عالمين بذلك.

وكذا قال الزهري عن عروة رواه البيهقي [دلائل النبوة: ٢١/٣] فالله أعلم أي ذلك كان.

قال الزهري عن عروة: فبلغنا أن رسول الله ﷺ عقل ابن الحضرمي وحرم الشهر الحرام كما كان يحرّمه حتى أنزل الله براءة رواه البيهقي. [دلائل النبوة: ١٨/٣]

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٠٥/١، ٦٠٦]: فقال أبو بكر الصديق في غزوة عبد الله بن جحش جواباً للمشركين فيما قالوا من إحلال الشهر الحرام. قال ابن هشام هي لعبدالله بن جحش:

تَعدّون قتلاً في الحرام عظيمةً ... وأعظمُ منه لو يرى الرُّشْدَ راشد
صُدودُكم عما يقولُ محمد ... وكفرٌ به والله راءٍ وشاهد
وإخراجُكم من مسجد الله أهله ... لئلا يُرى لله في البيتِ ساجد
فإنّا وإن عيّرتمونا بقتله ... وأرجفَ بالإسلام باغٍ وحاسد
سقَينا من ابن الحضرمي رماحنا ... بنخلةَ لما أوقدَ الحربَ واقد
دماً وابن عبد الله عثمان بيننا ... ينازُعه غلٌ من القيدِ عاند

سنة ٢- تحويل القبلة قبل وقعة بدر

قال بعضهم: كان ذلك في رجب من سنة ثنتين وبه قال قتادة وزيد بن أسلم وهو رواية عن محمد بن إسحاق [تفسير الطبري: ٣/٢ - ٥].

وقد روى أحمد [٢٥٠/١، ٣٥٠، ٣٥٧] عن ابن عباس ما يدل على ذلك وهو ظاهر حديث البراء بن عازب كما سيأتي والله أعلم. وقيل في شعبان منها.

قال ابن إسحاق بعد غزوة عبد الله بن جحش: ويقال صرفت القبلة في شعبان على رأس ثمانية عشر شهراً من مقدم رسول الله ﷺ المدينة وحكى هذا القول ابن جرير [تاريخه: ٤١٦/٢] من طريق السدي بسنده عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة.

قال الجمهور الأعظم: إنما صرفت في النصف من شعبان على رأس ثمانية عشر شهراً من الهجرة. ثم حكى عن محمد بن سعد [تاريخ الطبري: ٤١٦/٢] عن الواقدي أنها حولت يوم الثلاثاء النصف من شعبان، وفي هذا التحديد نظر والله أعلم.

وقد تكلمنا على ذلك مستقصى في التفسير عند قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٤]. وما قبلها وما بعدها من اعتراض سفهاء اليهود والمنافقين والجهلة الطغام على ذلك لأنه أول نسخ وقع في الإسلام هذا وقد أحال الله قبل ذلك في سياق القرآن تقرير جواز النسخ عند قوله ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦].

وقد قال البخاري [٤٤٨٦] حدّثنا أبو نعيم سمع زهيراً عن أبي إسحاق عن البراء أن النبي ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً - أو سبعة عشر شهراً - وكان يعجبه أن تكون قبلته إلى البيت، وأنه صلى أو صلاها صلاة العصر وصلى معه قوم فخرج رجل ممن كان معه صلّى فمر على أهل مسجد وهم راكعون فقال: أشهد بالله لقد صليت مع النبي ﷺ قِبَل مكة فداروا كما هم قِبَل البيت، وكان الذي مات على القبلة قبل أن تحول رجال قتلوا لم ندر ما نقول فيهم فأنزل الله ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

ورواه مسلم [٥٢٥] من وجه آخر.

وقال ابن أبي حاتم حدّثنا أبو زرعة حدّثنا الحسن بن عطية حدّثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن البراء. قال: كان رسول الله ﷺ قد صلى نحو بيت المقدس ستة عشر - أو سبعة عشر - شهراً، وكان يحب أن يوجه نحو الكعبة فأنزل الله ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾. قال: فوجه نحو الكعبة وقال السفهاء من الناس - وهم اليهود - ﴿مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾. فأنزل الله ﴿قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤١].

وحاصل الأمر أن رسول الله ﷺ كان يصلي بمكة إلى بيت المقدس والكعبة بين يديه كما رواه الإمام أحمد [المسند: ٣٢٥/١] عن ابن عباس رضي الله عنه، فلما هاجر إلى المدينة لم يمكنه أن يجمع بينهما فصلى إلى بيت المقدس أول مقدمه المدينة واستدبر الكعبة ستة عشر شهراً - أو سبعة عشر شهراً - وهذا يقتضي أن يكون ذلك إلى رجب من السنة الثانية والله أعلم.

وكان عليه السلام يحب أن يصرف قبلته نحو الكعبة قبلة إبراهيم وكان يكثر الدعاء والتضرع والابتهال إلى الله عزّ وجلّ فكان مما يرفع يديه وطرفه إلى السماء سائلا ذلك فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ الآية.

فلما نزل الأمر بتحويل القبلة خطب رسول الله ﷺ المسلمين وأعلمهم بذلك كما رواه النسائي [الكبرى: ١١٠٤؛ والمجتبى: ٧٣١] عن أبي سعيد بن المعلى وأن ذلك كان وقت الظهر.

وقال بعض الناس: نزل تحويلها بين الصلاتين قاله مجاهد وغيره.

ويؤيد ذلك ما ثبت في الصحيحين [خ (٤٠)، م (٥٢٥)] عن البراء أن أول صلاة صلاها عليه السلام إلى الكعبة بالمدينة العصر والعجب أن أهل قباء لم يبلغهم خبر ذلك إلى صلاة الصبح من اليوم الثاني كما ثبت في الصحيحين [خ (٤٠٣)، م (٥٢٦)] عن ابن عمر. قال: بينما الناس بقباء في صلاة الصبح إذ جاءهم آت فقال: إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة.

وفي صحيح مسلم [٥٢٧] عن أنس بن مالك نحو ذلك.

والمقصود أنه لما نزل تحويل القبلة إلى الكعبة ونسخ به الله تعالى حكم الصلاة إلى بيت المقدس طعن طاعنون من السفهاء والجهلة والأغبياء وقالوا: ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؛ هذا والكفرة من أهل الكتاب يعلمون أن ذلك من الله لما يجدونه من صفة محمد ﷺ في كتبهم من أن المدينة مهاجره وأنه سيؤمر بالاستقبال إلى الكعبة كما قال ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ الآية وقد أجابهم الله تعالى مع هذا كله عن سؤالهم وتعنتهم فقال ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢] أي هو المالك المتصرف الحاكم الذي لا معقب لحكمه الذي يفعل ما يشاء في خلقه ويحكم ما يريد في شرعه وهو الذي يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ويضل من يشاء عن

الطريق القويم وله في ذلك الحكمة التي يجب لها الرضا والتسليم ثم قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾ [البقرة: ١٤٣] أي خياراً ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ [البقرة: ١٤٣] أي وكما اخترنا لكم أفضل الجهات في صلاتكم وهديناكم إلى قبلة أبيكم إبراهيم والد الأنبياء بعد التي كان يصلي بها موسى فمن قبله من المرسلين كذلك جعلناكم خيار الأمم وخلاصة العالم وأشرف الطوائف وأكرم التالد والطارف لتكونوا يوم القيامة شهداء على الناس لإجماعهم عليكم وإشارتهم يومئذ بالفضيلة إليكم كما ثبت في صحيح البخاري [٣٣٣٩] عن أبي سعيد مرفوعاً من استشهاد نوح بهذه الأمة يوم القيامة وإذا استشهد بهم نوح مع تقدم زمانه فمن بعده بطريق الأولى الأحرى.

ثم قال تعالى مبيناً حكمته في حلول نقمته بمن شك وارتاب بهذه الواقعة. وحلول نعمته على من صدق وتابع هذه الكائنة. فقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ﴾ [البقرة: ١٤٣] قال ابن عباس [تفسير الطبري: ١٣/٢]: إلا لنرى من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه، ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ أي وإن كانت هذه الكائنة العظيمة الموقع كبيرة المحل شديدة الأمر ﴿إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّهُ﴾ أي فهم مؤمنون بها مصدقون لها لا يشكون ولا يرتابون بل يرضون ويسلّمون ويؤمنون ويعملون لأنهم عبيد للحاكم العظيم القادر المقتدر الحليم الخبير اللطيف العليم.

وقوله ﴿وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣] أي بشرعته استقبال بيت المقدس والصلاة إليه ﴿إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣]

والأحاديث والآثار في هذا كثيرة جداً يطول استقصاؤها وذلك مبسوط في التفسير وسنزيد ذلك بياناً في كتابنا الأحكام الكبير.

وقد روى الإمام أحمد [المسند: ١٣٤/٦، ١٣٥] حدّثنا علي بن عاصم حدّثنا حصين بن عبد الرحمن عن عمر بن قيس عن محمد بن الأشعث عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ - يعني في أهل الكتاب -: «إنهم لم يحسدونا على شيء كما يحسدوننا على يوم الجمعة التي هدانا الله إليها وضلوا عنها، وعلى القبلة التي هدانا الله لها وضلوا عنها، وعلى قولنا خلف الإمام آمين»

سنة ٢- فريضة شهر رمضان قبل وقعة بدر

قال ابن جرير [تاريخه: ٤١٧/٢]: وفي هذه السنة فرض صيام شهر رمضان وقد قيل: إنه فرض في شعبان منها.

ثم حكي [تاريخه: ٤١٧/٢] أن رسول الله ﷺ حين قدم المدينة وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء فسألهم عنه فقالوا: هذا يوم نجى الله فيه موسى. فقال: «نحن أحق بموسى منكم» فصامه وأمر الناس بصيامه.

وهذا الحديث ثابت في الصحيحين [خ (٢٠٠٤)، م (١١٣٠)] عن ابن عباس وقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ. أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ. شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٣ - ١٨٥]. وقد تكلمنا على ذلك في التفسير بما فيه كفاية من إيراد الأحاديث المتعلقة بذلك والآثار المروية في ذلك والأحكام المستفادة منه ولله الحمد.

وقد قال الإمام أحمد [المسند: ٢٤٦/٥] حدّثنا أبو النضر حدّثنا المسعودي حدّثنا عمرو بن مرة عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن معاذ بن جبل. قال: أحيلت الصلاة ثلاثة أحوال، وأحيل الصيام ثلاثة أحوال فذكر أحوال الصلاة. قال: وأما أحوال الصيام فإن رسول الله ﷺ قدم المدينة فجعل يصوم من كل شهر ثلاثة أيام، وصام عاشوراء ثم إن الله فرض عليه الصيام وأنزل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ إلى قوله ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ فكان من شاء صام ومن شاء أطعم مسكيناً فاجزأ ذلك عنه، ثم إن الله أنزل الآية الأخرى ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ إلى قوله ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ فأثبت صيامه على المقيم الصحيح ورخص فيه للمريض والمسافر وأثبت الإطعام للكبير الذي لا يستطيع الصيام فهذان حولان.

قال: وكانوا يأكلون ويشربون ويأتون النساء ما لم يناموا، فإذا ناموا امتنعوا. ثم إن رجلاً من الأنصار يقال له صرمة كان يعمل صائماً حتى أمسى فجاء إلى أهله فصلى العشاء ثم نام فلم يأكل ولم يشرب حتى أصبح فأصبح صائماً، فرآه رسول الله ﷺ قد جهد جهداً شديداً فقال «مالي أراك قد جهدت جهداً شديداً» فأخبره.

قال: وكان عمر قد أصاب من النساء بعدما نام فأتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له فأنزل الله ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ﴾ إلى قوله ﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾.

ورواه أبو داود في سننه [٥٠٧] والحاكم في مستدركه [٢٧٤/٢] من حديث المسعودي نحوه.

وفي الصحيحين [خ (١٩٠١)، م (١١٢٥)] من حديث الزهري عن عروة عن عائشة أنها قالت: كان عاشوراء يصام، فلما نزل رمضان كان من شاء صام ومن شاء أفطر.

وللبخاري عن ابن عمر [١٨٩٢] وابن مسعود [٤٥٠٣] مثله.

ولتحرير هذا، موضع آخر من التفسير ومن الأحكام الكبير وبالله المستعان.

قال ابن جرير [تاريخه: ٤١٨/٢]: وفي هذه السنة أمر الناس بزكاة الفطر، وقد قيل: إن رسول الله ﷺ خطب الناس قبل الفطر بيوم - أو يومين - وأمرهم بذلك.

قال: وفيها صلى النبي ﷺ صلاة العيد وخرج بالناس إلى المصلى فكان أول صلاة عيد صلاها وخرجوا بين يديه بالحربة وكانت للزبير وهبها له النجاشي فكانت تحمل بين يدي رسول الله ﷺ في الأعياد.

قلت: وفي هذه السنة فيما ذكره غير واحد من المتأخرين فرضت الزكاة ذات النصب كما سيأتي تفصيل ذلك كله بعد وقعة بدر إن شاء الله تعالى وبه الثقة وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

سنة ٢- غزوة بدر العظمى يوم الفرقان

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣]

وقال الله تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ. يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ. وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ. لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٥ - ٨] وما بعدها إلى تمام القصة من سورة الأنفال وقد تكلمنا عليها هنالك وسنورد هاهنا في كل موضع ما يناسبه.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٠٦/١] رحمه الله بعد ذكره سرية عبد الله بن جحش:

ثم إن رسول الله ﷺ سمع بأبي سفيان صخر بن حرب مقبلا من الشام في عير لقريش عظيمة فيها أموال وتجارة وفيها ثلاثون رجلا - أو أربعون - منهم مخرمة بن نوفل وعمرو بن العاص.

قال موسى بن عقبة عن الزهري: كان ذلك بعد مقتل ابن الحضرمي بشهرين.

قال: وكان في العير ألف بعير تحمل أموال قريش بأسرها إلا حويطب بن عبد العزى فلهذا تخلف عن بدر.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٠٦/١، ٦٠٧]: فحدثني محمد بن مسلم بن شهاب وعاصم بن عمر بن قتادة وعبد الله بن أبي بكر ويزيد بن رومان عن عروة بن الزبير وغيرهم من علمائنا عن ابن عباس كل قد حدثني بعض الحديث فاجتمع حديثهم فيما سقت من حديث بدر.

قالوا: لما سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان مقبلا من الشام ندب المسلمين إليهم وقال: «هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها» فانتدب الناس فخفف بعضهم وثقل بعض وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حرباً، وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتحسس الأخبار ويسأل من لقي من الركبان تخوفا على أموال الناس حتى أصاب خبراً من بعض الركبان أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك فحذر عند ذلك فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري فبعثه إلى مكة وأمره أن يأتي قريشاً فيستنفرهم إلى أموالهم ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في أصحابه، فخرج ضمضم بن عمرو سريعاً إلى مكة.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٠٧/١ - ٦٠٩]: فحدثني من لا أتهم عن عكرمة عن ابن عباس ويزيد بن رومان عن عروة بن الزبير. قالا: وقد رأت عاتكة بنت عبد المطلب قبل قدوم ضمضم إلى مكة بثلاث ليال رؤيا أفزعتها فبعثت إلى أخيها العباس بن عبد المطلب فقالت له: يا أخي والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفظعتني وتخوفت أن يدخل على قومك منها شر ومصيبة فاكتم علي ما أحدثك، قال لها: وما رأيت؟ قالت: رأيت راكبا أقبل على بعير له حتى وقف بالأبطح ثم صرخ بأعلا صوته ألا انفروا يا آل غدر لمصارعكم في ثلاث، فأرى الناس اجتمعوا إليه ثم دخل المسجد والناس يتبعونه فبينما هم حوله مثل به بعيره على ظهر الكعبة ثم صرخ بمثلها: ألا انفروا يا آل غدر لمصارعكم في ثلاث ثم مثل به بعيره على رأس أبي قبيس فصرخ بمثلها ثم أخذ صخرة فأرسلها فأقبلت تهوي حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضت فما بقي بيت من بيوت مكة ولا دار إلا دخلتها منها فلقة. قال العباس: والله إن هذه لرؤيا وأنت فاكتميها لا تذكريها لأحد، ثم خرج العباس فلقي الوليد بن عتبة - وكان له صديقا - فذكرها له واستكتمه إياها فذكرها الوليد لأبيه عتبة ففشا الحديث حتى تحدثت به قريش.

قال العباس: فغدوت لأطوف بالبيت وأبو جهل بن هشام في رهط من قريش قعود يتحدثون برؤيا عاتكة، فلما رآني أبو جهل قال: يا أبا الفضل إذا فرغت من طوافك فأقبل إلينا، فلما فرغت أقبلت حتى جلست معهم فقال أبو جهل: يا بني عبد المطلب متى حدثت فيكم هذه النبية؟ قال: قلت: وما ذاك؟ قال: تلك الرؤيا التي رأت عاتكة! قال: قلت: وما رأت؟ قال: يا بني عبد المطلب أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم!! قد زعمت عاتكة في رؤياها أنه قال: انفروا في ثلاث فسنتربص بكم هذه الثلاث فإن يك حقاً ما تقول فسيكون. وإن تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شيء نكتب عليكم كتاباً أنكم أكذب أهل بيت في العرب، قال العباس: فوالله ما كان مني إليه كبير شيء إلا أني جحدت ذلك وأنكرت أن تكون رأت شيئاً، قال: ثم تفرقنا.

فلما أمسيت لم تبق امرأة من بني عبد المطلب إلا أتتني فقالت: أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع في رجالكم، ثم قد تناول النساء وأنت تسمع، ثم لم يكن عندك غيرٌ لشيء مما سمعت؟ قال: قلت: قد والله فعلت ما كان مني إليه من كبير، وايم الله لأتعرضن له فإذا عاد لأكفيكنه.

قال: فغدوت في اليوم الثالث من رؤيا عاتكة وأنا حديد مغضب أرى أني قد فاتني منه أمر أحب أن أدركه منه. قال: فدخلت المسجد فرأيته فوالله إني لأمشي نحوه أتعرضه ليعود لبعض ما قال فأقع به، وكان رجلاً خفيفاً حديد الوجه حديد اللسان حديد النظر، قال: إذا خرج نحو باب المسجد يشتد، قال: قلت في نفسي: ما له لعنه الله، أكل هذا فرق مني أن أشاتمه؟! وإذا هو قد سمع ما لم أسمع صوت ضمضم بن عمرو الغفاري وهو يصرخ ببطن الوادي واقفا على بعيره قد جدع بعيره وحول رحله وشق قميصه وهو يقول: يا معشر قريش اللطيمة اللطيمة، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه لا أرى أن تدركوها، الغوث الغوث قال: فشغلني عنه وشغله عني ما جاء من الأمر، فتجهز الناس سراعاً وقالوا: أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمي؟ والله ليعلمن غير ذلك.

وذكر موسى بن عقبة رؤيا عاتكة كنحو من سياق ابن إسحاق.

قال: فلما جاء ضمضم بن عمرو على تلك الصفة خافوا من رؤيا عاتكة فخرجوا على الصعب والذلول.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٠٩/١، ٦١٠]: فكانوا بين رجلين إما خارج وإما باعث مكانه رجلا، وأوعبت قريش فلم يتخلف من أشرافها أحد إلا أن أبا لهب بن عبد المطلب بعث مكانه العاصي بن هشام بن المغيرة استأجره بأربعة آلاف درهم كانت له عليه قد أفلس بها.

قال ابن إسحاق: وحدثني ابن أبي نجيح أن أمية بن خلف كان قد أجمع القعود وكان شيخاً جليلاً جسيما ثقيلاً، فأتاه عقبة بن أبي معيط وهو جالس في المسجد بين ظهراني قومه بمجمرة يحملها فيها نار وبجمر حتى وضعها بين يديه ثم قال: يا أبا علي استجمر فإنما أنت من النساء. قال: قبحك الله وقبح ما جئت به، قال: ثم تجهز وخرج مع الناس؛ هكذا قال ابن إسحاق في هذه القصة.

وقد رواها البخاري [٣٩٥٠] على نحو آخر فقال: حدثني أحمد بن

عثمان حدثنا شريح بن مسلمة حدثنا إبراهيم بن يوسف عن أبيه عن أبي إسحاق حدثني عمرو بن ميمون أنه سمع عبد الله بن مسعود حدث عن سعد بن معاذ أنه كان صديقا لأمية بن خلف وكان أمية إذا مر بالمدينة نزل على سعد بن معاذ وكان سعد إذا مر بمكة نزل على أمية، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة انطلق سعد بن معاذ معتمراً فنزل على أمية بمكة، فقال لأمية: انظر لي ساعة خلوة لعلي أطوف بالبيت، فخرج به قريبا من نصف النهار فلقيهما أبو جهل، فقال: يا أبا صفوان من هذا معك؟ قال: هذا سعد. قال له أبو جهل: ألا أراك تطوف بمكة آمناً وقد أويتم الصباة وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلك سالما، فقال له سعد - ورفع صوته عليه - أما والله لئن منعتني هذا لأمنعنك ما هو أشد عليك منه طريقك على المدينة. فقال له أمية: لا ترفع صوتك يا سعد على أبي الحكم فإنه سيد أهل الوادي، قال سعد: دعنا عنك يا أمية فوالله لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنهم قاتلوك» قال: بمكة؟ قال: لا أدري؟ ففزع لذلك أمية فزعاً شديداً فلما رجع إلى أهله قال: يا أم صفوان ألم تري ما قال لي سعد؟ قالت: وما قال لك؟ قال: زعم أن محمداً أخبرهم أنهم قاتلي، فقلت له: بمكة؟ قال: لا أدري. فقال أمية: والله لا أخرج من مكة.

فلما كان يوم بدر استنفر أبو جهل الناس فقال: أدركوا عيركم، فكره أمية أن يخرج فأتاه أبو جهل فقال: يا أبا صفوان إنك متى يراك الناس قد تخلفت وأنت سيد أهل الوادي تخلفوا معك، فلم يزل به أبو جهل حتى قال: أما إذا غلبتني فوالله لأشترين أجود بعير بمكة، ثم قال أمية: يا أم صفوان جهزيني فقالت له: يا أبا صفوان وقد نسيت ما قال لك أخوك اليثربي؟ قال: لا وما أريد أن أجوز معهم إلا قريباً، فلما خرج أمية أخذ لا ينزل منزلا إلا عقل بعيره فلم يزل كذلك حتى قتله الله ببدر.

وقد رواه البخاري في موضع آخر [٣٦٣٢] عن أحمد بن إسحاق عن عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن أبي إسحاق به نحوه، تفرد به البخاري.

وقد رواه الإمام أحمد [١/٤٠٠] عن خلف بن الوليد وعن أبي سعيد كلاهما عن إسرائيل وفي رواية إسرائيل قالت له امرأته: والله إن محمداً لا يكذب.

قال ابن إسحاق: [سيرة ابن هشام: ١/٦١٠، ٦١١] ولما فرغوا من جهازهم وأجمعوا المسير ذكروا ما كان بينهم وبين بني بكر بن عبد مناة بن كنانة من الحرب. فقالوا: إنا نخشى أن يأتونا من خلفنا وكانت الحرب التي كانت بين قريش وبين بني بكر في ابن الحضرمي الأخيف من بني عامر بن لؤي قتله رجل من بني بكر بإشارة عامر بن يزيد بن عامر بن الملوح، ثم أخذ بثأره أخوه مكرز بن حفص فقتل عامراً وخاض بسيفه في بطنه ثم جاء من الليل فعلقه بأستار الكعبة فخافوهم بسبب ذلك الذي وقع بينهم.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٦١٢]: فحدثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير قال: لما أجمعت قريش المسير ذكرت الذي كان بينها وبين بني بكر فكاد ذلك أن يثنيهم، فتبدى لهم إبليس في صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي وكان من أشراف بني كنانة. فقال: أنا لكم جار من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه، فخرجوا سراعاً.

قلت: وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ. وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [سورة الأنفال: ٤٧ - ٤٨].

غرهم لعنه الله حتى ساروا وسار معهم منزلة منزلة ومعه جنوده ورايته كما قاله غير واحد منهم، فأسلمهم لمصارعهم.

فلما رأى الجند والملائكة تنزل للنصر وعاين جبريل نكص على عقبيه وقال: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾. وهذا كقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦] وقد قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١] فإبليس لعنه الله لما عاين الملائكة يومئذ تنزل للنصر فر ذاهباً فكان أول من هرب يومئذ بعد أن كان هو المشجع لهم المجير لهم كما غرهم ووعدهم ومناهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا.

وقال يونس عن ابن إسحاق: خرجت قريش على الصعب والذلول في تسعمائة وخمسين مقاتلاً معهم مائتا فرس يقودونها ومعهم القيان يضربن بالدفوف ويغنين بهجاء المسلمين. وذكر المطعمين لقريش يوما يوماً.

وذكر الأموي أن أول من نحر لهم حين خرجوا من مكة أبو جهل نحر لهم عشراً، ثم نحر لهم أمية بن خلف بعسفان تسعاً، ونحر لهم سهيل بن عمرو بقديد عشراً، ومالوا من قديد إلى مياه نحو البحر فظلوا فيها وأقاموا بها يوماً فنحر لهم شيبة بن ربيعة تسعا، ثم أصبحوا بالجحفة فنحر لهم يومئذ عتبة بن ربيعة عشراً، ثم أصبحوا بالأبواء فنحر لهم نبيه ومنبه ابنا الحجاج عشرا، ونحر لهم العباس بن عبد المطلب عشراً، ونحر لهم الحارث بن عامر بن نوفل تسعاً، ونحر لهم على ماء بدر أبو البختري عشراً، ثم أكلوا من أزوادهم.

قال الأموي: حدثنا أبي حدثنا أبو بكر الهذلي قال: كان مع المشركين ستون فرساً وستمائة درع وكان مع رسول الله ﷺ فرسان وستون درعا.

هذا ما كان من أمر هؤلاء في نفيرهم من مكة ومسيرهم إلى بدر.

وأما رسول الله ﷺ فقال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٦١٢، ٦١٣]: وخرج رسول الله ﷺ في ليال مضت من شهر رمضان في أصحابه واستعمل ابن أم مكتوم على الصلاة بالناس، ورد أبا لبابة من الروحاء واستعمله على المدينة، ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير وكان أبيض، وبين يدي رسول الله ﷺ رايتان سوداوان إحداهما مع علي بن أبي طالب يقال لها العقاب، والأخرى مع بعض الأنصار.

قال ابن هشام [السيرة: ١/٦١٣]: كانت راية الأنصار مع سعد بن معاذ.

وقال الأموي: كانت مع الحباب بن المنذر.

قال ابن إسحاق: وجعل رسول الله ﷺ على الساقة قيس بن أبي صعصعة أخا بني مازن بن النجار.

وقال الأموي: وكان معهم فرسان على إحداهما مصعب بن عمير وعلى الأخرى الزبير بن العوام ومرة سعد بن خيثمة ومرة المقداد بن الأسود.

وقد روى الإمام أحمد [١/١٢٥، ١٣٨] من حديث أبي إسحاق عن حارثة بن مضرب عن علي قال: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد.

وروى البيهقي [الدلائل: ٣/٣٩] من طريق ابن وهب عن أبي صخر عن أبي معاوية البجلي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن عليا قال له: ما كان معنا إلا فرسان فرس للزبير وفرس للمقداد بن الأسود - يعني يوم

بدر -.

وقال الأموي: حدثنا أبي حدثنا إسماعيل بن أبي خالد عن البهي قال: كان مع رسول الله ﷺ يوم بدر فارسان، الزبير بن العوام على الميمنة، والمقداد بن الأسود على الميسرة.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦١٣/١]: وكان معهم سبعون بعيراً يعتقبونها، فكان رسول الله ﷺ وعلي ومرثد بن أبي مرثد يعتقبون بعيراً، وكان حمزة وزيد بن حارثة وأبو كبشة وأنسة يعتقبون بعيراً. كذا قال ابن إسحاق رحمه الله تعالى.

وقد قال الإمام أحمد [٤١٦/١]: حدثنا عفان عن حماد بن سلمة حدثنا عاصم بن بهدلة عن زر بن حبيش عن عبد الله بن مسعود. قال: كنا يوم بدر كل ثلاثة على بعير، كان أبو لبابة وعلي زميلي رسول الله ﷺ. قال: فكانت عقبة رسول الله ﷺ فقالا: نحن نمشي عنك. فقال: «ما أنتما بأقوى مني ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما».

وقد رواه النسائي [كبرى: ٨٨٠٧] عن الفلاس عن ابن مهدي عن حماد بن سلمة به.

قلت: ولعل هذا كان قبل أن يرد أبا لبابة من الروحاء، ثم كان زميلاه علي ومرثد بدل أبي لبابة والله أعلم.

وقال الإمام أحمد [١٥٠/٦]: حدثنا محمد بن جعفر حدثنا سعيد عن قتادة عن زرارة بن أوفى عن سعد بن هشام عن عائشة: أن رسول الله ﷺ أمر بالأجراس أن تقطع من أعناق الإبل يوم بدر، وهذا على شرط الصحيحين.

وإنما رواه النسائي [كبرى: ٨٨٠٩] عن أبي الأشعث عن خالد بن الحارث عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة به.

قال شيخنا الحافظ المزي في الأطراف [تحفة الأشراف: ٤١٠/١١] وتابعه سعيد بن بشير عن قتادة. وقد رواه هشام عن قتادة عن زرارة عن أبي هريرة [كبرى (٨٨١٠)] فالله أعلم.

وقال البخاري [٣٩٥١]: حدثنا يحيى بن بكير حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك أن عبد الله بن كعب قال: سمعت كعب بن مالك يقول: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك غير أني تخلفت عن غزوة بدر ولم يعاتب الله أحداً تخلف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد. تفرد به.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦١٣/١، ٦١٤]: فسلك رسول الله ﷺ طريقه من المدينة إلى مكة على نقب المدينة ثم على العقيق ثم على ذي الحليفة ثم على أولات الجيش ثم مر على تربان ثم على ملل ثم على غميس الحمام ثم على صخيرات اليمام ثم على السيالة ثم على فج الروحاء ثم على شنوكة وهي الطريق المعتدلة حتى إذا كان بعرق الظبية لقوا رجلا من الأعراب فسألوه عن الناس فلم يجدوا عنده خبراً، فقال له الناس: سلم على رسول الله ﷺ قال: أوفيكم رسول الله ﷺ؟ قالوا: نعم! فسلم عليه ثم قال: لئن كنت رسول الله فأخبرني عما في بطن ناقتي هذه، قال له سلمة بن سلامة بن وقش: لا تسأل رسول الله ﷺ وأقبل عليّ فأنا أخبرك عن ذلك، نزوت عليها ففي بطنها منك سخلة، فقال رسول الله ﷺ «مه أفحشت على الرجل». ثم أعرض عن سلمة ونزل رسول الله ﷺ سجسج وهي بئر الروحاء ثم ارتحل منها حتى إذا كان منها بالمنصرف ترك طريق مكة بيسار وسلك ذات اليمين على النازية يريد بدراً فسلك في ناحية منها حتى إذا جزع واديا يقال له رُحقان بين النازية وبين مضيق الصفراء ثم على المضيق ثم انصب منه حتى إذا كان قريبا من الصفراء بعث بسبس بن عمرو الجهني حليف بني ساعدة وعدي بن أبي الزغباء حليف بني النجّار إلى بدر يتجسسان الأخبار عن أبي سفيان صخر بن حرب وعيره.

وقال موسى بن عقبة: بعثهما قبل أن يخرج من المدينة فلمّا رجعا فأخبراه بخبر العير استنفر الناس إليها.

فإن كان ما ذكره موسى بن عقبة وابن إسحاق محفوظاً فقد بعثهما مرّتين والله أعلم.

قال ابن إسحاق رحمه الله [سيرة ابن هشام: ٦١٤/١]: ثم ارتحل رسول الله ﷺ وقد قدّمهما فلما استقبل الصفّراء وهي قرية بين جبلين سأل عن جبليها ما أسماؤهما؟ فقالوا: يقال لأحدهما مسلح وللآخر مخرئ وسأل عن أهلهما فقيل: بنو النار، وبنو حراق، بطنان من غفار فكرههما رسول الله ﷺ والمرور بينهما وتفاءل بأسمائهما وأسماء أهلهما فتركهما والصفراء بيسار وسلك ذات اليمين على وادٍ يقال له: ذفران فجزع فيه ثم نزل وأتاه الخبر عن قريش ومسيرهم ليمنعوا عيرهم، فاستشار الناس وأخبرهم عن قريش فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسن، ثم قام عمر بن الخطّاب فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله امض لما أراك الله، فنحن معك والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربّك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ولكن اذهب أنت وربّك فقاتلا إنا معكما مقاتلون؛ فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى بَرْك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له.

ثم قال رسول الله ﷺ: «أشيروا عليّ أيها الناس» وإنما يريد الأنصار، وذلك أنهم كانوا عدد الناس وأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: يا رسول الله إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا، فكان رسول الله ﷺ يتخوّف أن لا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم.

فلما قال ذلك رسول الله ﷺ قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: «أجَلْ» قال: قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة لك فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلّف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً إنا لصبرٌ في الحرب صدق عند اللقاء لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر على بركة الله.

قال: فسُرّ رسول الله ﷺ بقول سعد ونشّطه ثم قال: «سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم».

هكذا رواه ابن إسحاق رحمه الله. وله شواهد من وجوه كثيرة: فمن ذلك ما رواه البخاري في صحيحه [٣٩٥٢]: حدثنا أبو نعيم حدثنا إسرائيل عن مخارق عن طارق بن شهاب قال: سمعت ابن مسعود يقول: شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه كان أحب إلي مما عُدل به، أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين. فقال: لا نقول كما قال قوم موسى لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ ولكن نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك، قال: فرأيت النبي ﷺ

أشرق وجهه وسرّه.

انفرد به البخاري دون مسلم فرواه في مواضع من صحيحه من حديث مخارق به [٤٩٠٦].

ورواه النسائي [كبرى: ١١١٤٠] من حديثه وعنده: وجاء المقداد بن الأسود يوم بدر على فرس فذكره.

وقال الإمام أحمد [١٨٨/٣]: حدثنا عبيدة - هو ابن حميد - عن حميد الطويل عن أنس قال: استشار النبي ﷺ مخرجه إلى بدر فأشار عليه أبو بكر، ثم استشارهم فأشار عليه عمر، ثم استشارهم فقال بعض الأنصار: إياكم يريد رسول الله يا معشر الأنصار. فقال بعض الأنصار: يا رسول الله إنّا لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ ولكن والذي بعثك بالحق لو ضربت أكبادها إلى برك الغماد لاتبعناك.

وهذا إسناد ثلاثي صحيح على شرط الصحيح.

وقال أحمد [٢٥٧/٣، ٢٥٨] أيضاً: حدثنا عفان حدثنا حماد عن ثابت عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان قال: فتكلم أبو بكر فأعرض عنه ثم تكلم عمر فأعرض عنه فقال سعد بن عبادة: إيانا يريد رسول الله ﷺ والذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحار لأخضناها ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد لفعلنا، فندب رسول الله ﷺ الناس.

قال: فانطلقوا حتى نزلوا بدراً ووردت عليهم روايا قريش وفيهم غلام أسود لبني الحجاج، فأخذوه وكان أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه عن أبي سفيان وأصحابه فيقول: ما لي علم بأبي سفيان ولكن هذا أبو جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وشيبة وأمية بن خلف فإذا قال ذلك ضربوه فإذا ضربوه. قال: نعم! أنا أخبركم هذا أبو سفيان فإذا تركوه فسألوه قال: ما لي بأبي سفيان علم ولكن هذا أبو جهل وعتبة وشيبة وأمية في الناس، فإذا قال هذا أيضاً ضربوه ورسول الله ﷺ قائم يصلي، فلما رأى ذلك انصرف فقال: «والذي نفسي بيده إنكم لتضربونه إذا صدقكم وتتركونه إذا كذبكم». قال: وقال رسول الله ﷺ: «هذا مصرع فلان يضع يده على الأرض ههنا وههنا»، فما أماط أحدهم عن موضع يد رسول الله ﷺ.

ورواه مسلم [١٧٧٩] عن أبي بكر عن عفان به نحوه.

وقد روى ابن أبي حاتم في تفسيره وابن مردويه واللفظ له من طريق عبد الله بن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن أسلم عن أبي عمران أنه سمع أبا أيوب الأنصاري يقول: قال رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة: «إني أخبرت عن عير أبي سفيان أنها مقبلة فهل لكم أن نخرج قبل هذه العير لعل الله يغنمناها؟» فقلنا: نعم! فخرج وخرجنا، فلما سرنا يوماً أو يومين قال لنا: «ما ترون في القوم فإنهم قد أخبروا بمخرجكم؟» فقلنا لا والله ما لنا طاقة بقتال القوم، ولكنا أردنا العير، ثم قال: «ما ترون في قتال القوم؟» فقلنا: مثل ذلك، فقام المقداد بن عمرو فقال: إذاً لا نقول لك يا رسول الله كما قال قوم موسى لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾، قال: فتمنينا معشر الأنصار لو أنا قلنا مثل ما قال المقداد أحب إلينا من أن يكون لنا مال عظيم، قال: فأنزل الله عز وجل على رسوله ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ [الأنفال: ٥]. وذكر تمام الحديث.

وروى ابن مردويه أيضاً من طريق محمد بن عمرو بن علقمة بن وقاص الليثي عن أبيه، عن جده. قال: خرج رسول الله ﷺ إلى بدر حتى إذا كان بالروحاء خطب الناس فقال: «كيف ترون؟» فقال أبو بكر: يا رسول الله بلغنا أنهم بكذا وكذا، قال: ثم خطب الناس فقال: «كيف ترون؟» فقال عمر مثل قول أبي بكر، ثم خطب الناس فقال: «كيف ترون؟» فقال سعد بن معاذ: يا رسول الله إيانا تريد؟ فوالذي أكرمك وأنزل عليك الكتاب ما سلكتها قط ولا لي بها علم، ولئن سرت حتى تأتي برك الغماد من ذي يمن لنسيرن معك، ولا نكون كالذين قالوا لموسى: «اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون»، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا معكم متبعون، ولعل أن تكون خرجت لأمر وأحدث الله إليك غيره، فانظر الذي أحدث الله إليك فامض له، فصل حبال من شئت، واقطع حبال من شئت، وعاد من شئت، وسالم من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت. فنزل القرآن على قول سعد ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ [الأنفال: ٥] الآيات.

وذكره الأموي في مغازيه [انظر سبل الهدى والرشاد ٤٢/٤، ٤٣] وزاد بعد قوله: وخذ من أموالنا ما شئت، وأعطنا ما شئت، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت، وما أمرت به من أمر فأمرنا تبع لأمرك، فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرن معك.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦١٥/١، ٦١٦]: ثم ارتحل رسول الله ﷺ من ذفران فسلك على ثنايا يقال لها: الأصافر ثم انحط منها إلى بلد يقال له الدبّة وترك الحنّان بيمين وهو كثيب عظيم كالجبل العظيم، ثم نزل قريبا من بدر فركب هو ورجل من أصحابه.

قال ابن هشام: هو أبو بكر.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦١٦/١] كما حدثني محمد بن يحيى بن حبان - حتى وقف على شيخ من العرب فسأله عن قريش وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم. فقال الشيخ: لا أخبركما حتى تخبراني ممن أنتما؟ فقال له رسول الله ﷺ: «إذا أخبرتنا أخبرناك» فقال: أو ذاك بذاك؟ قال: «نعم!» قال الشيخ: فإنه بلغني أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا للمكان الذي به رسول الله ﷺ وبلغني أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا فإن كان الذي أخبرني صدقني فهم اليوم بمكان كذا وكذا. للمكان الذي به قريش، فلما فرغ من خبره قال: ممن أنتما؟ فقال له رسول الله ﷺ: «نحن من ماء» ثم انصرف عنه. قال: يقول الشيخ: ما من ماء أمن ماء العراق؟ قال ابن هشام: يقال لهذا الشيخ سفيان الضمري.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦١٦/١، ٦١٧]: ثم رجع رسول الله ﷺ إلى أصحابه فلما أمسى بعث عليّ بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص في نفر من أصحابه إلى ماء بدر يلتمسون الخبر له كما:

حدثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير [تاريخ الطبري: ٤٣٦/٢]: فأصابوا راوية لقريش فيها أسلم غلام بني الحجاج وعريض أبو يسار غلام بني العاص بن سعيد، فأتوا بهما فسألوهما ورسول الله ﷺ قائم يصلي فقالوا: نحن سقاة قريش بعثونا نسقيهم من الماء، فكره القوم خبرهما ورجوا أن يكونا لأبي سفيان فضربوهما، فلما أذلقوهما قالا: نحن لأبي سفيان فتركوهما وركع رسول الله ﷺ وسجد سجدتيه وسلّم. وقال: «إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما صدقا والله إنهما لقريش، أخبراني عن قريش؟» قالا: هم وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى، والكثيب العقنقل. فقال لهما رسول الله ﷺ: «كم القوم؟» قالا:

كثير. قال: «ما عِدَّتهم» قالا: لا ندري، قال: «كم ينحرون كلَّ يوم؟» قالا: يوماً تسعاً ويوماً عشراً. فقال رسول الله ﷺ: «القوم ما بين التسعمائة إلى الألف» ثم قال لهما: «فمن فيهم من أشراف قريش»؟ قالا: عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو البختري بن هشام وحكيم بن حزام ونوفل بن خويلد والحارث بن عامر بن نوفل وطعيمة بن عدي بن نوفل والنضر بن الحارث وزمعة بن الأسود وأبو جهل بن هشام وأمية بن خلف ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وسهيل بن عمرو وعمرو بن عَبْدِ وُدّ. قال: فأقبل رسول الله ﷺ على الناس فقال: «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها»

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦١٧/١، ٦١٨]: وكان بسبس بن عمرو وعدي بن أبي الزَّغباء قد مضيا حتى نزلا بدراً فأناخا إلى تل قريب من الماء ثم أخذا شناً لهما يستقيان فيه. وبجدي بن عمرو الجهني على الماء فسمع عدي وبسبس جاريتين من جواري الحاضر وهما يتلازمان على الماء والملزومة تقول لصاحبتها: إنما تأتي العير غداً أو بعد غد فأعمل لهم ثم أقضيك الذي لك. قال بجدي: صدقت ثم خلّص بينهما. وسمع ذلك عدي وبسبس فجلسا على بعيريهما ثم انطلقا حتى أتيا رسول الله ﷺ وأخبراه بما سمعا، وأقبل أبو سفيان حتى تقدم العير حذراً حتى ورد الماء. فقال لمجدي بن عمرو: هل أحسست أحداً؟ قال: ما رأيت أحداً أنكره إلا أني قد رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا التل ثم استقيا في شنّ لهما ثم انطلقا، فأتى أبو سفيان مناخهما فأخذ من أبعار بعيريهما ففتّه فإذا فيه النوى. فقال: هذه والله علائف يثرب فرجع إلى أصحابه سريعاً فضرب وجه عيره عن الطريق فساحل بها وترك بدراً بيسار وانطلق حتى أسرع.

قال: وأقبلت قريش، فلما نزلوا الجحفة رأى جهيم بن الصلت بن مخرمة بن المطلب بن عبد مناف رؤيا. فقال: إني رأيت فيما يرى النائم وإني لبين النائم واليقظان إذ نظرت إلى رجل قد أقبل على فرس حتى وقف ومعه بعير له ثم قال: قتل عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو الحكم بن هشام وأمية بن خلف وفلان وفلان فعدّ رجالاً ممن قتل يوم بدر من أشراف قريش، ثم رأيته ضرب في لبة بعيره ثم أرسله في العسكر فما بقي خباء من أخبية العسكر إلا أصابه نضح من دمه قال: فبلغت أبا جهل لعنه الله فقال: هذا أيضا نبي آخر من بني المطلب سيعلم غداً من المقتول إن نحن التقينا.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦١٨/١، ٦١٩]: ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عيره أرسل إلى قريش إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم فقد نجاها الله فارجعوا، فقال أبو جهل بن هشام: والله لا نرجع حتى نرد بدراً وكان بدر موسماً من مواسم العرب يجتمع لهم به سوق كل عام فنقيم عليه ثلاثاً فننحر الجزُر ونطعم الطعام ونسقي الخمر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبداً فامضوا.

وقال الأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفيّ - وكان حليفاً لبني زهرة - وهم بالجحفة: يا بني زهرة قد نجّى الله لكم أموالكم، وخلّص لكم صاحبكم مخرمة بن نوفل، وإنما نفرتم لتمنعوه وماله فاجعلوا بي جبنها وارجعوا فإنه لا حاجة لكم بأن تخرجوا في غير ضيعة لا ما يقول هذا.

قال: فرجعوا فلم يشهدها زهريّ واحد، أطاعوه وكان فيهم مطاعاً ولم يكن بقي بطن من قريش إلا وقد نفر منهم ناس إلا بني عدي لم يخرج منهم رجل واحد، فرجعت بنو زهرة مع الأخنس فلم يشهد بدراً من هاتين القبيلتين أحد.

قال: ومضى القوم وكان بين طالب بن أبي طالب - وكان في القوم - وبين بعض قريش محاورة. فقالوا: والله لقد عرفنا يا بني هاشم - وإن خرجتم معنا - أن هواكم مع محمد، فرجع طالب إلى مكة مع من رجع. وقال في ذلك:

لاهُمَّ إمـا يغـزونْ طـالبْ ... في عُصبـةٍ مُحـالِفٌ محـاربْ

في مِقنـب مـن هـذه المقـانبْ ... فليكـنِ المسـلوب غـيرَ السّـالبْ

وليكـن المغلـوب غـيرَ الغـالبْ

قال ابن إسحاق: [سيرة ابن هشام: ٦١٩/١، ٦٢٠] ومضت قريش حتى نزلوا بالعدوة القصوى من الوادي خلف العقنقل وبطن الوادي وهو يَلْيل، بين بدر وبين العقنقل الكثيب الذي خلفه قريش، والقليب ببدر في العدوة الدنيا من بطن يَلْيل إلى المدينة.

قلت: وفي هذا قال تعالى: ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٢] أي من ناحية الساحل ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَـكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً﴾ [الأنفال: ٤٢] الآيات.

وبعث الله السماء وكان الوادي دَهْساً فأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه منها ماء لبُد لهم الأرض ولم يمنعهم من السير، وأصاب قريشاً منها ماء لم يقدروا على أن يرتحلوا معه.

قلت وفي هذا قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاء مَاء لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١] فذكر أنه طهّرهم ظاهراً وباطناً، وأنه ثبّت أقدامهم وشجّع قلوبهم وأذهب عنهم تخذيل الشيطان وتخويفه للنفوس ووسوسته الخواطر، وهذا تثبيت الباطن والظاهر وأنزل النصر عليهم من فوقهم في قوله: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ﴾ أي على الرؤوس ﴿وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ أي: لئلا يستمسك منهم السلاح ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ. ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ [الأنفال: ١٢ - ١٤].

قال ابن جرير: [تفسيره: ١٩٤/٩ - ١٩٥] حدثني هارون بن إسحاق حدثنا مصعب بن المقدام ثنا إسرائيل ثنا أبو إسحاق عن حارثة عن علي بن أبي طالب. قال: أصابنا من الليل طش من المطر - يعني الليلة التي كانت في صبيحتها وقعة بدر - فانطلقنا تحت الشجر والحجف نستظل تحتها من المطر، وبات رسول الله ﷺ - يعني قائماً يصلي - وحرّض على القتال.

وقال الإمام أحمد [١٢٥/١، ١٣٨]: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن شعبة عن أبي إسحاق عن حارثة بن مضرب عن علي. قال: ما كان فينا فارس يوم بدر إلا المقداد، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ تحت شجرة يصلي ويبكي حتى أصبح.

وسيأتي هذا الحديث مطولاً.

ورواه النسائي [في الكبرى: (١٠٤٤٧)] عن بندار عن غندر عن شعبة به.

وقال مجاهد: أنزل عليهم المطر فأطفأ به الغبار وتلبدت به الأرض وطابت به أنفسهم وثبتت به أقدامهم [تفسير الطبري: ١٩٦/٩].

قلت: وكانت ليلة بدر ليلة الجمعة السابعة عشر من شهر رمضان سنة ثنتين من الهجرة، وقد بات رسول الله ﷺ تلك الليلة يصلي إلى جذم شجرة هناك، ويكثر في سجوده أن يقول: «يا حيُّ يا قيُّوم» يكرّر ذلك ويلفظ به عليه السلام.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٢٠/١]: فخرج رسول الله ﷺ يبادرهم إلى الماء حتى إذا جاء أدنى ماء من بدر نزل به.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٢٠/١]: فحدثت عن رجال من بني سلمة أنهم ذكروا أن الحباب بن منذر بن الجموح. قال: يا رسول الله أرأيت هذا المنزل أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه. أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة». قال: يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل فامض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله ثم نُغَوِّر ما وراءه من القُلُب، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون. فقال رسول الله ﷺ: «لَقَدْ أَشَرْتَ بالرَّأي».

قال الأموي حدثنا أبي قال: وزعم الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. قال: بينا رسول الله ﷺ يجمع الأقباص وجبريل عن يمينه إذ أتاه ملك من الملائكة فقال: يا محمد إن الله يقرأ عليك السلام فقال رسول الله ﷺ: «هو السَّلام ومنه السَّلام وإليه السلام» فقال الملك: إن الله يقول لك إن الأمر هو الذي أمرك به الحباب بن المنذر. فقال رسول الله ﷺ: «يا جبريل هل تعرف هذا؟» فقال: ما كل أهل السماء أعرف وإنه لصادق وما هو بشيطان فنهض رسول الله ﷺ ومن معه من الناس فسار حتى أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه، ثم أمر بالقُلُب فعوّرت، وبنى حوضا على القليب الذي نزل عليه فملئ ماء ثم قذفوا فيه الآنية.

وذكر بعضهم أن الحباب بن المنذر لما أشار بما أشار به على رسول الله ﷺ نزل ملك من السماء وجبريل عند النبي ﷺ فقال الملك: يا محمّد ربّك يقرأ عليك السلام ويقول لك: إن الرأي ما أشار به الحباب، فنظر رسول الله ﷺ إلى جبريل فقال: «ليس كُلُّ الملائكة أعرفهم وأنّه مَلَكٌ وليس بشيطان».

وذكر الأموي أنهم نزلوا على القليب الذي يلي المشركين نصف الليل، وأنهم نزلوا فيه واستقوا منه وملؤوا الحياض حتى أصبحت ملاء وليس للمشركين ماء.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٢٠/١، ٦٢١]: فحدثني عبد الله بن أبي بكر أنه حُدِّث: أن سعد بن معاذ. قال: يا نبي الله ألا نبني لك عريشا تكون فيه ونُعِدُّ عندك ركائبك ثم نلقى عدونا فإن أعزّنا الله وأظهرنا على عدونا، كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا فقد تخلف عنك أقوامٌ ما نحن بأشدَّ حباً لك منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلّفوا عنك، يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك. فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيراً ودعا له بخير، ثم بني لرسول ﷺ عريش كان فيه.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٢١/١]: وقد ارتحلت قريش حين أصبحت فأقبلت، فلما رآها رسول الله ﷺ تصوّب من العقنقل وهو الكثيب الذي جاؤوا منه إلى الوادي. قال: «اللهم هذه قريشٌ قد أقبلت بخُيلائها وفخرها تُحادُّك وتكذّب رسولك اللهم فنَصْرَكَ الذي وعدتني اللهم أحنهم الغداة». وقد قال رسول الله ﷺ - وقد رأى عتبة بن ربيعة في القوم وهو على جمل له أحمر: «إن يكن في أحَد من القوم خيرٌ فعند صاحب الجمل الأحمر إن يطيعوه يرشدوا».

قال: وقد كان خُفاف بن أيماء بن رحضة أو أبوه إيماء بن رحضة الغفاري، بعث إلى قريش ابناً له بجزائر أهداها لهم. وقال: «إن أحببتم أن نمدّكم بسلاح ورجال فعلنا» قال: فأرسلوا إليه مع ابنه أن وصلتك رحم، وقد قضيت الذي عليك، فلعمري إن كنا إنما نقاتل الناس ما بنا ضعف عنهم، وإن كنا إنما نقاتل الله كما يزعم محمد فما لأحد بالله من طاقة.

قال: فلما نزل الناس أقبل نفر من قريش حتى وردوا حوض رسول الله ﷺ فيهم حكيم بن حزام، فقال رسول الله ﷺ: «دَعُوهُم» فما شرب منه رجلٌ يومئذٍ إلا قُتِلَ إلا ما كان من حكيم بن حزام فإنه لم يُقتل. ثم أسلم بعد ذلك فحسن إسلامه فكان إذا اجتهد في يمينه قال: لا والذي نجاني يوم بدر.

قلت: وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يومئذ ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا كما سيأتي بيان ذلك في فصل نعقده بعد الوقعة، ونذكر أسماءهم على حروف المعجم إن شاء الله.

ففي صحيح البخاري [٣٩٥٩] عن البراء. قال: كنّا نتحدث أن أصحاب بدر ثلاثمائة وبضع عشرة على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر، وما جاوزه معه إلا مؤمن.

وللبخاري [٣٩٥٦] أيضاً عنه. قال استصغرت أنا وابن عمر يوم بدر وكان المهاجرون يوم بدر نيفاً على ستين،والأنصار نيفاً وأربعون ومائتان.

وروى الإمام أحمد [٢٤٨/١] عن نصر بن باب عن حجاج عن الحكم عن مقسم عن ابن عباس أنه قال: كان أهل بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر، وكان المهاجرون ستة وسبعين وكان هزيمة أهل بدر لسبع عشرة مضين يوم الجمعة في شهر رمضان. وقال الله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ [الأنفال: ٤٣] الآية. وكان ذلك في منامه تلك الليلة.

وقيل: إنه نام في العريش وأمر الناس أن لا يقاتلوا حتى يأذن لهم، فدنا القوم منهم فجعل الصديق يوقظه ويقول: يا رسول الله دنوا منا فاستيقظ، وقد أراه الله إياهم في منامه قليلاً. ذكره الأموي وهو غريب جداً.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً﴾ [الأنفال: ٤٤].

فعندما تقابل الفريقان قلّل الله كلاً منهما في أعين الآخرين ليجترئ هؤلاء على هؤلاء، وهؤلاء على هؤلاء لما له في ذلك من الحكمة البالغة، وليس هذا معارض لقوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ١٣] فإنّ المعنى في ذلك على أصح القولين أن الفرقة الكافرة ترى الفرقة المؤمنة مثلي عدد الكافرة على الصحيح أيضاً، وذلك عند التحام الحرب والمسايفة أوقع الله الوهن والرعب في قلوب الذين كفروا فاستدرجهم أولا بأن أراهم إياهم عند المواجهة قليلاً، ثم أيد المؤمنين بنصره فجعلهم في أعين الكافرين على الضعف منهم حتى وهنوا وضعفوا وغلبوا. ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٣].

قال إسرائيل عن أبي إسحاق عن أبي عبيدة، عن عبد الله: لقد قُلّلوا في أعيننا يوم بدر حتى أني لأقول لرجل إلى جنبي أتراهم سبعين؟ فقال: أراهم مائة. [تفسير الطبري: ١٣/١٠]

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٢٢/١ - ٦٢٤]: وحدثني أبي إسحاق

بن يسار وغيره من أهل العلم عن أشياخ من الأنصار قالوا: لما اطمأن القوم بعثوا عمير بن وهب الجمحي فقالوا: احزر لنا القوم أصحاب محمد، قال: فاستجال بفرسه حول العسكر ثم رجع إليهم فقال: ثلاثمائة رجل يزيدون قليلاً، أو ينقصون ولكن أمهلوني حتى أنظر اللقوم كمين أو مدد. قال: فضرب في الوادي حتى أبعد فلم ير شيئاً، فرجع إليهم فقال: ما رأيت شيئاً، ولكن قد رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع قوم ليس لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلاً منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك فَرَوْا رأيكم يا معشر قريش؟ فلما سمع حكيم بن حزام ذلك مشى في الناس فأتى عتبة بن ربيعة فقال: يا أبا الوليد إنك كبير قريش وسيدها والمطاع فيها، هل لك إلى أن لا تزال تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر؟ قال: وما ذاك يا حكيم؟ قال: ترجع بالناس وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمي قال: قد فعلت أنت عليّ بذلك، إنما هو حليفي فعليّ عقله وما أصيب من ماله. فأت ابن الحنظلية - يعني أبا جهل - فإني لا أخشى أن يشجر أمر الناس غيره، ثم قام عتبة خطيباً فقال: يا معشر قريش إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر إلى وجه رجل يكره النظر إليه، قتل ابن عمه - أو ابن خاله - أو رجلاً من عشيرته فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب، فإن أصابوه فذلك الذي أردتم، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرّضوا منه ما تريدون.

قال حكيم: فانطلقت حتى جئت أبا جهل فوجدته قد نثل درعاً له فهو يهيئها فقلت له: يا أبا الحكم إن عتبة أرسلني إليك بكذا وكذا فقال: انتفخ والله سحره حين رأى محمداً وأصحابه فلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، وما بعتبة ما قال ولكنه رأى محمداً وأصحابه أكلة جزور، وفيهم ابنه فقد تخوفكم عليه، ثم بعث إلى عامر بن الحضرمي. فقال: هذا حليفك يريد أن يرجع الناس، وقد رأيت ثأرك بعينك فقم فانشد خفرتك ومقتل أخيك، فقام عامر بن الحضرمي فاكتشف ثم صرخ واعمراه واعمراه.

قال: فحميت الحرب وحقب أمر الناس واستوسقوا على ما هم عليه من الشر وأفسد على الناس الرأي الذي دعاهم إليه عتبة. فلما بلغ عتبة قول أبي جهل انتفخ والله سحره قال: سيعلم مصفّر استه من انتفخ سحره أنا أم هو، ثم التمس عتبة بيضة ليدخلها في رأسه فما وجد في الجيش بيضة تسعه من عظم رأسه فلما رأى ذلك اعتجر على رأسه ببرد له.

وقد روى ابن جرير [تاريخه: ٤٤٣/٢] من طريق مسور بن عبد الملك اليربوعي عن أبيه عن سعيد بن المسيب قال: بينا نحن عند مروان بن الحكم إذ دخل حاجبه فقال: حكيم بن حزام يستأذن، قال: ائذن له فلما دخل قال: مرحباً يا أبا خالد أدن، فحال له عن صدر المجلس حتى جلس بينه وبين الوسادة ثم استقبله فقال: حدثنا حديث بدر. فقال: خرجنا حتى إذا كنا بالجحفة رجعت قبيلة من قبائل قريش بأسرها فلم يشهد أحد من مشركيهم بدراً، ثم خرجنا حتى نزلنا العدوة التي قال الله تعالى، فجئت عتبة بن ربيعة فقلت: يا أبا الوليد هل لك في أن تذهب بشرف هذا اليوم ما بقيت؟ قال: أفعل ماذا؟ قلت: إنكم لا تطلبون من محمد إلا دم ابن الحضرمي وهو حليفك، فتحمل بديته ويرجع الناس. فقال: أنت علي بذلك واذهب إلى ابن الحنظلية - يعني أبا جهل - فقل له: هل لك أن ترجع اليوم بمن معك عن ابن عمك؟ فجئته فإذا هو في جماعة من بين يديه ومن خلفه، وإذا ابن الحضرمي واقف على رأسه وهو يقول: فسخت عقدي من عبد شمس، وعقدي اليوم إلى بني مخزوم فقلت له: يقول لك عتبة بن ربيعة: هل لك أن ترجع اليوم عن ابن عمك بمن معك؟ قال: أما وجد رسولاً غيرك؟ قلت: لا! ولم أكن لأكون رسولا لغيره. قال حكيم: فخرجت مبادراً إلى عتبة لئلا يفوتني من الخبر شيء وعتبة متكئ على إيماء بن رحضة الغفاري، وقد أهدى إلى المشركين عشرة جزائر. فطلع أبو جهل والشّر في وجهه فقال لعتبة: انتفخ سحرك؟ فقال له عتبة: ستعلم! فسلّ أبو جهل سيفه فضرب به متن فرسه، فقال إيماء بن رحضة: بئس الفأل هذا! فعند ذلك قامت الحرب. وقد صفّ رسول الله ﷺ أصحابه وعبّاهم أحسن تعبية.

فروى الترمذي [١٦٧٧] عن عبد الرحمن بن عوف. قال: صفّنا رسول ﷺ يوم بدر ليلاً.

وروى الإمام أحمد [٤٢٠/٥] من حديث ابن لهيعة حدثني يزيد بن أبي حبيب أن أسلم أبا عمران حدثه أنه سمع أبا أيوب يقول: صُفِفْنا يوم بدر فبدرت منا بادرة أمام الصف، فنظر إليهم النبي ﷺ فقال: «معي معي». تفرد به أحمد وهذا إسناد حسن.

وقال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٢٦/١]: وحدثني حبان بن واسع بن حبان عن أشياخ من قومه: أن رسول الله ﷺ عدّل صفوف أصحابه يوم بدر وفي يده قدح يعدل به القوم، فمر بسواد بن غزيّة حليف بني عدي بن النجار وهو مستنتل من الصف، فطعن في بطنه بالقدح وقال: «استو يا سواد» فقال: يا رسول الله: أوجعتني وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقِدْني. فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه فقال: «استقد»، قال: فاعتنقه فقبل بطنه، فقال: «ما حملك على هذا يا سواد؟» قال: يا رسول الله حضر ما ترى فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك، فدعا له رسول الله ﷺ بخير وقاله.

قال ابن إسحاق: وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة أن عوف بن الحارث - وهو ابن عفراء - قال: يا رسول الله ما يضحك الرب من عبده؟ قال: «غَمْسُهُ يدَه في العدوّ حاسراً» فنزع درعاً كانت عليه فقذفها، ثم أخذ سيفه فقاتل حتى قُتِل رضي الله عنه.

قال ابن إسحاق: ثم عدل رسول الله ﷺ الصفوف ورجع إلى العريش فدخله ومعه أبو بكر ليس معه فيه غيره.

وقال ابن إسحاق وغيره [سيرة ابن هشام: ٦٢٨/١، وتاريخ الطبري: ٤٤٩/٢]: وكان سعد بن معاذ رضي الله عنه واقفاً على باب العريش متقلداً بالسيف ومعه رجال من الأنصار يحرسون رسول الله ﷺ خوفاً عليه من أن يدهمه العدو من المشركين والجنائب النجائب مهيأة لرسول الله ﷺ إن احتاج إليها ركبها ورجع إلى المدينة كما أشار به سعد بن معاذ.

وقد روى البزار في مسنده [كشف الأستار: ١٦١/٣، ١٦٢] من حديث محمد بن عقيل عن عليّ أنه خطبهم فقال: يا أيها الناس من أشجع الناس؟ فقالوا: أنت يا أمير المؤمنين، فقال: أما إني ما بارزني أحد إلا انتصفت منه، ولكن هو أبو بكر، إنا جعلنا لرسول الله ﷺ عريشاً فقلنا: من يكون مع رسول الله ﷺ لئلا يهوي إليه أحد من المشركين، فوالله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر شاهراً بالسيف على رأس رسول الله ﷺ لا يهوي إليه أحد إلا أهوى إليه؛ فهذا أشجع الناس.

قال: ولقد رأيت رسول الله ﷺ وأخذته قريش فهذا يَجَؤُه، وهذا

يتلتله ويقولون: أنت جعلت الآلهة إلهاً واحداً. فوالله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر يضرب هذا ويَجأ هذا ويتلتل هذا وهو يقول: ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول: ربي الله. ثم رفع عليّ بردة كانت عليه فبكى حتى اخضلّت لحيته ثم قال: أنشدكم الله أمؤمن آل فرعون خير أم هو؟ فسكت القوم فقال علي: فوالله لساعة من أبي بكر خير من ملء الأرض من مؤمن آل فرعون، ذاك رجل يكتم إيمانه وهذا رجل أعلن إيمانه.

ثم قال البزار: لا نعلمه يروى إلا من هذا الوجه.

فهذه خصوصية للصدّيق حيث هو مع الرسول ﷺ في العريش كما كان معه في الغار ﷺ وارضاه. ورسول الله ﷺ يكثر الابتهال والتضرع والدعاء ويقول فيما يدعو به: «اللّهم إنك إن تهلك هذه العصابة لا تعبد بعدها في الأرض» وجعل يهتف بربه عز وجل ويقول: «اللّهم أنجز لي ما وعدتني، اللّهم نصرك» ويرفع يديه إلى السماء حتى سقط الرداء عن منكبيه. وجعل أبو بكر ﷺ يلتزمه من ورائه ويسوّي عليه رداءه ويقول مشفقاً عليه من كثرة الابتهال: يا رسول الله بعض مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك [م (١٧٦٣) بنحوه من حديث عمر بن الخطاب].

هكذا حكى السهيلي [الروض الأنف: ٥/١٣٠] عن قاسم بن ثابت أن الصديق إنما قال: بعض مناشدتك ربك. من باب الإشفاق لما رأى من نصبه في الدعاء والتضرع حتى سقط الرداء عن منكبيه فقال: بعض هذا يا رسول الله أي لمَ تتعب نفسك هذا التعب والله قد وعدك بالنصر، وكان ﷺ رقيق القلب شديد الإشفاق على رسول الله ﷺ.

وحكى السهيلي عن شيخه أبي بكر بن العربي بأنه قال: كان رسول الله ﷺ في مقام الخوف والصدّيق في مقام الرجاء وكان مقام الخوف في هذا الوقت - يعني أكمل - قال: لأن لله أن يفعل ما يشاء فخاف أن لا يعبد في الأرض بعدها، فخوفه ذلك عبادة [الروض الأنف: ٥/١٣٠].

قلت: وأما قول بعض الصوفية إن هذا المقام في مقابلة ما كان يوم الغار. فهو قول مردود على قائله إذ لم يتدبّر هذا القائل عَوَرَ ما قال، ولا لازمه ولا ما يترتب عليه والله أعلم.

هذا وقد تواجه الفئتان وتقابل الفريقان وحضر الخصمان بين يدي الرحمن واستغاث بربه سيد الأنبياء وضج الصحابة بصنوف الدعاء إلى رب الأرض والسماء سامع الدعاء وكاشف البلاء. فكان أول من قتل من المشركين الأسود بن عبد الأسد المخزومي.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٦٢٤، ٦٢٥، تاريخ الطبري: ٢/٤٤٥]: وكان رجلاً شرساً سيّئ الخلق فقال: أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه أو لأموتن دونه، فلما خرج خرج إليه حمزة بن عبد المطلب، فلما التقيا ضربه حمزة فأطنّ قدمه بنصف ساقه وهو دون الحوض فوقع على ظهره تشخب رجله دماً نحو أصحابه، ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه يريد - زَعَمَ - أن يُبرّ يمينه واتبعه حمزة فضربه حتى قتله في الحوض.

قال الأموي: فحمى عند ذلك عتبة بن ربيعة وأراد أن يظهر شجاعته، فبرز بين أخيه شيبة وابنه الوليد، فلما توسطوا بين الصفين دعوا إلى البراز فخرج إليهم فتية من الأنصار ثلاثة وهم: عوف ومعوّذ ابنا الحارث وأمهما عفراء، والثالث عبد الله بن رواحة - فيما قيل- فقالوا: من أنتم؟ قالوا: رهط من الأنصار. فقالوا: ما لنا بكم من حاجة. وفي رواية فقالوا: أكفاء كرام ولكن أخرجوا إلينا من بني عمنا، ونادى مناديهم: يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا. فقال النبي ﷺ: «قم يا عبيدة بن الحارث، وقم يا حمزة، وقم يا علي» وعند الأموي أن النفر من الأنصار لما خرجوا كره ذلك رسول الله ﷺ لأنه أول موقف واجه فيه رسول الله ﷺ أعداءه فأحب أن يكون أولئك من عشيرته فأمرهم بالرجوع وأمر أولئك الثلاثة بالخروج.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٦٢٥]: فلما دنوا منهم قالوا: من أنتم؟ - وفي هذا دليل أنهم كانوا مُلَبّسين لا يُعرفون من السلاح - فقال عبيدة: عبيدة، وقال حمزة: حمزة، وقال علي: علي. قالوا: نعم! أكفاء كرام. فبارز عبيدة وكان أسن القوم عتبةَ، وبارزة حمزة شيبة، وبارز علي الوليد بن عتبة. فأما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله وأما علي فلم يمهل الوليد أن قتله، واختلف عبيدة وعتبة بينهما بضربتين كلاهما أثبت صاحبه، وكر حمزة وعليّ بأسيافهما على عتبة فذففا عليه واحتملا صاحبهما فحازاه إلى أصحابهما ﷺ.

وقد ثبت في الصحيحين [خ (٤٧٤٣)، م (٣٠٣٣)] من حديث أبي مجلز عن قيس بن عُباد عن أبي ذر: أنه كان يقسم قسماً أن هذه الآية ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩] نزلت في حمزة وصاحبيه، وعتبة وصاحبيه يوم برزوا في بدر. هذا لفظ البخاري في تفسيرها.

وقال البخاري [٤٧٤٤]: حدثنا حجاج بن منهال حدثنا المعتمر بن سليمان سمعت أبي ثنا أبو مجلز عن قيس بن عباد عن علي بن أبي طالب. أنه قال: أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن عز وجل في الخصومة يوم القيامة. قال قيس: وفيهم نزلت ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ قال: هم الذين بارزوا يوم بدر علي وحمزة وعبيدة وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة.

تفرد به البخاري. وقد أوسعنا الكلام عليها في التفسير بما فيه كفاية ولله الحمد والمنة.

وقال الأموي: حدثنا معاوية بن عمرو عن أبي إسحاق عن ابن المبارك عن إسماعيل بن أبي خالد عن عبد الله البهيّ. قال: برز عتبة وشيبة والوليد وبرز إليهم حمزة وعبيدة وعلي. فقالوا: تكلموا نعرفكم. فقال حمزة: أنا أسد الله وأسد رسول الله أنا حمزة بن عبد المطلب فقال: كفؤ كريم. وقال علي: أنا عبد الله وأخو رسول الله. وقال عبيدة: أنا الذي في الحُلَفاء.

فقام كل رجل إلى رجل فقاتلوهم فقتلهم الله. فقالت هند في ذلك:

أعيني جُودا بدمعٍ سَرِبْ ... على خيرِ خندفَ لم ينقلبْ

تداعى له رهطُه غُدوةً ... بنو هاشمٍ وبنو المطّلبْ

يُذيقونه حدَّ أسيافهم ... يُعِلُّونه بعدما قد عُطِبْ

ولهذا نذرت هند أن تأكل من كبد حمزة.

قلت: وعبيدة هذا هو ابن الحارث بن المطلب بن عبد مناف ولما جاؤوا به إلى رسول الله ﷺ أضجعوه إلى جانب موقف رسول الله ﷺ فأشرفه رسول الله ﷺ قدمه فوضع خده على قدمه الشريفة وقال: يا رسول الله لو رآني أبو طالب لعلم أني أحق بقوله:

ونُسْلِمه حتى نُصَرَّعَ حَوْلَه ... ونذهلَ عن أبنائنا والحلائلِ

ثم مات ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «أشهد أنك شهيدٌ».

رواه الشافعي رحمه الله.

وكان أول قتيل من المسلمين في المعركة مهجعٌ مولى عمر بن الخطاب رُمِيَ بسهم فقتله.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٦٢٧]: فكان أول من قتل، ثم رُمِيَ بعده حارثة بن سراقة أحد بني عديّ بن النجار وهو يشرب من الحوض

بسهم فأصاب نحره فمات.

وثبت في الصحيحين [خ (٢٨٠٩)، ولم يخرجه مسلم] عن أنس: أن حارثة بن سراقة قتل يوم بدر وكان في النظّارة أصابه سهم غربٌ فقتله، فجاءت أمه فقالت: يا رسول الله أخبرني عن حارثة فإن كان في الجنة صبرت وإلا فليرين الله ما أصنع - يعني من النياح - وكانت لم تحرّم بعد. فقال لها رسول الله ﷺ: «ويحك أهبلت، إنها جنان ثمان وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى».

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٢٥/١]: ثم تزاحف الناس ودنا بعضهم من بعض.

وقال: أمر رسول الله ﷺ أصحابه أن لا يحملوا حتى يأمرهم، وقال: «إن اكتنفكم فانضحوهم عنكم بالنبل».

وفي صحيح البخاري [٣٩٨٤] عن أبي أسيد. قال: قال لنا رسول الله ﷺ يوم بدر: «إذا أكثبوكم - يعني المشركين - فارموهم واستبقوا نبلكم».

وقال البيهقي [دلائل النبوة: ٧٠/٣]: أخبرنا الحاكم أخبرنا الأصم حدثنا أحمد بن عبد الجبار عن يونس بن بكير عن أبي إسحاق حدثني عبد الله بن الزبير. قال: جعل رسول الله ﷺ شعار المهاجرين يوم بدر: يا بني عبد الرحمن، وشعار الخزرج: يا بني عبد الله وشعار الأوس: يا بني عبيد الله، وسمى خيله: خيل الله.

قال ابن هشام [السيرة: ٦٣٤/١]: كان شعار الصحابة يوم بدر: أَحَدٌ أَحَدٌ.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٢٦/١، ٦٢٤]: ورسول الله ﷺ في العريش معه أبو بكر ﷺ - يعني وهو يستغيث الله عز وجل - كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ. وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٩-١٠].

قال الإمام أحمد [٣٠/١]: حدثنا أبو نوح قراد حدثنا عكرمة بن عمار حدثنا سماك الحنفي أبو زميل حدثني ابن عباس حدثني عمر بن الخطاب قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى أصحابه وهم ثلاثمائة ونيف، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة فاستقبل النبي ﷺ القبلة وعليه رداؤه وإزاره ثم قال: «اللّهمّ أنجز لي ما وعدتني، اللّهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد بعد في الأرض أبداً» قال: فما زال يستغيث ربّه ويدعوه حتى سقط رداؤه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فرده ثم التزمه من ورائه ثم قال: يا رسول الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك فأنزل الله ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩] وذكر تمام الحديث كما سيأتي.

وقد رواه مسلم [١٧٦٣] وأبو داود [٢٦٩٠] والترمذي [٣٠٨١] وابن جرير [تفسيره: ١٨٩/٩] وغيرهم من حديث عكرمة بن عمار اليماني وصححه علي بن المديني والترمذي.

وهكذا قال غير واحد عن ابن عباس والسدي وابن جُريج وغيرهم: أن هذه الآية نزلت في دعاء النبي ﷺ يوم بدر.

وقد ذكر الأموي وغيره أن المسلمين عجُّوا إلى الله عز وجل في الاستغاثة بجنابه والاستعانة به.

وقوله تعالى: ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ أي ردفاً لكم ومدداً لفئتكم. رواه العوفي عن ابن عباس. وقاله مجاهد وابن كثير وعبد الرحمن بن زيد وغيرهم [تفسير الطبري: ١٩٠/٩، ١٩١].

وقال أبو كدينة عن قابوس عن أبيه عن ابن عباس ﴿مُرْدِفِينَ﴾ وراء كل ملَكٍ ملَكٌ.

وفي رواية عنه بهذا الإسناد ﴿مُرْدِفِينَ﴾ بعضهم على أثر بعض [تفسير الطبري: ١٩١/٩] وكذا قال أبو ظبيان والضحّاك وقتادة [تفسير الطبري: ١٩١/٩].

وقد روى علي بن أبي طلحة الوالبي عن ابن عباس قال: وأمد الله نبيه ﷺ والمؤمنين بألف من الملائكة، وكان جبريل في خمسمائة مجنبة، وميكائيل في خمسمائة مجنبة، وهذا هو المشهور [تفسير الطبري: ١٩٥/٩].

ولكن قال ابن جرير [تفسيره: ١٩٢/٩]: حدثني المثنى حدثنا إسحاق حدثنا يعقوب بن محمد الزهري حدثني عبد العزيز بن عمران عن الزُّمْعِي عن أبي الحويرث عن محمد بن جبير عن علي. قال: نزل جبريل في ألف من الملائكة عن ميمنة النبي ﷺ وفيها أبو بكر، ونزل ميكائيل في ألف من الملائكة عن ميسرة النبي ﷺ وأنا في الميسرة.

ورواه البيهقي في الدلائل [٥٥/٣] من حديث محمد بن جبير عن علي فزاد: ونزل إسرافيل في ألف من الملائكة وذكر أنه طعن يومئذ بالحربة حتى اختضبت إبطه من الدماء، فذكر أنه نزلت ثلاث آلاف من الملائكة.

وهذا غريب وفي إسناده ضعف ولو صحّ لكان فيه تقوية لما تقدم من الأقوال ويؤيدها قراءة من قرأ «بألفٍ من الملائكة مردَفين» بفتح الدال والله أعلم.

وقال البيهقي [الدلائل: ٤٩/٣]: أخبرنا الحاكم أخبرنا الأصم حدثنا محمد بن سنان القزاز حدثنا عبيد الله بن عبد المجيد أبو علي الحنفي حدثنا عبيد الله بن عبد الرحمن بن موهب أخبرني إسماعيل بن عون بن عُبيد الله بن أبي رافع عن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب عن أبيه عن جده عن علي بن أبي طالب ﷺ. قال: لما كان يوم بدر قاتلت شيئا من قتال، ثم جئت مسرعا لأنظر إلى رسول الله ﷺ ما فعل، قال: فجئت فإذا هو ساجد يقول: «يا حيُّ يا قيُّوم يا حيُّ يا قيُّوم» لا يزيد عليها فرجعت إلى القتال، ثم جئت وهو ساجد يقول ذلك أيضا، فذهبت إلى القتال،ثم جئت وهو ساجد يقول ذلك أيضا، حتى فتح الله على يده.

وقد رواه النسائي في اليوم والليلة [الكبرى (١٠٤٤٧) كتاب عمل اليوم والليلة] عن بندار، عن عبيد الله بن عبد المجيد أبي علي الحنفي، به.

وقال الأعمش عن أبي إسحاق، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود. قال: ما سمعت مناشداً ينشد حقّاً له أشد من مناشدة محمد ﷺ يوم بدر، جعل يقول: «اللّهمّ إنّي أنشدك عهدك ووعدك، اللّهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد» ثم التفت وكأن شق وجهه القمر. وقال: «كأني أنظر إلى مصارع القوم عشيةً» [الدلائل للبيهقي: ٥٠/٣ من طريق الأعمش به نحوه].

رواه النسائي [كبرى (١٠٤٤٢)] من حديث الأعمش به.

وقال: لما التقينا يوم بدر قام رسول الله ﷺ فما رأيت مناشداً ينشد حقا له أشدّ مناشدة من رسول الله ﷺ وذكره.

وقد ثبت إخباره عليه الصلاة والسلام بمواضع مصارع رؤوس المشركين يوم بدر.

في صحيح مسلم [١٧٧٩] عن أنس بن مالك كما تقدم، وسيأتي في صحيح مسلم أيضاً عن عمر بن الخطاب.

ومقتضى حديث ابن مسعود أنه أخبر بذلك يوم الوقعة وهو مناسب،

وفي الحديثين الآخرين عن أنس وعمر ما يدلّ على أنه أخبر بذلك قبل ذلك بيوم ولا مانع من الجمع بين ذلك بأن يخبر به قبل ذلك بيوم وأكثر، وأن يخبر به قبل ذلك بساعة يوم الوقعة والله أعلم.

وقد روى البخاري [٢٩١٥، ٢٩٥٣، ٤٨٧٥، ٤٨٧٧] من طرق عن خالد الحذاء عن عكرمة عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال وهو في قبة له يوم بدر: «اللّهمّ أنشدك عهدك ووعدك، اللّهمّ إن شئت لم تعبد بعد اليوم أبداً» فأخذ أبو بكر بيده وقال: حسبك يا رسول الله ألححت على ربك فخرج وهو يثب في الدرع وهو يقول ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ. بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٥ ـ ٤٦].

وهذه الآية مكية وقد جاء تصديقها يوم بدر كما رواه ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو الربيع الزهراني حدثنا حماد عن أيوب عن عكرمة قال: لما نزلت ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ قال عمر: أي جمع يهزم وأي جمع يغلب؟ قال عمر: فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب في الدرع وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ. بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ فعرفت تأويلها يومئذ.

وروى البخاري [٤٨٧٦] من طريق ابن جريج عن يوسف بن ماهان سمع عائشة تقول: نزل على محمد بمكة ـ وإني لجارية ألعب ـ ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٢٧/١]: وجعل رسول الله ﷺ يناشد ربه ما وعده من النصر ويقول فيما يقول «اللّهمّ إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد» وأبو بكر يقول: يا نبي الله بعض مناشدتك ربك فإن الله منجز لك ما وعدك، وقد خفق النبي ﷺ خفقة وهو في العريش ثم انتبه فقال: «أبشر يا أبا بكر أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده على ثناياه النقع» يعني الغبار.

قال: ثم خرج رسول الله ﷺ إلى الناس فحرضهم. وقال: «والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة» فقال عمير بن الحمام أخو بني سلمة وفي يده تمرات يأكلهن: بخ بخ أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء؟ قال: ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل رحمه الله.

وقال الإمام أحمد [١٣٦/٣]: حدثنا هاشم، ثنا سليمان عن ثابت عن أنس. قال: بعث رسول الله ﷺ بَسّبَسَةَ عيناً ينظر ما صنعت عير أبي سفيان، فجاء وما في البيت أحد غيري وغير النبي ﷺ قال: لا أدري ما استثنى من بعض نسائه، قال: فحدثه الحديث. قال فخرج رسول الله فتكلم فقال: «إن لنا طَلِيَّةً فمن كان ظهره حاضراً فليركب معنا» فجعل رجال يستأذنونه في ظهورهم في عُلْوِ المدينة قال: «لا إلا من كان ظهره حاضراً» وانطلق رسول الله ﷺ وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر، وجاء المشركون فقال رسول الله ﷺ: «لا يتقدمنّ أحد منكم إلى شيء حتى أكون أنا أُوذِنُه» فدنا المشركون فقال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض» قال: يقول عمير بن الحمام الأنصاري: يا رسول الله جنة عرضها السّموات والأرض؟ قال: «نعم!» قال: بخ بخ؟ فقال رسول الله ﷺ: «ما يحملك على قولك: بخ بخ؟» قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها، قال: «فإنك من أهلها» قال: فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها حياة طويلة، قال: فرمى ما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل رحمه الله.

ورواه مسلم [١٩٠١] عن أبي بكر بن النضر وجماعة عن أبي النضر هاشم بن القاسم عن سليمان بن المغيرة به.

وقد ذكر ابن جرير [تاريخه: ٤٤٨/٢] أن عميراً قاتل وهو يقول ﷺ:

ركضاً إلى اللّه بغير زادِ إلا التُّقى وعمل المعادِ
والصبر في اللّه على الجهادِ وكلُّ زادٍ عُرضَة النفادِ
غيرَ التّقى والبرِّ والرشادِ

وقال الإمام أحمد [١١٧/١]: حدثنا حجاج حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن حارثة بن مضرب عن علي. قال: لما قدمنا المدينة أصبنا من ثمارها فاجتويناها وأصابنا بها وعك، وكان رسول الله ﷺ يتخبّر عن بدر فلما بلغنا أن المشركين قد أقبلوا سار رسول الله ﷺ إلى بدر ـ وبدر بئر ـ فسبقنا المشركين إليها فوجدنا فيها رجلين منهم؛ رجلاً من قريش ومولى لعقبة بن أبي معيط فأما القرشي فانفلت، وأما المولى فأخذناه فجعلنا نقول له: كم القوم؟ فيقول: هم والله كثير عددهم شديد بأسهم فجعل المسلمون إذا قال ذلك ضربوه حتى انتهوا به إلى رسول الله ﷺ، فقال له: «كم القوم؟» قال: هم والله كثير عددهم شديد بأسهم. فجهد النبي ﷺ أن يخبره كم هم فأبى ثم إن النبي ﷺ سأله: «كم ينحرون من الجزر؟» فقال: عشراً كل يوم. فقال النبي ﷺ: «القوم ألفٌ، كلُّ جزور لمائة وتبعها».

ثم إنه أصابنا من الليل طش من مطر فانطلقنا تحت الشجر والحَجَفِ نستظل تحتها من المطر، وبات رسول الله ﷺ يدعو ربه ويقول: «اللّهمّ إنك إن تهلك هذه الفئة لا تعبد» فلما طلع الفجر نادى «الصلاةَ عباد الله» فجاء الناس من تحت الشجر والحجف فصلى بنا رسول الله ﷺ وحرض على القتال ثم قال: «إنّ جمع قريش تحت هذه الضُّلع الحمراء من الجبل» فلما دنا القوم منا وصافيناهم إذا رجلٌ منهم على جمل له أحمر يسير في القوم، فقال رسول الله ﷺ: «يا علي ناد لي حمزة ـ وكان أقربهم من المشركين ـ مَنْ صاحب الجمل الأحمر» فجاء حمزة فقال: هو عُتْبة بن ربيعة وهو ينهى عن القتال ويقول لهم: يا قوم اعصبوها برأسي وقولوا: جَبُن عتبة بن ربيعة، وقد علمتم أني لست بأجبنكم. فسمع بذلك أبو جهل فقال: أنت تقول ذلك؟! والله لو غيرك يقوله لأعضضته قد ملأتْ رئتُك جوفَك رعباً. فقال: إياي تعير يا مصفّر استه؟ ستعلم اليوم أينا الجبان فبرز عتبة وأخوه شيبة وابنه الوليد حمية فقالوا: من يبارز؟ فخرج فتية من الأنصار شَبَبةٌ فقال عتبة: لا نريد هؤلاء، ولكن نبارز من بني عمنا من بني عبد المطلب فقال رسول الله ﷺ: «قم يا عليُّ، وقم يا حمزة، وقم يا عبيدة بن الحارث بن المطلب» فقتل الله عتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة، وجرح عبيدة فقتلنا منهم سبعين، وأسرنا سبعين وجاء رجل من الأنصار قصيرٌ بالعباس بن عبد المطلب أسيراً، فقال العباس: يا رسول الله والله إن هذا ما أسرني لقد أسرني رجل أجلع من أحسن الناس وجهاً على فرس أبلق ما أراه في القوم. فقال الأنصاري: أنا أسرته يا رسول الله. فقال: «اسكت، فقد أيدك الله بملك كريم» قال: فأسرنا من بني عبد المطلب العباس وعقيلاً ونوفل بن الحارث.

هذا سياق حسن وفيه شواهد لما تقدم ولما سيأتي. وقد تفرد بطوله الإمام أحمد.

وروى أبو داود [٢٦٦٥] بعضه من حديث إسرائيل به.

ولما نزل رسول الله ﷺ من العريش وحرض الناس على القتال والناس على مصافهم صابرين ذاكرين الله كثيراً كما قال الله تعالى آمراً لهم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيراً﴾ الآية [الأنفال: ٤٥].

وقال الأموي: حدثنا معاوية بن عمرو عن أبي إسحاق قال: قال الأوزاعي: كان يقال: قلما ثبت قوم قياماً، فمن استطاع عند ذلك أن يجلس أو يغض طرفه ويذكر الله رجوت أن يسلم من الرياء.

وقال عتبة بن ربيعة يوم بدر لأصحابه: ألا ترونهم - يعني أصحاب النبي ﷺ - جُثِيّاً على الركب كأنهم حرس يتلمظون كما تتلمظ الحيات - أو قال الأفاعي -.

قال الأموي في مغازيه: وقد كان النبي ﷺ حين حرض المسلمين على القتال قد نفّل كل امرئ ما أصاب وقال: «والذي نفسي بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيُقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنّة» وذكر قصة عمير بن الحمام كما تقدم.

وقد قاتل بنفسه الكريمة قتالاً شديداً ببدنه، وكذلك أبو بكر الصديق كما كانا في العريش يجاهدان بالدعاء والتضرع، ثم نزلا فحرضا وحثّا على القتال وقاتلا بالأبدان جمعاً بين المقامين الشريفين.

قال الإمام أحمد [٨٦/١]: حدثنا وكيع حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن حارثه بن مضرب عن علي قال: لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ وهو أقربنا من العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً.

ورواه النسائي [كبرى (٨٦٣٩)] من حديث أبي إسحاق عن حارثة عن علي قال: كنا إذا حمي البأس ولقي القوم اتقينا برسول الله ﷺ.

وقال الإمام أحمد [١٤٧/١] حدثنا أبو نعيم حدثنا مسعر عن أبي عون عن أبي صالح الحنفي عن علي. قال: قيل لعلي ولأبي بكر رضي الله عنهما يوم بدر: مع أحدكما جبريل ومع الآخر ميكائيل، وإسرافيل ملك عظيم يشهد القتال ولا يقاتل - أو قال: يشهد الصف -.

وهذا يشبه ما تقدم من الحديث [تفسير الطبري: ١٩٢/٩] أن أبا بكر كان في الميمنة ولما تنزل الملائكة يوم بدر تنزيلا كان جبريل على أحد المجنّبتين في خمسمائة من الملائكة، فكان في الميمنة من ناحية أبي بكر الصديق، وكان ميكائيل على المجنبة الأخرى في خمسمائة من الملائكة فوقفوا في الميسرة وكان علي بن أبي طالب فيها.

وفي حديث رواه أبو يعلى [مسنده (٤٨٩)] من طريق محمد بن جبير بن مطعم عن علي. قال كنت أمْتَحُ على القليب يوم بدر فجاءت ريح شديدة ثم أخرى ثم أخرى فنزل ميكائيل في ألف من الملائكة فوقف على يمين رسول الله ﷺ وهناك أبو بكر، وإسرافيل في ألف في الميسرة وأنا فيها، وجبريل في ألف قال: ولقد طعنتُ يومئذ حتى بلغ الدمُ إبطي.

وقد ذكر صاحب العقد [العقد الفريد: ١٠٦/٦] وغيره أن أفخر بيت قالته العرب قول حسان بن ثابت:

ويبـدرٍ يوم يلقى كل أروع جبريلُ تحت لوائنا ومحمد

وقد قال البخاري [٣٩٩٢]: حدثنا إسحاق بن إبراهيم حدثنا جرير عن يحيى بن سعيد عن معاذ بن رفاعة بن رافع الزرقي عن أبيه - وكان أبوه من أهل بدر - قال: جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ فقال: ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: «من أفضل المسلمين». أو كلمة نحوها قال: وكذلك من شهد بدراً من الملائكة. انفرد به البخاري.

وقد قال الله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢].

وفي صحيح مسلم [١٧٦٣] من طريق عكرمة بن عمار عن أبي زميل حدثني ابن عباس. قال: بينما رجل من المسلمين يومئذٍ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم. إذ نظر إلى المشرك أمامه قد خر مستلقيا، فنظر إليه فإذا هو قد خطم أنفه وشق وجهه كضربة السوط فاخضرّ ذلك أجمع فجاء الأنصاري فحدث ذاك رسول الله ﷺ فقال: «صدقت ذلك من مدد السّماء الثّالثة» فقتلوا يومئذ سبعين، وأسروا سبعين.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٣٣/١]: حدثني عبد الله بن أبي بكر بن حزم عمن حدثه عن ابن عباس، عن رجل من بني غفار. قال: حضرت أنا وابن عم لي بدراً ونحن على شركنا، وإنا لفي جبل ننتظر الوقعة على من تكون الدّبْرة فنَنْتهبُ، فأقبلت سحابة، فلما دنت من الجبل، سمعنا منها حمحمة الخيل، وسمعنا فارساً يقول: أقدم حيزوم، فأما صاحبي فانكشف قناع قلبه فمات مكانه، وأما أنا فكدتُ أن أهلك، ثم انتعشت بعد ذلك.

وقال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٣٣/١]: وحدثني عبد الله بن أبي بكر عن بعض بني ساعدة عن أبي أسيد مالك بن ربيعة وكان شهد بدراً قال بعد أن ذهب بصره: لو كنت اليوم ببدر ومعي بصري لأريتكم الشعب الذي خرجت منه الملائكة، لا أشك فيه ولا أتماري.

فلما نزلت الملائكة ورآها إبليس وأوحى الله إليهم ﴿أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ﴾، وتثبيتهم أن الملائكة كانت تأتي الرجل في صورة الرجل يعرفه، فيقول له: أبشروا فإنهم ليسوا بشيء والله معكم كروا عليهم.

ولما رأى إبليس الملائكة ﴿نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ﴾، وهو في صورة سراقة، وأقبل أبو جهل يحرض أصحابه ويقول: لا يهولنكم خذلان سراقة إياكم، فإنه كان على موعد من محمد وأصحابه، ثم قال: واللات والعزى لا نرجع حتى نفرق محمداً وأصحابه في الجبال، فلا تقتلوهم وخذوهم أخذاً.

وقال الواقدي [مغازيه: ٧٩/١]: حدثني ابن أبي حبيبة عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس. قال: كان الملك يتصور في صورة من يعرفون، فيقول: إني قد دنوت منهم وسمعتهم يقولون: لو حملوا علينا ما ثبتنا، ليسوا بشيء. إلى غير ذلك من القول، فذلك قوله: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ [الأنفال: ١٢] الآية.

وروى البيهقي [الدلائل: ٥٣/٣] من طريق سلامة، عن عقيل، عن ابن شهاب عن أبي حازم، عن سهل بن سعد قال: قال أبو أسيد بعدما ذهب بصره ابن أخي والله لو كنت أنا وأنت ببدر، ثم أطلق الله بصري، لأريتك الشعب الذي خرجت علينا منه الملائكة من غير شك، ولا تمار.

وروى البخاري [٣٩٩٥] عن إبراهيم بن موسى، عن عبد الوهاب، عن خالد، عن عكرمة، عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ قال يوم بدر: «هذا جبريل آخذ برأس فرسه وعليه أداة الحرب».

وقال الواقدي [المغازي: ٨١/١]: حدثنا ابن أبي حبيبة عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس، وأخبرني موسى بن محمد بن إبراهيم التيمي عن أبيه، وحدثني عائذ بن يحيى عن أبي الحويرث، عن عمارة بن أكيمة الليثي، عن حكيم بن حزام، قالوا: لما حضر القتال ورسول الله ﷺ رافع يديه يسأل الله النصر وما وعده يقول: «اللّهم إن ظهروا على هذه العصابة ظهر الشرك ولا يقوم لك دين». وأبو بكر يقول: والله لينصرنك

اللّه وليبيضن وجهك، فأنزل اللّه ألفاً من الملائكة مردفين عند اكتناف العدو. قال رسول اللّه ﷺ: «أبشر يا أبا بكر هذا جبريل معتجر بعمامة صفراء، آخذ بعنان فرسه بين السماء والأرض، فلما نزل إلى الأرض تغيب عني ساعة ثم طلع، وعلى ثناياه النقع يقول: أتاك نصر اللّه إذ دعوته».

وروى البيهقي [الدلائل: ٥٦/٣] عن أبي أمامة بن سهل عن أبيه. قال: يا بني لقد رأيتنا يوم بدر وإن أحدنا ليشير إلى رأس المشرك فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف.

وقال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٣٣/١]: حدثني والدي حدثني رجال من بني مازن عن أبي واقد الليثي قال: إني لأتبع رجلا من المشركين يوم بدر لأضربه فوقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي، فعرفت أن غيري قد قتله.

وقال يونس بن بكير عن عيسى بن عبد اللّه التيمي، عن الربيع بن أنس. قال: كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوهم بضرب فوق الأعناق وعلى البنان مثل سِمَة النار وقد أحرق به.

وقال ابن إسحاق [سيرة ابن إسحاق: ٦٣٣/١]: حدثني من لا أتهم، عن مقسم عن ابن عباس. قال: كانت سيماء الملائكة يوم بدر عمائم بيضاء، قد أرخوها على ظهورهم، إلا جبريل، فإنه كانت عليه عمامة صفراء.

وقد قال ابن عباس: لم تقاتل الملائكة في يوم سوى يوم بدر من الأيام، وكانوا يكونون فيما سواه من الأيام عدداً ومدداً لا يضربون [سيرة ابن هشام: ٦٣٤/١].

وقال الواقدي [المغازي: ٧٦/١]: حدثني عبد اللّه بن موسى بن أبي أمية، عن مصعب بن عبد اللّه، عن مولى لسهيل بن عمرو: سمعت سهيل بن عمرو يقول: لقد رأيت يوم بدر رجالا بيضاً على خيل بلق بين السماء والأرض مُعْلِمين يقتلون ويأسرون. وكان أبو أسيد يحدث بعد أن ذهب بصره. قال: لو كنت معكم الآن ببدر ومعي بصري، لأريتكم الشعب الذي خرجت منه الملائكة لا أشك ولا أمتري.

قال: وحدثني خارجة بن إبراهيم عن أبيه. قال قال رسول اللّه ﷺ لجبريل: «من القائل يوم بدر من الملائكة أقدم حيزوم؟ فقال جبريل: يا محمد ما كل أهل السماء أعرف» [مغازي الواقدي: ٧٧/١].

قلت: وهذا الأثر مرسل، وهو يرد قول من زعم أن حيزوم اسم فرس جبريل، كما قاله السهيلي [الروض الأنف: ١٣٨/٥، ١٣٩] وغيره واللّه أعلم.

وقال الواقدي [المغازي: ٧٨/١]: حدثني إسحاق بن يحيى عن حمزة بن صهيب، عن أبيه قال: [المغازي: ٧٨/١] فما أدري كم يد مقطوعة وضربة جائفة لم يَدْمَ كَلْمُها قد رأيتها يوم بدر.

وحدثني محمد بن يحيى عن أبي عقيل، عن رافع بن خديج عن أبي بردة بن نيار قال: جئت يوم بدر بثلاثة أرؤس فوضعتهن بين يدي رسول اللّه ﷺ فقلت: أما رأسان فقد قتلتهما، وأما الثالث فإني رأيت رجلاً طويلاً ضربه، فَتَدَهْدى أمامه، فأخذت رأسه. فقال رسول اللّه ﷺ: «ذاك فلان من الملائكة» [مغازي الواقدي: ٧٨/١، ٧٩].

وحدثني موسى بن محمد بن إبراهيم عن أبيه. قال: كان السائب بن أبي حبيش يحدث في زمن عمر يقول: واللّه ما أسرني أحد من الناس، فيقال: فمن؟ يقول: لما انهزمت قريش انهزمت معها، فأدركني رجل أبيض طويل على فرس أبيض بين السماء والأرض، فأوثقني رباطاً، وجاء عبد الرحمن بن عوف فوجدني مربوطاً فنادى في العسكر: من أسر هذا؟ حتى انتهى بي إلى رسول اللّه ﷺ فقال: «من أسرك؟» قلت: لا أعرفه! وكرهت أن أخبره بالذي رأيت، فقال رسول اللّه ﷺ: «أسرك ملك من الملائكة، اذهب يا ابن عوف بأسيرك» [مغازي الواقدي: ٧٩/١].

وقال الواقدي [المغازي: ٨٠/١]: حدثني عاتك بن يحيى، حدثنا أبو الحويرث عن عمارة بن أكيمة، عن حكيم بن حزام قال: لقد رأيتنا يوم بدر وقد وقع بوادي خَلْص بجاد من السماء قد سد الأفق، فإذا الوادي يسيل نملاً، فوقع في نفسي أن هذا شيء من السماء، أُيد به محمد فما كانت إلا الهزيمة وهي الملائكة.

وقال إسحاق بن راهويه: حدثنا وهب بن جرير بن حازم، حدثني أبي عن محمد بن إسحاق، حدثني أبي عن جبير بن مطعم. قال: رأيت قبل هزيمة القوم والناس يقتتلون مثل البجاد الأسود قد نزل من السماء مثل النمل الأسود، فلم أشك أنها الملائكة فلم يكن إلا هزيمة القوم.

ولما تنزلت الملائكة للنصر، ورآهم رسول اللّه ﷺ حين أغفى إغفاءة ثم استيقظ، وبشر بذلك أبا بكر وقال: «أبشر يا أبا بكر هذا جبريل يقود فرسه على ثناياه النقع». يعني من المعركة.

ثم خرج رسول اللّه ﷺ من العريش في الدرع فجعل يحرض على القتال، ويبشر الناس بالجنة، ويشجعهم بنزول الملائكة، والناس بعد على مصافهم لم يحملوا على عدوهم، حصل لهم السكينة والطمأنينة، وقد حصل النعاس الذي هو دليل على الطمأنينة والثبات والإيمان، كما قال: «إذ يغشاكم النعاس أمنة منه» [الأنفال: ١١].

وهذا كما حصل لهم بعد ذلك يوم أحد بنص القرآن، ولهذا قال ابن مسعود: النعاس في المصاف من الإيمان، والنعاس في الصلاة من النفاق [تفسير الطبري: ١٤١/٤، ١٩٣/٩].

وقال اللّه تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩].

قال الإمام أحمد [٤٣١/٥]: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا محمد بن إسحاق، حدثني الزهري عن عبد اللّه بن ثعلبة أن أبا جهل قال حين التقى القوم: اللّهم أقطعنا للرحم، وأتانا بما لا نعرف فأحِنْه الغداة. فكان هو المستفتح.

وكذا ذكره ابن اسحاق في السيرة [سيرة ابن هشام: ٦٢٨/١].

ورواه النسائي [كبرى (١١٢٠١)] من طريق صالح بن كيسان عن الزهري.

ورواه الحاكم [المستدرك: ٣٢٨/٢] من حديث الزهري أيضاً، ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

وقال الأموي: حدثنا أسباط بن محمد القرشي عن مطرِّف، عن عطية، في قوله: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءكُمُ الْفَتْحُ﴾ قال: قال أبو جهل: اللّهم انصر أعز الفئتين، وأكرم القبيلتين، وأكثر الفريقين. فنزلت: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءكُمُ الْفَتْحُ﴾.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧] قال: أقبلت عير أهل مكة تريد الشام، فبلغ ذلك أهل المدينة فخرجوا، ومعهم رسول اللّه ﷺ يريدون العير، فبلغ ذلك أهل مكة فأسرعوا السير إليها لكيلا يغلب عليها النبي ﷺ وأصحابه فسبقت العير رسول اللّه ﷺ، وكان اللّه قد وعدهم إحدى الطائفتين، وكانوا يحبون أن يلقوا العير، وسار رسول اللّه ﷺ بالمسلمين

يريد القوم، وكره القوم مسيرهم لشوكة القوم. فنزل النبي ﷺ والمسلمون، وبينهم وبين الماء رَمْلةٌ دِعْصَةٌ فأصاب المسلمون ضعف شديد وألقى الشيطان في قلوبهم القَنَط يوسوسهم: تزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله، وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم كذا! فأمطر الله عليهم مطراً شديداً، فشرب المسلمون وتطهروا، فأذهب الله عنهم رجز الشيطان، فصار الرمل لَبَداً، ومشى الناس عليه والدواب، فساروا إلى القوم وأيد الله نبيه والمؤمنين بألف من الملائكة فكان جبريل في خمسمائة من الملائكة مجنبة، وميكائيل في خمسمائة من الملائكة مجنبة، وجاء إبليس في جند من الشياطين ومعه رايته، وهم في صورة رجال من بني مدلج والشيطان في صورة سراقة بن مالك بن جعشم، وقال الشيطان للمشركين: ﴿لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾ فلما اصطف الناس قال أبو جهل: اللهم أولانا بالحق فانصره، ورفع رسول الله ﷺ يديه فقال: يا رب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض أبداً. فقال له جبريل: خذ قبضة من التراب فأخذ قبضة من التراب فرمى بها وجوههم، فما من المشركين من أحد إلا وأصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة، فولوا مدبرين. وأقبل جبريل إلى إبليس فلما رآه وكانت يده في يد رجل من المشركين انتزع إبليس يده، ثم ولى مدبراً وشيعته، فقال الرجل: يا سراقة أما زعمت أنك لنا جار؟ قال: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ إِنِّيَ أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، وذلك حين رأى الملائكة. رواه البيهقي في الدلائل [٣/٧٨، ٧٩].

قال الطبراني [الكبير (٤٥٥٠)]: حدثنا مسعدة بن سعد العطار، ثنا إبراهيم بن المنذر الحزامي، ثنا عبد العزيز بن عمران، ثنا هشام بن سعد عن عبد ربه بن سعيد بن قيس الأنصاري، عن رفاعة بن رافع. قال: لما رأى إبليس ما تفعل الملائكة بالمشركين يوم بدر، أشفق أن يخلص القتل إليه، فتشبث به الحارث بن هشام، وهو يظن أنه سراقة بن مالك، فوكز في صدر الحارث فألقاه، ثم خرج هارباً حتى ألقى نفسه في البحر، ورفع يديه فقال: اللهم إني أسألك نظرتك إياي. وخاف أن يخلص القتل إليه. وأقبل أبو جهل فقال: يا معشر الناس لا يهولنكم خذلان سراقة بن مالك، فإنه كان على ميعاد من محمد، ولا يهولنكم قتل شيبة وعتبة والوليد، فإنهم قد عجلوا، فواللات والعزى لا نرجع حتى نَقْرُنهم بالحبال، فلا ألفين رجلا منكم قتل رجلا، ولكن خذوهم أخذاً حتى تعرفوهم سوء صنيعهم من مفارقتهم إياكم، ورغبتهم عن اللات والعزى. ثم قال أبو جهل متمثلا:

ما تنقم الحرب الشموس مني ... بازل عامين حديث سني

لمثل هذا ولدتني أمي

وروى الواقدي [المغازي: ١/٩٥] عن موسى بن يعقوب الزمعي عن عمه عن أبي بكر بن أبي سليمان بن أبي حثمة: سمعت مروان بن الحكم يسأل حكيم بن حزام عن يوم بدر، فجعل الشيخ يكره ذلك، فألح عليه فقال حكيم: التقينا فاقتتلنا فسمعت صوتاً وقع من السماء إلى الأرض مثل وقعة الحصاة في الطست، وقبض النبي ﷺ القبضة التراب فرمى بها فانهزمنا.

قال الواقدي [المغازي: ١/٩٥]: وحدثنا إسحاق بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله عن عبد الله بن ثعلبة بن صُعير سمعت نوفل بن معاوية الديلي يقول: انهزمنا يوم بدر ونحن نسمع صوتاً كوقع الحصى في الطَّساس في أفئدتنا ومن خلفنا، وكان ذلك من أشد الرعب علينا.

وقال الأموي: حدثنا أبي، ثنا ابن إسحاق، حدثني الزهري، عن عبد الله بن ثعلبة بن صعير، أن أبا جهل حين التقى القوم قال: اللهم أقطعنا للرحم، وآتانا بما لا نعرف، فأحنه الغداة. فكان هو المستفتح.

فبينما هم على تلك الحال، وقد شجع الله المسلمين على لقاء عدوهم، وقللهم في أعينهم حتى طمعوا فيهم، خفق رسول الله ﷺ خفقة في العريش، ثم انتبه فقال: «أبشر يا أبا بكر هذا جبريل معتجر بعمامته آخذ بعنان فرسه يقوده على ثناياه النقع، أتاك نصر الله وعدته». وأمر رسول الله ﷺ فأخذ كفاً من الحصى بيده، ثم خرج فاستقبل القوم فقال: «شاهت الوجوه»، ثم نفحهم بها، ثم قال لأصحابه: «احملوا» فلم تكن إلا الهزيمة، فقتل الله من قتل من صناديدهم، وأسر من أسر منهم.

وقال زياد عن ابن إسحاق: ثم إن رسول الله ﷺ أخذ حفنة من الحصباء فاستقبل بها قريشاً، ثم قال: «شاهت الوجوه» ثم نفحهم بها، وأمر أصحابه فقال: «شدوا» فكانت الهزيمة، فقتل الله من قتل من صناديد قريش، وأسر من أسر من أشرافهم [سيرة ابن هشام: ١/٦٢٨].

وقال السدي الكبير: قال رسول الله ﷺ لعلي يوم بدر: «أعطني حصىً من الأرض» فناوله حصىً عليها تراب، فرمى به في وجوه القوم، فلم يبق مشرك إلا دخل في عينيه من ذلك التراب شيء، ثم ردفهم المسلمون يقتلونهم ويأسرونهم، وأنزل الله في ذلك ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧] [تفسير الطبري: ٩/٢٠٥].

وهكذا قال عروة وعكرمة ومجاهد ومحمد بن كعب ومحمد بن قيس وقتادة وابن زيد وغيرهم [تفسير الطبري: ٩/٢٠٤، ٢٠٥]: أن هذه الآية نزلت في ذلك، يوم بدر، وقد فعل عليه السلام مثل ذلك في غزوة حنين كما سيأتي في موضعه، إذا انتهينا إليه إن شاء الله وبه الثقة.

وذكر ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٦٢٨] أن رسول الله ﷺ لما حرض أصحابه على القتال ورمى المشركين بما رماهم به من التراب وهزمهم الله تعالى، صعد إلى العريش أيضاً ومعه أبو بكر، ووقف سعد بن معاذ ومن معه من الأنصار على باب العريش، ومعهم السيوف خيفة أن تكر راجعة من المشركين إلى النبي ﷺ.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٦٢٨]: ولما وضع القوم أيديهم يأسرون رأى رسول الله ﷺ فيما ذكر لي في وجه سعد بن معاذ الكراهية لما يصنع الناس، فقال له: «كأني بك يا سعد تكره ما يصنع القوم؟» قال: أجل يا رسول الله كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك، فكان الإثخان في القتل أحب إلي من استبقاء الرجال.

قال ابن اسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٦٢٨، ٦٢٩]: وحدثني العباس بن عبد الله بن معبد عن بعض أهله عن عبد الله بن عباس: أن النبي ﷺ قال لأصحابه يومئذ: «إني قد عرفت أن رجالا من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهاً، لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي أبا البختري بن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ فلا يقتله، فإنه إنما خرج مستكرهاً»، فقال أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة: أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا ونترك العباس، والله لئن لقيته لألحمنه بالسيف. فبلغت رسول الله ﷺ فقال لعمر: «يا أبا حفص»، قال عمر: والله إنه لأول يوم كناني فيه رسول الله ﷺ بأبي حفص، «أيضرب وجه عم رسول الله بالسيف؟» فقال عمر: يا رسول الله دعني فلأضرب عنقه بالسيف، فوالله لقد نافق. فقال أبو حذيفة: ما أنا بآمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذ، ولا أزال

منها خائفاً، إلا أن تكفرها عني الشهادة، فقتل يوم اليمامة شهيداً رضي الله عنه.

سنة ٢- مقتل أبي البختري بن هشام

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٢٩/١، ٦٣٠]: وإنما نهى رسول الله ﷺ عن قتل أبي البختري لأنه كان أكف القوم عن رسول الله ﷺ وهو بمكة. كان لا يؤذيه ولا يبلغه عنه شيء يكرهه، وكان ممن قام في نقض الصحيفة فلقيه المجذر بن ذياد البلوي حليف الأنصار فقال له: إن رسول الله ﷺ نهانا عن قتلك ومع أبي البختري زميل له خرج معه من مكة وهو جنادة بن مليحة وهو من بني ليث. قال: وزميلي؟ فقال له المجذر: لا والله ما نحن بتاركي زميلك، ما أمرنا رسول الله إلا بك وحدك، قال: لا والله إذاً لأموتن أنا وهو جميعاً لا يتحدث عني نساء مكة أني تركت زميلي حرصاً على الحياة. وقال أبو البختري وهو ينازل المجذر:

لن يُسلِمَ ابنُ حرةٍ زميلَه حتى يموتَ أو يرى سبيلَه

قال: فاقتتلا فقتله المجذر بن زياد وقال في ذلك:

إما جهلت أو نسيتَ نَسَبي فأنت النسبةَ إني من بَلي
الطاعنينَ برماح السيزَنى والطاعنينَ الكبش حتى ينحني
بشّر بيتم من أبوه البختري أو بشّرنْ بمثلها مني بني
أنا الذي يقال أصلي من بلي أطعنُ بالصعدة حتى تنثني
وأعبطُ القِرنَ بعَضْبٍ مَشْرَفي أُرزمُ للموتِ كإرْزام المَري
فلا يرى عجذّراً يَفْري فري

ثم أتى المجذر رسول الله ﷺ فقال: والذي بعثك بالحق لقد جهدت عليه أن يستأسر فأتيك به فأبى إلا أن يقاتلني، فقاتلته فقتلته.

سنة ٢- مقتل أمية بن خلف

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٣١/١]: وحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه وحدثنيه أيضاً عبد الله بن أبي بكر وغيرهما عن عبد الرحمن بن عوف. قال: كان أمية بن خلف لي صديقا بمكة وكان اسمي عبد عمرو فتسميت حين أسلمت: عبدَ الرحمن، فكان يلقاني ونحن بمكة فيقول: يا عبد عمرو أرغبت عن اسم سماكه أبواك؟ قال: فأقول: نعم! قال: فإني لا أعرف الرحمن فاجعل بيني وبينك شيئاً أدعوك به أما أنت فلا تجيبني باسمك الأول وأما أنا فلا أدعوك بما لا أعرف قال: وكان إذا دعاني يا عبد عمرو لم أجبه، قال: فقلت له: يا أبا علي اجعل ما شئت قال: فأنت عبد الإله قال: قلت: نعم! قال: فكنت إذا مررت به قال: يا عبد الإله فأجيبه فأتحدث معه، حتى إذا كان يوم بدر مررت به وهو واقف مع ابنه علي وهو آخذ بيده، قال: ومعي أدراع لي قد استلبتها فأنا أحملها فلما رآني. قال: يا عبد عمرو فلم أجبه، فقال: يا عبد الإله فقلت: نعم! قال: هل لك فيَّ فأنا خير لك من هذه الأدراع التي معك قال: قلت: نعم ها الله قال: فطرحت الأدراع من يدي وأخذت بيده وبيد ابنه وهو يقول: ما رأيت كاليوم قطّ، أما لكم حاجة في اللبن؟ ثم خرجت أمشي بهما.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٣٢/١]: حدثني عبد الواحد بن أبي عون عن سعد بن إبراهيم عن أبيه عن عبد الرحمن بن عوف. قال: قال لي أمية بن خلف وأنا بينه وبين ابنه آخذاً بأيديهما: يا عبد الإله من الرجل منكم المعلم بريشة نعامة في صدره؟ قال: قلت: ذاك حمزة قال: ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل. قال عبد الرحمن: فوالله لأني لأقودهما إذ رآه بلال معي - وكان هو الذي يعذّب بلالاً بمكةَ على تَرْكِ الإسلام - فلما رآه قال: رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا، قال: قلت: أي بلال أبأسيري، قال: لا نجوت إن نجا، قال: ثم صرخ بأعلا صوته يا أنصار الله رأس الكفر أمية بن خلف لا نجوت إن نجا، فأحاطوا بنا حتى جعلونا في مثل المسكة فأنا أذب عنه، قال: فأخلف رجل السيف فضرب رجل ابنه فوقع وصاح أمية صيحة ما سمعت بمثلها قط، قال: قلت: انج بنفسك ولا نجاء، فوالله ما أغني عنك شيئاً. قال: فهبروهما بأسيافهم حتى فرغوا منهما. قال: فكان عبد الرحمن يقول: يرحم الله بلالاً فجعني بأدراعي وبأسيري.

وهكذا رواه البخاري في صحيحه [٢٣٠١] قريباً من هذا السياق فقال في الوكالة: حدثنا عبد العزيز - هو ابن عبد الله - حدثنا يوسف - هو ابن الماجشون - عن صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه عن جده عبد الرحمن بن عوف قال: كاتبت أمية بن خلف كتابا بأن يحفظني في صاغيتي بمكة وأحفظه في صاغيته بالمدينة، فلما ذكرت الرحمن قال: لا أعرف الرحمن، كاتبني باسمك الذي كان في الجاهلية فكاتبته عبد عمرو فلما كان يوم بدر خرجت إلى جبل لأحرزه حين نام الناس فأبصره بلال فخرج حتى وقف على مجلس من الأنصار فقال: أمية بن خلف؟! لا نجوت إن نجا أمية، فخرج معه فريق من الأنصار في آثارنا فلما خشيت أن يلحقونا خلفت لهم ابنه لأشغلهم فقتلوه ثم أتوا حتى تبعونا وكان رجلا ثقيلا، فلما أدركونا قلت له: ابرك؛ فبرك فألقيت عليه نفسي لأمنعه فتخلّلوه بالسيوف من تحتي حتى قتلوه، وأصاب أحدهم رجلي بسيفه فكان عبد الرحمن بن عوف يرينا ذلك الأثرَ في ظهر قدمه.

سمع يوسف صالحاً وإبراهيم أباه. تفرد به البخاري من بينهم كلهم.

وفي مسند رفاعة بن رافع: أنه هو الذي قتل أمية بن خلف.

سنة ٢- مقتل أبي جهل لعنه الله

قال ابن هشام [السيرة: ٦٣٤/١]: وأقبل أبو جهل يومئذ يرتجز ويقول:

ما تنقم الحرب العوان مني بازل عامين حديث سني
لمثل هذا ولدتني أمي

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٣٤/١، ٦٣٥]: ولما فرغ رسول الله ﷺ من عدوّه أمر بأبي جهل أن يلتمس في القتلى، وكان أول من لقي أبا جهل كما حدثني ثور بن زيد عن عكرمة عن ابن عباس وعبد الله بن أبي بكر أيضاً قد حدثني ذلك قالا: قال معاذ بن عمرو بن الجموح أخو بني سلمة: سمعت القوم وأبو جهل في مثل الحرجة وهم يقولون: أبو الحكم لا يخلص إليه، فلما سمعتها جعلته من شأني فصمدت نحوه، فلما أمكنني حملت عليه فضربته ضربة أطنت قدمه بنصف ساقه، فوالله ما شبهتها حين طاحت إلا بالنواة تطيح من تحت مرضخة النوى حين يضرب بها قال: وضربني ابنه عكرمة على عاتقي فطرح يدي فتعلقت بجلدة من جنبي، وأجهضني القتال عنه فلقد قاتلت عامة يومي وإني لأسحبها خلفي فلما آذتني وضعت عليها قدمي ثم تمطيت بها عليها حتى طرحتها.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٣٥/١، ٦٣٦]: ثم عاش بعد ذلك حتى كان زمن عثمان. ثم مر بأبي جهل - وهو عقير - معوذ بن عفراء

فضربه حتى أثبته، وتركه وبه رمق. وقاتل معوذ حتى قتل، فمر عبد الله بن مسعود بأبي جهل حين أمر رسول الله ﷺ أن يلتمس في القتلى وقد قال لهم رسول الله ﷺ - فيما بلغني -: «انظروا إن خفي عليكم في القتلى إلى أثر جرح في ركبته فإني ازدحمت أنا وهو يوماً على مأدبة لعبد الله بن جدعان ونحن غلامان وكنت أشف منه بيسير، فدفعته فوقع على ركبتيه فجُحش في أحدهما جحشاً لم يزل أثره به».

قال ابن مسعود: فوجدته بآخر رمق فعرفته. فوضعت رجلي على عنقه. قال: وقد كان ضبث بي مرة بمكة فآذاني ولكزني ثم قلت له: هل أخزاك الله يا عدو الله؟ قال: وبماذا أخزاني؟ قال: أعمد من رجل قتلتموه أخبرني لمن الدائرة اليوم؟ قال: قلت: لله ولرسوله.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٣٦/١]: وزعم رجال من بني مخزوم أن ابن مسعود كان يقول: قال لي: لقد ارتقيت مرتقى صعباً يا رويعي الغنم، قال: ثم احتززت رأسه ثم جئت به رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله هذا رأس عدو الله. فقال: «الله الذي لا إله غيره؟». وكانت يمين رسول الله ﷺ فقلت: نعم! والله الذي لا إله غيره ثم ألقيت رأسه بين يدي رسول الله ﷺ فحمد الله. هكذا ذكر ابن إسحاق رحمه الله.

وقد ثبت في الصحيحين [خ (٣١٤١)، م (١٧٥٢)] من طريق يوسف بن يعقوب بن الماجشون عن صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه، عن عبد الرحمن بن عوف. قال: إني لواقف يوم بدر في الصف فنظرت عن يميني وشمالي فإذا أنا بين غلامين من الأنصار حديثة أسنانهما، فتمنيت أن أكون بين أضلع منهما فغمزني أحدهما فقال: يا عم أتعرف أبا جهل؟ فقلت: نعم وما حاجتك إليه؟ قال: أخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا فتعجبت لذلك فغمزني الآخر فقال لي أيضاً مثلها، فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل وهو يجول في الناس فقلت: ألا تريان؟ هذا صاحبكما الذي تسألان عنه فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى النبيّ ﷺ فأخبراه فقال: «أيكما قتله؟». قال كل منهما: أنا قتلته. قال: «هل مسحتما سيفيكما؟» قالا: لا. قال: فنظر النبي ﷺ في السيفين فقال: «كلاكما قتله» وقضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح - والآخر معاذ بن عفراء.

وقال البخاري [٣٩٨٨]: حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا إبراهيم بن سعد عن أبيه عن جده. قال: قال عبد الرحمن: إني لفي الصف يوم بدر إذ التفت فإذا عن يميني وعن يساري فتيان حديثا السن فكأني لم آمن بمكانهما إذ قال لي أحدهما سراً من صاحبه: يا عم أرني أبا جهل، فقلت: يا ابن أخي ما تصنع به؟ قال: عاهدت الله إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه، وقال لي الآخر سراً من صاحبه مثله، قال: فما سرني أني بين رجلين مكانهما فأشرت لهما إليه فشدّا عليه مثل الصقرين حتى ضرباه وهما ابنا عفراء.

وفي الصحيحين [خ (٣٩٦٢)، م (١٨٠٠)] أيضاً من حديث أبي سليمان التيمي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من ينظر ما صنع أبو جهل» قال ابن مسعود: أنا يا رسول الله فانطلق فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى برد. قال: فأخذ بلحيته قال فقلت: أنت أبو جهل؟ فقال: وهو فوق رجل قتلتموه - أو قال: قتله قومه -.

وعند البخاري [٣٩٦١] عن أبي أسامة عن إسماعيل عن قيس عن ابن مسعود أنه أتى أبا جهل فقال: هل أخزاك الله؟ فقال: هل أعمد من رجل قتلتموه.

وقال الأعمش عن أبي إسحاق عن أبي عبيدة عن عبد الله قال: انتهيت إلى أبي جهل وهو صريع وعليه بيضة ومعه سيف جيد. ومعي سيف رديء فجعلت أنقف رأسه بسيفي وأذكر نقفاً كان ينقف رأسي بمكة حتى ضعفت يده فأخذت سيفه فرفع رأسه فقال: على من كانت الدائرة لنا أو علينا ألست رويعينا بمكة؟ قال: فقتلته، ثم أتيت النبي ﷺ فقلت: قتلت أبا جهل، فقال: «الله الذي لا إله إلا هو؟» فاستحلفني ثلاث مرات ثم قام معي إليهم فدعا عليهم [الطبراني في الكبير: ٨١/٩ (٨٤٧٠)].

وقال الإمام أحمد [٤٤٤/١]: حدثنا وكيع حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن أبي عبيدة قال: قال عبد الله: انتهيت إلى أبي جهل يوم بدر وقد ضربت رجله وهو يذبّ الناس عنه بسيف له، فقلت: الحمد لله الذي أخزاك الله يا عدو الله. قال: هل هو إلا رجل قتله قومه، قال: فجعلت أتناوله بسيف لي غير طائل فأصبت يده فندر سيفه فأخذته فضربته حتى قتلته قال ثم خرجت حتى أتيت النبي ﷺ كأنما أُقلُّ من الأرض فأخبرته فقال: «الله الذي لا إله إلا هو؟» فرددها ثلاثا، قال: قلت: الله الذي لا إله إلا هو قال: فخرج يمشي معي حتى قام عليه فقال: «الحمد لله الذي قد أخزاك الله يا عدو الله هذا كان فرعون هذه الأمة».

وفي رواية أخرى [المسند: ٤٤٤/١] قال ابن مسعود: فنفلني سيفه.

وقال أبو إسحاق الفزاري عن الثوري، عن أبي إسحاق عن أبي عبيدة عن ابن مسعود قال: أتيت رسول الله ﷺ يوم بدر فقلت: قد قتلت أبا جهل فقال: «الله الذي لا إله إلا هو؟» فقلت: الله الذي لا إله إلا هو - مرتين أو ثلاثاً - قال: فقال النبي ﷺ: «الله أكبر الحمد لله الذي صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده» ثم قال: «انطلق فأرنيه» فانطلقت فأريته فقال: «هذا فرعون هذه الأمة» [المسند: ٤٤٤/١].

ورواه أبو داود [٢٧٠٩] والنسائي [كبرى (٨٦٧٠)] من حديث أبي إسحاق السبيعي به.

وقال الواقدي: وقف رسول الله ﷺ على مصرع ابني عفراء فقال: «رحم الله ابني عفراء فهما شركاء في قتل فرعون هذه الأمة ورأس أئمة الكفر» فقيل: يا رسول الله ومن قتله معهما؟ قال: «الملائكة وابن مسعود قد شرك في قتله» رواه البيهقي [الدلائل: ٨٨/٣، ٨٩].

وقال البيهقي [الدلائل: ٨٩/٣]: أخبرنا الحاكم أخبرنا الأصم حدثنا أحمد بن عبد الجبار حدثنا يونس بن بكير عن عنبسة بن الأزهر عن أبي إسحاق قال: لما جاء رسول الله ﷺ البشير يوم بدر بقتل أبي جهل استحلفه ثلاثة أيمان بالله الذي لا إله إلا هو لقد رأيته قتيلا؟ فحلف له فخر رسول الله ﷺ ساجداً.

ثم روى البيهقي [الدلائل: ٨٩/٣] من طريق أبي نعيم عن سلمة بن رجاء عن الشعثاء - امرأة من بني أسد - عن عبد الله بن أبي أوفى: أن رسول الله ﷺ صلّى ركعتين حين بشّر بالفتح وحين جيء برأس أبي جهل.

وقال ابن ماجه [١٣٩١]: حدثنا أبو بشر بكر بن خلف حدثنا سلمة بن رجاء قال: حدثتني شعثاء عن عبد الله بن أبي أوفى: أن رسول الله ﷺ صلّى يوم بُشر برأس أبي جهل ركعتين.

وقال ابن أبي الدنيا: [الدلائل للبيهقي: ٨٩/٣، ٩٠ من طريق ابن أبي الدنيا به] حدثنا أبي، حدثنا هشيم، أخبرنا مجالد عن الشعبي أن رجلا قال لرسول الله ﷺ: إني مررت ببدر فرأيت رجلا يخرج من الأرض فيضربه

رجل بمقمعة معه حتى يغيب في الأرض ثم يخرج فيفعل به مثل ذلك مراراً. فقال رسول الله ﷺ: «ذاك أبو جهل بن هشام يعذّب إلى يوم القيامة».

وقال الأموي في مغازيه: سمعت أبي حدثنا المجالد بن سعيد عن عامر قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إني رأيت رجلا جالساً في بدر ورجل يضرب رأسه بعمود من حديد حتى يغيب في الأرض، فقال رسول الله ﷺ: «ذاك أبو جهل وكّل به ملك يفعل به كلّما خرج فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة».

وقال البخاري [٣٩٩٨]: حدثنا عبيد بن إسماعيل حدثنا أبو أسامة عن هشام عن أبيه قال قال الزبير: لقيت يوم بدر عبيدة بن سعيد بن العاص وهو مدجج لا يرى منه إلا عيناه، وهو يكنى أبا ذات الكرش، فقال: أنا أبو ذات الكرش، فحملت عليه بعنزة فطعنته في عينه فمات قال هشام: فأخبرت أن الزبير قال: لقد وضعت رجلي عليه ثم تمطيت فكان الجهد أن نزعتها، وقد انثنى طرفاها، قال عروة: فسأله إياها رسول الله ﷺ فأعطاه، فلما قبض رسول الله ﷺ أخذها ثم طلبها أبو بكر فأعطاه، فلما قبض أبو بكر سألها إياه عمر بن الخطاب فأعطاه إياها، فلما قبض عمر أخذها ثم طلبها عثمان منه فأعطاه إياها، فلما قتل عثمان وقعت عند آل عليّ فطلبها عبد الله بن الزبير فكانت عنده حتى قتل.

سنة ٢- ما أُعطي عكاشة بن محصن وقتاله يوم بدر

وقال ابن هشام [السيرة: ٣٣٦/١، ٦٣٧]: حدثني أبو عبيدة وغيره من أهل العلم بالمغازي أن عمر بن الخطاب قال لسعيد بن العاص - ومر به - إني أراك كأن في نفسك شيئاً أراك تظنّ أني قتلت أباك إني لو قتلته لم أعتذر إليك من قتله، ولكني قتلت خالي العاص بن هشام بن المغيرة فأما أبوك فإني مررت به وهو يبحث بحث الثور بروقه فحدت عنه وقصد له ابن عمه علي فقتله.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٣٧/١]: وقاتل عكاشة بن محصن بن حرثان الأسديّ حليف بني عبد شمس يوم بدر بسيفه حتى انقطع في يده فأتى رسول الله ﷺ فأعطاه جذلاً من حطب فقال: «قاتل بهذا يا عُكاشة» فلما أخذه من رسول الله ﷺ هزه فعاد سيفاً في يده طويل القامة شديد المتن أبيض الحديدة، فقاتل به حتى فتح الله على المسلمين وكان ذلك السيف يسمّى العون ثم لم يزل عنده يشهد به المشاهد مع رسول الله ﷺ حتى قتله طليحة الأسدي أيام الردة، وأنشد طليحة في ذلك قصيدة منها قوله:

عشيّةَ غادرتُ ابنَ أقرمَ ثاوياً وعكّاشةَ الغنْميّ عندَ مجالِ

وقد أسلم بعد ذلك طليحة كما سيأتي بيانه.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٣٨/١]: وعكاشة هو الذي قال حين بشر رسول الله ﷺ أمته بسبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب: ادع الله أن يجعلني منهم قال: «اللّهم اجعله منهم» وهذا الحديث مخرج في الصحاح [خ (٥٧٠٥)، م (٢٢٠)] والحسان [ت (٢٤٤٦)، مسند احمد: ٢٧١/١] وغيرها قال ابن إسحاق: وقال رسول الله ﷺ - فيما بلغني - «منا خير فارس في العرب» قالوا: ومن هو يا رسول الله؟ قال: «عكاشة بن محصن» فقال ضرار بن الأزور الأسدي: ذاك رجل منا يارسول الله؟ قال: «ليس منكم ولكنه منا للحلف».

وقد روى البيهقي [الدلائل: ٩٩/٣] عن الحاكم من طريق محمد بن عمر الواقدي حدثني عمر بن عثمان الجحشي عن أبيه عن عمته قالت: قال عكاشة بن محصن: انقطع سيفي يوم بدر فأعطاني رسول الله ﷺ عوداً فإذا هو سيف أبيض طويل، فقاتلت به حتى هزم الله المشركين، ولم يزل عنده حتى هلك.

سنة ٢- قتال سلمة بن الحصين

وقال الواقدي [المغازي: ٩٣/١، ٩٤]: وحدثني أسامة بن زيد عن داود بن الحصين عن رجال من بني عبد الأشهل عدة قالوا: انكسر سيف سلمة بن حريش يوم بدر فبقي أعزل لا سلاح معه فأعطاه رسول الله ﷺ قضيباً كان في يده من عراجين ابن طاب فقال: اضرب به فإذا سيف جيّد، فلم يزل عنده حتى قتل يوم جسر أبي عبيد.

سنة ٢- رده عليه السلام عين قتادة

قال البيهقي في الدلائل [٩٩/٣، ١٠٠]: أخبرنا أبو سعد الماليني أخبرنا أبو أحمد بن عدي حدثنا أبو يعلى حدثنا يحيى الحماني حدثنا عبد الرحمن بن سليمان بن الغسيل عن عاصم بن عمر بن قتادة عن أبيه عن جدّه قتادة بن النعمان: أنه أصيبت عينه يوم بدر فسالت حدقته على وجنته فأرادوا أن يقطعوها فسألوا رسول الله ﷺ فقال: «لا» فدعا به فغمز حدقته براحته فكان لايدري أي عينيه أُصيبت.

وفي رواية: فكانت أحسن عينيه.

وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أنه لما أخبره بهذا الحديث عاصم بن عمر بن قتادة وأنشد مع ذلك:

أنا ابنُ الذي سالتْ على الخد عينُه فُردّت بكفِّ المصطفى أيما ردِّ

فقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله عند ذلك منشداً قول أمية بن أبي الصلت في سيف بن ذي يزن فأنشده عمر في موضعه حقاً:

تلكَ المكارمُ لا قعبانِ من لبنٍ شِيبا بماءٍ فعادا بَعْدُ أبوالا

سنة ٢- في قصّة أخرى شبيهة بها

قال البيهقي [الدلائل: ١٠٠/٣]: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ أخبرنا محمد بن صالح أخبرنا الفضل بن محمد الشعراني حدثنا إبراهيم بن المنذر أخبرنا عبد العزيز بن عمران حدثني رفاعة بن يحيى عن معاذ بن رفاعة بن رافع عن أبيه رفاعة بن رافع بن مالك، عن أبيه قال: لما كان يوم بدر تجمع الناس على أميه بن خلف، فأقبلت إليه فنظرت إلى قطعة من درعه قد انقطعت من تحت إبطه، قال: فطعنته بالسيف فيها طعنة فقطعته، ورميت بسهم يوم بدر، ففقئت عيني فبصق فيها رسول الله ﷺ ودعا لي فما أداني منها شيء.

وهذا غريب من هذا الوجه وإسناده جيد ولم يخرجوه.

ورواه الطبراني [في الكبير: ٣٤/٥ (٤٥٣٥)] من حديث إبراهيم بن المنذر.

قال ابن هشام [السيرة: ٦٣٨/١]: ونادى أبو بكر ابنه عبد الرحمن وهو يومئذ مع المشركين لم يسلم بعد فقال: أين مالي يا خبيث؟ فقال عبد الرحمن:

لم يبقَ إلا شُكَّةٌ ويعبوبْ وصارم يقتل ضلالَ الشيب

يعني لم يبق إلا عدة الحرب، وحصان وهو اليعبوب يقاتل عليه شيوخ الضلالة، هذا يقوله في حال كفره.

وقد روينا في مغازي الأموي أن رسول الله ﷺ جعل يمشي يوم بدر هو وأبو بكر الصديق بين القتلى ورسول الله ﷺ يقول: «نفلق هاماً» فيقول الصديق:

من رجال أعزة علينا وهم كانوا أعقّ وأظلما

سنة ٢- ذكر طرح رؤوس الكفر في بئر بدر

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٣٨/١، ٦٣٩]: وحدثني يزيد بن رومان عن عروة عن عائشة قالت: لما أمر رسول الله ﷺ بالقتلى أن يطرحوا في القليب، طرحوا فيه إلا ما كان من أميّة بن خلف فإنه انتفخ في درعه فملأها فذهبوا ليخرجوه فتزايل لحمه فأقروه وألقوا عليه ما غيبه من التراب والحجارة، فلما ألقاهم في القليب وقف عليهم فقال: «يا أهل القليب هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً» قالت: فقال له أصحابه: يا رسول الله أتكلم قوماً موتى؟ فقال: «لقد علموا أن ما وعدهم ربهم حق» قالت عائشة: والناس يقولون: لقد سمعوا ما قلت لهم، وإنما قال رسول الله ﷺ: «لقد علموا».

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٣٩/١]: وحدثني حميد الطويل عن أنس بن مالك قال: سمع أصحاب النبي ﷺ رسول الله من جوف الليل وهو يقول: «يا أهل القليب، يا عتبة بن ربيعة، ويا شيبة بن ربيعة، ويا أمية بن خلف، ويا أبا جهل بن هشام - فعدّد من كان منهم في القليب - هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً» فقال المسلمون: يا رسول الله أتنادي قوما قد جيفوا؟ فقال: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني».

وقد رواه الإمام أحمد [١٠٤/٣] عن ابن أبي عدي عن حميد عن أنس فذكر نحوه. وهذا على شرط الشيخين.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٣٩/١]: وحدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قال: «يا أهل القليب بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم! كذّبتموني وصدقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتموني ونصرني الناس، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً»

قلت: وهذا مما كانت عائشة رضي الله عنها تتأوّله من الأحاديث كما قد جمع ما كانت تتأوله من الأحاديث في جزء وتعتقد أنه معارض لبعض الآيات، وهذا المقام مما كانت تعارض فيه قوله ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢] وليس هو بمعارض له والصواب قول الجمهور من الصحابة ومن بعدهم للأحاديث الدالة نصاً على خلاف ما ذهبت إليه رضي الله عنها وأرضاها.

وقال البخاري [٣٩٧٨]: حدثنا عبيد بن إسماعيل حدثنا أبو أسامة عن هشام بن عروة عن أبيه قال: ذكر عند عائشة أن ابن عمر رفع إلى النبي ﷺ «أن الميت يعذب في قبره ببكاء أهله» فقالت: وَهِلَ رحمه الله، إنما قال رسول الله ﷺ: «إنه ليعذب بخطيئته وذنبه، وإن أهله ليبكون عليه الآن».

قالت [خ (٣٩٧٩)]: وذاك مثل قوله: إن رسول الله ﷺ قام على القليب وفيه قتلى بدر من المشركين فقال لهم ما قال، قال: «إنهم ليسمعون ما أقول» وإنما قال: «إنهم الآن ليعلمون إنما كنت أقول لهم حق»، ثم قرأت ﴿إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾[النمل: ٨٠] ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢] تقول: حين تبوؤوا مقاعدهم من النار. وقد رواه مسلم [٩٣٢] عن أبي كريب عن أبي أسامة به.

وقد جاء التصريح بسماع الميت بعد دفنه في غير ما حديث كما سنقرر ذلك في كتاب الجنائز من الأحكام الكبير إن شاء الله.

ثم قال البخاري [٣٩٨٠، ٣٩٨١]: حدثني عثمان حدثنا عبدة عن هشام عن أبيه عن ابن عمر قال: وقف النبي ﷺ على قليب بدر فقال: «هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً» ثم قال: «إنهم الآن يسمعون ما أقول لهم» وذكر لعائشة فقالت: إنما قال النبي ﷺ إنهم الآن ليعلمون أن الذي كنت أقول لهم هو الحق، ثم قرأت ﴿إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ حتى قرأت الآية.

وقد رواه مسلم [٩٣٢] عن أبي كريب عن أبي أسامة. وعن أبي بكر بن أبي شيبة عن وكيع كلاهما عن هشام بن عروة.

وقال البخاري [٣٩٧٦]: حدثنا عبد الله بن محمد سمع روح بن عبادة حدثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة قال: ذكر لنا أنس بن مالك عن أبي طلحة أن رسول الله ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلا من صناديد قريش فقذفوا في طويٍّ من أطواء بدر خبيث مخبث، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال، فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشد عليها رحلها، ثم مشى واتبعه أصحابه وقالوا: ما نرى ينطلق إلا لبعض حاجته حتى قام على شفة الركي فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم «يا فلان ابن فلان ويا فلان بن فلان أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟» فقال عمر: يا رسول الله ما تكلّم من أجساد لا أرواح لها؟ فقال النبي ﷺ: «والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم».

قال قتادة: أحياهم الله حتى أسمعهم قوله توبيخاً وتصغيراً ونقمة وحسرة وندماً.

وقد أخرجه بقية الجماعة [م (٢٨٧٥)، د (٢٦٩٥)، ت (١٥٥١)، س (كبرى ٨٦٥٧)] إلا ابن ماجه من طرق عن سعيد بن أبي عروبة.

ورواه الإمام أحمد [١٤٥/٣] عن يونس بن محمد المؤدب عن شيبان بن عبد الرحمن عن قتادة قال: حدث أنس بن مالك فذكر مثله.

فلم يذكر أبا طلحة وهذا إسناد صحيح، ولكن الأول أصح وأظهر والله أعلم.

وقال الإمام أحمد [٢٨٧/٣]: حدثنا عفان حدثنا حماد عن ثابت عن أنس أن رسول الله ﷺ ترك قتلى بدر ثلاثة أيام حتى جيّفوا، ثم أتاهم فقام عليهم فقال: «يا أمية بن خلف، يا أبا جهل بن هشام، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً» قال: فسمع عمر صوته فقال: يا رسول الله أتناديهم بعد ثلاث وهل يسمعون؟ يقول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ فقال: «والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم. ولكن لا يستطيعون أن يجيبوا».

ورواه مسلم [٢٨٧٤] عن هدبة بن خالد عن حماد بن سلمة به.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٣٩/١، ٦٤٠] وقال حسان بن ثابت:

عرفت ديار زينب بالكثيب ... كخط الوحي في الورق القشيب
تداولها الرِّياح وكل جون ... من الوسمي منهمر سكوب
فأمسى رسمها خلقاً وأمست ... يباباً بعد ساكنها الحبيب
فدع عنك التذكر كل يوم ... ورد حرارة القلب الكئيب
وخبر بالذي لا عيب فيه ... بصدق غير إخبار الكذوب
بما صنع المليك غداة بدر ... لنا في المشركين من النصيب
غداة كأن جمعهم حِرَاء ... بدت أركانه جنح الغروب
فلاقيناهم منا بجمع ... كأسد الغاب مردان وشيب
أمام محمد قد وازروه ... على الأعداء في لفح الحروب
بأيديهم صوارم مرهفات ... وكل مجرب خاظي الكعوب
بنو الأوس الغطارف وازرتها ... بنو النجار في الدين الصليب
فغادرنا أبا جهل صريعاً ... وعتبة قد تركنا بالجبوب
وشيبة قد تركنا في رجال ... ذوي حسب إذا نسبوا حسيب
يناديهم رسول الله لما ... قذفناهم كباكب في القليب
ألم تجدوا كلامي كان حقاً ... وأمر الله يأخذ بالقلوب؟
فما نطقوا ولو نطقوا لقالوا ... صدقت وكنت ذا رأي مصيبا!

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٤٠/١، ٦٤١]: ولما أمر رسول الله ﷺ أن يلقوا في القليب أخذ عتبة بن ربيعة فسحب في القليب فنظر رسول الله ﷺ - فيما بلغني - في وجه أبي حذيفة بن عتبة فإذا هو كئيب قد تغير لونه فقال: «يا حذيفة لعلك قد دخلك من شأن أبيك شيء» - أو كما قال رسول الله ﷺ - فقال: لا والله يا رسول الله ما شككت في أبي ولا في مصرعه، ولكني كنت أعرف من أبي رأياً وحلماً وفضلا فكنت أرجو أن يهديه ذلك للإسلام، فلما رأيت ما أصابه وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذي كنت أرجو له أحزنني ذلك فدعا له رسول الله ﷺ بخير وقال له خيراً.

وقال البخاري [٣٩٧٧]: حدثنا الحميدي حدثنا سفيان حدثنا عمرو عن عطاء عن ابن عباس ﴿الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ قال: هم والله كفار قريش. قال عمرو: هم قريش، ومحمد ﷺ نعمة الله ﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ قال: النار يوم بدر.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٦٤/١] وقال حسان بن ثابت:

قومي الذين هُم آوَوا نبيَّهم ... وصدَّقوه وأهلُ الأرض كفار
إلا خصائص أقوامٍ هم سلفٌ ... للصالحين من الأنصار أنصار
مستبشرين بقسم الله قولُهم ... لما أتاهم كريمُ الأصل مختار
أهلاً وسهلاً ففي أمنٍ وفي سعةٍ ... نِعم النبي ونعم القسمُ والجار
فآثروه بدارٍ لا يخافُ بها ... من كان جارَهمُ داراً هي الدار
وقاسموه بها الأموالَ إذ قَدِموا ... مهاجرين وقسمُ الجاحدِ النار
سِرنا وساروا إلى بدر لحينهم ... لو يعلمونَ يقين العلم ما ساروا
دلاهمُ بغرورٍ ثم أسلمهم ... إن الخبيثَ لِمَنْ والاهُ غرّار
وقال إنيَ لكم جار فأوردهم ... شرَّ الموارد فيه الخزيُ والعار
ثم التقينا فولّوا عن سَراتهمُ ... من مُنجدين ومنهم فرقةٌ غاروا

وقال الإمام أحمد [رواية يحيى برقم: ٢٢٨/١، ٢٢٩، ورواية عبد الرزاق: ٣١٤/١]: حدثنا يحيى بن أبي بُكير وعبد الرزاق. قالا: حدثنا إسرائيل عن سماك بن حرب، عن عكرمة عن ابن عباس. قال: لما فرغ رسول الله ﷺ من القتلى قيل له: عليك العير ليس دونها شيء، فناداه العباس وهو في الوثاق: إنه لا يصلح لك. قال: «لم؟» قال: لأن الله وعدك إحدى الطائفتين، وقد أنجز لك ما وعدك.

وقد كانت جملة من قتل من سراة الكفار يوم بدر سبعين، هذا مع حضور ألف من الملائكة وكان قدر الله السابق فيمن بقي منهم أن سيسلم منهم بشر كثير. ولو شاء الله لسلط عليهم ملكا واحداً فأهلكهم عن آخرهم، ولكن قتلوا من لا خير فيه بالكلية، وقد كان في الملائكة جبريل الذي أمره الله تعالى فاقتلع مدائن قوم لوط وكنَّ سبعاً فيهن من الأمم والدواب والأراضي والمزروعات، وما لا يعلمه إلا الله، فرفعهن حتى بلغ بهن عنان السماء على طرف جناحه ثم قلبهن منكسات وأتبعهن بالحجارة التي سومت لهم كما ذكرنا ذلك في قصة قوم لوط فيما تقدم.

وقد شرع الله جهاد المؤمنين للكافرين وبين تعالى حكمه في ذلك فقال ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ الآية [محمد: ٤].

وقال تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ. وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ [التوبة: ١٤ - ١٥] الآية.

فكان قتل أبي جهل على يدي شاب من الأنصار، ثم بعد ذلك يوقف عليه عبد الله بن مسعود ويمسك بلحيته ويصعد على صدره حتى قال له: لقد ارتقيت مرتقى صعبا يا رويعي الغنم، ثم بعد هذا حز رأسه واحتمله حتى وضعه بين يدي رسول الله فشفى الله به قلوب المؤمنين، كان هذا أبلغ من أن تأتيه صاعقة أو أن يسقط عليه سقف منزله أو يموت حتف أنفه والله أعلم.

وقد ذكر ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٤١/١] فيمن قتل يوم بدر مع المشركين ممن كان مسلماً ولكنه خرج معهم تقية منهم لأنه كان فيهم مضطهدا قد فتنوه عن إسلامه جماعة منهم؛ الحارث بن زمعة بن الأسود وأبو قيس بن الفاكه وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة وعلي بن أمية بن خلف، والعاص بن منبه بن الحجاج.

قال: وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧] وكان جملة الأسارى يومئذ سبعين أسيراً كما سيأتي الكلام عليهم فيما بعد إن شاء الله منهم من آل رسول الله ﷺ: عمّه العباس بن عبد المطلب، وابن عمّه عقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب. وقد استدل الشافعي والبخاري [كتاب العتق. باب إذا أسر أخو الرجل أو عمه هل يفادى إذا كان شركاً] وغيرهما بذلك على أنه ليس كل من ملك ذا رحم محرم يعتق عليه وعارضوا به حديث الحسن عن ابن سمرة في ذلك [أحمد: ١٥/٥، ١٨، ٢٠، د (٣٩٤٩)، ت (١٣٦٥)، س (كبرى ٤٨٩٨ - ٤٩٠٢)] فالله أعلم. وكان فيهم أبو العاص بن الربيع بن عبد شمس بن أمية زوج زينب بنت النبي ﷺ.

سنة ٢- الحكم في الأسارى

وقد اختلف الصحابة في الأسارى أيقتلون أو يفادون على قولين، كما قال الإمام أحمد [٣/٢٤٣]: حدثنا علي بن عاصم عن حميد عن أنس - وذكر رجلاً - عن الحسن. قال: استشار رسول الله ﷺ الناس في الأسارى يوم بدر فقال: «إنَّ الله قد أمكنكم منهم» قال: فقام عمر فقال: يا رسول الله اضرب أعناقهم، قال: فأعرض عنه النبي ﷺ، ثم عاد رسول الله ﷺ فقال: «يا أيها الناس، إنَّ الله قد أمكنكم منهم، وإنما هم إخوانكم بالأمس». قال: فقام عمر فقال: يا رسول الله، اضرب أعناقهم. فأعرض عنه النبي، ثم عاد، النبي ﷺ فقال للناس مثل ذلك، فقام أبو بكر الصديق فقال: يا رسول نرى أن تعفو عنهم وأن تقبل منهم الفداء. قال: فذهب عن وجه رسول الله ﷺ ما كان فيه من الغم فعفا عنهم وقبل منهم الفداء. قال: وأنزل الله تعالى ﴿لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ إلى آخر الآية [الأنفال: ٦٨]، انفرد به أحمد.

وقد روى الإمام أحمد [١/٣٠] - واللفظ له - ومسلم [١٧٦٣] وأبو داود [٢٦٦٠] والترمذي [٣٠٨١] وصحّحه وكذا علي بن المديني وصححه من حديث عكرمة بن عمار: حدثنا سماك الحنفي أبو زميل حدثني ابن عباس حدثني عمر بن الخطاب قال: نظر رسول الله ﷺ إلى أصحابه يوم بدر وهم ثلاثمائة وتيف ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة؛ فذكر الحديث كما تقدم إلى قوله فقتل منهم سبعون رجلاً، وأسر منهم سبعون رجلا، واستشار رسول الله ﷺ أبا بكر وعليا وعمر، فقال أبو بكر: يا رسول الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية فيكون ما أخذناه قوة لنا على الكفار وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً. فقال رسول الله ﷺ: «ما ترى يا ابن الخطاب؟» قال: قلت: والله ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكن أرى أن تمكّنني من فلان قريب لعمر فأضرب عنقه، وتمكّن عليّاً من عقيل فيضرب عنقه، وتمكّن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه حتى يعلم الله أنه ليست في قلوبنا هوادة للمشركين، وهؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم. فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت وأخذ منهم الفداء.

فلما كان من الغد قال عمر: فغدوت إلى النبي ﷺ فإذا هو قاعدٌ وأبو بكر وإذا هما يبكيان فقلت: يا رسول الله أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما؟ فقال رسول الله ﷺ «للذي عرض عليّ أصحابك من أخذهم الفداء قد عرض عليَّ عذابكم أدنى من هذه الشجرة» - لشجرة قريبة - وأنزل الله تعالى: «ما كان لنبيٍّ أن تكون له أسرى حتّى يثخن في الأرض تريدون عرض الدُّنيا والله يريد الآخرة والله عزيزٌ حكيمٌ لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم» [الأنفال: ٦٧ - ٦٨] من الفداء، ثم أحل لهم الغنائم. وذكر تمام الحديث.

وقال الإمام أحمد [١/٣٨٣، ٣٨٤]: حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبي عبيدة عن عبد الله قال: لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ: «ما تقولون في هؤلاء الأسرى؟» قال: فقال أبو بكر: يا رسول الله قومك وأهلك استبقهم واستأن بهم لعل الله أن يتوب عليهم.

قال: وقال عمر: يا رسول الله أخرجوك وكذبوك قرّبهم فاضرب أعناقهم. قال: وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله انظر وادياً كثير الحطب فأدخلهم فيه ثم أضرمه عليهم ناراً.

قال: فقال العباس: قطعت رحمك قال: فدخل رسول الله ﷺ ولم يرد عليهم شيئا. فقال ناس: يأخذ بقول أبي بكر، وقال ناس: يأخذ بقول عمر، وقال ناس: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة. فخرج عليهم فقال: «إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليشدُّ قلوب رجال فيه حتى تكون أشدّ من الحجارة، وإنَّ مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦] ومثلك يا أبا بكر كمثل عيسى قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] وإن مثلك يا عمر كمثل نوح قال ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾ [نوح: ٢٦] وإن مثلك يا عمر كمثل موسى قال ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨] أنتم عالة فلا ينفلتنّ منهم أحد إلا بفداء أو ضربة عنق» قال عبد الله: فقلت: يا رسول الله إلا سهيل بن بيضاء فإني قد سمعته يذكر الإسلام قال: فسكت، قال: فما رأيتني في يوم أخوف أن تقع على حجارة من السماء من ذلك اليوم حتى قال: «إلا سهيل بن بيضاء» قال: فأنزل الله «ما كان لنبيٍّ أن تكون له أسرى حتّى يثخن في الأرض تريدون عرض الدُّنيا والله يريد الآخرة والله عزيزٌ حكيمٌ لولا كتاب من الله سبق لمسكم» إلى آخر الآيتين.

وهكذا رواه الترمذي [١٧١٤] والحاكم [المستدرك: ٣/٢١، ٢٢] من حديث أبي معاوية. وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

ورواه ابن مردويه من طريق عبد الله بن عمر وأبي هريرة بنحو ذلك.

وقد روي عن أبي أيوب الأنصاري بنحوه.

وقد روى ابن مردويه والحاكم في المستدرك [٢/٣٢٩] من حديث عبيد الله بن موسى حدثنا إسرائيل عن إبراهيم بن مهاجر عن مجاهد عن ابن عمر قال: لما أسر الأسارى يوم بدر أسر العباس فيمن أسر أسره رجل من الأنصار قال: وقد أوعدته الأنصار أن يقتلوه. فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «إني لم أنم الليلة من أجل عمي العباس، وقد زعمت الأنصار أنهم قاتلوه» قال عمر: أفآتيهم؟ قال: «نعم» فأتى عمر الأنصار فقال لهم: أرسلوا العباس، فقالوا: لا والله لا نرسله، فقال لهم عمر: فإن كان لرسول الله رضى؟ قالوا: فإن كان له رضى فخذه، فأخذه عمر فلما صار في يده قال له عمر: يا عباس أسلم فوالله لئن تسلم أحب إلي من أن يسلم الخطاب وما ذاك إلا لما رأيت رسول الله يعجبه إسلامك.

قال: واستشار رسول الله ﷺ أبا بكر فقال أبو بكر: عشيرتك فأرسلهم. واستشار عمر فقال: اقتلهم، ففاداهم رسول الله ﷺ فأنزل الله: «ما كان لنبيٍّ أن تكون له أسرى حتّى يثخن في الأرض» الآية.

ثم قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وروى الترمذي [١٥٦٧] والنسائي [كبرى (٨٦٦٢)] وابن حبان [الإحسان (٤٧٩٥)] من حديث سفيان الثوري عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن عبيدة عن علي قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: خير أصحابك في الأسارى إن شاؤوا الفداء وإن شاؤوا القتل على أن يقتل عاما قابلاً منهم مثلهم، قالوا: الفداء أو يقتل منا.

وهذا حديث غريب جداً، ومنهم من رواه مرسلاً عن عبيدة والله أعلم.

وقد قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٦٧٥، ٦٧٦] عن ابن أبي نجيح عن عطاء عن ابن عباس في قوله ﴿لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يقول: لولا أني لا أعذب من عصاني حتى

أتقدم إليه لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم.

وهكذا روي عن ابن أبي نجيح عن مجاهد [تفسير الطبري: ١٠/٤٧] أيضاً واختاره ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/٦٧٦] وغيره.

وقال الأعمش: سبق منه أن لا يعذب أحداً شهد بدراً.

وهكذا روي عن سعد ابن أبي وقاص وسعيد بن جبير وعطاء بن أبي رباح.

وقال مجاهد والثوري: ﴿لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ أي لهم بالمغفرة.

وقال الوالبي عن ابن عباس: سبق في أم الكتاب الأول أن المغانم وفداء الأسارى حلال لكم، ولهذا قال بعده ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾.

وهكذا روي عن أبي هريرة وابن مسعود وسعيد بن جبير وعطاء والحسن وقتادة والأعمش، واختاره ابن جرير [تفسيره: ١٠/٤٤].

وقد ترجح هذا القول بما ثبت في الصحيحين [خ (٣٣٥)، م (٥٢١)] عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي؛ نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه وبعثت إلى الناس عامة».

وروى الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «لم تحل الغنائم لسود الرؤوس غيرنا» [ت (٣٠٨٥)].

ولهذا قال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ فأذن الله تعالى في أكل الغنائم وفداء الأسارى.

وقد قال أبو داود: [٢٦٩١] حدثنا عبد الرحمن بن المبارك العيشي حدثنا سفيان بن حبيب حدثنا شعبة عن أبي العنبس عن أبي الشعثاء عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ جعل فداء أهل الجاهلية يوم بدر أربعمائة.

وهذا كان أقل ما فودي به أحد منهم من المال، وأكثر ما فودي به الرجل منهم أربعة آلاف درهم. وقد وعد الله من آمن منهم بالخلف عما أخذ منه في الدنيا والآخرة فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ الآية [الأنفال: ٧٠].

وقال الوالبي عن ابن عباس: نزلت في العباس ففادى نفسه بالأربعين أوقية من ذهب قال العباس: فأتاني الله أربعين عبداً - يعني كلهم يتجر له - قال وأنا أرجو المغفرة التي وعدنا الله جل ثناؤه. [تفسير الطبري: ١٠/٤٩]

وقال ابن إسحاق [تاريخ الطبري: ٢/٤٦٣]: حدثني العباس بن عبد الله بن معبد عن بعض أهله عن ابن عباس قال: لما أمسى رسول الله ﷺ يوم بدر والأسارى محبوسون بالوثاق، بات النبي ﷺ ساهراً أول الليل، فقال له أصحابه: مالك لا تنام يا رسول الله؟ فقال: «سمعت أنين عمي العباس في وثاقه» فأطلقوه فسكت فنام رسول الله ﷺ.

قال ابن إسحاق: وكان رجلاً موسراً ففادى نفسه بمائة أوقية من ذهب [دلائل النبوة للبيهقي: ٣/١٤١].

قلت: وهذه المائة كانت عن نفسه وعن ابني أخويه عقيل ونوفل، وعن حليفه عتبة بن عمرو أحد بني الحارث بن فهر كما أمره بذلك رسول الله ﷺ حين ادعى أنه كان قد أسلم فقال له رسول الله ﷺ: «أما ظاهرك فكان علينا والله أعلم بإسلامك وسيجزيك» فادعى أنه لا مال عنده قال: «فأين المال الذي دفنته أنت وأم الفضل وقلت لها: إن أصبت في سفري فهذا لبنيّ الفضل وعبد الله وقثم؟» فقال: والله إني لأعلم أنك رسول الله إن هذا شيء ما علمه إلا أنا وأم الفضل.

رواه ابن إسحاق عن ابن أبي نجيح عن عطاء عن ابن عباس [الدلائل للبيهقي: ٣/١٤٣].

وثبت في صحيح البخاري [٢٥٣٧] من طريق موسى بن عقبة قال الزهري: حدثني أنس بن مالك قال: إن رجالا من الأنصار استأذنوا رسول الله ﷺ قالوا: ائذن لنا فلنترك لابن اختنا العباس فداءه. فقال: «لا والله لا تذرون منه درهما».

قال البخاري [٤٢١ معلقاً]: وقال إبراهيم بن طهمان عن عبد العزيز بن صهيب عن أنس: أن النبي ﷺ أتي بمال من البحرين فقال: «انثروه في المسجد» فكان أكثر مال أتي به رسول الله ﷺ، إذ جاءه العباس فقال: يا رسول الله أعطني إني فاديت نفسي وفاديت عقيلاً فقال: «خذ» فحثا في ثوبه ثم ذهب يقله فلم يستطع فقال: مر بعضهم يرفعه إلي. قال: «لا» قال: فارفعه أنت علي، قال: «لا» فنثر منه ثم ذهب يقله فلم يستطع فقال: مر بعضهم يرفعه إلي قال: «لا» قال: فارفعه أنت علي قال: «لا» فنثر منه ثم احتمله على كاهله ثم انطلق. فما زال يتبعه بصره حتى خفي علينا عجباً من حرصه، فما قام رسول الله ﷺ وثم منها درهم.

وقال البيهقي [الدلائل: ٣/١٤٠]: أخبرنا الحاكم أخبرنا الأصم عن أحمد بن عبد الجبار عن يونس عن أسباط بن نصر عن إسماعيل بن عبد الرحمن السدي. قال: كان فداء العباس وابني أخويه عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب كل رجل أربعمائة دينار، ثم توعد تعالى الآخرين فقال: ﴿وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧١].

سنة ٢- أسارى وقتلى المشركين يوم بدر

والمشهور أن الأسارى يوم بدر كانوا سبعين، والقتلى من المشركين سبعين كما ورد في غير ما حديث مما تقدم وسيأتي إن شاء الله، وكما في حديث البراء بن عازب في صحيح البخاري [٣٩٨٦]: أنهم قتلوا يوم بدر سبعين، وأسروا سبعين.

وقال موسى بن عقبة: قتل يوم بدر من المسلمين من قريش ستة ومن الأنصار ثمانية، وقتل من المشركين تسعة وأربعون، وأسر منهم تسعة وثلاثون.

هكذا رواه البيهقي [الدلائل: ٣/١٤٢] عنه. قال [الدلائل: ٣/١٢٣]: وهكذا ذكر ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة في عدد من استشهد من المسلمين وقتل من المشركين.

ثم قال [الدلائل: ٣/١٢٣]: أخبرنا الحاكم أخبرنا الأصم أخبرنا أحمد بن عبد الجبار عن يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق. قال: واستشهد من المسلمين يوم بدر أحد عشر رجلاً، أربعة من قريش وسبعة من الأنصار وقتل من المشركين بضعة وأربعون رجلاً.

وقال في موضع آخر: وكان مع رسول الله ﷺ أربعة وأربعون أسيراً، وكانت القتلى مثل ذلك.

ثم روى البيهقي [الدلائل: ٣/١٢٣، ١٢٤] من طريق أبي صالح كاتب الليث عن الليث عن عقيل عن الزهري قال: وكان أول قتيل من المسلمين مهجع مولى عمر، ورجل من الأنصار وقتل يومئذ من المشركين زيادة على سبعين، وأسر منهم مثل ذلك.

قال: ورواه ابن وهب عن يونس بن يزيد عن الزهري عن عروة بن

الزبير.

قال: قال البيهقي - وهو الأصح - فيما رويناه في عدد من قتل من المشركين وأسر منهم.

ثم استدل على ذلك بما ساقه هو والبخاري [٣٩٨٦] أيضا من طريق أبي إسحاق عن البراء بن عازب قال: أمّر رسول الله ﷺ على الرماة يوم أحد عبد الله بن جبير، فأصابوا منا سبعين وكان النبي ﷺ وأصحابه قد أصابوا من المشركين يوم بدر أربعين ومائة سبعين أسيرا، وسبعين قتيلا.

قلت: والصحيح أن جملة المشركين كانوا ما بين التسعمائة إلى الألف وقد صرح قتادة بأنهم كانوا تسعمائة وخمسين رجلاً، وكأنه أخذه من هذا الذي ذكرناه والله أعلم.

وفي حديث عمر المتقدم [مسند احمد: ١/ ٣٠] أنهم كانوا زيادة على الألف، والصحيح الأول لقوله عليه السلام: «القوم ما بين التسعمائة إلى الألف».

وأما الصحابة يومئذ فكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً كما سيأتي التنصيص على ذلك وعلى أسمائهم إن شاء الله، وتقدم في حديث الحكم عن مقسم عن ابن عباس: أن وقعة بدر كانت يوم الجمعة السابع عشر من شهر رمضان، وقاله أيضاً عروة بن الزبير وقتادة وإسماعيل السدي الكبير وأبو جعفر الباقر [الدلائل للبيهقي: ٣/ ١٢٦، ١٢٧].

وروى البيهقي [الدلائل: ٣/ ١٢٧، ١٢٨] من طريق قتيبة عن جرير عن الأعمش عن إبراهيم عن الأسود عن عبد الله بن مسعود في ليلة القدر قال: «تحروها لإحدى عشرة بقين فإن صبيحتها يوم بدر».

قال البيهقي [الدلائل: ٣/ ١٢٨]: وروي عن زيد بن أرقم: أنه سئل عن ليلة القدر فقال ليلة تسع عشرة ما شك، وقال يوم الفرقان يوم التقى الجمعان.

قال البيهقي [الدلائل: ٣/ ١٢٨]: والمشهور عن أهل المغازي أن ذلك لسبع عشرة ليلة مضت من شهر رمضان.

ثم قال البيهقي [الدلائل: ٣/ ١٢٨، ١٢٩]: أخبرنا أبو الحسين بن بشران حدثنا أبو عمرو بن السماك حدثنا حنبل بن إسحاق حدثنا أبو نعيم حدثنا عمرو بن عثمان سمعت موسى بن طلحة يقول: سئل أبو أيوب الأنصاري عن يوم بدر فقال: إما لسبع عشرة خلت، أو ثلاث عشرة خلت أو لإحدى عشرة بقيت. وإما لسبع عشرة بقيت.

وهذا غريب جداً.

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة قباث بن أشيم الليثي من طريق الواقدي وغيره بإسنادهم إليه أنه شهد يوم بدر مع المشركين فذكر هزيمتهم مع قلة أصحاب رسول الله ﷺ قال: وجعلت أقول في نفسي: ما رأيت مثل هذا الأمر فر منه إلا النساء والله لو خرجت نساء قريش بأكمتها ردت محمداً وأصحابه. فلما كان بعد الخندق قلت: لو قدمت المدينة فنظرت إلى ما يقول محمد وقد وقع في نفسي الإسلام، قال: فقدمتها فسألت عنه فقالوا: هو ذاك في ظل المسجد في ملأ من أصحابه، فأتيته وأنا لا أعرفه من بين أصحابه فسلمت فقال: «يا قباث بن أشيم أنت القائل يوم بدر ما رأيت مثل هذا الأمر فر منه إلا النساء؟»، فقلت: أشهد أنك رسول الله فإن هذا الأمر ما خرج مني إلى أحد قط ولا ترمرت به إلا شيئا حدثت به نفسي، فلولا أنك نبي ما أطلعك الله عليه، هلم أبايعك على الإسلام فأسلمت.

سنة ٢- الحكم في المغانم يوم بدر

وقد اختلفت الصحابة رضي الله عنهم يوم بدر في المغانم من المشركين يومئذ لمن تكون منهم وكانوا ثلاثة أصناف حين ولى المشركون:

ففرقة أحدقت برسول الله ﷺ تحرسه خوفاً من أن يرجع أحد من المشركين إليه.

وفرقة ساقت وراء المشركين يقتلون منهم ويأسرون.

وفرقة جمعت المغانم من متفرقات الأماكن.

فادعى كل فريق من هؤلاء أنه أحق بالمغنم من الآخرين لما صنع من الأمر المهم.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ١/ ٦٤٢]: وحدثني عبد الرحمن بن الحارث وغيره عن سليمان بن موسى عن مكحول عن أبي أمامة الباهلي قال: سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال فقال: فينا أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا، فنزعه الله من أيدينا فجعله إلى رسول الله ﷺ فقسمه بين المسلمين عن براء، يقول: عن سواء.

وهكذا رواه أحمد [٥/ ٣٢٢، ٣٢٣] عن محمد بن سلمة عن محمد بن إسحاق به.

ومعنى قوله: على السواء أي ساوى فيها بين الذين جمعوها وبين الذين اتبعوا العدو وبين الذين ثبتوا تحت الرايات لم يخصص بها فريقا منهم ممن ادعى التخصيص بها، ولا ينفي هذا تخميسها وصرف الخمس في مواضعه كما قد يتوهمه بعض العلماء منهم أبو عبيد وغيره والله أعلم. بل قد تنفل رسول الله ﷺ سيفه ذو الفقار من مغانم بدر.

قال ابن جرير [تاريخه: ٢/ ٤٧٩]: وكذا اصطفى جملا لأبي جهل كان في أنفه برة من فضة، وهذا قبل إخراج الخمس أيضا.

وقال الإمام أحمد [٥/ ٣٢٣، ٣٢٤]: حدثنا معاوية بن عمرو حدثنا ابن إسحاق عن عبد الرحمن بن الحارث بن عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة عن سليمان بن موسى عن أبي سلام عن أبي أمامة عن عبادة بن الصامت قال: خرجنا مع النبي ﷺ فشهدت معه بدراً، فالتقى الناس فهزم الله العدو، فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون، وأكبت طائفة على العسكر يحوونه ويجمعونه، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غرة، حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها وليس لأحد فيها نصيب، وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحق بها منا نحن نفينا منها العدو وهزمناهم، وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ: خفنا أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به، فنزلت: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١] فقسمها رسول الله على فواق المسلمين وكان رسول الله ﷺ إذا أغار في أرض العدو نفل الربع فإذا أقبل راجعا نفل الثلث وكان يكره الأنفال.

وقد روى الترمذي [١٥٦١] وابن ماجه [٢٨٥٢] من حديث الثوري عن عبد الرحمن بن الحارث.... آخره.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن.

ورواه ابن حبان في صحيحه [الإحسان (٤٨٥٥)] والحاكم في مستدركه [٢/ ١٣٥، ١٣٦] من حديث عبد الرحمن، وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجه.

وقد روى أبو داود [٢٧٣٧] والنسائي [كبرى (١١١٩٧)] وابن حبان

والحاكم [المستدرك: ٢/٣٢٦، ٣٢٧] من طرق عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ: «من صنع كذا وكذا فله كذا وكذا»، فتسارع في ذلك شبان الرجال وبقي الشيوخ تحت الرايات، فلما كانت الغنائم جاؤوا يطلبون الذي جعل لهم قال الشيوخ: لا تستأثروا علينا فإنا كنا ردءاً لكم ولو انكشفتم لفئتم إلينا، فتنازعوا فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١].

وقد ذكرنا في سبب نزول هذه الآية آثاراً أخر يطول بسطها ههنا ومعنى الكلام أن الأنفال مرجعها إلى حكم الله ورسوله يحكما فيها بما فيه المصلحة للعباد في المعاش والمعاد ولهذا قال تعالى: ﴿قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١] ثم ذكر ما وقع في قصة بدر وما كان من الأمر حتى انتهى إلى قوله: ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١] الآية.

فالظاهر أن هذه الآية مبينة لحكم الله في الأنفال الذي جعل مرده إليه وإلى رسوله ﷺ، فبينه تعالى وحكم فيه بما أراد تعالى، وهو قول ابن زيد [تفسير الطبري: ٩/١٧٨].

وقد زعم أبو عبيد القاسم بن سلام رحمه الله [الأموال: ص٣٨٤] أن رسول الله ﷺ قسم غنائم بدر على السواء بين الناس، ولم يخمّسها. ثم نزل بيان الخمس بعد ذلك ناسخا لما تقدم، وهكذا روى الوالبي عن ابن عباس [تفسير الطبري: ٩/١٧٥، ١٧٦].

وبه قال مجاهد وعكرمة والسدي [تفسير الطبري: ٩/١٧٥، ١٧٦] وفي هذا نظر والله أعلم.

فإن في سياق الآيات قبل آية الخمس وبعدها كلها في غزوة بدر فيقتضي أن ذلك نزل جملة في وقت واحد غير متفاصل بتأخر يقتضي نسخ بعضه بعضا، ثم في الصحيحين [خ (٢٣٧٥)، م (١٩٧٩)] عن علي رضي الله عنه أنه قال في قصة شارفيه اللذين اجتبّ أسنمتهما حمزة: إن إحداهما كانت من الخمس يوم بدر ما يرد صريحاً على أبي عبيد أن غنائم بدر لم تخمس والله أعلم. بل خمست كما هو قول البخاري [٣٠٩١] وابن جرير [تفسيره: ١٠/١] وغيرهما وهو الصحيح الراجح والله أعلم.

سنة ٢- رجوعُه من بدر إلى المدينة

وقد تقدم أن الوقعة كانت يوم الجمعة السابع عشر من رمضان سنة اثنتين من الهجرة، وثبت في الصحيحين [خ (٣٠٦٥)، م (٢٨٧٥)] أنه كان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاثة أيام، وقد أقام عليه السلام بعرصة بدر ثلاثة أيام كما تقدم وكان رحيله منها ليلة الاثنين، فركب ناقته ووقف على قليب بدر فقرع أولئك الذين سحبوا إليه كما تقدم ذكره، ثم سار عليه السلام ومعه الأسارى والغنائم الكثيرة وقد بعث عليه السلام بين يديه بشيرين إلى المدينة بالفتح والنصر والظفر على من أشرك بالله وجحده وبه كفر؛ أحدهما عبد الله بن رواحة إلى أعالي المدينة، والثاني زيد بن حارثة إلى السافلة.

قال أسامة بن زيد: فأتانا الخبر حين سوينا التراب على رقية بنت رسول الله ﷺ وكان زوجها عثمان بن عفان رضي الله عنه قد احتبس عندها بمرضها بأمر رسول الله ﷺ، وقد ضرب له رسول الله بسهمه وأجره في بدر.

قال أسامة: فلما قدم أبي زيد بن حارثة جثته وهو واقف بالمصلى وقد غشيه الناس وهو يقول: قتل عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو جهل بن هشام، وزمعة بن الأسود، وأبو البختري العاص بن هشام، وأمية بن خلف، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج. قال: قلت: يا أبة أحق هذا؟ قال: أي والله يا بني.

وروى البيهقي [الدلائل: ٣/١٣٠] من طريق حماد بن سلمة عن هشام بن عروة عن أبيه عن أسامة بن زيد أن النبي ﷺ خلّف عثمان وأسامة بن زيد على بنت رسول الله ﷺ، فجاء زيد بن حارثة على العضباء ناقة رسول الله ﷺ بالبشارة، قال أسامة: فسمعت الهيعة فخرجت فإذا زيد قد جاء بالبشارة فوالله ما صدقت حتى رأيت الأسارى. وضرب رسول الله ﷺ لعثمان بسهمه.

وقال الواقدي [المغازي: ١/١١٣]: صلى رسول الله ﷺ مرجعه من بدر العصر بالأثيل فلما صلى ركعة تبسم فسئل عن تبسمه فقال: «مرّ بي ميكائيل وعلى جناحه النقع فتبسم إلي وقال: إني كنت في طلب القوم»، وأتاه جبريل حين فرغ من قتال أهل بدر على فرس أنثى معقود الناصية وقد عصم ثنيّته الغبار فقال: يا محمد إن ربي يقرئك السلام ويأمرني أن لا أفارقك حتى ترضى هل رضيت؟ قال: «نعم».

قال الواقدي [المغازي: ١/١١٤]: قالوا وقدّم رسول الله ﷺ زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة من الأثيل فجاءا يوم الأحد حين اشتد الضحى، وفارق عبد الله بن رواحة زيد بن حارثة من العقيق، فجعل عبد الله بن رواحة ينادي على راحلته: يا معشر الأنصار أبشروا بسلامة رسول الله ﷺ وقتل المشركين وأسرهم، قتل ابنا ربيعة، وابنا الحجاج، وأبو جهل، وقتل زمعة بن الأسود، وأمية بن خلف، وأسر سهيل بن عمرو قال عاصم بن عدي: فقمت إليه فنحوته فقلت: أحقاً يا ابن رواحة؟ فقال: إي والله وغداً يقدم رسول الله ﷺ بالأسرى مقرنين. ثم تتبع دور الأنصار بالعالية يبشرهم داراً داراً والصبيان يشتدّون معه يقولون: قتل أبو جهل الفاسق، حتى إذا انتهى إلى دار بني أمية وقدم زيد بن حارثة على ناقة رسول الله ﷺ القصواء يبشر أهل المدينة، فلما جاء المصلى صاح على راحلته: قتل عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وابنا الحجاج، وقتل أمية بن خلف وأبو جهل وأبو البختري وزمعة بن الأسود، وأسر سهيل بن عمرو ذو الأنياب في أسرى كثير فجعل بعض الناس لا يصدّقون زيداً ويقولون: ما جاء زيد بن حارثة إلا فلا حتى غاظ المسلمين ذلك وخافوا.

وقدم زيد حين سوينا على رقية بنت رسول الله ﷺ التراب بالبقيع، وقال رجل من المنافقين لأسامة: قتل صاحبكم ومن معه؟ وقال آخر لأبي لبابة: قد تفرق أصحابكم تفرقا لا يجتمعون فيه أبداً وقد قتل علية أصحابه وقتل محمد وهذه ناقته نعرفها، وهذا زيد لا يدري ما يقول من الرعب، وجاء فلاً فقال أبو لبابة: يكذب الله قولك. وقالت اليهود: ما جاء زيد إلا فلاً.

قال أسامة: فجئت حتى خلوت بأبي فقلت: أحق ما تقول؟ فقال: إي والله حق ما أقول يا بني فقويت نفسي ورجعت إلى ذلك المنافق فقلت: أنت المرجف برسول الله وبالمسلمين، لتقدمنك إلى رسول الله إذا قدم فليضربن عنقك، فقال: إنما هو شيء سمعته من الناس يقولونه.

قال: فجيء بالأسرى وعليهم شقران مولى رسول الله ﷺ وكان قد

شهد معهم بدراً وهم تسعة وأربعون رجلاً الذين أحصوا.

قال الواقدي [المغازي: ١١٦/١، ١١٧]: وهم سبعون في الأصل مجتمع عليه لا شك فيه.

قال: ولقي رسول الله ﷺ إلى الروحاء رؤوس الناس يهنئونه بما فتح الله عليه فقال له أسيد بن الحضير: يا رسول الله الحمد لله الذي أظفرك وأقر عينك، والله يا رسول الله ما كان تخلفي عن بدر وأنا أظن أنك تلقى عدواً، ولكن ظننت أنها عير ولو ظننت أنه عدو ما تخلفت. فقال له رسول الله: «صدقت».

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٤٣/١]: ثم أقبل رسول الله ﷺ قافلا إلى المدينة ومعه الأسارى وفيهم عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث وقد جعل على النفل عبد الله بن كعب بن عمرو بن عوف بن مبذول بن عمرو بن غنم بن مازن بن النجار. فقال راجز من المسلمين قال ابن هشام يقال: إنه هو عدي بن أبي الزغباء:

أتمْ لها صدورها يا بسبس ... ليس بذي الطِّلْح لها معرّس

ولا بصحراء غمير مجبّسُ ... إن مطايا القوم لا تحبّس

فحملُها على الطريق أكيس ... قد نصرَ اللّه وفرَّ الأخنس

قال: ثم أقبل رسول الله ﷺ حتى إذا خرج من مضيق الصفراء نزل على كثيب بين المضيق وبين النازية يقال له سَيْرٌ إلى سرحة به فقسم هنالك النفل الذي أفاء الله على المسلمين من المشركين على السواء، ثم ارتحل حتى إذا كان بالروحاء لقيه المسلمون يهنئونه بما فتح الله عليه ومن معه من المسلمين فقال لهم سلمة بن سلامة بن وقش كما حدثني عاصم بن عمر ويزيد بن رومان: ما الذي تهنئوننا به؟ والله إن لقينا إلا عجائز صلعاً كالبدن المعقلة فنحرناها. فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: «أي ابن أخي أولئك الملأ».

قال ابن هشام [السيرة: ٦٤٤/١]: يعني الأشراف والرؤساء.

سنة ٢- مقتل النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط لعنهما الله

قال ابن إسحاق [السيرة: ٦٤٤/١]: حتى إذا كان رسول الله ﷺ بالصفراء قتل النضر بن الحارث قتله عليّ بن أبي طالب كما أخبرني بعض أهل العلم من أهل مكة، ثم خرج حتى إذا كان بعرق الظبية قتل عقبة بن أبي معيط.

قال ابن إسحاق [السيرة: ٦٤٤/١]: فقال عقبة حين أمر رسول الله ﷺ بقتله: فمن للصبية يا محمد؟ قال: «النار» وكان الذي قتله عاصم بن ثابت ابن أبي الأقلح، أخو بني عمرو بن عوف، كما حدثني أبو عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر.

وكذا قال موسى بن عقبة في مغازيه [الدلائل للبيهقي: ١١٧/٣ من طريق موسى بن عقبة]، وزعم أن رسول الله ﷺ لم يقتل من الأسارى أسيراً غيره.

قال: ولما أقبل إليه عاصم بن ثابت. قال: يا معشر قريش علام أُقتل من بين مَنْ ههنا؟ قال: على عداوتك الله ورسوله.

وقال حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب عن الشعبي قال: لما أمر النبي ﷺ بقتل عقبة قال: أتقتلني يا محمد من بين قريش؟ قال: «نعم! أتدرون ما صنع هذا بي؟ جاء وأنا ساجد خلف المقام فوضع رجله على عنقي وغمزها فما رفعها حتى ظننت أن عيني ستندران، وجاء مرة أخرى بسلا شاة فألقاه على رأسي وأنا ساجد فجاءت فاطمة فغسلته عن رأسي».

قال ابن هشام [السيرة: ٦٤٤/١]: ويقال بل قتل عقبة علي بن أبي طالب فيما ذكره الزهري وغيره من أهل العلم.

قلت: كان هذان الرجلان من شر عباد الله وأكثرهم كفراً وعناداً وبغيا وحسداً وهجاء للإسلام وأهله لعنهما الله وقد فعل.

قال ابن هشام [السيرة: ٤٤٢/٢]: فقالت قتيلة بنت الحارث أخت النضر بن الحارث في مقتل أخيها:

يا راكباً إن الأثيل مظنة ... من صبح خامسة وأنت موفق

أبلغ بها ميتاً بأن تحية ... ما إن تزال بها النجائب تخفق

مني إليك وعَبرة مسفوحة ... جادت بواكفها وأخرى تخنق

هل يسمعن النضر إن ناديته ... أم كيف يسمع ميت لا ينطق

أمحمد يا خير ضِنْءٍ كريمة ... من قومها والفحل فحل معرق

ما كان ضرك لو مننت وربما ... مَنَّ الفتى وهو المغيظ المحنق

أو كنت قابل فدية فلينفقن ... بأعز ما يغلو به ما ينفق

والنضر أقرب من أسرت قرابةً ... وأحقهم إن كان عتق يعتق

ظلت سيوف بني أبيه تنوشه ... للّه أرحام هنالك تُشْقَقُ

صبراً يقاد إلى المنية متعباً ... رسف المقيد وهو عان موثق

قال ابن هشام [السيرة: ٤٤٣/٢]: ويقال والله أعلم إن رسول الله ﷺ لما بلغه هذا الشعر قال: «لو بلغني هذا قبل قتله لمننت عليه».

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٤٤/١]: وقد تلقى رسول الله ﷺ بهذا الموضع أبو هند مولى فروة بن عمرو البياضي حجامه عليه السلام ومعه زق مملوء حيساً - وهو التمر والسويق بالسمن - هدية لرسول الله ﷺ فقبله منه ووصى به الأنصار.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٤٤/١]: ثم مضى رسول الله ﷺ حتى قدم المدينة قبل الأسارى بيوم.

قال ابن إسحاق [سيرة ابن هشام: ٦٤٥/١]: وحدثني نبيه بن وهب أخو بني عبد الدار: أن رسول الله ﷺ حين أقبل بالأسارى فرقهم بين أصحابه وقال: «استوصوا بهم خيراً».

قال: وكان أبو عزيز بن عمير بن هاشم أخو مصعب بن عمير لأبيه وأمه في الأسارى.

قال أبو عزيز: مر بي أخي مصعب بن عمير ورجل من الأنصار يأسرني فقال: شد يديك به فإن أمه ذات متاع لعلها تفديه منك.

قال أبو عزيز: فكنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصّوني بالخبز وأكلوا التمر لوصية رسول الله ﷺ إياهم بنا، ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحني بها فأستحي فأردها فيردها عليّ ما يمسها.

قال ابن هشام [السيرة: ٦٤٦/١]: وكان أبو عزيز هذا صاحب لواء المشركين ببدر بعد النضر بن الحارث، ولما قال أخوه مصعب لأبي اليسر - وهو الذي أسره - ما قال قال له أبو عزيز: يا أخي هذه وصاتك بي؟ فقال له مصعب: إنه أخي دونك فسألت أمه عن أغلى ما فدي به قرشي فقيل لها: أربعة آلاف درهم، فبعثت بأربعة آلاف درهم ففدته بها.

قلت: وأبو عزيز هذا اسمه زرارة فيما قاله ابن الأثير في غابة الصحابة